سراج الملوك للإمام العالم العلامة الثبت الثقة
الحجة الفهامة العارف بالله أبي بكر محمد بن
محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي
المالكي نفعنا الله به
آمين

م

(فهرسة سراج الملوك)

صحيفة	
٦	الباب الاول فى مواعظ الملوك
٢٩	الباب الثانى فى مقامات العلماء والصالحين عند الامراء والسلاطين
٣٩	الباب الثالث فيما جاء فى الولاة والقضاة وما فى ذلك من الغرر والخطر
٤٣	الباب الرابع فى بيان معرفة ملك سليمان بن داود عليهما السلام ووجه طلبه الملك وسؤاله أن لا يؤتى لاحد من بعده
٤٤	الباب الخامس فى فضل الولاة والقضاة اذا عدلوا
٤٦	الباب السادس فى ان السلطان مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح
٤٧	الباب السابع فى بيان الحكمة فى كون السلطان فى الارض
٤٨	الباب الثامن فى منافع السلطان ومضاره
٤٩	الباب التاسع فى بيان منزلة السلطان من الرعية
٥٠	الباب العاشر فى بيان معرفة خصال ورد الشرع بها فيها انظام الملك والدول
٥١	الباب الحادى عشر فى بيان معرفة الخصال التى هى قواعد السلطان ولا ثبات له دونها
٥٤	الباب الثانى عشر فى التنصيص على الخصال التى زعم الملوك أنها أزالت دولتهم وهدمت سلطانهم
٥٦	الباب الثالث عشر فى الصفات الراتبة التى زعم الحكماء أنه لا تدوم معها مملكة
٥٨	الباب الرابع عشر فى الخصال المحمودة فى السلطان
٥٩	الباب الخامس عشر فيما يعز به السلطان
٥٩	الباب السادس عشر فى ملاك أمور السلطان
٦٠	الباب السابع عشر فى خير السلطان وشر السلطان
٦١	الباب الثامن عشر فى منزلة السلطان من القرآن
٦١	الباب التاسع عشر فى خصال جامعة لامر السلطان
٦٢	الباب المرقى عشرين فى الخصال التى هى أركان السلطان
٦٣	الباب الحادى والعشرون فى بيان حاجة السلطان الى العلم
٦٤	الباب الثانى والعشرون فى وصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب
٦٥	الباب الثالث والعشرون فى العقل والدهاء والخبث
٦٩	الباب الرابع والعشرون فى الوزراء وصفاتهم والجلساء وآدابهم
٧٢	الباب الخامس والعشرون فى الجلساء وآدابهم
٧٤	الباب السادس والعشرون فى بيان معرفة الخصال التى هى جمال السلطان
٧٨	الباب السابع والعشرون فى المشاورة والنصيحة
٨٠	فصل فى النصيحة

صحيفة

٨١ الباب الثامن والعشرون فى الحلم
٨٧ الباب التاسع والعشرون فيما يسكن الغضب
٨٨ الباب الثلاثون فى الجود والسخاء
٩٥ الباب الحادى والثلاثون فى بيان الشح والبخل وما يتعلق بهما
٩٦ الباب الثانى والثلاثون فى الصبر
٩٧ فصل فى أقسام الصبر
١٠٣ الباب الثالث والثلاثون فى كتمان السر
١٠٥ الباب الرابع والثلاثون فى بيان الخصلة التى هى رهن بستر الخصال وزعيم بالمزيد من النعماء الا كلاء من ذى الجلال
١٠٧ فصل فى الشكر على الجوارح
١٠٧ فصل فى الكلام على الزيادة
١١١ الباب الخامس والثلاثون فى بيان السيرة التى يصلح عليها الامير والمأمور ويستريح اليها الرئيس والمرؤس مستخرجة من القرآن العظيم
١١٢ الباب السادس والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها غاية كمال السلطان وشفاء الصدور وراحة القلوب وطيبة النفوس
١١٣ الباب السابع والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها صلح الملوك عند الشدائد ومعتقل السلاطين عند اضطراب الامور وتغير الوجوه والاحوال
١١٤ الباب الثامن والثلاثون فى بيان الخصال الموجبة لذم الرعية للسلطان
١١٤ الباب التاسع والثلاثون فى مثل السلطان العادل والجائر
١١٥ الباب الموفى أربعين فيما يجب على الرعية اذا جار السلطان
١١٦ الباب الحادى والاربعون فى كما تكونوا يولى عليكم
١١٦ الباب الثانى والاربعون فى بيان الخصلة التى تصلح بها الرعية
١١٨ الباب الثالث والاربعون فيما يملك السلطان من الرعية
١١٩ الباب الرابع والاربعون فى التحذير من صحبة السلطان
١٢٠ الباب الخامس والاربعون فى صحبة السلطان
١٢٢ الباب السادس والاربعون فى سيرة السلطان مع الجند
١٢٢ الباب السابع والاربعون فى سيرة السلطان فى استيفاء الخراج
١٢٤ الباب الثامن والاربعون فى سيرة السلطان فى بيت المال
١٢٦ فصل يتضمن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف من أموال مصر
١٢٩ الباب التاسع والاربعون فى سيرة السلطان فى الانفاق من بيت المال وسيرة العمال
١٣٣ الباب الموفى خمسين فى سيرة السلطان فى تدوين الدواوين وفرض الارزاق وسيرة العمال

صحيفة

١٣٥ الباب الحادى والخمسون فى أحكام أهل الذمة
١٣٧ فصل فى نقض الذمى العهد
١٣٨ فصل فى تقدير الجزية
١٣٨ الباب الثانى والخمسون فى بيان الصفات المعتبرة فى الولاة
١٤١ الباب الثالث والخمسون فى بيان الشروط والعهود التى تؤخذ على العمال
١٤٣ الباب الرابع والخمسون فى هدايا العمال والرشا على الشفاعات
١٤٤ الباب الخامس والخمسون فى معرفة حسن الخلق
١٤٩ فصل فى الفرق بين المداهنة والمداراة
١٥٠ الباب السادس والخمسون فى الظلم وشؤمه وسوء عاقبته
١٥٤ الباب السابع والخمسون فى تحريم السعاية والنميمة وقبحهما وما يؤل اليه أمرهما من الافعال الرديئة والعواقب الذميمة
١٥٧ الباب الثامن والخمسون فى القصاص وحكمته
١٦٠ الباب التاسع والخمسون فى الفرج بعد الشدة
١٧١ الباب الستون فى بيان الخصلة التى هى أم الخصال وينبوع الفضائل ومن فقدها لم يكمل فيه خصلة وهى الشجاعة ويعبر عنها بالصبر ويعبر عنها بقوة النفس
١٧٣ الباب الحادى والستون فى ذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها
١٨١ الباب الثانى والستون فى القضاء والقدر والتوكل والطلب
١٨٥ الباب الثالث والستون وهو جامع من أخبار ملوك العجم وحكاياتهم
١٩١ فصل من نوادر بزرجمهر الخ
١٩٢ فصل ومن حكم شاباق السندى الخ
١٩٤ فصل قال غيره لا ينبغى للملك أن يكون له أيام معلومة يظهر فيها الخ
١٩٤ فصل من نوادر كلام العرب
١٩٦ الباب الرابع والستون مشتمل على حكم منثورة

سراج الملوك للإمام العالم العلامة الثبت الثقة
الحجة الفهامة العارف بالله أبي بكر محمد بن
محمد بن الوليد القهري الطرطوشي
المالكي نفعنا الله به
آمين

٢

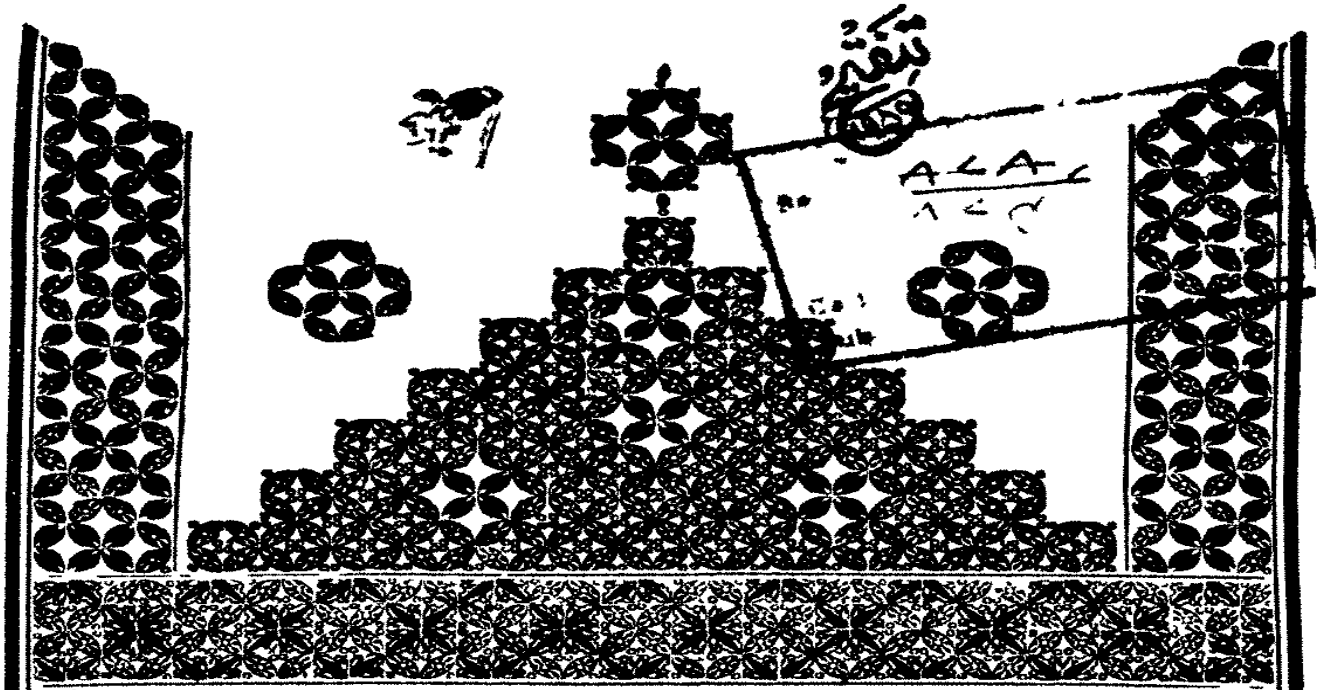

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لم يزل ولا يزال وهو الكبير المتعال خالق الاعيان والآثار ومكور النهار على الليل والليل على النهار العالم بالخفيات وما تنطوى عليه الارضون والسموات سواء عنده الجهر والاسرار ومن هو مستخف بالليل وساربٌ بالنهار ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير خلق الخلق بقدرته وأحكمهم بعلمه وخصصهم بمشيئته ودبرهم بحكمته لم يكن له فى خلقهم معين ولا فى تدبيرهم مشير وظهير وكيف يستعين من لم يزل بمن لم يكن أو يستظهر من تقدس عن الذل بمن دخل تحت ذل التكوين ثم كلفهم معرفته وجعل علم العالمين بعجزهم عن ادراكه ادراكا لهم ومعرفة العارفين بتقصيرهم عن شكره شكرا لهم كما جعل اقرار المقرين بوقوف عقولهم عن الاحاطة بحقيقته ايمانا لهم لا يلزمه لم ولا يجاوزه اين ولا يلاصقه حيث ولا يحده مما ولا يعده كم ولا يحصره متى ولا يحيط به كيف ولا ينائله أى ولا يظله فوق ولا يقله تحت ولا يقابله حد ولا يزاحمه عند ولا يأخذه خلف ولا يحده امام ولم يظهره قبل ولم يعينه بعد ولم يجمعه كل ولم يوجده كان ولم يفقده ليس وصفه لاصفة له وكونه لا أمد له ولا تخالطه الاشكال والصور ولا تغيره الايام والغير ولا تجوز عليه المماسة والمقاربة وتستحيل عليه المحاذاة والمقابلة ان قلت لم كان فقد سبق العلل ذاته ومن كان معلولا كان له غيره علة يساوقه فى الوجود وهو قبل جميع الاعيان بلا علة فقدرته فيه فى الاشياء بلا امتزاج وصنعه فيها بلا علاج وعلة كل شئ صنعه ولا علة لصنعه فان قلت أين هو فقد سبق المكان وجوده فعن أين الاين لم يفتقر وجوده الى أين هو بعد خلق المكان غنى بنفسه كما كان قبل خلق المكان وكيف يحل فيما منه بدا أو يعود اليه ما هو أنشأ وان قلت ما هو فلا ماتية لوجوده وما موضوعة للسؤال عن الجنس والقديم تعالى لا جنس له لان

الجنس

الجنس مخصوص بمعنى داخل تحت المائية وان قلت كم هو فهو أحد فى ذاته منفرد بصفاته وان قلت متى كان فقد سبق الوقت كونه وان قلت كيف هو فهو غير كيف الكيف لا يقال له كيف ومن جازت عليه الكيفية جاز عليه النعت وان قلت هو فالها واو أو خلقه بل ألزم الكل الحدث كما قال بعض الاشياخ لان القدم له فالذى يدرك بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه والذى بالاداة اجتماعه فقواها تمسكه والذى يؤلفه وقت يفرقه وقت والذى يقيمه غيره فالضرورة تمسه والذى الوهم يطرقه فالتصوير يرتقى اليه ومن آواه محل أدركه أين ومن كان له جنس طلبه كيف وجوده اثباته ومعرفته توحيده وتوحيده تميزه من خلقه ما تصور فى الاوهام فهو بخلافه لا تحايله العيون ولا تخالطه الظنون ولا تصوره الاوهام ولا تحيط به الافهام ولا يقدر قدره الانام ولا يحويه مكان ولا يقارنه زمان ولا يحصره امد ولا يسعه ولد ولا يجمعه عدد قربه كرامته وبعده اهانته علوه من غير توقل ومجيئه من غير تنقل هو الاول والآخر والظاهر والباطن القريب البعيد الذى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وأشهد له بالربوبية والوحدانية وبما شهد به لنفسه من الاسماء الحسنى والصفات العلى والنعت الاوفى ألاله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وأومن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون وأشهد أن محمدا عبده المصطفى وأمينه المرتضى أرسله الى كافة الورى بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين وأصحابه المنتخبين وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين (أما بعد) فانى نظرت فى سير الامم الماضية والملوك الخالية وما وضعوه من السياسات فى تدبير الدول والتزموه من القوانين فى حفظ النحل فوجدت ذلك نوعين أحكاما وسياسات فاما الاحكام المشتملة على ما اعتقدوه من الحلال والحرام والبيوع والاحكام والانكحة والطلاق والاجارات ونحوها والرسوم الموضوعة لها والحدود القائمة على من خالف شيأ منها فأمر اصطلحوا عليه بعقولهم ليس على شئ منه برهان ولا أنزل الله به من سلطان ولا أخذوه عن تدبر ولا اتبعوا فيه رسولا وانما هى صادرة عن خزنة النيران وسدنة بيوت الاصنام وعبدة الانداد والاوثان وليس يعجز احد من خلق الله ان يصنع من تلقاء نفسه أمثالها وأشباهها وأما السياسات التى وضعوها فى التزام تلك الاحكام والذب عنها والحماية لها وتعظيم من عظمها واهانة من استهان بها وخالفها فقد سار وا فى ذلك بسيرة العدل وحسن السياسة وجمع القلوب عليها والتزام النصفة فيما بينهم على ما توجبه تلك الاحكام وكذلك فى تدبير الحروب وامن السبل وحفظ الاموال وصون الاعراض والحرم كل ذلك فقد سار وا فيه بسيرة جميلة لا ينافى العقول شئ منه لو كانت الاصول صحيحة والقواعد واجبة فكانوا فى حسن سيرتهم بحفظ تلك الاصول الفاسدة كمن زخرف كنيفا أو بنى على بيت قصر امنيفا

ولو لبس الحمار ثياب خز * لقال الناس يالك من حمار

فجمعت مختلس ما انطوى عليه سيرهم خاصة من ملوك الطوائف وحكماء الدول فوجدت ذلك فى ستة من الامم وهم العرب والفرس والروم والهند والسند والسندهند فاما ملوك الصين وحكماؤهم فلم يصل الى أرض العرب من سياساتهم شئ كثير لبعد المشقة وطول المسافة وأما من عداهؤلاء من الامم فلم يكونوا أهل حكم بارعة وقرائح نافذة واذهان

ثاقبة وانما صدر عنهم الشئ اليسير من الحكمة فنظمت ما ألفيت في كتبهم من الحكمة البالغة والسير المستحسنة والكلمة اللطيفة والطريقة المألوفة والتوقيع الجميل والاثر النبيل الى ما رويته وجمعته من سير الانبياء عليهم السلام وآثار الاولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء وما انطوى عليه القرآن العزيز الذى هو بحر العلوم وينبوع الحكم ومعدن السياسات ومغاص الجواهر المكنونات ان اختصر فلمحة دالة واشارة خفية وان اطال فالفاظ بارعة وآيات معجزة هو الهادى من الضلالة والحاوى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة (ورتبته) ترتيبا أنيقا وترجمته تراجم بارعة حاوية لمقاصدها ناطقة بحكمها ومضمونها يلج الاذن من غير اذن ويتوغل التامور من غير استئمار الفاظها قوالب لمعانيها ليس الفاظها الى السمع بأسرع من معانيها الى القلب فانتظم الكتاب بحمد الله وعونه واحسانه غاية في بابه غريبا في فنونه واسمابه خفيف المحمل كثير الفائدة لم يسبق الى مثله اقلام العلماء ولا جالت في نظمه افكار الفضلاء ولا حوته خزائن الملوك والرؤساء فلا يسمع به ملك الا استكتبه ولا وزير الا استصحبه ولا رئيس الا استحسنه واستوسده عصمة لمن عمل به من الملوك وأهل الرياسة وجنة لمن تحصن به من أولى الامر والسياسة وجمال لمن تحلى به من أهل الآداب والمحاضرة وعنوان لمن فاوض به من أهل المجالسة والمذاكرة (وسميته سراج الملوك) يستغنى به الحكيم بدراسته عن مباحثة الحكماء والملوك عن مشاورة الوزراء (واعلموا) وفقكم الله ان احق من أهديت اليه الحكم وأوصلت اليه النصائح وحملت اليه العلوم من آتاه الله سلطانا فنفذ في الخلق حكمه وجاز عليهم قوله (ولما رأيت) الاجل المأمون تاج الخلافة عز الاسلام فخر الانام نظام الدين خالصة أمير المؤمنين أبا عبد الله محمد الاموى ادام الله لاعزاز الدين نصره وأظهر في العالمين بالحق أمره وأوزع كافة الخلق شكره وكفاهم فيه محذوره وضره فقد تفضل الله تعالى به على المسلمين فبسط فيهم يده ونشر في مصالح أحوالهم كلمته وعرف الخاص والعام يمنه وبركته وتقلد امور الرعية وسار فيهم على أحسن قضية متحريا للصواب راغبا في الثواب طالبا سبيل العدل ومناهج الانصاف والفضل رغبت ان اخصه بهذا الكتاب رجاء لطف الله تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ولتذكر فضائله ومحاسنه ما بقى الدهر كما قيل

الناس يهدون على قدرهم * لكننى اهدى على قدرى

يهدون ما يفنى وأهدى الذى * يبقى على الايام والدهر

فان العلم عصمة الملوك والامراء ومعقل السلاطين والوزراء لانه يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويكرموا حملته ويستبطنوا أهله (وهذه) أبواب هذا الكتاب وعدتها أربعة وستون بابا الباب الاول في مواعظ الملوك الباب الثانى في مقامات العلماء والصالحين عند الامراء والسلاطين الباب الثالث فيما جاء في الولاة والقضاة وما في ذلك من الغرر والخطر الباب الرابع في معرفة ملك سليمان بن داود ووجه طلبه للملك وسؤاله أن لا يؤتاه أحد من بعده الباب الخامس في فضل

To: www.al-mostafa.com

الولاة والقضاة اذا عدلوا الباب السادس فى ان السلطان مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح الباب السابع فى بيان الحكمة فى كون السلطان فى الارض الباب الثامن فى منافع السلطان ومضاره الباب التاسع فى معرفة منزلة السلطان من الرعية الباب العاشر فى معرفة خصال ورد الشرع بها فيها نظام الملك والدول الباب الحادى عشر فى معرفة الخصال التى هى قواعد السلطان ولا ثبات له دونها الباب الثانى عشر فى معرفة الخصال التى زعم الملوك انها ازالت دولتهم وهدمت سلطانهم الباب الثالث عشر فى معرفة الصفات الراتبة التى زعم الحكماء انها لا تدوم معها مملكة الباب الرابع عشر فى الخصال المحمودة فى السلطان وقد اتفقت الحكماء والعلماء عليها الباب الخامس عشر فى معرفة الخصال التى يعز بها السلطان الباب السادس عشر فى معرفة الخصال التى هى ملاك امور السلطان الباب السابع عشر فى معرفة خير السلطان وشر السلطان الباب الثامن عشر فى معرفة منزلة السلطان من القرآن الباب التاسع عشر فى معرفة خصال جامعة لامر السلطان الباب العشرون فى معرفة الخصال التى هى اركان السلطان الباب الحادى والعشرون فى بيان حاجة السلطان الى العلم الباب الثانى والعشرون فى وصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لكميل بن زياد فى العلم الباب الثالث والعشرون فى معرفة العقل والدهاء والمكر الباب الرابع والعشرون فى الوزراء وأوصافهم الباب الخامس والعشرون فى الجلساء وآدابهم الباب السادس والعشرون فى معرفة الخصال التى هى جمال السلطان الباب السابع والعشرون فى المشاورة والنصيحة الباب الثامن والعشرون فى الحلم ومحاسنه ومحمود عواقبه الباب التاسع والعشرون فيما يسكن به الغضب الباب الثلاثون فى الجود والسخاء الباب الحادى والثلاثون فى معرفة الشح والبخل وما يتعلق بهما الباب الثانى والثلاثون فى معرفة الصبر وجميل عواقبه الباب الثالث والثلاثون فى كتمان السر ومحاسنه الباب الرابع والثلاثون فى بيان الخصلة التى هى رهن لسائر الخصال وزعيم بالمزيد من الآلاء والنعماء من ذى الجلال وهى الشكر الباب الخامس والثلاثون فى بيان السيرة التى يصلح عليها الامير والمأمور وتسهل صحبة الخلائق أجمعين الباب السادس والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها غاية كمال السلطان وشفاء الصدور وراحة القلوب وطيبة النفوس الباب السابع والثلاثون فى معرفة الخصلة التى هى ملجأ الملوك عند الشدائد ومعقل السلاطين عند اضطراب الممالك الباب الثامن والثلاثون فى بيان الخصلة الموجبة لذم الرعية للسلطان الباب التاسع والثلاثون فى مثل السلطان العادل والجائر الباب الاربعون فيما يجب على الرعية اذا جار السلطان الباب الحادى والاربعون فى كما تكونوا يولى عليكم الباب الثانى والاربعون فى بيان الخصلة التى بها تصلح الرعية الباب الثالث والاربعون فيما يملك السلطان من الرعية الباب الرابع والاربعون فى التحذير من صحبة السلطان الباب الخامس والاربعون فى صحبة السلطان الباب السادس والاربعون فى سيرة السلطان مع الجند الباب السابع والاربعون فى سيرة السلطان فى استجباء الخراج الباب الثامن والاربعون فى سيرة السلطان فى الانفاق من بيت المال الباب التاسع والاربعون فى سيرة السلطان فى بيت المال الباب الخمسون فى سيرة

السلطان فى تدوين الدواوين وفرض الارزاق وسيرة العمال الباب الحادى والخمسون فى أحكام اهل الذمة الباب الثانى والخمسون فى بيان الصفات المعتبرة فى الولاة الباب الثالث والخمسون فى بيان الشروط والعهود التى تؤخذ على العمال الباب الرابع والخمسون فى هدايا العمال والرشا على الشفاعات الباب الخامس والخمسون فى معرفة حسن الخلق الباب السادس والخمسون فى الظلم وشؤمه وسوء عاقبته الباب السابع والخمسون فى السعاية والنميمة وقبحهما ومايؤل اليه أمرهما من الافعال الرديئة والعواقب الذميمة الباب الثامن والخمسون فى القصاص وحكمته الباب التاسع والخمسون فى الفرج بعد الشدة الباب الستون فى الشجاعة وثمراتها الباب الحادى والستون فى الحروب وتدبيرها الباب الثانى والستون فى القضاء والقدر وأحكامهما الباب الثالث والستون وهو جامع من أخبار ملوك العجم وحكاياتهم الباب الرابع والستون يشتمل على حكم منثورة وهو آخر الكتاب وكمال الابواب

(الباب الاول فى مواعظ الملوك)

لقد خاب من كان حظه من الله الدنيا اعلم ايها الرجل وكذا ذلك الرجل ان عقول الملوك وان كانت كبارا الا انها مشغوفة بكثرة الاشغال فيستدعى من الموعظة مايتوج على تلك الافكار ويتغلغل فى مكامن تلك الاسرار فيرفع تلك الاستار ويفك تلك الاكنة والاقفال ويصقل ذلك الصدأ والران قال الله تعالى قل متاع الدنيا قليل فوصف الله تعالى جميع الدنيا بانها متاع قليل وأنت تعلم انك ما أوتيت من ذلك القليل الا قليلا ثم ذلك القليل ان تمتعت به ولم تعص الله فيه فهو لهو ولعب قال الله تعالى انما الحياة الدنيا لهو ولعب ثم قال وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون فلا تبغ أيها العاقل لعبا قليلا يفنى بحياة الابد حياة لا تفنى وشباب لا يبلى كما قال الفضيل رحمه الله لو كانت الدنيا ذهبا يفنى وكانت الآخرة خزفا يبقى لوجب ان نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا ما آتى سليمان بن داود عليهما السلام حيث آتاه ملك جميع الدنيا والانس والجن والطير والوحش والريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ثم زاده الله ما هو أعظم منها فقال تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها رفعة ومنزلة كما حسبتموها بل قال عند ذلك هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر وهذا فصل الخطاب لمن تدبر أن يقول له ربه فى معرض المنة هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ثم خاف سليمان عليه السلام أن يكون استدراجا من حيث لا يعلم هذا وقد قال لك ولسائر أهل الدنيا فويلك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقال وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين تأمل بعقلك ما روى عن النبى عليه السلام انه قال لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء وألقى سمعك الى ما نزل به جبريل عليه السلام من عند الله تعالى على محمد عليه السلام فقال يا محمد ان الله يقول لك عش ما شئت فانك ميت وأحبب من شئت فانك مفارقه واعمل ما شئت فانك مجزى به فانظر ما اشتملت عليه هذه الكلمات من تصرم العمر وفراق الاحبة والجزاء على الاعمال فلو لم ينزل من السماء غيرها لكانت كافية انظر بفهمك الى ما رواه الحسين أن النبى عليه السلام مر

بمنزل قوم قد ارتحلوا عنه واذا طلا مطروح فقال اترون هذا هان على أهله فقالوا من هوانه عليهم القوه قال فوالذى نفسى بيده لالدنيا أهون على الله من هذا على أهله فجعل الدنيا أهون على الله من الجيفة المطروحة وقال أبو هريرة قال لى النبى عليه السلام ألا أريك الدنيا جمعا بما فيها قلت بلى قال فأخذ بيدى وأتى بى الى واد من أودية المدينة فاذا مزبلة فيها رؤس الناس وعذرات وخرق بالية وعظام البهائم ثم قال يا أبا هريرة هذه الرؤس كانت تحرص على الدنيا كحرصكم وتأمل آمالكم ثم هى اليوم تساقط جلدا بلا عظم ثم هى صائرة رمادا رمددا وهذه العذرات الوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها فى بطونهم فاصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية رياشهم ولباسهم ثم أصبحت والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها اطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك قال فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا (وقال ابن عمر) أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض جسدى فقال يا عبد الله كن فى الدنيا كانك غريب أو كعابر سبيل واعدد نفسك فى الموتى يا أيها الرجل ان كنت لا تدرى متى يفجؤك الاجل فلا تغتر بطول الامل فانه يقسى القلب ويفسد العمل وقد عير الله أقواما مثلهم فى الاجل فقست منهم القلوب وطال منهم الامل فقال تعالى الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها * وعند صفو الليالى يحدث الكدر

يا أيها الرجل ألق الى سمعك وأرعنى لبك

فلو كنت لا تدرى متى الموت فاعلمن * بانك لا تبقى الى آخر الدهر

اين آدم أين آدم أبو الاولين والآخرين أين نوح شيخ المرسلين أين ادريس رفيع العالمين اين ابراهيم خليل الرحمن اين موسى الكليم من بين النبيين والمرسلين اين عيسى روح الله وكلمته رأس الزاهدين وأمام السائحين اين محمد خاتم النبيين وحبيب رب العالمين وسيد الاولين والآخرين اين أصحابه الابرار المنتخبون اين الامم الماضية اين الملوك السالفة أين القرون الخالية اين الذين نصبت على مفارقهم التيجان اين الذين اغتروا بالاجناد والسلطان أين أصحاب السطوة والولايات اين الذين خفقت على رؤسهم الالوية والرايات أين الذين قادوا الجيوش والعساكر أين الذين عمروا القصور والدساكر أين الذين أعطوا النصر فى مواطن الحروب والمواقف أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب أين الذين تمتعوا فى اللذات والمآرب أين الذين أسرفوا على الخلائق كبرا وعتيا أين الذين راحوا فى الحلل بكرة وعشيا أين الذين استبدلوا الملابس اثاثا وريا أين الذين ملكوا ما بين الخافقين فخرا وعزا أين الذين فرشوا القصور خزا وبزا أين الذين تضعضعت لهم الارض هيبة وهزا أين الذين استذلوا العباد قهرا وغزا هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا أفناهم والله صفى الامم وأبادهم سيد الرمم واخرجهم من سعة القصور وأسكنهم فى ضنك القبور تحت الجنادل والصخور فاصبحوا الاترى الامساكنهم فعاث الدود فى أجسادهم واتخذ مقيلا فى ابدانهم فسالت

العيون على الخدود وامتلأت تلك الافواه بالدود وتساقطت الاعضاء وتمزقت الجلود وتناثرت اللحوم وتقطعت البطون فلم ينفعهم ما جمعوا ولا أغنى عنهم ما كسبوا أسلمك الاحبة والاولياء وهجرك الاخوان والاصفياء ونسيك القرباء والبعداء فاسمعت ولو نطقت لانشدت قولنا في سكان الثرى ورهائن الترب والبلا

مقيم بالجون رهين رمس * وأهلي رائحون بكل واد
كأني لم أكن لهم حبيبا * ولا كانوا الاحبة في السواد
فعوجوا للسلام فان أبيتم * فأوموا بالسلام على بعاد
فان طال المدى وصفا خليل * سوانا فاذكروا صفو الوداد
وذاك أقل مالك من حبيب * وآخره الى يوم التناد
فلو أنا بموقفكم وقفنا * سقينا الترب من مهج الفؤاد

(وقال) مكرم بن يوسف العابد أوحى الله الى نبي من أنبياء بني اسرائيل ان قف على المدائن والحصون وأبلغهم عني حرفين لا تأكلوا الا طيبا ولا تتكلموا الا بالحق ولما دخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز قال عظني يا يزيد قال يا أمير المؤمنين اعلم انك أول خليفة تموت فبكا عمر وقال زدني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم الا أب ميت فبكا وقال زدني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بين الجنة والنار منزل فسقط مغشيا يا أيها الرجل لا تغفلن عن تذكر ما تيقنه من خوف الفناء وتقضي المسار بذهاب اللذات وانقضاء الشهوات وبقاء التبعات وانقلابها حسرات وان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادي من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له من صح فيها سقم ومن سلم فيها هرم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها فتن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب من ساعاها فاتته ومن قعد عنها أتته ومن نظر اليها أعمته ومن بصر بها بصرته لا خيرها يدوم ولا شرها يبقى ولا فيها لمخلوق بقاء يا أيها الرجل لا تخدعن كما خدع من قبلك فان الذي أصبحت فيه من النعم انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج من يديك بمثل ما صار اليك فلو بقيت الدنيا للعالم لم تصر للجاهل ولو بقيت للاول لم تنتقل الى الآخر يا أيها الرجل لو كانت الدنيا كلها ذهبا وفضة ثم سلمت عليك بالخلافة وألقت اليك مقاليدها وافلاذ كبدها ثم كنت طريدة للموت ما كان ينبغي لك ان تتهنا بعيش لا تخر فيما يزول ولا تغتبط فيما لا يبقى وهل الدنيا الا كما قال الاول قد رتغلي وكنيف ملا وكما قال الشاعر

ولقد سألت الدار عن أخبارهم * فتبسمت عجبا ولم تبد
حتى مررت على الكنيف فقال لي * أموالهم ونوالهم عندي

ولقد اصاب ابن السماك لما قال له الرشيد يا ابن السماك عظني وبيده شربة من ماء فقال يا أمير المؤمنين أرأيت لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفتدي بها بملكك قال نعم قال يا أمير المؤمنين فلو حبس عنك خروجها أكنت تفتدي به بملكك قال نعم قال فلا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة أيها الشاب لا تغتر بشبابك فان أكثر من يموت الشباب والدليل عليه ان أقل الناس الشيوخ يا أيها الشاب كم من جمل في التنور وأبوه يرعى وكم من طفل في الترائب رجله يحيي

وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه لاسقف قد أسلم عظني قال يا أمير المؤمنين ان كان الله عليك فمن ترجو وقال أحسنت فزدني قال ان كان الله معك فمن تخاف قال أحسنت فزدني قال أحسب ان الله قد غفر ذنب المذنبين اليس قد فاتهم ثواب المحسنين قال حسبي حسبي وبكى أربعين صباحا وقال الحسن قدم صعصعة يعني عم الفرزدق على النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه يقرأ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره فقال حسبي حسبي لا ابالي ان لا أسمع آية غيرها وقال سليمان بن عبد الملك لحميد الطويل عظني فقال ان كنت اذا عصيت الله ظننت انه يراك فلقد اجترأت على رب عظيم وان كنت تظن انه لا يراك فلقد كفرت برب عظيم وكتب علي بن الحسين رضي الله عنه الى سلمان انما مثل الدنيا كمثل الحية لمسها لين ويقتل سمها فاعرض عنها وعما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها وكن اسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فان صاحبها كلما اطمأن فيها الى سرور أشخص منها الى مكروه وقال ابو العتاهية

هي الدار دار الاذى والقذا * ودار الفناء ودار الغير
ولو نلتها بحذافيرها * لمت ولم تقض منها وطر
أيا من يؤمل طول الحياة * وطول الحياة عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب * فلا خير في العيش بعد الكبر

ولما بلغ مراده من الدنيا افضل ما صبت اليه نفسه ورقت اليه همته رفضها ونبذها وقال هذا سرور لولا انه غرور ونعيم لولا انه عديم وملك لولا انه هلك وغناء لولا انه فناء وجسيم لولا انه ذميم ومحمود لولا انه مفقود وغنى لولا انه منى وارتفاع لولا انه اتضاع وعلاء لولا انه بلاء وحسن لو لم انه حزن وهو يوم لو وثق له بغد يا أيها الرجل لا تسكن كالمثل يرسل اطيب ما فيه ويمسك الخثاله واعلم ان من قساوة قلبه لا يقبل الحق وان كثرت دلائله قال الله تعالى فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة وذلك ان كثرة الذنوب مانعة من قبول الحق القلوب ولولج المواعظ فيها قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون أي غطاها وغشيها فلا تقبل خيرا ولا تصيخ لموعظة جاء في التفسير اذا اذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء ثم اذا اذنب نكتت نكتة سوداء حتى يسود القلب وقال حذيفة القلب كالكف فاذا اذنب العبد انقبض وقبض اصبعا ثم اذا اذنب انقبض وقبض اصبعا أخرى ثم كذلك في الثالث والرابع حتى ينقبض الكف كله ثم يطبع الله عليه فذلك هو الران وقال بكر بن عبد الله اذا اذنب العبد صار في قلبه كوخز الابرة ثم كلما أذنب صار فيه كوخز الابرة ثم كلما اذنب صار فيه كوخز الابرة حتى يعود القلب كالمثل وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب وقال ابن شبرمة اذا كان البدن سقيما لم ينفعه الطعام واذا كان القلب مغرما بحب الدنيا لم تنفعه الموعظة وفيه قيل

ولا أرى أثر الذكر في خلدي * والحبل في الصخرة الصماء أثر
اذا قسا القلب لم تنفعه موعظة * كالارض ان سبخت لم ينفع المطر

ويروى ان أبا العتاهية مر بدكان الوراق وادا كتاب فيه بيت من الشعر

لن ترجع الانفس عن غيها * مالم يكن منها لها زاجر

فقال لمن هذا فقيل لابى نواس قال وددت انه لى بنصف شعرى قال الاصمعى ان النعمان الذى هو امرؤ القيس الاكبر الذى بنى الخورنق أشرف على الخورنق يوما فاعجبه ما اوتى من الملك والسعة ونفوذ الامر واقبال الوجوه نحوه فقال لاصحابه هل اوتى احد مثل ما اوتيت فقال له حكيم من حكماء اصحابه اهذا الذى أوتيت شئ لم يزل ولا يزال ام شئ كان لمن كان قبلك زال عنه وصار اليك قال بل شئ كان لمن قبلى زال عنه وصار الىّ وسيزول عنى قال فسررت بشئ تذهب عنك لذته وتبقى تبعته قال فاين المهرب قال اما ان تقيم وتعمل بطاعة الله او تلبس امساحا وتلحق بجبل وتعبد ربك فيه وتفر من الناس حتى يأتيك أجلك قال فاذا كان ذلك فما لى قال حياة لا موت فيها وشباب لا هرم فيه وصحة لا سقم فيها وملك جديد لا يلى قال فاى خير فيما يفنى والله لاطلبن عيشا لا يزول أبدا وملكا جديدا فانخلع من ملكه ولبس الامساح وسار فى الارض وتبعه الحكيم وجعلا يعبدان الله حتى ماتا وفيه يقول عدى بن زيد

وتبين رب الخورنق اذ فكر يوما وللهدى تذكير
سره ماله وكثرة ما يم * لك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقد قال ما غب * طة حتى الى الممات يصير
أين كسرى كسرى الملوك انوشر * وان أم ابن قبله سابور
وبنو الاصفر الكرام ملوك الر * وم لم يبق منهم مذكور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ * ـملك عنه فبابه مهجور

وفيهم يقول الاسود بن يعفر

ولقد علمت سوى الذى انباتنى * ان السبيل سبيل ذى الاعواد
ماذا أؤمل بعد آل محرق * تركوا منازلهم وبعد اياد
أرض الخورنق والسدير وبارق * والقصر ذى الشرفات من سنداد
نزلوا بانقرة تسيل عليهم * ماء الفرات يجئ من أطواد
أرض يحبوها الطيب مقيلها * كعب بن مالك وابن أم دواد
جرت الرياح على محل ديارهم * فكانهم كانوا على ميعاد
فأرى النعيم وكل ما يلهى به * يوما يصير الى بلى ونفاد

(وقال) وهب بن منبه أصيب على عهد ان وهو قصر سيف بن ذى يزن بارض صنعاء اليمن وكان من الملوك الاول مكتوبا بالقلم المسند فترجم بالعربية واذا هى أبيات جليلة وموعظة عظيمة

بانوا على قلل الاجبال تحرسهم * غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم * فاسكنوا حفرا يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا * أين الاسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت محجبة * من دونها تضرب الاستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم * تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طال ما أكلوا يوما وما شربوا * فأصبحوا بعد ذاك الاكل قد أكلوا

قال شيخنا قرئ على القاضي أبي الوليد الباجي وأنا أسمع لبعض الشعراء

ويحك يا اسماء ما شانى * أضللتنى والله ما شانى
الموت حق فاعلمي نازل * قربي لحدى واكفانى
قد كنت ذا مال فلا والذى * أعطانى العيش وأغنانى
ما قرت العين به ساعة * الا تذكرت فاشجانى
علمي بأني صائر للبلى * وفاقد أهلي وجيرانى
وتارك مالي على حاله * ثم بالشيطان ابن شيطان
لامرأة ابني أو لزوج ابنتي * يالك من غبن وخسران
يسعد في مالي وأشقى به * قوم ذوو غل وشنآن
ان أحسنوا كان لهم أجره * وخف من ذلك ميزانى

* ومن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وفناءها ونقصها وزوالها ابراهيم بن أدهم بن منصور من أبناء الملوك ملوك خراسان من كورة بلخ ولما زهد في الدنيا زهد عن ثمانين سريرا قال ابراهيم بن بشار سألت ابراهيم بن أدهم كيف كان بدء أمرك حتى صرت الى هذا قال غير هذا أولى بك قلت يرحمك الله لعل الله ينفعني به يوما ثم سألته ثانية فقال ويحك اشتغل بالله تعالى ثم سألته ثالثة فقلت ان رأيت يرحمك الله أن تخبرني لعل الله أن ينفعني فقال كان أبي من ملوك خراسان وكان من المياسير وكان قد حبب الي الصيد فبينا أنا راكب فرسا وكلبي معي واثرت أرنبا أو ثعلبا فحركت فرسي فسمعت نداء من ورائي يا ابراهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فوقفت أنظر يمنة ويسرة ثم أر أحدا فقلت في نفسي لعن الله الشيطان ثم حركت فرسي فسمعت نداء أقوى من الاول يا ابراهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فوقفت مقشعرا أنظر يمنة ويسرة فلم أر شيأ فقلت لعن الله ابليس ثم حركت فرسي فسمعت من قربوس سرجي يا ابرهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فوقفت وقلت هيهات جاءني النذير من رب العالمين والله لا عصيت ربي ما عصمني بعد يومي هذا فتوجهت الى أهلي وخلفت فرسي وجئت الى بعض رعاة أبي فأخذت جبته وكساءه وألقيت اليه ثيابي فلم أزل أرض تقلني وأرض تضعني حتى صرت الى العراق فعملت بها أياما فلم يصف لي شئ من الحلال فسألت بعض المشايخ عن الحلال فقال عليك بالشام قال فانصرفت الى مدينة يقال لها المنصورية وهي المصيصة فعملت بها أياما فلم يصف لي شئ من الحلال فسألت بعض المشايخ فقال ان أردت الحلال فعليك بطرسوس فان المباحات بها والعمل كثير قال فبينا أنا قاعد على باب البحر اذ جاءني رجل فاكتراني أنظر له بستانا فتوجهت معه فكنت في البستان أياما كثيرة فاذا أنا بخادم قد أقبل ومعه أصحاب له ولو علمت أن البستان للخادم ما نظرته فقعد في مجلسه ثم قال يا ناطور فأجبته قال فاذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه فأتيته برمان فاخذ الخادم رمانة فكسرها فوجدها حامضة فقال يا ناطور ما هذا أنت منذ كذا وكذا في بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماننا لا تعرف الحلو من الحامض قلت والله ما أكلت من فاكهتكم شيأ وما أعرف الحلو من الحامض قال فغمز الخادم أصحابه

وقال ألا تعجبون من هذا ثم قال لي لو كنت ابراهيم بن أدهم ما زاد على هذا فلما كان من الغد حدث الناس في المسجد بالصفة فجاء الناس عنقا الى البستان فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون وأنا هارب منهم وكان ابراهيم بن أدهم يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين والعمل في الطين وكان يوما يحفظ كرما فمر به جندي فقال اعطنا من هذا العنب فقال ما أمر به صاحبه فاخذ يضربه بالسوط فطاطأ رأسه وقال اضرب رأس اطاعصى الله فانحجز الرجل ومضى وقال سهل بن ابراهيم صحبت ابراهيم بن أدهم فرضت فانفق على نفقته فاشتهيت شهوة فباع حماره وأنفق ثمنه علي فلما تماثلت قلت يا ابراهيم أين الحمار فقال بعناه فقلت فعلام أركب قال يا أخي على عنقي قال فحملني ثلاث منازل رحمه الله وأنشدوا شعرا

أيها المرء ان دنياك بحر * طافح موجه فلا تأمنها

وسبيل النجاة فيها مبين * وهو أخذ الكفاف والقوت منها

* وبلغني أن بالهند يوما يخرج الناس فيه الى البرية فلا يبقى في البلد بشر من طين لا شيخ كبير ولا مولود صغير وهذا اليوم يكون بعد انقراض مائة سنة من يوم مثله فاذا اجتمع الخلق في صعيد واحد نادى منادي الملك لا يصعد من هذا الحجر هنالك منصوب الا من حضر في الجمع الاول الذي قد خلا من مائة سنة فربما جاء الشيخ الهرم الذي قد ذهبت قوته وعمي بصره وفني شبابه وتجيء العجوز تزحف لم يبق منها الا رسمها وقد أخنى الدهر عليها فيصعدان على الحجر الذي هنالك ويقول الشيخ حضرت الجمع الاول منذ مائة سنة وأنا طفل صغير وكان الملك فلانا ويصف الجيوش الماضية والامم الخالية وكيف طحنهم البلى وصاروا تحت أطباق الثرى ويقوم خطيبهم فيعظ الناس ويذكرهم صرعة الموت وحسرة الفوت فيبكي القوم ويتوبون من المظالم ويكثرون الصدقات ويخرجون عن التبعات ويصلحون على ذلك ساعته وقال وهب بن منبه صحب رجل بعض الرهبان سبعة أيام ليستفيد منه شيأ فوجده مشغولا عنه بذكر الله تعالى والفكر لا يفتر ثم التفت اليه في اليوم السابع فقال يا هذا قد علمت ما تريد حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد في الدنيا رأس كل خير والتوفيق نتاج كل خير فاحذر رأس كل خطيئة وارغب في رأس كل خير وتضرع الى ربك أن يهب لك نتاج كل خير قال فكيف أعرف ذلك قال كان جدي رجلا من الحكماء قد شبه الدنيا بسبعة أشياء فشبهها بالماء المالح يغر ولا يروي ويضر ولا ينفع وبسحاب الصيف يغر ولا ينفع وبظل الغمام يغر ويخذل وبزهر الربيع ينضر ثم يصفر فتراه هشيما وبأحلام النائم يرى السرور في منامه فاذا استيقظ لم يكن في يده الا الحسرة وبالعسل المشوب بالسم الذعاف يغر ويقتل فتدبرت هذه الاحرف السبعة سبعين سنة ثم زدت حرفا واحدا فشبهتها بالغول التي تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها فرأيت جدي في المنام وقال يا بني أشهد انك مني وأنا منك هي والله الغول التي تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها قلت فبأي شيء يكون الزهد في الدنيا قال باليقين واليقين بالصبر والصبر بالعين والعين بالفكر ثم وقف الراهب وقال خذها منا فلا أرانا خلق الا متجردا بفعل دون قول فكان ذلك آخر العهد به قلت وقد وصف الله تعالى الدنيا وأهلها بصفة أعم من هذه الصفة فقال سبحانه اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل

غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد والكفار ههنا الزراع كما ان الزرع يكون فى أول نباته أخضر ناعما اهتزت الارض به بعد يبسها فجاءت فى العيون كاصلح ما يكون ثم يهيج فتراه مصفرا أى يكبر ويستوى فيجف ويحترق ويتكسر أعلاه ويستقل بسنبله ثم يداس فيكون حطاما أى تبنا متكسرا متقطعا وهذا مثل ضربه الله لبنى آدم اذ كانوا أطفالا أول الولادة وفى حال الطفولية كاحسن مرأى يعجبون الآباء ويفتتنون ذوى الاحلام والنهى ثم يكبرون فيصيرون شيوخا منكسة رؤسهم مقوسة ظهورهم قد ذهب حسنهم ونعومتهم وفنى شبابهم وجمالهم وذوت غضارتهم ونضارتهم واستولى عليهم الهرم والشيب ثم يموتون فيصيرون حطاما فى القبور كالتبن فى الحريق هذا بعد ما وصفها بخمس صفات مذمومة لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر وكان الصدر الاول يسمى الدنيا خنزيرة ولو وجدوا اسما أقبح منه لسموها به وكانوا يسمونها أم ذفر والذفر النتن وقال مالك بن انس بلغنى أن ملكا من ملوك بنى اسرائيل ركب يوما فى زى عظيم فنشرت له الناس ينظرون اليه أفواجا حتى مر برجل يعمل شيأ مكبا عليه لم يلتفت اليه ولا رفع رأسه اليه فوقف الملك عليه وقال كل الناس ينظرون الى الا أنت فقال الرجل انى رأيت ملكا مثلك وكان على هذه القرية فمات هو ومسكين فدفن الى جنبه فى يوم واحد وكنا نعرفهما فى الدنيا باجسادهما ثم كنا نعرفهما بقبريهما ثم نسفت الريح قبريهما وكشفت عنهما فاختلطت عظامهما فلم أعرف الملك من المسكين فلذلك أقبلت على عملى وتركت النظر اليك وروى أن داود عليه السلام بينا هو يسيح فى الجبال اذ وافى على غار فاذا فيه رجل عظيم الخلق من بنى آدم واذا عند رأسه حجر مكتوب بكتاب محنور فيه أنا رستم الملك ملكت ألف عام وفتحت ألف مدينة وهزمت ألف جيش وافترعت ألف بكر من بنات الملوك ثم صرت الى ما ترى خصارا التراب فراشى والحجارة وسادى فمن رآنى فلا تغره الدنيا كما غرتنى وقال وهب بن منبه خرج عيسى بن مريم عليه السلام ذات يوم مع جماعة من أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أمكن من الفرك فقالوا يا نبى الله انا جياع فاوحى الله اليه أن ائذن لهم فى اقواتهم فاذن لهم فتفرقوا فى الزرع يفركون ويأكلون فبيناهم كذلك اذ جاء صاحب الزرع وهو يقول زرعى وأرضى ورثته عن آبائى باذن من تأكلون يا هؤلاء قال فدعا عيسى ربه فبعث الله تعالى جميع من ملك تلك الارض من لدن آدم الى ساعته فاذا عند كل سنبلة أو ما شاء الله رجل أو امرأة كلهم ينادون زرعى وأرضى ورثته عن آبائى ففزع الرجل منهم وكان قد بلغه أمر عيسى عليه السلام وهو لا يعرفه فلما عرفه قال معذرة اليك يا رسول الله انى لم أعرفك زرعى ومالى لك حلال فبكى عيسى عليه السلام وقال ويحك هؤلاء كلهم قد ورثوا هذه الارض وعمروها ثم ارتحلوا عنها وأنت مرتحل عنها وبهم لاحق ليس لك أرض ولا مال وقال أبو العتاهية

وعظتك أجداث صمت * ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن أوجه * تبلى وعن صور سبت
وارتك قبرك فى القبو * ر وأنت حى لم تمت
* يا شامتا بمنيتى * ان المنية لم تمت
ولربما انقلب الشما * ت فحل بالقوم الشمت

وروى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما رأى فاطمة رضي الله عنها مسجاة بثوبها بكى حتى رثى له ثم قال

لكل اجتماع من خليلين فرقة * وان الذي دون الممات قليل
أرى علل الدنيا علي كثيرة * وصاحبها حتى الممات عليل
وان افتقادي واحدا بعد واحد * دليل على أن لا يدوم خليل

وقال

ألا أيها الموت الذي ليس تاركي * أرحني فقد أفنيت كل خليل
أراك بصيرا بالذين أحبهم * كأنك تنحوهم بكل سبيل

ولما نفض يديه من ترابها تمثل بقول بعض بني أمية

أقول وقد فاضت دموعي عسرة * أرى الارض تبقى والاخلاء تذهب
أخلاي لو غير الحمام أصابكم * عتبت ولكن ما على الموت معتب

وقال العتابي

قلت للفرقدين والليل ملق * سودا كفه على الآفاق
ابقيا ما بقيتما فسيرمي * بين شخصيكما بسهم الفراق
غر من ظن أن يفوت المنايا * وعراها قلائد الاعناق
كم صفيين متعا باجتماع * ثم صارا لغربة وافتراق
لا يدوم البقاء للخلق لكن * دوام البقاء للخلاق

وأنشدني بعض الادباء

أسعداني يا خلتي حلوان * وارثيا لي من ريب هذا الزمان
ولعمري لو ذقتما حرق الفر * قة ابكاكما الذي أبكاني
واعلما ان بقيتما ان نحسا * سوف يأتيكما فتفترقان

ولما سافر الرشيد الى طوس وعك في طريقه من مر أصابه فقال له الطبيب لا يبرئك الا جمار النخل وكان نزوله قريبا من هاتين النخلتين فامر بقطع جمار احدى النخلتين فلما مثل بين يديه أنشده بعض الجلساء هذه الابيات لبعض الشعراء في هاتين النخلتين فقال الرشيد لو سمعتهما لما أمرت بقطعهما ولما مات الاسكندر قال ارسطاطاليس أيها الملك لقد حركتنا بسكوتك وقال بعض الحكماء من أصحاب سنحاريب الملك أمس انطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس فنظمه أبو العتاهية فقال

كفى حزنا بدفنك ثم أني * نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت من حياتك لي عظات * فانت اليوم أوعظ منك حيا

ووجد مكتوبا على قبر قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة (وقال عبد الله بن المعتز)

نسير الى الآجال في كل ساعة * وأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم أر مثل الموت حقا كأنه * اذا ما تخطته الامانى باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبا * فكيف به والشيب في الرأس شامل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى * فعمرك أيام تعد قلائل

ولما دخل أبو الدرداء الشام قال يا أهل الشام اسمعوا قول أخ لكم ناصح فاجتمعوا عليه فقال مالي أراكم تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا شديدا وأملوا بعيدا وجمعوا كثيرا فاصبح أملهم غرورا وجمعهم بورا ومساكنهم قبورا * وروى الحافظ قال وجد مكتوبا في حجر ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجو من أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت عن حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب فلا أنت في عملك زائد ولا الى أهلك عائد * وقال مالك بن أنس بلغني ان امرأتين أتتا عيسى عليه السلام فقالتا يا روح الله ادع الله لنا أن يخرج لنا أبانا فانه هلك ونحن نحاثبتان عنه قال تعرفان قبره فقالتا نعم فذهب معهما فاتيا قبرا فقالتا هذا هو فدعا الله فاخرج لهما فاذا هو ليس به فدعا فرد ثم دلاتاه على قبر آخر فدعا أن يخرج فخرج فاذا هو فلزمتاه وسلمتا عليه ثم قالتا يا نبي الله يا معلم الخير ادع الله أن يبقيه معنا فقال وكيف أدعو له ولم يبق له رزق يعيش به ثم رده وانصرف وانشدني بعض الادباء

وآسى من فراق قوم * هم المصابيح والحصون
والمزن والمدن والرواسي * والخير والامن والسكون
لم تتغير بنا الليالي * حتى توفيهم المنون
فكل جمر لنا قلوب * وكل ماء لنا عيون

(وروى) ان النعمان بن المنذر خرج متصيدا ومعه عدي بن زيد فمر وا بشجرة فقال عدي بن زيد أيها الملك أتدري ما تقول هذه الشجرة قال لا قال انها تقول

من رآنا فليحدث نفسه * انه موف على قرب سؤال
وصروف الدهر لا يبقى لها * ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا * يشربون الخمر بالماء الزلال
عمروا الدهر بعيش حسن * آمنى دهرهم غير مجال
عصف الدهر بهم فانقرضوا * وكذاك الدهر حالا بعد حال

قال ثم جاوزوا الشجرة فمروا بمقبرة فقال له عدي أيها الملك أتدري ما تقول هذه المقبرة قال لا قال انها تقول

أيا الركب المخبونا * على الارض المجدونا
كما أنتم كذا كنا * كما نحن تكونونا

فقال النعمان قد علمت أن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان وقد علمت انك انما أردت تعظني فجزاك الله عني خيرا فما السبيل الذي تدلني به النجاة قال تدع عبادة الاوثان وتعبد الله وحده قال في هذه النجاة قال نعم فترك عبادة الاوثان وتنصر يومئذ وأخذ في العبادة والاجتهاد (وقال) عبد الله بن المعلم خرجنا من المدينة حجاجا فلما كنا بالروينة نزلنا فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة ليس له منظر وهيئة فقال ممن يبتاع خادما من يبتاع ساقيا فقلت دونك هذه القربة فاخذها فانطلق فلم يلبث الا يسيرا حتى أقبل وقد امتلأت أنوابه طينا فوضعها كالمسرور الضاحك ثم قال لكم غير هذا قلنا لا وأطعمناه قرصا باردا فأخذه وحمد الله تعالى وشكره ثم اعتزل وتعشى فاكل أكل جائع فادركتني عليه الرأفة فقمت اليه بطعام طيب كثير فقلت له قد علمت أنك لم يقع منك القرص بموقع

فدونك هذا الطعام فنظر فى وجهى وتبسم وقال يا عبد الله انما هى فورة جوع فما أبالى بأى شئ رددتها فرجعت عنه فقال لى رجل الى جنبى أتعرفه قلت لا قال انه من بنى هاشم من ولد العباس ابن عبد المطلب كان يسكن البصرة فتاب فخرج منها فتفقدته فما عرف له أثر ولا وقف له على خبر فاعجبنى قوله ثم اجتمعت به وآنسته وقلت له هل لك أن تعادلنى فان معى فضلا من زادى فجزانى خيرا وقال لو أردت هذا لكان لى معدا ثم أنس الى فجعل يحدثنى فقال أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة وكنت ذا كبر شديد وبذخ وانى أمرت خادما لى أن تحشو فراشا لى من حرير ومخدة بورد تفرفعات وانى لنائم اذا بقمع وردة قد أغفلته الخادم فقمت اليها فاوجعتها ضربا ثم عدت الى مضجعى بعد اخراج القمع من المخدة فاتانى آت فى منامى فى صورة فظيعة فهزنى وقال أفق من غشيتك أبصر من حيرتك ثم أنشأ يقول

ياخدنا انك ان توسد لينا * وسدت بعد الموت صم الجندل
فامهد لنفسك صالحا تسعد به * فلتندمن غدا اذا لم تفعل

فانتبهت فزعا فخرجت من ساعتى هاربا الى ربى (وقال) عبد الواحد بن زيد ذكر لى أن فى جوانب الابلة جارية مجنونة تنطق بالحكمة فلم أزل أطلبها حتى وجدتها فى خرابة جالسة على حجر وعليها جبة صوف وهى محلوقة الرأس فلما نظرت الى قالت من غير أن أكلمها مرحبا بك يا عبد الواحد فقلت لها رحمك الله بك وعجبت من معرفتها لى ولم ترنى قبل ذلك فقالت ما الذى جاء بك ههنا فقلت جئت لتعظينى فقالت واعجبا لواعظ يوعظ ثم قالت يا عبد الواحد اعلم أن العبد اذا كان فى كفاية ثم مال الى الدنيا سلبه الله حلاوة الزهد فيظل حيرانا والهافان كان له نصيب عند الله عاتبه وحيا فى سره فقال عبدى أردت ان أرفع قدرك عند ملائكتى وحملة عرشى واجعلك دليلا لاوليائى وأهل طاعتى فى أرضى فملت الى عرض من أعراض الدنيا وتركتنى فورثتك بذلك الوحشة بعد الانس والذل بعد العز والفقر بعد الغنى عبدى ارجع الى ما كنت عليه ارجع لك ما كنت تعرفه من نفسك ثم تركتنى وولت عنى وانصرفت عنها وبقلبى حسرة منها وأنشدوا

انك فى دار لها مدة * يقبل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطا بها * يقطع فيها أمل الآمل
تعجل الذنب بما تشتهى * وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتى بعد ذا غفلة * ماذا يفعل الحازم العاقل

* ولما نزل سعد بن ابى وقاص الحيرة قيل له ههنا عجوز من بنات الملوك يقال لها الحرقة بنت النعمان بن المنذر وكانت من اجل قبائل العرب وكانت اذا خرجت الى بيعتها نشرت عليها ألف قطيفة حرير وديباج ومعها الف وصيف ووصيفة فارسل اليها سعد فجاءت كالشن البالى فقالت يا سعد كان ملوك هذا المصر قبلك يحملون الينا خراجه ويطيعنا اهله مئة من المدد حتى صاح بنا صائح الدهر فشتت شملنا والدهر ذو أتب وصروف فلو رأيتنا فى أيامنا الاولى عدت فرأيت لك فزعا منا فقال لها سعد ما أنعم ما تنعمتم به قالت سعة الدنيا علينا وكثرة الاصوات اذا دعونا ثم انشأت تقول

وبينا نسوس الناس والامر أمرنا * اذا نحن فيهم سوقة ليس ننصف
فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها * تقلب تارات بنا وتصرف

ثم قالت ياسعد انه لم يكن أهل بيت خير الا والدهر يعقبهم غيره حتى يأتى أمر الله على الفريقين فاكرمها سعد وأمر بردها فلما أرادت القيام قالت ياسعد لا أزال الله عنك نعمة ولا جعل لك الى لئيم حاجة ولا أزال عن كريم نعمة ولا أزال عن عبد صالح نعمة الا جعلك الله سبيلا الى ردها عليه ولبعضهم

من كان يعلم ان الموت يدركه * والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستبهجه * يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شئ سوى التقوى به سمج * وما أقام عليه منه أسمجه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنا * لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

(وروى) ان عيسى عليه السلام كان مع صاحب له يسيحان فاصابهما الجوع وقد انتهيا الى قرية فقال عيسى لصاحبه انطلق فاطلب لنا طعاما من هذه القرية وقام عيسى يصلى فجاء الرجل بثلاثة ارغفة فابطأ عليه انصراف عيسى فاكل رغيفا فانصرف عيسى فقال أين الرغيف الثالث فقال ما كانا الا رغيفين قال فنراعلى وجوههما حتى مرا بظباء ترعى فدعا عيسى عليه السلام ظبيا منها فذكاه فاكلا منه ثم قال عيسى عليه السلام للظبى قم باذن الله فاذا هو يشتد فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى بالذى اراك هذه الآية من صاحب الرغيف قال ما كانا الا اثنين قال فضيا على وجوههما فمرا بنهر عجاج عظيم فاخذ عيسى عليه السلام بيده فمشى به على الماء حتى جاوزا الماء فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى عليه السلام بالذى أراك هذه الآية من صاحب الرغيف قال ما كانا الا اثنين فخرجا حتى أتيا قرية عظيمة خربة واذا قريب منها لبن ثلاث من ذهب فقال الرجل هذا مال فقال عليه السلام أجل هذا مال واحدة لى وواحدة لك وواحدة لصاحب الرغيف فقال أنا صاحب الرغيف فقال عليه السلام هى لك كلها ففارقه فاقام عليها ليس معه ما يحملها عليه فمر به ثلاثة نفر فقتلوه وأخذوا اللبن فقال اثنان منهم لواحد انطلق الى القرية فأتنا بطعام فذهب فقال احد الباقيين نعال نقتل هذا اذا جاء ونقسم هذا بيننا قال الآخر نعم وقال الذى ذهب يشترى الطعام أجعل فى الطعام سما فاقتلهما وآخذ اللبن ففعل فلما جاء قتلاه واكلا من الطعام الذى جاء به فماتا فمر بهم عيسى عليه السلام وهم حولها منصرعين فقال هكذا تفعل الدنيا باهلها (وقال عبد الملك) بن عمير رأيت فى هذا القصر عجبا رأيت رأس الحسين على نوبين مصبوغين بين يدى ابن زياد ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدى المختار ثم رأيت رأس المختار بين يدى المصعب بن الزبير ثم رأيت رأس المصعب بن الزبير بين يدى عبد الملك بن مروان (وقال الاصمعى) لما زخرف الرشيد مجالسه وتحرم فيها وزوقها وصنع فيها طعاما كثيرا ارسل الى ابى العتاهية وقال صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال

يمسى ما يدا لك سالما * فى ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيت لدى الرواح وفى البكور
واذا النفوس تقعقعت * فى ضيق حشرجة الصدور

فهنالك تعلم موقنا * ما كنت الا فى غرور

فبكى هرون فقال الفضل بن يحيى بعث اليك أمير المؤمنين لتسره فاحزنته فقال هرون دعه فانه رآنا فى ضلالة وعمى فكره أن يزيدنا عمى (ويروى) ان سليمان بن عبد الملك لبس أفخر ثيابه ومس أطيب طيبه ونظر فى مرآته فأعجبته نفسه وقال أنا الملك الشاب وخرج الى الجمعة وقال لجاريته كيف ترين فقالت

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لا بقاء للانسان

ليس فيما بدا لنا منك عيب * عابه الناس غير أنك فانى

فاعرض بوجهه ثم خرج فصعد المنبر وصوته يسمع آخر المسجد فركبته الحمى فلم يزل صوته ينقص حتى ما سمعه من حوله فصلى ورجع بين اثنين يسحب رجليه فلما صار على فراشه قال للجارية ما الذى قلت لى فى صحن الدار قالت ما رأيتك ولا قلت شيأ وأنى لى بالخروج الى صحن الدار فقال انا لله وانا اليه راجعون نعيت الى نفسى ثم عهد عهده وأوصى وصيته فلم تدر عليه الجمعة الاخرى الا وهو فى قبره (ووجد) مكتوبا على قصر سيف بن ذى يزن

من كان لا يطأ التراب برجله * وطئ التراب بناعم الخد

من كان بينك فى التراب وبينه * شبران كان بغاية البعد

لو بعثرت للناس أطباق الثرى * لم يعرف المولى من العبد

(وقال الهيثم بن عدى) وجدوا غارا فى جبل لبنان زمان الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب وعند رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه بالرومية أنا سابا بن نواس بن سبا خدمت عيصو بن اسحق بن ابراهيم خليل الرب الديان الملك الاكبر وعشت بعده عمرا طويلا ورأيت عجبا كثيرا ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبر أحبائه ويعلم انه صائر اليهم ثم لا يتوب وقد علمت ان الاجلاف الجفاة سينزلونى عن سريرى ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان وتتأمر الصبيان ويكثر الحدثان فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلا ومات ذليلا (ويروى) ان الاسكندر مر بمدينة قد ملكها أملاك سبعة وبادوا فقال هل بقى من نسل الاملاك الذين ملكوا هذه المدينة أحد قالوا رجل يكون فى المقابر فدعاه وقال له ما دعاك الى لزوم المقابر قال أردت أن أعزل عظام الملوك من عظام عبيدهم فوجدت ذلك سواء قال فهل لك أن تتبعنى فأحيى بك شرف آبائك ان كانت لك همة قال ان همتى لعظيمة ان كانت بغيتى عندك قال وما بغيتك قال حياة لا موت فيها وشباب لا هرم فيه وغنى لا يتبعه فقر وسرور لا يعتريه مكروه قال ما أقدر على هذا قال فانفذ لشأنك وخلنى أطلب بغيتى ممن هى عنده فقال الاسكندر هذا احكم من رأيت (وروى) فى الاسرائيليات ان عيسى بن مريم عليه السلام بينما هو فى بعض سياحته اذ مر بجمجمة نخرة فامرها أن تتكلم فقالت يا روح الله أنا بلوام بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة وولد لى ألف ذكر وافتضضت ألف بكر وهزمت ألف عسكر وقتلت ألف جبار وافتتحت ألف مدينة فمن رآنى فلا يغترن بالدنيا كما غررتنى فما كانت الا كحلم نائم فبكى عيسى عليه السلام (ووجد) مكتوبا على قصر بعض الملوك وقد باد أهله وأقفرت ساحته

هذى منازل أقوام عهدتهم * يوفون بالعهد مذ كانوا وبالذمم
تبكى عليهم ديار كان يطربها * ترنم الجد بين الحلم والكرم

(وقال) عبد الله بن أبى نوح نزل حى من العرب شعبا من شعاب اليمن فتشاحنوا فيه واختلفوا واستعدوا للقتال فاذا صائح يصيح ياهؤلاء على رسلكم علام القتال فى فوالله لقد ملكنى سبعون أعور كلهم اسمه عمرو

(فصل) أيها الرجل اعتبر بمن مضى من الملوك والاقيال وخلا من الامم والاجيال وكيف بسطت لهم الدنيا وأنست لهم الآجال وانفسح لهم فى المنى والآمال وأمدوا بالآلات والعدد والاموال كيف طحنهم بكلكله المنون واختدعهم بزخرفه الدهر الخؤون وأسكنوا بعد سعة القصور بين الجنادل والصخور وعاد العين أثرا والملك خبرا فاما اليوم فقد ذهب صفو الزمان وبقى كدره فالموت اليوم تحفة لكل مسلم كأن الخير أصبح خاملا والشر أصبح ناظرا وكأن الغى أصبح ضاحكا والرشيد باكيا وكأن العدل أصبح غائرا وأصبح الجور عاليا وكأن العقل أصبح مدفونا والجهل منشورا وكأن اللؤم أصبح باسقا والكرم خاويا وكأن الود أصبح مقطوعا والبغضاء موصولة وكأن الكرامة قد سلبت من الصالحين وتوخى بها الاشرار وكأن الخب أصبح مستيقظا والوفاء نائما وكأن الكذب أصبح مثمرا والصدق ماحلا وكأن الاشرار أصبحوا يسامون السماء وأصبح الاخيار يردون بطن الارض أما ترى الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول خيرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك ولا تنافس أهل الدنيا فى خفض عيشهم ولين رياشهم ولكن انظر الى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم قال الشاعر

رب مغروس يعاش به * عدمته عين مغترسه
وكذاك الدهر مأتمه * أقرب الاشياء من عرسه

وقد قال التهامى

تنافس فى الدنيا غرورا وانما * قصارى غناها أن تؤول الى الفقر
وانا لفى الدنيا كركب سفينة * تظن وقوفا والزمان بها يجرى

ولبعض الشعراء

تروح لك الدنيا بغير الذى غدت * وتحدث من بعد الامور أمور
وتجرى الليالى باجتماع وفرقة * وتطلع فيها أنجم وتغور
فمن ظن أن الدهر باق سروره * فذاك محال لا يدوم سرور
عفا الله عن صبر الهم واحدا * وأيقن ان الدائرات تدور

(وقال وهب بن منبه) قرأت فى كتب بعض الانبياء عليهم السلام أن المسيح اجتاز بجمجمة هائلة عظيمة نخرة فقال له اصحابه يا روح الله لو سألت الله تعالى أن يستنطق هذه الجمجمة فعسى تخبرنا بما رأته من العجائب ففعل فانطقها الله تعالى فقالت يا روح الله انى عشت ألف سنة

واستولدت ألف ذكر وافتتحت ألف مدينة وهزمت ألف جيش وقتلت ألف جبار وصحبت الدهر واختبرته وامتحنت تقلبه وانقلابه فلم أر شيئا أشد من طالح يلي أمر صالح ولم أجد لهذا الدهر شيئا أنفع من الصبر ومسالمة أهله ولم أر هلاك أهله الا في الحرص والطمع ووجدت العز في الرضا بالقسم (وقال محمد) بن أبي العتاهية آخر شعر قاله أبي في مرضه الذي توفي فيه رحمه الله

الهي لا تعذبني فاني * مقر بالذي قد كان مني
فما لي حيلة الا رجائي * وعفوك ان عفوت وحسن ظني
وكم من زلة لي في البرايا * وأنت علي ذو فضل ومن
اذا فكرت في قدمي عليها * عضضت أناملي وقرعت سني
أجن بزهرة الدنيا جنونا * وأقطع طول عمري بالتمني
وبين يدي ميقات عظيم * أراني قد دعيت له كأني
ولو أني صدقت الله فيها * قذفت لأهلها ظهرا لبطن

(وقال ابن عباس) لما ورد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ايكم يعرف قس بن ساعدة قالوا كلنا نعرفه يا رسول الله قال رجل لست انساه بعكاظ على جمل احمر وهو يخطب الناس ويقول ايها الناس اجتمعوا فاذا اجتمعتم فاسمعوا فاذا سمعتم فعوا فاذا وعيتم فقولوا فاذا قلتم فاصدقوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت ان في السماء لخبرا وان في الارض لعبرا مهاد موضوع وسقف مرفوع ونجوم تمور وبحر لا يغور أقسم قس قسما حقا لا كذب فيه ولا اثم لئن كان في الارض رضا ليكونن سخطا ان لله دينا هو أحب اليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فقاموا أو تركوا على ما لهم فناموا ثم قال ايكم يروي شعره فأنشدوه

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا * للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها * تمضي الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضي اليك ولا من الباقين غابر
سكنوا البيوت فوطنوا * ان البيوت هي المقابر
أيقنت أني لا محا * لة حيث صار القوم صائر

ثم قال الرجل لقد رأيت منه عجبا اقتحمت واديا فاذا انا بعين جارية وروضة مدهامة وشجرة عادية واذا بقس بن ساعدة قاعد في اصل الشجرة وبيده قضيب وقد ورد على العين سبع كثيرة فكلما ورد سبع على صاحبه ضربه بالعصا وقال تنح حتى يشرب الذي ورد قبلك فلما رأيت ذلك ذعرت ذعرا شديدا فالتفت الي وقال لا تخف فالتفت فاذا بقبرين بينهما مسجد فقلت ما هذان القبران قال هما قبرا اخوي كانا يعبدان الله تعالى معي في هذا الموضع وأنا أعبد الله بينهما حتى ألحق بهما فقلت له ألا تلحق بقومك فتكون في جيرتهم فقال لي شكلتك أمك أوما علمت ان ولد اسمعيل تركت دين ابيها واتبعت الاصنام وعظمت الانداد ثم تركني

وأقبل على القبرين وقال

خليلي هبا طالما قد رقدتما * أجدكما ما تقضيان كراكما
أرى النوم بين الجلد والعظم منكما * كأن الذي يسقي العقار سقاكما
ألم تعلما أني بسمعان مفرد * ومالي فيه من خليل سواكما
مقيم على قبريكما لست نازحا * طوال الليالي أو يجيب صداكما
أأبكيكما طول الحياة وما الذي * يرد على ذي غصة ان بكاكما
كأنكما والموت أقرب غاية * بروحي في قبريكما قد أتاكما
سلام وتسليم وروح ورحمة * ومغفرة المولى على ساكناكما
فلو جعلت نفس لنفس وقاية * لجدت بنفسي أن تكون فداكما

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان قس بن ساعدة يبعث أمة وحده يعني ان كل أمة آمنت بنبيها تبعث أمة وحدها لا يخالطها غيرها ويبعث قس أيضا وحده أمة ليس معه أحد (ويروى) ان المهدي نام يوما فانشد في نومه هذه الابيات

كأني بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه ركنه ومنازله
فلم يبق الا ذكره وحديثه * ينادي بليل معولات نواكله

فأقامت عليه عاشرة عشرة حتى مات (وأنشدني) القاضي أبو العباس الجرجاني رحمه الله بالبصرة هذه الابيات

بالله ربك كم قصر مررت به * قد كان يعمر باللذات والطرب
طارت عقاب المنايا في جوانبه * فصاح من بعده بالويل والحرب

وأنشدني أيضا

أيها الرافع البناء رويدا * لن تذود المنون عنك المباني
ان هذا البناء يبقى ويفنى * كل شئ ابقى من الانسان

(وقال الحكم بن عمرو) قال أبو جعفر المنصور عند موته اللهم ان كنت تعلم أني ارتكبت الامور العظام جراءة مني عليك فانك تعلم أني قد أطعتك في أحب الاشياء اليك شهادة أن لا اله الا الله منا منك لا منا عليك * وكان سبب احرامه من الخضراء أنه كان يوما نائما فاتاه آت في منامه فقال

كأني بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه أهله ومنازله
وصار عميد القصر من بعد بهجة * الى تربة تسفي عليه جنادله

فاستيقظ مرعوبا ثم نام فأنشد

أيا جعفر حانت وفاتك وانقضت * سنوك وأمر الله لابد واقع
فهل كاهن أعددته ومنجم * أيا جعفر عنك المنية دافع

فقال يا ربيع ائتني بطهوري فقام واغتسل ولبى وتجهز للحج ثم قال يا ربيع القني في حرم الله تعالى (وأنشدني) القاضي أبو العباس الجرجاني بالبصرة

ان كنت تسمو الى الدنيا وزينتها * فانظر الى ملك الاملاك قارون

زم الامور فاعطته مقادتها * وسخر الناس بالتشديد واللين
حتى اذا اظن أن لاشئ غالبه * ومكنت قدماه أى تمكين
راحت عليه المنايا روحة تركت * ذا الملك والعز تحت الماء والطين

وأنشدنى أبو محمد التميمى ببغداد

لمن أبى لمن أسم المطايا * لمن استأنف الشئ الجديدا
اذا ماصار اخوانى رفاتا * وصرت لفقدهم فردا وحيدا
أعاين معشرا لهم شكول * وأشكالى قد اعتنقوا اللحودا

(وممن زهد فى الدنيا) وأبصر عيوبها من أبناء الملوك أبو عقال علوان بن الحسن من بنى الاغلب وهم ملوك المغرب وكان ذا نعمة وملك وله قوة ظاهرة فتاب الى ربه ورجع عن ذلك رجوعا فارق نظراءه فرفض المال والاهل وهجر البناء والوطن وبلغ من العبادة مبلغا أربى فيه على المجتهدين وعرف باجابة الدعوة وكان عالما أديبا قد صحب عدة من أصحاب سحنون وسمع منهم ثم انقطع الى بعض السواحل فصحب رجلا يكنى أبا هرون الاندلسى منقطعا متبتلا الى الله تعالى فلم ير منه كبير اجتهاد فى العمل فبينا أبو عقال يتهجد فى بعض الليالى وأبو هرون نائم اذ غالبه النوم فقال لنفسه يانفس هذا عابد جليل القدر ينام الليل كله وأنا أسهر الليل كله فلو أرحت نفسى فوضع جنبه فرأى فى منامه شخصا قائلا عليه أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات الى آخر الآية فاستيقظ فزعا وعلم أنه المراد فأيقظ أبا هرون وقال له سألتك بالله هل أتيت كبيرة قط قال لا يا ابن أخى ولا صغيرة عن تعمد والحمد لله فقال أبو عقال لهذا تنام أنت ولا يصلح لمثلى الا الكد والاجتهاد ثم دخل الى مكة ولزم بيت الله الحرام وحج مرارا وأربى على عباد المشرق وكان يعمل بالقربة على ظهره بقوته ومات بمكة وهو ساجد فى صلاة الفريضة بالمسجد الحرام سنة ست وتسعين ومائتين وقال له رجل كان يصحبه يوما لى اليك حاجة فقال له بعد الجهد به حاجتك مقضية قال ان كان لك شهوة أخبرنى بها قال نعم أشتهى أن آكل رأسا قال فاشتريت له رأسين ولففتهما فى رقاق وجئته بهما ثم سألته بعد أيام هل طاب لك الرأسان قال لا ماهو الا أن فتحتهما فاذا هما محشوان دودا ليس فيهما البتة لحم الا الدود فاتيت الرآمس فاخبرته فأطرق متعجبا ثم قال ماظننت أن فى زماننا أحدا يحمى عن الحرام هذه الحماية تلك الرؤس كانت من غنم انتهبها بعض العيال ثم أعطانى رأسين من غير تلك الغنم فاتيت بهما أبا عقال فاكلهما فاخبرته بما قال الرآمس فبكى ثم قال يارب ما كان يستحق عبدك أبو عقال مثل هذه الحماية ولكنه يارب فضلك وكرمك فلك على يارب أن لا آكل طعاما بشهوة أشتهيها حتى ألقاك ان شاء الله تعالى وكانت له أخت متعبدة فلما مات لحقت قبره بمكة وبكت عليه وكتبت عليه هذه الابيات

ليت شعرى ما الذى عاينته * بعد دوم الصوم مع نفى الوسن
مع عزوف النفس عن أوطارها * والتخلى عن حبيب وسكن
ياشقيق ليس فى وجدى به * علة تمنعنى أن أجن
وكما تبلى وجوه فى الثرى * فكذا يبلى عليها الحزن

(وروى) ان رجلين تنازعا فى ارض فانطق الله لبنة من جدار تلك الارض فقالت انى كنت ملكا من الملوك ملكت الدنيا ألف سنة ثم مت وصرت رميما ألف سنة فاخذنى خزاف واتخذنى خزفا ثم أخذنى وضربنى لبنا وأنا فى هذا الجدار كذا وكذا سنة فلم تتنازعان فى هذه الارض (ومن اعجب) ماروى فى الاسرائيليات ان ابنة من بنات الملوك تزهدت فى الدنيا وتابت وخرجت من ملكها ففقدت فلم يسمع لها خبر ولا علم لها أثر وكان هنالك دير للمتعبدين فلحق بهم شاب يتعبد فابصر وامنه من الاجتهاد والجد فى العمل وملازمة الاوراد ومواصلة الاعمال مافاق به جميع من فى الدير واقام على ذلك ماشاء الله تعالى الى ان انقضت ايامه ووافاه حمامه فقضى الفتى نحبه فحزن له اهل الدير من الزهاد والعباد والمنقطعين وأذرواعليه الدموع ثم اخذوا فى غسله واذا هو امرأة ففحصوا عن امره واذا هى بنت الملك فزادهم ذلك اعجابا به وتعظيما له وتشاوروا فى امره ماذا يحدثون له من الكرامة ثم اجمعوا امرهم أن لا يدفنوها تحت الثرى وان يحملوها فوق اكفهم فغسلوها وكفنوها وجهزوها وصلوا عليها ثم اقبلوا يحملونها على الاكف والسواعد كلما ضجر واحد جاء واحد يحمل مع من يحمل وكل من انقطع فى الدير لعبادة ربه جعل يحمل معهم الى أن بليت وتقطعت أوصالها مع طول الزمان فدفنت حينئذ رحمة الله عليها (وكان) فى بلاد الروم مما يلى ارض الاندلس رجل نصرانى قد بلغ فى التخلى من الدنيا مبلغا عظيما واعتزل الخلق والتزم قلل الجبال والسياحة فى الارض الى الغاية القصوى فورد على المستعين بن هود فى بعض الامر فاكرمه ابن هود ثم اخذ بيده وجعل يعرض عليه ذخائر ملكه وخزائن امواله وماحوته من البيضاء والحمراء واجارالياقوت والجواهر وامثالها ونفائس الاعلاق والجوارى والحشم والاجناد والكراع والسلاح فاقاموا فى ذلك اياما فلما انقضت قال له كيف رأيت ملكى قال قد رأيت ملكا ولكنه يعوزك فيه خصلة ان انت قدرت عليها فهى انتظام ملكك وان لم تقدر عليها فهذا الملك لاشئ قال وما تلك الخصلة قال تعمد فتصنع غطاء عظيما حصينا قويا وتكون مساحته قدر البلد ثم تركبه على البلد حتى لا يجد ملك الموت مدخلا اليك فقال المستعين سبحان الله أو يقدر البشر على هذا فقال العلج ياهذا اتفتخر بامر تتركه غدا ومثال من يفتخر بما يفنى كمن يفتخر بما يراه فى النوم (ويروى) ان ملكا من الملوك بنى قصرا وقال انظروا من عاب منه شيا فاصلحوه وأعطوه درهمين فأتاه رجل فقال ان فى هذا القصر عيبين قال وما هما قال يموت الملك ويخرب القصر فقال صدقت ثم اقبل على نفسه وترك الدنيا (ومن عجائب) اخبار الخضر عليه السلام قالوا سئل الخضر عليه السلام عن اعجب شئ رأيته فى الدنيا فى طول سياحتك وكثرة خلواتك وقطعك القفار والفلوات قال أعجب ما رأيته أنى مررت على مدينة لم ار على وجه الارض احسن منها فسألت بعضهم متى بنيت هذه المدينة قالوا سبحان الله مايدرك آباؤنا ولا اجدادنا متى بنيت هذه المدينة ومازالت كذلك من عهد الطوفان ثم غبت عنها نحوا من خمسمائة عام وعبرت عليها بعد ذلك واذا هى خلوية على عروشها ولم ار أحدا أسأله واذا رعاة غنم قد نوت منهم فقلت أين المدينة التى كانت ههنا قالوا سبحان الله مايدرك آباؤنا ولا اجدادنا انه قط كانت ههنا مدينة فغبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها فاذا موضع تلك المدينة بحر واذا غواصون

يخرجون منه شبه الحلية فقلت لبعض الغواصين منذ كم كان هذا البحر ههنا فقال سبحان الله ما يدرك آباؤنا ولا أجدادنا الا ان هذا البحر منذ بعث الله الطوفان ثم غبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها واذا ذلك البحر قد غاض ماؤه واذا مكانه غيضة ملتفة بالقصب والبردى والسباع واذا صيادون يصيدون السمك فى زوارق صغار فقلت لبعضهم أين البحر الذى كان ههنا فقال سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا ان ههنا قط بحر فغبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم أتيت الى ذلك المكان فاذا هو مدينة على حاله الاولى والحصون والقصور والاسواق قائمة فقلت لبعضهم أين الغيضة التى كانت ههنا ومتى بنيت هذه المدينة فقالوا سبحان الله ما يذكر احد الا ان هذه المدينة على حالها منذ بعث الله الطوفان فغبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها فاذا عاليها اسافلها وهى تدخن بدخان شديد فلم ار أحدا أسأله ثم رأيت راعيا فسألته اين المدينة التى كانت ههنا ومتى حدث هذا الدخان فقال سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا اجدادنا الا ان هذا الموضع كان هكذا منذ كان فهذا اعجب شئ رأيته فى سياحتى فى الدنيا فسبحان مبيد العباد ومفنى البلاد ووارث الارض ومن عليها ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم (قال الشاعر)

قف بالديار فهذه آثارهم * تبكى الاحبة حسرة وتشوقا
كم قد وقفت بها أسائل مخبرا * عن اهلها اوناطقا اومشفقا
فاجابنى داعى الهوى فى رسمها * فارقت من تهوى فعز الملتقى

(ومن الشعر) المستحسن فى هذه الابيات قول القائل

رب ورقاء هتوف بالضحى * ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفا ودهرا صالحا * فبكت حزنا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها * وبكاها ربما أرقنى
فاذا تسعدنى أسعدها * واذا اسعدها تسعدنى
ولقد تشكو فما افهمها * ولقد اشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها * وهى ايضا بالجوى تعرفنى

(ونظر) رجل من العباد الى باب ملك من الملوك وقد شيده وأتقنه وزوقه فقال باب حديد وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد (ولما نقل) عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوى يده توبا فقال وددت انى كنت غسالا لا املك ما أكسبه يوما فيوما فبلغ ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذى جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى عنده ما هم فيه (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع أحدكم من الدنيا الا غنى مطغيا أو فقرا منسيا او مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو الدجال والدجال شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وامر (وقال) عيسى عليه السلام اوحى الله الى الدنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه يا دنيا تمرى على اوليائى ولا تحلولى لهم فتفتنيهم (وقال) مورق العجلى يا ابن آدم فى كل يوم يؤتى برزقك وتحزن وينقص عمرك وانت لا تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك لا بقليل تقنع

ولا

ولا يكثر تشبع (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته ايها الناس ان الايام تطوى والاعمار تفنى والابدان في الثرى تبلى وان الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما الهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات (وقال) بعض الحكماء الدنيا كالماء المالح كلما ازداد صاحبه شربا ازداد عطشا وكالكأس من العسل في اسفله السم للذائق منه حلاوة عاجلة وله في اسفله الموت الذعاف وكالاحلام للنائم التي تفرحه في منامه فاذا استيقظ انقطع الفرح وكالبرق الذي يضيء قليلا ويذهب وشيكا ويبقى رائيه في الظلام مقيما وكدودة الابريسم التي لا يزداد الابريسم على نفسها الا ازدادت من الخروج بعدا (وفيه قال القائل)

كدود كدود التز ينسج دائما * ويهلك غما وسطها وهو ناسجه

ومثال من يستعجل زهرة الدنيا ويعرض عن الدار الآخرة مثل رجلين التقطا من الارض حبتي عنب فأما أحدهما فجعل يمص الحبة التذاذا بها ثم يلقيها وأما الآخر فزرع الحبة فلما كان بعد زمان التقيا فأما الذي زرع الحبة وجدها قد صارت له كرما وكثرت ثمرته وفكر الآخر في صنعه في الحبة فوجدها قد صارت عذرة وليس عنده منها شيء الا الحسرة على تفريطه والغبطة لصاحبه (وقال) وهب بن منبه أوحى الله تعالى الى نبي من أنبياء بني اسرائيل ان أردت ان تسكن معي في حضرة القدس فكن في الدنيا وحيدا فريدا همهما وحشيا بمنزلة الطير الوحداني الذي يظل في الارض الفلاة ويأكل من رؤس الشجر ويشرب من ماء العيون فاذا كان الليل أوى وحده ولم يأو مع الطير استئناسا بربه (وانشدهم)

كم للحوادث من صروف عجائب * ونوائب موصولة بنوائب
ولقد تقطع من شبابك وانقضى * ما لست أعلمه اليك بآيب
تبغي من الدنيا الكثير وانما * يكفيك منها مثل زاد الراكب

(وقال مالك بن أنس) بلغني ان عيسى عليه السلام انتهى الى قرية فد خربت حصونها ويبست أنهارها وتشعث شجرها فنادى يا خراب أين أهلك فلم يجبه أحد ثم نادى يا خراب أين أهلك فلم يجبه أحد فنودي عيسى بن مريم بادوا وتضمنتهم الارض وعادت أعمالهم قلائد في أعناقهم الى يوم القيامة فبكى عيسى عليه السلام (قال مالك) سئلت امرأة من بقية قوم عاد يقال لها هرزة أي عذاب الله رأيت اشد قالت كل عذاب الله شديد وسلام الله ورحمته على ليلة لا ريح فيها ولقد رأيت العير تحملها الريح بين السماء والارض (وقال) مجاهد كان طعام يحيى بن زكريا العشب وان كان ليبكي من خشية الله تعالى ما لو كان النار على عينيه لاحرقه ولقد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه (ومر) بعض الملوك بسقراط الحكيم وهو نائم فركضه برجله وقال قم فقام غير مرتاع منه ولا ملتفت اليه فقال له الملك ما تعرفني قال لا ولكن أرى فيك طبع الدواب فهي تركض بارجلها فغضب وقال أتقول لي هذا وانت عبدي فقال له سقراط بل أنت عبد عبدي قال وكيف ذلك قال لان شهوتك قد ملكتك وأنا ملكت الشهوات فقال أنا الملك بن الاملاك السادة أملك من البلاد كذا ومن الاموال والرجال كذا قال أراك تفتخر علي بما ليس من نفسك وانما سبيلك أن تفتخر علي بنفسك

ولكن تعال نخلع ثيابنا ونلبس جميعا ثوبا من ماء في هذا النهر ونتكلم اذ يتبين الفاضل من المفضول فانصرف الملك خجلا * وها أنا أحكي لك أمر أصابني طيش عقلي وبلبل حرمي وقطع نياط قلبي فلا يزال مرآة لي حتى يواريني التراب وذلك أني كنت يوما بالعراق وأنا أشرب ماء فقال لي صاحب لي وكان له عقل يا فلان لعل هذا الكوز الذي تشرب فيه الماء قد كان انسانا يوما من الدهر فمات فصار ترابا فاتفق للفخاري أن أخذ تراب القبر وضربه خزفا وشواه بالنار فانتظم كوزا كما ترى وصار آنية يمتهن ويستخدم بعد أن كان بشرا سويا يأكل ويشرب وينعم ويلذ ويطرب فاذا الذي قاله من الجائزات فان الانسان اذا مات عاد ترابا كما كان في النشأة الاولى ثم قد يتفق أن يحفر لحده ويجن بالماء ترابه فيتخذ منه آنية فتمتهن في البيوت أو لبنة فتبنى في الجدار أو طين به سطح البيت أو يفرش في البلد فيوطأ بالاقدام أو يجعل طينا على الجدار وقد يجوز أن يغرس عند قبره شجرة فيستحيل تراب الانسان شجرة وورقا وثمرة فتقرعى البهائم أوراقها ويأكل الانسان ثمرها فينبت منها لحمه وينشر منها عظمه أو تأكل تلك الثمرة الحشرات والبهائم فبينما كان يقتات صار قوتا وبينا كان يأكل صار مأكولا ثم يعود في بطن الانسان رجيعا فيقذف في بيت الراحة أو بعرا ينبذ بالعراء ويجوز اذا حفر قبره ان تسفي الرياح ترابه فتتفرق أجزاؤه في بطون الاودية والتلول والوهاد أليس في هذا ما أذهل العقول وطيش الحلوم ومنع اللذات وهان عنده مفارقة الاهلين والمال واللحوق بقلل الجبال والانس بالوحوش حتى يأتي أمر الله أليس في هذا ما صغر الدنيا وما فيها أليس في هذا ما حقر الملك عند من عظمه والمال عند من جمعه أليس في هذا ما زهد في اللذات وسلى عن الشهوات (وقال) كم من مستقبل يوما لا يستكمله ومنتظر غدا وليس من أجله انكم لو ابصرتم الاجل ومسيره لابغضتم الامل وغروره (ولما) بنى المأمون بن ذي النون وكان من ملوك الاندلس قصره وأنفق فيه بيوت الاموال جاء على أكمل بنيان في الارض وكان من عجائبه أن صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة وبنى في وسطها قبة وساق الماء من تحت الارض حتى علا على رأس القبة على تدبير قد أحكمه المهندسون وكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض فكانت القبة في غلالة من ماء سكبا لا يفتر والمأمون قاعد فيها فروى عنه أنه بينما هو نائم اذ سمع منشدا ينشد هذين البيتين

أتبنى بناء الخالدين وانما * بقاؤك فيها لو عقلت قليل
لقد كان في ظل الاراك كفاية * لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فلم يلبث بعدها الا يسيرا حتى قضى نحبه (ووجد) مكتوبا على قصر قد باد أهله وأقفرت منازله

هذي منازل أقوام عهدتهم * في خفض عيش نفيس ماله خطر
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا * الى القبور فلا عين ولا أثر

ولو قيل للدنيا صفي نفسك لما عدت هذا البيت

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض * على الماء خانته فروج الاصابع

(وروى) أن الحجاج قال في خطبته أيها الناس ان ما بقي من الدنيا أشبه بما مضى من الماء بالماء

ولو أعطيت ما مضى من الدنيا بعد امتى هذه ما قبلته فكيف آسى على ما بقى منها (وروى) ان النبى صلى الله عليه وسلم ضرب مثلا لابن آدم عند الموت كمثل رجل له ثلاثة أخلاء فلما حضره الموت قال لاحدهم قد كنت لى خليلا مكرما موثرا وقد حضرنى من أمر الله تعالى ما ترى فماذا عندك فيقول هذا أمر الله غلبنى عليك لا أستطيع أن أنفس كربك ولكن هأنا بين يديك فخذ منى زادا ينفعك ثم يقول للثانى قد كنت عندى آثر الثلاثة وقد نزل بى من أمر الله تعالى ما ترى فماعندك قال هذا امر الله غلبنى عليك ولا أستطيع ان أنفس كربك ولكن سأقوم عليك فى مرضك فادامت أتقنت غسلك وجودت كسوتك وسترت جسدك وعورتك وقال للثالث قد نزل بى من أمر الله ما ترى وكنت أهون الثلاثة على فماذا عندك قال انى قرينك وحليفك فى الدنيا والآخرة أدخل معك قبرك حين تدخله وأخرج معك حين تخرج منه ولا أفارقك أبدا فقال النبى صلى الله عليه وسلم الاول ماله والثانى أهله والثالث عمله (ولما) لقى ميمون بن مهران الحسن البصرى قال له قد كنت أحب لقاءك فعظنى فقرأ الحسن أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون فقال عليك السلام أبا سعيد فقد وعظت أحسن موعظة واعجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الاخرى وهو يرى الاولى واعجبا كل العجب للشاك فى قدرة الله تعالى وهو يرى خلقه واعجبا كل العجب للمكذب بالنشور وهو يموت فى كل يوم وليلة ويحيا واعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور واعجبا كل العجب للمختال الفخور وانما خلق من نطفة ثم يعود جيفة وهو بين ذلك لا يدرى ما يفعل به (وروى) ان الله تعالى أوحى الى آدم عليه السلام جماع الخير كله فى أربع واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة بينك وبين الناس فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيأ وأما التى لك فاعمل ما شئت فانى أجزيك به وأما التى بينى وبينك فعليك الدعاء وعلى الاجابة وأما التى بينك وبين الناس فكن لهم كما تحب أن يكونوا لك (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام أوتينا ما أوتى الناس ومالم يؤتوا وعلمنا ما علم الناس ومالم يعلموا فلم نجد شيأ أفضل من خشية الله تعالى فى الغيب والشهادة وكلمة الحق فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر (وكتب) معاوية الى عائشة رضى الله عنها ان اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى على فكتبت اليه سلام عليك أما بعد فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس والسلام (ولما) ضرب ابن ملجم عليا رضى الله عنه دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق ودعا الحسن والحسين رضى الله عنهما (فقال) أوصيكما بتقوى الله والرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا ولا تأسفا على شئ فاتكما منها اعملا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا ثم دعا محمدا وقال له أما سمعت ما أوصيت به أخويك قال بلى قال فانى أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ولا تقطع أمرا دونهما ثم أقبل عليهما فقال أوصيكما به خيرا فانه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان ان أباكما كان يحبه فأحباه ثم قال يا بنى أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة وكلمة الحق فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الصديق والعدو والعمل فى النشاط والكسل والرضا عن الله فى الشدة والرخاء * يا بنى ما شر بعده الجنة بشر ولا خير بعده

النار بخير وكل نعيم دون الجنة حقير وكل بلاء دون النار عافية * يابني من أبصر عيب نفسه شغل عن عيب غيره ومن رضي بقسم الله لم يحزن على مافاته ومن سل سيف البغي قتل به ومن حفر لاخيه بئرا وقع فيها ومن هتك حجاب أخيه انكشفت عورات بيته ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره ومن أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط الاذلال احتقر ومن جالس العلماء وقر ومن يصحب صاحب السوء لايسلم ومن يصحب صاحبا صالحا يغنم ومن دخل مداخل السوء اتهم ومن لا يملك نفسه ندم ومن مزح استخف به ومن أكثر من شئ عرف به ومن كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار * يابني الادب خير ميراث وحسن الخلق خير قرين * يابني العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت الا عن ذكر الله تعالى والواحدة في ترك مجالسة السفهاء * يابني لاشرف أعلى من الاسلام ولا كرم أعلى من التقوى ولا معقل أحرز من الورع ولا شفيع أنجح من التوبة ولا لباس أجمل من العافية الحرص مفتاح التعب ومطية النصب التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم يئس الزاد للمعاد العدوان على العباد فطوبى لمن أخلص لله علمه وعمله وحبه وبغضه وأخذه وتركه وكلامه وصمته وقوله وفعله (وروى) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما طعن دعا بابن فشربه فخرج من طعنته فقال الله أكبر فجعل جلساؤه يثنون عليه فقال وددت أن آخر ج منها كفافا كما دخلت فيها لوأن لي اليوم ماطلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع (قال) ابن عمر ولما حضرت الوفاة عمر غشي عليه فاخذت رأسه فوضعتها في حجري فقال ضع رأسي بالارض لعل الله يرحمني فمسح خديه بالتراب وقال ويل لعمر وويل لامه ان لم يغفر له فقلت وهل نخذى والارض الاسوائيا أبتاه فقال ضع رأسي بالارض لاأم لك كما آمرك فاذا قضيت فأسرعوا بي في حفرتي وانما هو خير تقدمون اليه أو شر تضعونه عن رقابكم ثم بكى فقيل له مايبكيك قال خبر السماء لاأدري الى جنة يطلق بي أو الى نار (ولما) حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قال اللهم انك أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت وأنعمت علي فأفضلت فان عفوت فقدمنت وان عاقبت فاظلمت ألا اني أشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله ثم قضى رحمه الله (ولما) حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر الى أهله يبكون حوله فقال جادلكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكا متروك لكم ماجمع وتركتم عليه ماحمل ماأعظم منقلب هشام ان لم يغفر الله له (ودخل) على المأمون في مرضه الذي مات فيه فاذا هو قد أمر أن يفرش له جل الدابة ويبسط عليه الرماد وهو راقد عليه يتضرع ويقول يامن لايزول ملكه ارحم من يزول ملكه (وروى) أن أبابكر الصديق رضي الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال طوبى لك ياطائر تطير فتقع على الشجر وتاكل من الثمر وليس عليك حساب ولا عقاب ياليتني كنت مثلك والله لوددت أني شجرة الى جنب طريق فمر علي بعير فاخذني فلاكني ثم ازدردني ثم أخرجني بعرا ولم أك بشرا (وقال) عاصم بن عبد الله أخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبنة من الارض فقال ياليتني كنت مثل هذه التبنة ياليتني لم تلدني أمي ياليتني كنت نسيا منسيا (وقال) ابن مسعود وددت أني طائر في منكبي رئيس

(ونقع)

(وسمع) رجلا يقول يا ليتني كنت من أصحاب اليمين فقال ابن مسعود يا ليتني اذا مت لم أبعث (وقال) عمران بن حصين لوددت اني رماد فتذريني الرياح في يوم عاصف (وقال) أبو الدرداء يا ليتني كنت شجرة تعضد وتؤكل ثمرتي ولم أك بشرا (وروى) ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما رجع من صفين فدخل أوائل الكوفة فاذا هو بقبر فقال قبر من هذا فقالوا قبر خباب بن الارت فوقف عليه وقال رحم الله خبابا أسلم راغبا وهاجر طائعا وعاش مجاهدا وابتلي في جسمه آخرا الاولن يضيع الله أجر من أحسن عملا ثم مضى فاذا قبور بخباء حتى وقف عليها فقال السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع وبكم عما قليل لاحقون اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى ثم قال يا أهل القبور أما الازواج فقد نكحت وأما الديار فقد سكنت وأما الاموال فقد قسمت فهذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ثم التفت الى أصحابه وقال أما انهم لو تكلموا لقالوا وجدنا أن خير الزاد التقوى

(الباب الثاني في مقامات العلماء والصالحين عند الامراء والسلاطين)

دخل الاحنف بن قيس على معاوية وعليه شملة ومدرعة صوف فلما مثل بين يديه اقتحمته عينه فاقبل عليه وقال مه فقال الاحنف يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع الحول واتصال من الذحول فالمكثر منها قد اطرق والمقل منها قد أملق وبلغ به الخنق فان رأى أمير المؤمنين أن ينعش الفقير ويجبر الكسير ويسهل العسير ويصفح عن الذحول ويداوي الحول ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء وتزول اللأواء الاوان السيد من يغمر ولا يحص ويدعو الجفلى ولا يدعو النقرى ان أحسن اليه شكر وان أسيء اليه غفر ثم يكون من وراء الرعية عمادا يدفع عنهم الملمات ويكشف عنهم المعضلات فقال معاوية هاهنا يا أبا بحر ثم قرأ ولتعرفنهم في لحن القول (وقال) سفيان الثوري لماج المهدي قال لابد لي من سفيان فوضعوا الرصد حول البيت فاخذوني بالليل فلما مثلت بين يديه ادناني ثم قال لاي شيء لا تاتينا فقلت ليس في أمرنا فما أمرتنا من شيء صرنا اليه وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه فقال له كم أنفقت في سفرك هذا قال لا أدري لي امناء ووكلاء قلت فاعذرك غدا اذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حج قال لغلامه كم أنفقت في سفرنا هذا قال يا أمير المؤمنين ثمانية عشر دينارا قال ويحك أجحفنا ببيت مال المسلمين (وقال) الزهري ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك فقال يا أمير المؤمنين اسمع مني أربع كلمات فيهن صلاح دينك وملكك وآخرتك ودنياك قال لا تعد احدا عدة وأنت لا تريد انجازها ولا يعدنك مرتقى سهل اذا كان المصدر وعرا واعلم ان الاعمال جزاء فاحذر العواقب والدهر تارات فكن على حذر (ولما دخل) ابن السماك على هرون الرشيد قال له عظني قال يا أمير المؤمنين ان الله لم يرض بخلافته في عباده غيرك فلا ترض من نفسك الا بما رضي الله به عنك فانك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت أولى الناس بذلك يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبته في مهله من أجله كان خليقا أن يعتق نفسه يا أمير المؤمنين من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه اليها أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها

يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم الى جنة عرضها السموات والارض وقد دعيت اليها وليس لك فيها نصيب يا أمير المؤمنين انك تموت وحدك وتحاسب وحدك وانك لاتقدم الا على نادم مشغول ولا تخلف الا مفتونا مغرورا وانك وايانا في دار سفر وجيران نظعن (ولما) حج سليمان ابن عبد الملك استحضر أبا حازم فقال له تكلم يا أبا حازم فقال فيم أتكلم قال في الخروج من هذا الامر قال يسيران أنت فعلته قال وماذاك قال لاتاخذ الاشياء الا بحقها ولا تضعها الا في أهلها قال ومن يقوى على ذلك قال من قلده الله من الامر ما قلدك قال عظني يا أبا حازم قال يا أمير المؤمنين ان هذا الامر لم يصل اليك الا بموت من كان قبلك وهو خارج عنك بمثل ما صار اليك ثم قال يا أمير المؤمنين نزه ربك في عظمته عن أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك يا أمير المؤمنين انما أنت سوق فما نفق عندك حمل اليك من خير أو شر فاختر لنفسك أيهما شئت قال فما لك لا تاتينا قال وما أصنع باتيانك ان أدنيتني فتنتني وان اقصيتني أحزنتني وليس عندي ما أخافك عليه ولا عندك ما أرجوك له قال فارفع الينا حوائجك قال قد رفعتها الى من هو أقدر منك عليها فما أعطاني منها قبلت وما منعني منها رضيت بقول الله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا فمن ذا الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله أو يزيد في قليل ما قسم الله قال فبكى سليمان بكاء شديدا فقال رجل من جلسائه اساءت الى أمير المؤمنين قال أبو حازم اسكت فان الله تعالى أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ثم خرج من عنده فلما وصل الى منزله بعث اليه بمال فرده وقال للرسول قل له يا أمير المؤمنين والله ما ارضاه لك فكيف أرضاه لنفسي (وقال) الفضل بن الربيع حج هرون الرشيد فبينا انا نائم ليلة اذ سمعت قرع الباب فقلت من هذا فقال أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعا فاذا أنا به أمير المؤمنين فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت الي أتيتك فقال ويحك قد حاك في نفسي شئ لا يخرجه الا عالم انظر لي رجلا أسأله قلت له ههنا سفيان بن عيينة قال امض بنا اليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت الي أتيتك قال جئناك لما حاك في صدري فكابدته ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم قال يا عباسي اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عن صاحبك شيأ فانظر لي رجلا أسأله فقلت ههنا عبد الرزاق ابن همام قال امض بنا اليه نسأله فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت الي أتيتك فقال جئناك لما حاك في صدري فكابدته ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم فقال يا عباسي اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عن صاحبك شيأ فانظر لي رجلا أسأله فقلت ههنا الفضيل بن عياض قال امض بنا اليه فأتيناه واذا هو قائم يصلي في غرفة يتلو آية من كتاب الله ويرددها فقرعت الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال مالي ولامير المؤمنين فقلت سبحان الله أما عليك طاعة فقال أو ليس قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس للمؤمن ان يذل نفسه فنزل ففتح الباب ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ الى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بايدينا فسبقت كف الرشيد كفي اليه فقال أواه من كف ما ألينها ان نجت غدا من عذاب الله تعالى قال فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي فقال جئناك لحاجة

الله قال وفيم جئت حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو ألقوهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شقصا من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حبا لك أشدهم هربا منك ثم قال ان عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم اني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال له سالم بن عبد الله ان أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن افطارك فيها الموت وقال له محمد بن كعب ان أردت النجاة من عذاب الله غدا فليكن كبير المسلمين لك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم ولدا فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك وقال له رجاء بن حيوة ان أردت النجاة من عذاب الله غدا فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت متى شئت مت وانى لاقول لك هذا وانى لاخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الاقدام فهل معك رحمك الله مثل هذا القوم من يأمرك بمثل هذا فبكى هرون بكاء شديدا حتى غشي عليه فقلت ارفق يا أمير المؤمنين فقال يا ابن أم الربيع قتلته انت واصحابك وأرفق به انا ثم افاق فقال زدني فقال يا امير المؤمنين بلغني ان عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا اليه سهرا فكتب اليه عمر بن عبد العزيز يا اخي اذكر سهر اهل النار في النار وخلود الابد فان ذلك يطرد نومك الى ربك ناعما ويقظان واياك ان تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر ما اقدمك قال له خلعت ثيابي بكتابك لاوليتك ولاية أبدا حتى ألقى الله تعالى فبكا هرون بكاء شديدا ثم قال زدني فقال يا أمير المؤمنين ان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم جاءه فقال يا رسول الله أمرني على امارة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا عباس يا عم النبي نفس تحييها خير من أمارة لا تحصيها ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال زدني يرحمك الله قال يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فان استطعت ان تقي هذا الوجه من النار فافعل واياك ان تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك فان النبي صلى الله عليه وسلم قال من اصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة فبكى هرون بكاء شديدا ثم قال عليك دين قال نعم دين لربي لم يحاسبني عليه فالويل لي ان سألني والويل لي ان ناقشني والويل لي ان لم يلهمني حجتي قال انما أعني دين العباد قال ان ربي لم يأمرني بهذا أمرني بأن أصدق وعده وأطيع أمره فقال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فقال له هذه ألف دينار خذها فانفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك فقال سبحان الله انا أدلك على النجاة وتكافئني بمثل هذا سلك الله وفقك ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فقال لي هرون اذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا هذا سيد المسلمين اليوم (وروى) ان امرأة من نسائه دخلت عليه فقالت له يا هذا قد تري ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال ففرجنا به فقال انما مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه موتوا يا أهلي جوعا ولا تذبحوا فصيلا فلما سمع الرشيد ذلك فقال ادخل فعسى أن يقبل المال قال فدخلنا

فلما علم بنا الفضيل تنحنح وجلس على التراب على السطح فجاء هرون الرشيد فجلس الى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينا كذلك اذ خرجت جارية سوداء فقالت ياهذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف يرحمك الله فانصرفنا (ووعظ) شبيب بن شبة المنصور فقال يا أمير المؤمنين ان الله لم يجعل فوقك أحدا فلا تجعل فوق شكر الله شكرا (ودخل) عمر بن عبيد على المنصور فقرأ والفجر وليال عشر حتى بلغ ان ربك لبالمرصاد فجعل مثل فعالهم فاتق الله يا أمير المؤمنين فان بيابك نيرانا تأجج لا يعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله وأنت مسؤل عما اجترحوا وليسوا مسؤلين عما اجترحت فلا تصلح دنياهم الا بفساد آخرتك أما والله لو علم عمالك أنه لا يرضيك منهم الا العدل لتقرب اليك من لا يريده فقال له سلمان بن مجالد اسكت فقد غممت أمير المؤمنين فقال له عمرو ويلك يا ابن أم مجالد أما كفاك انك خرنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه اتق الله يا أمير المؤمنين فان هؤلاء قد اتخذوك سلما الى شهواتهم فانت كالماسك بالقرون وغيرك يحلب وان هؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيأ (وقال) الاوزاعي للمنصور في بعض كلامه يا أمير المؤمنين أما علمت انه كان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يابسة يستمالك بها ويردع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ما هذه الجريدة بيدك اقذفها الاغلاق قلوبهم رعبا فكيف من سفك دماء المسلمين وشق أستارهم وانتهب أموالهم ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا الى القصاص من نفسه بخدشة خدشها اعرابيا من غير تعمد فقال له جبريل عليه السلام ان الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون رعيتك يا أمير المؤمنين لو أن ثوبا من النار نشر على ما في الارض لاجتثه فكيف بمن يتقمصه ولو أن ذنوبا من النار صب على ما في الارض لاجتثه فكيف بمن يتجرعه ولو ان حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن يسلسل فيها ويرد فضلها على عنقه (ودخل) بعض العقلاء على سلطان فقال له ان أحق الناس بالاحسان من أحسن الله اليه وأولاهم بالانصاف من بسط يديه بالقدرة فاستدم ما أوتيت من النعم بتاديه ما عليك من الحق (وروى) ان اعرابيا قام بين يدى هشام بن عبد الملك فقال أيها الامير أتت على الناس سنون ثلث أما الاولى فاكلت اللحم وأما الثانية فاذابت الشحم وأما الثالثة فهاضت العظم وعندك فضول أموال فان كانت لله فاقسمها بين عباده وان كانت لهم فلم تحصرها عليهم وان كانت لكم فتصدقوا فان الله يجزى المتصدقين فامر هشام بمال يقسم بين الناس وأمر للاعرابي بمال فقال ألكل المسلمين منك مثل هذا قال لا يقوم بذلك بيت المال قال لا حاجة لى فيما يبعث لائمة الناس على أمير المؤمنين (وقال) رجل لعمر بن عبد العزيز يا أمير المؤمنين اذكرلقاضي هذا لا يشغل الله عنك كثرة من يخاصم من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنب فبكا عمر بكاء شديدا ثم استردد الكلام فجعل يردده وعمر يبكى وينتحب ثم قال ما حاجتك قال عاملك باذربيجان أخذ منى اثنى عشر ألف درهم قال ألا تكتبوا له حتى يرد عليه ماله (ولما) دخل زياد على عمر ابن عبد العزيز قال يا زياد الا ترى ما ابتليت به من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال زياد يا أمير المؤمنين والله لو ان شعرة منك تطقت ما بلغت كنه ما أنت فيه فاعمل لنفسك فى الخروج

مما أنت فيه يا أمير المؤمنين كيف حال رجل له خصم الد قال سيئ الحال قال فان كان له خصمان الدان قال اسوأ حاله قال فان كانوا ثلاثة قال لا يهنئه عيش قال فوالله ما احد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم الا وهو خصمك قال فبكى حتى تمنيت أن لا أكون قلت له ذلك (وقال) محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز يا أمير المؤمنين انما الدنيا سوق فمنها خرج الناس بما ربحوا فيها والآخرة بما يضرهم فكم من قوم غرهم مثل الذي أصبحنا فيه حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا مرملين لم يأخذوا من الدنيا للآخرة فاقتسم مالهم من لا يحمدهم وصاروا الى من لا يعذرهم فانظر الى الذي تحب ان يكون معك فقدمه بين يديك حتى تخرج اليه وانظر الى الذي تكره ان يكون معك اذا قدمت فابتغ به البدل حيث يجوز البدل ولا تذهبن الى سلعة قد بارت على غيرك ترجو جوازها عنك يا أمير المؤمنين افتح الابواب وسهل الحجاب وانصر المظلوم (وحضر) رجل بين يدي بعض الملوك فأغلظ له السلطان فقال له الرجل انما أنت كالسماء اذا أرعدت وأبرقت فقد قرب خيرها فسكن غيظه وأحسن اليه ولما احتاج المنصور بن أبي عامر ملك الاندلس ان يأخذ أرض محبسة ويعاوض عنها خيرا منها استحضر الفقهاء في قصره فأتوا بانه لا يجوز فغضب السلطان وأرسل اليهم رجلا من الوزراء مشهورا بالحدة والعجلة فقال لهم يقول لكم أمير المؤمنين يا مشيخة السوء يا مستحلي أموال الناس يا آكلي أموال اليتامى ظلما يا شهداء الزور يا آخذي الرشا ومتلقي الخصوم وملقمي الشرور وملبسي الامور وملقمي الروايات لاتباع الشهوات تبالكم ولا رائكم فهو أعز الله واقف على فسوقكم قديما وخونكم لاماناتكم مغض عنه صابر عليه ثم احتاج الى دقة نظركم في حاجة مرة واحدة في دهره فلم تسعفوا ارادته ما كان هذا ظنه بكم والله لبعارضكم وليكشفن ستوركم وليناصحن الاسلام فيكم والخمش عليهم بهذا ونحوه فاجابه شيخ منهم ضعيف المنة فقال نتوب الى الله مما قاله أمير المؤمنين ونسأله الاقالة فرد عليه زعيم القوم محمد بن ابراهيم بن حبوبه وكان جلدا صارما فقال للمتكلم منا تتوب يا شيخ السوء نحن برآء من متابك ثم أقبل على الوزير فقال يا وزير بئس المبلغ أنت وكلما نسبته الينا عن أمير المؤمنين فهو صفتكم معاشر خدمه فانتم الذين تأكلون أموال الناس بالباطل وتستحلون ظلمهم بغير حق وتحيفون معايشهم بالرشا والمصانعة وتبغون في الارض بغير الحق وأما نحن فليست هذه صناعتنا ولا كرامة لا يقولها لنا الا متهم في الديانة فنحن أعلام الهدى وسرج الظلمة بنا يحصن الاسلام ويفرق بين الحلال والحرام وتنفذ الاحكام وبنا تقام الفرائض وتثبت الحقوق وتحقن الدماء وتستحل الفروج فهلا اذ عتب علينا سيدنا أمير المؤمنين بشئ لاذنب فيه لنا وقال بالغليظ ما قاله تابت لابلاغنا رسالته بأهون من اخافتك وعرضت لنا بانكاره حتى فهمنا منك فأجبناك عنه بما يصلح الجواب عنه به فكنت ترين على السلطان ولا تفشي سره وتستحيينا بما استقبلتنا به فنحن نعلم ان أمير المؤمنين لا يتمادى على هذا الرأي فينا ولا يعتقد هذا المعتقد في صفاتنا وانه سيراجع بصيرته في ايثارنا وتعزيزنا فلو كنا عنده على هذه الحال التي وصفتها عنا والعياذ بالله من ذلك لبطل عليه كل ما صنعه وعقده من أول خلافته الى هذا الوقت فما يثبت له كتاب من حرب ولا سلم ولا شراء ولا بيع ولا صدقة ولا حبس

ولاهبة ولاعتق ولاغير ذلك الا بشهادتنا هذا ما عندنا والسلام ثم قاموا منصرفين فلم يكادوا يبلغوا باب القصر الا والرسل تناديهم فادخلوا القصر فتلقاهم الوزراء بالاعظام ورفعوا منازلهم واعتذروا اليهم مما كان من صاحبهم وقالوا لهم أمير المؤمنين يعتذر اليكم من فرط موجدته ويستجير بالله من الشيطان الرجيم ونزغته التي حملته على الجفاء عليكم ويعلمكم انه نادم على ما كان منه اليكم وهو مستبصر في تعظيمكم وقضاء حقوقكم وقد أمر لكل واحد منكم ما ترون من صلة وكسوة عامة لرضاه عنكم فدعوا له وقبضوا ما أمر لهم وانصرفوا غالبين لم يمسسهم سوء (ولما) نظر مالك بن دينار الى المهلب بن أبي صفرة يجر اذياله ويتبختر في أثواب خلافته نادى ان ارفع من ثيابك فقال له المهلب أوما تعرفني قال له مالك بلى اني أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة ويروى ان رجلا قال لعبيد الله العمري هذا هرون الرشيد في الطواف قد اخلى له المسعى فقال له لاجزاك الله عني خيرا كافتني أمرا كنت عنه غنيا ثم جاء اليه فقال له يا هرون فلما نظر اليه قال لبيك يا عم قال كم ترى ههنا من خلق الله فقال لا يحصيهم الا الله عز وجل فقال اعلم أيها الرجل ان كل واحد منهم يسئل عن خاصة نفسه وأنت واحد تسئل عنهم كلهم فانظر كيف تكون قال فبكى هرون وجلس وجعل يعطونه منديلا منديلا للدموع ثم قال له فيما قال ان الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه فكيف فيمن أسرع في مال المسلمين فيقال ان هرون كان يقول بعد ذلك اني أحب ان أحج في كل عام وما يمنعني من ذلك الا عبيد الله العمري ويروى ان الحسن ابن محمد بن الحسين رضي الله عنهم دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له يا عمر ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان فقال له عمر ايه أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة وجثا على ركبتيه فقال الحسن من اذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ومن اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ومن اذا قدر لم يتناول ما ليس له (ولما) ولي عمر بن عبد العزيز وفدت الوفود من كل بلد فوفد عليه الجازيون فقدم غلام منهم للكلام وكان حديث السن فقال له عمر لينطق من هو أسن منك فقال الغلام اصلح الله أمير المؤمنين انما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فاذا منح الله عبدا لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد استحق الكلام وعرف فضله من سمع خطابه ولو أن الامر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الامة من هو أحق بمجلسك هذا منك فقال صدقت قل ما بدا لك فقال الغلام اصلح الله أمير المؤمنين نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة وقد أتيناك لمن الله الذي من علينا بك ولم يقدمنا اليك رغبة ولا رهبة أما الرغبة فقد أتينا من بلادنا وأما الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك فقال له عمر عظني يا غلام فقال الغلام اصلح الله أمير المؤمنين ان ناسا من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت بهم الاقدام فهووا في النار فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك فتزل بك قدمك فتلحق بالقوم فلا جعلك الله منهم وألحقك بصالحي هذه الامة ثم سكت فسأل عمر الغلام عن سنه فاذا هو ابن احدى عشرة سنة ثم سأل عنه فاذا هو من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فتمثل عمر عند ذلك فقال

تعلم فليس المرء يولد عالما * وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لا علم عنده * صغير اذا التفت عليه المحافل

وفي مثل هذا قيل للعتابي وكان لا يبالي ما لبس مالك لا تجيد الملبوس فقال انما يرفع الرجل ادبه وعقله لا حليته وحلته حتى الله أمر أرضى ان ترفعه هيئته وجماله لا والله حتى يشرفه أصغراه لسانه وقلبه ويعلو به أكبراه همته ولبه ولما دخل ضمرة بن ضمرة على المنذر بن المنذر وهو ملك وكان ضمرة ذا رأي وعقل استقرته عيناه لدمامته فقال لان تسمع بالمعيدي خير من أن تراه فقال ضمرة أبيت اللعن ان القوم ليسوا بجزور تجرز انما المرء باصغريه قلبه ولسانه فاذا نطق نطق ببيان واذا قاتل قاتل بجنان والرجال لا تكال بالقفزان ولا توزن بالقبان فأعجب المنذر بكلامه وروى ان روح بن زنباع وكان في طريق مكة في يوم شديد الحر مع أصحابه فنزلوا فضربت لهم الخيام والظلال وقدم اليهم الطعام والشراب المبرد فبينما هم كذلك اذ اهم براع فدعاه للطعام فأبى وقال اني صائم فقال له روح في مثل هذا اليوم الحار قال أفادع أيامي تذهب باطلا قال روح لقد ضننت بأيامك يا راعي اذ جاد بها روح بن زنباع وروى ان اعرابيا قام بين يدي سليمان بن عبد الملك وقال يا أمير المؤمنين اني مكلمك بكلام فاحتمل ان كرهته فان وراءه ما تحب ان قبلته قال هات يا اعرابي قال ساطلق لساني بما نخرست به الالسن اداء لحق الله ولحق امانتك انك قد اكتنفتك رجال اساؤا الاختيار لانفسهم واتباعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك فلا تصلح دنياك بفساد آخرتك فاعظم الناس غبنا يوم القيامة من باع آخرته بدنيا غيره فقال له سليمان اما أنت فقد نصحت وارجو ان الله سيعيننا على ما قلدنا وقد جردت لسانك فهو سيفك فقال أجل يا أمير المؤمنين وهو لك لا عليك وقال ابن أبي عروبة حج الحجاج فنزل بعض المياه بين مكة والمدينة ودعا بالغداء وقال لحاجبه انظر من يتغدى معي واسأله عن بعض الامر فنظر فحوا الجبل واذا هو براع بين سخلتين نائم فضربه برجله وقال له ائت الامير فأتاه فقال له الحجاج اغسل يدك وتغد معي فقال دعاني من هو خير منك فأجبته قال ومن هو قال الله تعالى دعاني الى الصيام فصمت قال في هذا الحر الشديد قال نعم صمت ليوم هو أشد منه حرا قال فافطر وصم غدا قال ان ضمنت لي البقاء الى غد قال ليس ذلك الي قال فكيف تسألني عاجلا بآجل لا تقدر عليه قال لانه طيب قال لم تطيبه أنت ولا الطباخ ولكن طيبه العافية ولما حج هرون الرشيد بعث الى مالك ابن أنس بكيس فيه خمسمائة دينار فلما قضى نسكه وانصرف ودخل المدينة بعث الى مالك بن أنس ان أمير المؤمنين يحب ان تنتقل معه الى مدينة السلام فقال للرسول قل له ان الكيس بخاتمه وقال الرسول عليه السلام والمدينة خيراهم لو كانوا يعلمون وقال وهب بن منبه ان ملكا كان يفتن الناس ويحملهم على أكل لحم الخنزير فأتى برجل أفضل أهل زمانه فاعظم الناس مكانه وهالهم أمره فراوده على أكل لحم الخنزير فلم يفعل فرق له صاحب شرطة الملك فقال له أنا آتيك بجدي تذبحه بما يحل لك أكله فاذا دعا الملك بلحم خنزير أتيتك به ففعل ثم أتى به الملك فدعا بلحم الخنزير فأتى صاحب الشرطة بذلك الجدي فامر به الملك ان يأكله فابى ان يا كله فجعل صاحب الشرطة يغمزه ان يأكله فأبى ان يأكله فأمر الملك صاحب الشرطة ان يقتله فلما ذهب به قال ما منعك ان تأكل وهو اللحم الذي ذبحته أنت أظننت اني جئت بغيره قال لا قد علمت انه هو ولكني خشيت أن يفتن الناس بي فان أكرهوا على أكل الخنزير قالوا قد أكله فلان فيستن

بي فأكون فتنة لهم فقتل رحمه الله وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الاحبار يا كعب خوفنا قال أوليس فيكم كتاب الله وسنة رسوله قال بلى يا كعب ولكن خوفنا قال يا أمير المؤمنين اعمل عمل رجل لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملهم مما ترى فنكس عمر وأطرق مليا ثم أفاق ثم قال يا كعب خوفنا فقال يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها فنكس عمر ثم أفاق فقال يا كعب زدنا فقال يا أمير المؤمنين ان جهنم لترفرز فرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل الا خر على ركبتيه حتى يخر ابراهيم خليل الرحمن على ركبتيه يقول يا رب لا أسألك اليوم الا نفسي واستأذن أبو دهمان على بعض الامراء فحجبه ثم أذن له فلما دخل قال ان هذا الامر الذي صار اليك قد كان في يد غيرك فاسموا والله حديثا فان خيرا فخير وان شرا فشر فتحبب الى عباد الله يحسن البشر ولين الجانب وتسهيل الحجاب فان حب عباد الله موصول بحب الله وبغضهم موصول ببغضه لانهم شهداء الله على خلقه (ولما) دخل محمد بن واسع سيد العباد في زمانه على بلال بن أبي بردة أمير البصرة وكان ثوبه الى نصف ساقه فقال له بلال ما هذه الشهرة يا ابن واسع فقال له ابن واسع أنتم شهرتموناها كذا كان لباس من مضى وانما انتم طولتم ذيولكم فصارت السنة بينكم بدعا وشهرة واما انا فلما دخلت على ملك مصر وهو الافضل بن أمير الجيوش فقلت سلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد السلام على نحو ما سلمت رد جميلا وأكرم اكراما جزيلا وأمرني بدخول مجلسه وأمرني بالجلوس فيه فقلت ايها الملك ان الله سبحانه وتعالى قد احلك محلا عاليا شامخا وأنزلك منزلا شريفا باذخا وملكك طائفة من ملكه وأشركك في حكمه ولم يرض ان يكون أمر احد فوق امرك فلا ترض ان يكون احد اولى بالشكر منك وان الله تعالى قد ألزم الورى طاعتك فلا يكونن أحد اطوع لله منك وان الله تعالى أمر عباده بالشكر وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعال والاحسان قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا واعلم ان هذا الملك الذي أصبحت فيه انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يدك مثل ما صار اليك فاتق الله فيما خولك من هذه الامة فان الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل قال الله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقال تعالى وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين واعلم أيها الملك ان الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام فسخر له الانس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ثم رفع عنه حساب ذلك اجمع فقال له هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب فوالله ما عددها نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل خاف ان تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به فقال هذا من فضل ربي ليبلوني ءاشكر ام اكفر فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم اعانك الله على ما قلدك وجعلك كهفا للملهوف واما النساء فتثقف ثم اتممت المجلس بان قلت قد دوخت البلاد شرقا وغربا فما اخترت مملكة تزوجت فيها وولدت في غير هذه المملكة ثم انشدت شعرا

والناس اكيس من ان يحمدوا رجلا ٭ حتى يروا عنده آثارا احسان

وكتب حكيم الى حكيم اني سائلك عن ثلاثة اشياء ان اجبت عنها صرت لك تلميذا اي الناس

أولى بالرحمة ومتى تضيع أمور الناس وبم تتلقى النعمة من الله تعالى فكتب اليه ان أولى الناس بالرحمة ثلاثة البر يكون فى سلطان فاجر فهو الدهر حزين لما يرى ويسمع والعاقل يكون فى تدبير الجاهل فهو الدهر مغموم والكريم يحتاج الى اللئيم فهو الدهر خاضع له ذليل وتضيع أمور الناس اذا كان الرأى عند من لا يقبل منه والسلاح عند من لا يستعمله والمال عند من لا ينفقه وتتلقى النعمة من الله تعالى بكثرة شكره ولزوم طاعته واجتناب معصيته فصار تلميذا له الى ان مات (وقال يحيى بن سعيد) حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز فلما أشرفا على عقبة عسفان نظر سليمان الى السراد فقال قد ضربت له فقال له يا عمر كيف ترى قال أرى دنيا عريضة يأكل بعضها بعضا وأنت المسؤل عنها المأخوذ بها فبينما هما كذلك اذ طار غراب من سراد فقال سليمان فى منقاره كسرة فصاح فقال سليمان ما يقول هذا الغراب قال عمر ما أدرى ما يقول ولكن ان شئت أخبرنك بعلم قال أخبرنى قال هذا غراب طار من سراد فقال فى منقاره كسرة أنت بها مأخوذ وعنها مسؤل من أين دخلت ومن أين خرجت قال انك لتخبرنا بالعجائب قال أفلا أخبرك بأعجب من هذا قول بلى قال من عرف الله كيف عصاه ومن عرف الشيطان كيف أطاعه ومن ايقن بالموت كيف يهنيه العيش قال لقد غثثت علينا ما نحن فيه ثم ضرب فرسه وسار (ويروى) ان بلال بن ابى بردة خرج فى جنازة وهو أمير على البصرة فنظر الى جماعة وقوفا فقال ما هذا قالوا مالك بن دينار يذكر الناس فقال لوصيف معه اذهب الى مالك بن دينار فقل له يرتفع الينا الى القبر فجاء الوصيف فأدى الرسالة الى مالك فصاح به مالك مالى اليه حاجة فأجيئه فيها فان تكن له حاجة فليجئ الى حاجة نفسه فلما دفنوا ميتهم قام بلال بمن معه الى حلقة مالك فلما دنا منه نزل ونزل من معه ثم جاء يمشى الى الحلقة حتى جلس فلما رآه مالك بن دينار سكت فاطال السكوت فقال له بلال يا أبا يحيى ذكرنا فقال ما نسيت شيأ فاذكر لك به قال فحدثنا قال اما هذا فنعم قدم علينا أمير من قبلك على البصرة فمات فدفناه فى هذه الجبانة ثم اتينا بزنجى فدفناه الى جنبه فوالله ما أدرى أيهما كان أكرم على الله سبحانه فقال بلال يا أبا يحيى أتدرى ما الذى جرأك علينا وما الذى اسكتنا عنك لانك لم تأكل من دراهمنا شيأ اما والله لو أخذت من دراهمنا شيأ ما اجترأت علينا هذه الجرأة فافد هذا الحديث علما ألا فاتقوا دراهمهم (ودخل) ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك فقال يا ابن شهاب ما حديث يحدث به أهل الشام قال وما هو يا أمير المؤمنين قال حدثونا ان الله تبارك وتعالى اذا استرعى عبدا رعية كتب له الحسنات ولم يكتب عليه السيآت قال كذبوا يا أمير المؤمنين أنبى خليفة أقرب الى الله أم خليفة ليس بنبى قال بل نبى خليفة قال فانا أحدثك يا أمير المؤمنين بما لا تشك فيه قال الله تعالى لنبيه داود يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب يا أمير المؤمنين فهذا وعيد الله لنبى خليفة فما ظنك بخليفة غير نبى فقال الوليد ان الناس ليغروننا عن ديننا (وروى) زياد عن مالك بن أنس قال بعث الى أبو جعفر والى ابن طاوس فدخلنا عليه فاذا هو جالس على فرش قد نضدت وبين يديه انطاع قد بسطت وبين يديه جلاوزة بأيديهم السيوف يضربون الاعناق وأومأ الينا ان أجلسا فجلسنا فاطرق عنا طويلا ثم رفع رأسه والتفت الى ابن طاوس

وقال حدثنا عن أبيك قال نعم انى سمعت أبي يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى ملكه فادخل عليه الجور فى حكمه فامسك أبو جعفر ساعة قال مالك فضممت ثيابي مخافة ان ينضحني بدمه فامسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه ثم قال يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة فامسك عنه ثم قال ناولني هذه الدواة فامسك عنه ثم قال ما يمنعك ان تناولنيها قال اخشى ان تكتب بها معصية فاكون شريكك فيها فلما سمع ذلك قال قوما عني قال ابن طاوس ذلك ما كانبقي منذ اليوم قال مالك فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم (وقال أحمد بن أبي الحواري) سمعت رجلا يحدث عن ابن السماك قال بعث الى هرون فلما انتهيت الى باب القصر أخذ حرسيان بضبعي فاعجلاني فى دهليز القصر فلما انتهيت الى باب القاعة لقيني خصيان فاخذاني من الحرسيين فاعجلاني فى قاعة القصر فانتهيت الى البهو الذي هو فيه فتلقاني خصيان دونهما فاخذاني فاعجلاني فى البهو فقال لهما هرون ارفقوا بالشيخ فلما وقفت بين يديه قلت له يا أمير المؤمنين ما مر بي يوم منذ ولدتني أمي أتعب فيه من يومي هذا فاتق الله فى خلقه واحفظ محمدا فى أمته وانصح لنفسك فى رعيتك فان لك مقاما بين يدى الله تعالى انت فيه اذل من مقامي هذا بين يديك فاتق الله واعلم ان من اخذ الله وسطواته على اهل المعصية كبت وكبت قال فاضطرب على فراشه حتى نزل الى مصلى بين يدى فراشه فقلت يا امير المؤمنين هذا ذل الصفة فكيف ولو رأيت ذل المعاينة قال فكادت نفسه تخرج فقال يحيى للخصيين اخرجوه فقد أبكى امير المؤمنين ثم دخل مرة اخرى فقال عظني واوجز قال يا امير المؤمنين ان الذي اكرمك بما اكرمك به لحقيق ان تحب ما يحب وتبغض ما ابغض فوالله لقد احب الله دارا وابغضها وابغض دارا واحبها فما اردت خلاف ربك اوردت سواه واعلم يا أمير المؤمنين ان الذي فى يدك لو بقي على من كان قبلك لم يصل اليك فكذلك لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك فاتق الله فى خلافته واحفظ وصية محمد صلى الله عليه وسلم فى امته * ودخل هرون على بعض النساك فسلم عليه فقال وعليك السلام ثم قال أيها الملك تحب الله قال نعم قال فتعصيه قال نعم قال كذبت والله فى حبك اياه انك لو احببته اذا ما عصيته ثم انشأ يقول

تعصي الاله وانت تظهر حبه * هذا لعمري فى المقال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته * ان المحب لمن يحب مطيع
فى كل يوم يبتديك بنعمة * منه وأنت لشكره مضيع

(وروى زيد بن أسلم عن أبيه) قال قلت لجعفر بن سليمان بن عبد الله بن أبي طالب الهاشمي والي المدينة احذر ان يأتي رجل غدا ليس له فى الاسلام نسبة ولا أب ولا جد فيكون أولى برسول الله صلى الله عليه وسلم منك كما كانت امرأة فرعون أولى بنوح ولوط عليهما السلام من زوجيهما وكما كانت زوجة نوح ولوط أولى بفرعون من زوجته من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه * وقال بشر بن السري بينما الحجاج جالس فى الحجر اذ دخل رجل من أهل اليمن فجعل يطوف فوكل به بعض من معه فقال اذا خرج من طوافه فاتني به فلما فرغ من طوافه اتاه به فقال له ممن أنت قال من أهل اليمن قال أفلك علم بمحمد بن يوسف قال نعم قال فاخبرني عنه قال لقد تركته أبيض بضا سمينا طويلا عريضا قال ويلك ليس عن هذا أسالك قال

فعمه قال عن سيرته وطعمته قال فاجورا لسير وأخبث الطعم واعدى العداة على الله وأحكامه قال فغضب الحجاج وقال ويلك أما علمت أنه أخي قال بلى قال افانت ما علمت ان الله ربي والله لهو امنع بي منك أكثر منك لاخيك قال أجل أرسله يا غلام (وقال الاصمعي) حدثني رجل من أهل المدينة قال سمعت محمد بن ابراهيم يحدث قال شهدت أبا جعفر بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين ليسوا القريش فقالوا لابي جعفر اجعل بيننا وبينهم ابن أبي ذئب قال أبو جعفر لابن أبي ذئب ما تقول في بني فلان قال أشرار من أهل بيت أشرار قالوا سله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد وكان عامله على المدينة قال ما تقول في الحسن قال يأخذ بالاحنة ويقضي بالهوى فقال الحسن والله يا أمير المؤمنين لوسالته عن نفسك لرماك بداهية ونعتك بشر قال ما تقول في قال اعفني يا أمير المؤمنين قال لابد ان تقول قال انك لا تعدل في الرعية ولا تقسم بالسوية فتغير وجه أبي جعفر فقام ابراهيم بن محمد بن علي صاحب الموصل وقال طهرني بدمه يا امير المؤمنين قال له ابن أبي ذئب اقعد يا بني فليس في دم رجل يشهد ان لا اله الا الله طهور ثم تدارك ابن ابي ذئب الكلام فقال دعنا يا أمير المؤمنين مما نحن فيه بلغني انك رزقت ابنا ما لحا بالعراق يعني المهدي قال أما ان قلت ذلك انه ليصوم اليوم البعيد ما بين الطرفين قال ثم قام ابن أبي ذئب فخرج فقال ابو جعفر اما والله ما هو بمستوثق العقل ولقد قال بذات نفسه (ودخل ابو النصر) سالم مولى عمر بن عبيد الله على عامل للخليفة فقال له يا ابا النصر انه تاتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها ولا نجد بدا من انفاذها فما ذا ترى قال ابو النصر قد اتاك كتاب الله قبل كتاب الخليفة فايهما اتبعت كنت من اهله

(الباب الثالث فيما جاء في الولاة والقضاة وما في ذلك من الغرر والخطر)

قال الله تعالى يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله جاء في التفسير من اتباع الهوى ان يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذي لك منه خاصة وبهذه الخصلة سلب سليمان بن داود عليهما السلام ملكه قال ابن عباس رضي الله عنهما كان الذي أصاب سليمان بن داود عليهما السلام ان ناسا من أهل جرادة امرأته وكانت من أكرم نسائه عليه تحاكموا اليه مع غيرهم فاحب أن يكون الحق لاهل جرادة فيقضي لهم فعوتب حين لم يكن هواه فيهم واحدا ومن ذلك آية الملوك التي أنزلها الله تعالى في السلاطين لما اقتضته من السياسة العامة التي فيها بقاء الممالك وثبوت الدول قال الله تعالى ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ثم سمى المنصورين وأوضح شرائط النصر فقال تعالى الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ففي ضمن الله تعالى النصر للملوك وشرط عليهم شرائط كما ترى فمتى تضعضعت قواعدهم وانتقص عليهم من اطراف ممالكهم او ظهر عليهم عدو أو باغ فتنة أو حاسد نعمة أو اضطربت عليهم الامور أو رأوا أسباب الغير فليلجؤا الى الله تعالى ويستجيبوا من سوء أقداره باصلاح ما بينهم وبينه باقامة الميزان القسط الذي شرعه الله تعالى لعباده وركوب سبيل العدل والحق الذي قامت به السموات والارض واظهار شرائع الدين ونصر المظلوم والاخذ على يد الظالم وكف يد القوي عن الضعيف ومراعاة الفقراء والمساكين وملاحظة ذوي الخصاصة

والمستضعفين وليعلموا انهم قد أخلوا بشئ من الشرائط الاربع التى شرطت فى النصر (وروى) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ألا كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فالامام الذى على الناس راع وهو مسؤل عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤل عن رعيته والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها وهى مسؤلة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤل عنه ألا كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فجعل النبى صلى الله عليه وسلم كل ناظر فى حق غيره راعيا له واللفظ مأخوذ من الرعاية والمراعاة فاذا تقدم لرعاية غيره من يأكله فهو الهلاك كما قال الشاعر

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها * فكيف اذا الذئاب لها رعاء

(وروى مسلم) فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما من امرئ يلى أمر المسلمين ثم لم يجتهد لهم وينصح الا لم يدخل الجنة معهم وقال معقل بن يسار سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه الا لم يجد رائحة الجنة (وروى) عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أعطيتها عن مسئلة وكلت اليها وان اعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها (وروى) أبو هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال انكم ستحرصون على الامارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة وقال أبو ذر رضى الله عنه قلت أمرنى يا رسول الله قال انها أمانة وانها حسرة وندامة يوم القيامة الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها (وروى البخارى) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال تجدون من خير الناس أشد الناس كراهية لهذا الامر حتى يقع فيه (وفى الحديث) من ولى من أمر المسلمين شيأ ثم لم يحطهم بنصحه كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار * وروى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث الى عاصم يستعمله على الصدقة فابى وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالى فيوقف على جسر جهنم فيامر الله سبحانه الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عظم منه عن مكانه ثم يامر الله العظام فترجع الى مكانها ثم يسائله فان كان لله تعالى طائعا اخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته وان كان لله عاصيا خرق به الجسر فيهوى به فى جهنم مقدار سبعين خريفا فقال عمر سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم ما لم أسمع قال نعم وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان اى والله يا عمر ومع السبعين سبعين خريفا فى واد يلتهب التهابا فقال عمر بيده على جبهته انا لله وانا اليه راجعون من يأخذها بما فيها قال سلمان من ساب الله أنفه والصق خده بالارض (وروى) ان العباس رضى الله عنه قال أمرنى يا رسول الله فاصيب واستريش فقال له يا عباس يا عم النبى صلى الله عليه وسلم نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها الا احدثكم عن الامارة اولها ملامة واوسطها ندامة وآخرها حسرة يوم القيامة (وروى) أبو داود فى السنن جاء رجل فقال يا رسول الله ان أبى عريف على الماء وانى أسالك ان تجعل لى العرافة من بعده فقال النبى صلى الله عليه وسلم العرفاء فى النار (وروى) الساجى عن أبى سعيد الخدرى قال قال النبى صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذابا يوم القيامة الامام الجائر * وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ليس من وال ولا قاض الا ويؤتى به يوم القيامة حتى يقف بين يدى الله سبحانه على الصراط ثم تنشر الملائكة سيرته فيقرؤنها على رؤس الخلائق فان كان عادلا نجله الله

بعدله وان كان غير ذلك انتفض به الصراط انتفاضة صار بين كل عضو من أعضائه مسيرة سنة ثم يخرق به الصراط فما يلقى قعر جهنم الا بحر وجهه (وروى) معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان القاضي ينزل في مزلقة أبعد من عدن في جهنم (وقالت) عائشة رضي الله عنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى في شدة الحساب على ما قضى حتى يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة (وروى) الحسن البصري ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله فقال يا رسول الله خرني فقال اقعد في بيتك (وروى) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليودن اقوام يوم القيامة لو وقعوا من الثريا ولم يكونوا امراء على شيء وكم من متخول في مال الله ومال رسوله له النار غدا (وفي) الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال صنفان من امتي لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة امام ظالم غشوم وغال في الدين مارق منه (وقال) أبو هريرة رضي الله عنه ما من امير يؤمر على عشرة الا جيء به يوم القيامة مغلولا لنجاه عمله أو أهلكه (وقال) طاوس لسليمان بن عبد الملك هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله في ملكه فجار في حكمه فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي وما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه (وقال) حذيفة بن اليمان من اقتراب الساعة ان يكون امراء فجرة وقراء كذبة وامناء خونة وعلماء فسقة وعرفاء ظلمة (وقال) عبيد بن عمير ما ازداد رجل من السلطان قربا الا ازداد من الله بعدا ولا كثر أتباعه الا كثر شيطانه ولا كثر ماله الا كثر حسابه (وفي الحديث) عن النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة اثنان في النار وواحد في الجنة رجل قضى بغير علم فهو في النار ورجل قضى بعلم فجار فهو في النار ورجل قضى بالحق فهو في الجنة رواه بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم (وقال) ابن سيرين جاء صبيان الى عبيدة السلماني يتحايرون اليه في ألواحهم فلم ينظر فيها وقال هذا أحكم ولا أتولى حكما أبدا (وتحاير) غلامان الى ابن عمر فجعل ينظر الى كتابتهم وقال هذا أحكم ولا بد من النظر فيه * والمصنفون يرسلون في كتبهم حديثا مرفوعا رواه أبو داود وفي سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قدم الى القضاء فقد ذبح بغير سكين (وفي أخبار) القضاة ان قاضيا قدم الى بلد فجاءه رجل له عقل ودين فقال له أيها القاضي أبلغك قول النبي صلى الله عليه وسلم من قدم للقضاء فقد ذبح بغير سكين قال نعم قال فبلغك ان أمور الناس ضائعة في بلدنا فجئت تجبرها قال لا قال أفأكرهك السلطان على ذلك قال لا قال فاشهد أني لا أطالك مجلسا ولا أؤدي عندك شهادة أبدا (وروى) ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال في بعض خطبه ان الملك اذا ملك زهده الله في ماله ورغبه فيما في يد غيره واشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل ويسخط الكثير جذل الظاهر حزين الباطن فاذا وجبت نفسه ونضب عمره ومحي ظله حاسبه الله فاشد حسابه وأقل عفوه (وذكر) السلطان لاعرابي فقال والله ان عزوا في الدنيا بالجور لقد ذلوا في الآخرة بالعدل وبقليل فان رضوا عن كثير باق وانما يكون الندم حين لا ينفع الندم (وقال) أبو بكر بن أبي مريم حج قوم فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فاتاهم رجل فقالوا دلنا على الماء قال احلفوا لي ثلاثا وثلاثين يمينا انه لم يكن فيكم صرافا ولا مكاسا ولا عريفا ولا بريدا ولا عرافا فأتاهم فحلفوا له ثلاثا وثلاثين يمينا فدلهم على الماء ثم قالوا له عاونا على غسله فقال احلفوا لي ثلاثا وثلاثين يمينا

كما تقدم ذكره فخافوا له فاعانهم على غسله ثم قالوا تقدم وصل عليه قال لا حتى تحلفوا لى أربعا وثلاثين يمينا كما تقدم فصلى عليه ثم التفتوا فلم يجدوا أحدا وكانوا يرون انه الخضر عليه السلام (وقال) ابن مسعود قال النبى صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتل نبيا أو قتله نبى وامام ضلالة وممثل من الممثلين (وقال) أبو ذر قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ست أيام اعقل يا أبا ذر ما أقول لك ثم لما كان فى اليوم السابع قال أوصيك بتقوى الله فى أمر سرك وعلانيتك فاذا أسأت فاحسن ولا تسألن أحدا وان سقط سوطك ولا تؤوين امانة ولا تؤوين يتيما ولا تقضين بين اثنين (وقال) أبو ذر أيضا قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر انى أحب لك ما أحب لنفسى وانى أراك ضعيفا لا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم (وروى) أبو ذر ايضا قلت يا رسول الله الا تستعملنى فضرب بيده على منكبى وقال لى يا أبا ذر انك ضعيف وانها أمانة وانها يوم القيامة خزى وندامة الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها (وروى) على بن أبى طالب رضى الله عنه قال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن وأنا حديث السن فقلت يا رسول الله انك تبعثنى الى قوم شيوخ ذوى أسنان ولا علم لى بالقضاء فقال ان الله سبحانه هادى قلبك ولسانك فاذا جلس الخصمان فلا تقض للاول حتى تسمع كلام الآخر فانك اذا سمعت ذلك عرفت كيف تقضى (فان قال قائل) كيف نهى أبا ذر عن القضاء وأمر عليا بالقضاء مع ما فيه من التغرير وما روى بان من قدم للقضاء فقد ذبح بغير سكين وفيه البعد عن حضرته والتيمن بالمشاهدة وتعلم سننه وشرائع دينه والتخلق باخلاقه وشيمه وايهما أفضل المثول بين يديه والكون بحضرته ومشاهده والصلاة خلفه أو القضاء فى غيبته مع البعد عنه (قلنا) انما نهى أبا ذر لما فيه يقصر به عن رتبة القضاء مما كان ضده فى على رضى الله عنه ثم قال فى آخره الا من اخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها فاستدللنا بذلك على أن من استجمعت فيه شروط القضاء وكان قويا على انفاذه لم يدخل تحت النهى ومما يعضد عنا عن القضاء طلبه اياه اذ لم يدر عواقبه وقد وصف الله سبحانه المتسرع الى الامانة بالجهل فقال تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا اى ظلوما لنفسه جهولا بعاقبة امره والدليل على صحة هذا التاويل قول النبى صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة اثنان فى النار وواحد فى الجنة رجل عرف الحق فقضى به فهو فى الجنة ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار فى الحكم فهو فى النار ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس على جهل فهو فى النار (قلت) فهذان الرجلان ضعيفان عن رتبة القضاء احدهما بغشه وظلمه والآخر بجهله وقد عابت جهلة بنى اسرائيل طالوت فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال فعابوه بخمولتين الفقر وأنه ليس من سبط المملكة فقال لهم نبيهم ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم فبين شروط الولايات والممالك وانها تفتقر الى العلم الذى به يحكم والى القوة التى بها تنفذ الاحكام دون ما ظنه بنو اسرائيل * وأما قولك أيهما أفضل القضاء فى غيبته أو الحضور بين يديه والكون فى حضرته * فالجواب ان أوامره عليه السلام فرض يعصى بتركه والكون فى حضرته مستحب بعد الهجرة لا يعصى بتركه فعلمنا بهذا انه انما بعث عليا رضى الله عنه للقضاء لانه

أفضل من سكناه بحضرته لانه مبلغ عنه الى الخلائق شريعته التي بعثه الله بها فهو خليفته في ذلك يدل على هذا انه اوجب الجنة لمن قضى بالحق

(الباب الرابع في بيان معرفة ملك سليمان بن داود عليهما السلام ووجه طلبه الملك وسؤاله أن لا يؤتى لاحد من بعده)

قال هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي فطلب الملك ثم زاد على ذلك بان لا يؤتى مثله أحدا بعده وكان ظاهره يؤذن بالبخل * والكلام على هذه الآية من وجوه (أحدها) انه انما سال هذا بعد أن سلبه الله تعالى ملكه ثم أعاده اليه فحين طلب الملك كان ملكا فكأنه قال هذا الملك الذي جددته لي هبه لي على صفات لا أعصيك فيها فتسلبني اياه وتعاقبني يدل عليه انه بدأ بالمغفرة فقال رب اغفر لي وهب لي ملكا أي ملكا لا أعصيك فيه فتؤاخذني والدليل على صحة هذا قوله تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فكانه أجاب دعاءه فقال تصرف كيف شئت فلا حساب عليك فيه * وقيل ان أعطيت أجرت وان أمسكت فلا تبعة عليك فيه وهذا تخصيص لسليمان ابن داود عليهما السلام ولم يخص به أحد من ولد آدم سواه لان الله تعالى قال للخلائق فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون * وأما قوله لا ينبغي لاحد من بعدي فمعناه لا أسلبه في باقي عمري فيصير لغيري كما سلبته فيما مضى من عمري وقيل لا تسلط علي فيه شيطانا مثل الذي قد سلطت على وقيل انما سأل ذلك ليكون علما على المغفرة وقبول التوبة فاجيب الى ذلك فعلم أنه قد غفر له وقيل انما سال ذلك ليكون آية لنبوته وعلما على معجزته * وقال مقاتل كان سليمان بن داود ملكا ولكنه أراد بقوله لا ينبغي لاحد من بعدي تسخير الرياح والطير يدل عليه ما بعده وهو قوله تعالى فسخرنا له الريح الى آخر الآية وقيل ان سليمان كان ملكه في خاتمه ولهذا ذهب ملكه بذهاب خاتمه فقال لا ينبغي لاحد من بعدي يعني اجعل ملكي في نفسي لا في خاتمي حتى لا يملكه أحد غيري فان ابليس لما أخذ خاتم سليمان تحول ملك سليمان الى ابليس وقعد على كرسيه يحكم فيه حتى أنكرت بنو اسرائيل احكامه وكان قد أتى عليه شبهه (وقال) عمرو بن عثمان المكي انما أراد به ملك النفس وقهر الهوى يدل عليه ما روى سلامان الشعباني قال بلغني ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أرأيتم سليمان وما آتاه الله من ملكه فانه لم يرفع طرفه الى السماء تخشعا لله تعالى حتى قبضه الله تعالى * وزاد غيره انما أراد ملك النفس وقهرها لئلا يفتتن بالملكة ولهذا قدم سؤال المغفرة على طلب المملكة * وقال بعض الوعاظ انما أراد حتى أنتقم لآدم من ابليس وذريته حيث كان سببا في اخراجه وذريته من الجنة (وروى) البخاري في صحيحه ان النبي عليه السلام قال ان عفريتا من الجن جعل يتفلت علي البارحة ليقطع علي صلاتي وان الله تعالى أمكنني منه فاخذته وهممت ان اربطه الى سارية من سواري المسجد حتى يصبح فتنظروا اليه كلكم فذكرت قول سليمان هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي فرددته الله خاسئا (فان قيل) فما معنى قول يوسف عليه السلام اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم (قلت) يستفاد من الآية ان من حصل بين يدي ملك لا يعرف قدره او أمة لا يعرفون فضله فخاف على نفسه او اراد ابراز فضله جاز له ان ينبههم على مكانه وما يحسنه دفعا للشر عن نفسه او اظهار الفضل فيجعل في مكانه * وفيه فائدة اخرى وهو أنه اذا رأى الامور في يد الخونة واللصوص ومن لا يؤدي

الامانة ويعلم من نفسه اداء الامانة مع الكفاية جازله ان ينبه السلطان على امانته وكفايته ولهذا قال بعض العلماء من أصحاب الشافعي من كمل فيه الاجتهاد وشروط القضاء جازله ان ينبه السلطان على مكانه ويحطبه خطة القضاء وقال بعضهم بل يجب ذلك عليه اذا كان الامر في يدى من لا يقوم به

(الباب الخامس في فضل الولاة والقضاة اذا عدلوا)

قال الله تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض يعني لولا أن الله تعالى اقام السلطان في الارض يدفع القوى عن الضعيف وينصف المظلوم من الظالم لاهلك القوى الضعيف وتواثب الخلق بعضهم على بعض فلا ينتظم لهم حال ولا يستقر لهم قرار فتفسد الارض ومن عليها ثم امتن الله تعالى على الخلق باقامة السلطان فقال تعالى ولكن الله ذو فضل على العالمين يعني في اقامة السلطان فيأمن الناس به فيكون فضله على الظالم كف يده عن المظلوم وفضله على المظلوم كف يد الظالم عنه (وروى) ابو هريرة ان النبي عليه السلام قال ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم (وروى) ان النبي عليه السلام قال سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال اني اخاف الله ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه (وروى) كثير بن مرة قال قال النبي عليه السلام السلطان ظل الله في ارضه يأوى اليه كل مظلوم من عباده فاذا عدل كان له الاجر وعلى الرعية الشكر واذا جار كان عليه الاصر وعلى الرعية الصبر (وروى) أبو هريرة يرفعه قال لعمل الامام العادل في رعيته يوما أفضل من عبادة العابد في اهله مائة سنة أو خمسين سنة (وقال) قيس بن سعد يوم من امام عادل خير من عبادة رجل في بيته ستين سنة (وروى) ان سعد بن ابراهيم وابا سلمة بن عبد الرحمن ومحمد بن مصعب بن شرحبيل ومحمد بن صفوان قالوا لسعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت لقضاء يوم بالحق أفضل عند الله من صلاتك عمرك وسيتضح لك صحة هذه الاقوال اذا وقفت على ما نالته الرعية من الصلاح بصلاح السلطان (واعلم) أرشدك الله ان الانسان اعز جواهر الدنيا واغلاها قدرا واشرفها منزلة وبالسلطان صلاح الانسان اذ فهو أعز اعلاق الدنيا واعمها بركة ولذلك خلق الله تعالى دارين دار الدنيا ودار الآخرة ثم لما كان السلطان صلاح الدارين فاخلق بشخص يعم نفعه العباد والبلاد ويصلح بصلاحه الدنيا والآخرة أن يكون شرفه عند الله عظيما كما كان قدره في العقول جسيما ومقامه عند الله كريما كما كان نفعه عميما وعلى قدر عموم المنفعة تشرف الاعمال وعلى قدر النعمة تكون المنة ألا ترى ان الانبياء عليهم السلام أعم خلق الله نفعا فهم اجل خلق الله قدرا لانهم تعاطوا اصلاح الخلائق واخراجهم من الظلمات الى النور كذلك سلطان الله في الارض هو خلافة النبوة في اصلاح الخلائق ودعائهم الى فناء الرحمن واقامة دينهم وتقويم أودهم وليس فوق السلطان العادل منزلة الا نبي مرسل او ملك مقرب فاتخذ عظم قدر السلطان عندك حجة لله تعالى على نفسك وناصحه على قدر ما نفعك وليس نفعه مقصورا على عجالة من حطام الدنيا يحبوك بها ولكن صيانة بجمعتك

فناء بكسر الفاء

وصيانة حريمك وحراسة مالك عن البغاة أعم نفعا لك ان عقلت وليس لله سلطان الا وقد اخذ عليه شرائط العدل ومواثيق الانصاف وشرائع الاحسان وكما أنه ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة كذلك ليس دون رتبة السلطان الشرير الجائر رتبة لشر يرلان شره يعم كما ان خير الاول يعم وكما ان بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد وتنال الزلفى الى الله تعالى والفوز بجنة المأوى كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد وتقترف المعاصى والآثام وتورث دار البوار وذلك ان السلطان اذا عدل انتشر العدل فى رعيته فأقاموا الوزن بالقسط وتعاطوا الحق فيما بينهم ولزموا قوانين العدل فمات الباطل وذهبت رسوم الجور وانتعشت قوانين الحق فارسلت السماء غيثها واخرجت الارض بركاتها ونمت تجاراتهم وزكت زروعهم وتناسلت انعامهم ودرت ارزاقهم ورخصت اسعارهم وامتلأت اوعيتهم فواسى البخيل وأفضل الكريم وقضيت الحقوق واعمرت المواعين وتهادوا فضول الاطعمة واتحف فهان الحطام لكثرته وذل بعد عزته فتماسكت على الناس مروآتهم وانحفظت عليهم أديانهم وبهذا تبين لك ان الوالى ماجور على ما يتعاطاه من اقامة العدل وماجور على ما يتعاطاه الناس بسببه واذا جار السلطان انتشر الجور فى البلاد وعم العباد فرقت أديانهم واضمحلت مروآتهم ففشت فيهم المعاصى وذهبت أماناتهم فضعفت النفوس وقنطت القلوب فمنعوا الحقوق وتعاطوا الباطل وبخسوا المكيال والميزان وجوزوا البهرج فرفعت منهم البركة وأمسكت السماء غيثها ولم تخرج الارض ريعها ونباتها فقل فى أيديهم الحطام فقنطوا وأمسكوا الفضل الموجود وتأخروا عن المفقود فمنعوا الزكوات المفروضة وبخلوا بالمواساة المسنونة وقبضوا أيديهم عن المكارم وتنازعوا المقدار اللطيف وتجاحدوا القدر الخسيس ففشت فيهم الايمان الكاذبة والختل فى البيع والخداع فى المعاملة والمكر والحيلة فى القضاء والاقتضاء ولا يمنعهم من السرقة الا العار ومن الزنا الا الحياء فيظل أحدهم عاريا عن محاسن دينه ومتجردا عن جلباب مروآته وأكثر همه قوت دنياه وأعظم مسراته من هذا الحطام ومن عاش كذلك فبطن الارض خير له من ظاهرها (قال) وهب بن منبه اذا هم الوالى بالجور أو عمل به ادخل الله النقص فى أهل مملكته فى الاسواق والزرع والضرع وكل شئ واذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة فى أهل مملكته كذلك وقال عمر بن عبد العزيز تهلك العامة بعمل الخاصة ولا تهلك الخاصة بعمل العامة والخاصة هم الولاة وفى هذا المعنى قال الله سبحانه واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (وقال) الوليد بن هشام ان الرعية لتفسد بفساد الوالى وتصلح بصلاحه (وقال) سفيان الثورى لابى جعفر المنصور انى لاعلم رجلا ان صلح صلحت الامة قال ومن هو قال أنت (وقال) ابن عباس ان ملكا من الملوك خرج يسير فى مملكته مستخفيا فنزل على رجل له بقرة فراحت البقرة فحلبت له قدر حلاب ثلاثين بقرة فعجب الملك لذلك وحدث نفسه باخذها فلما راحت عليه من الغد حلبت على النصف مما حلبت بالامس فقال له الملك مابال حلابها نقص أرعت فى غير مرعاها بالامس قال لا ولكن أظن ملكا هم باخذها فنقص لبنها فان الملك اذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة فعاهد الملك الله سبحانه فى نفسه ان لا ياخذها فراحت من الغد فحلبت حلاب ثلاثين بقرة فتاب الملك وعاهد ربه لا عدلن

مابقيت * ومن المشهور فى أرض المغرب ان السلطان بلغه ان امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وان قصبة منها تعصر قدحا فعزم على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك فقالت نعم ثم انها عصرت قصبة فلم تبلغ نصف قدح فقال لها أين الذى كان يقال فقالت هو الذى بلغك الا ان يكون السلطان قد عزم على أخذها منى فارتفعت بركتها فتاب السلطان وأخلص لله نيته ان لا يأخذها ابدا ثم أمر لها فعصرت فملأ القدح * وحدثنى بعض الشيوخ ممن كان يروى الاخبار بمصر قال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب تمرا ولم يكن فى الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فغصبها السلطان فلم تحمل فى ذلك العام شيأ ولا تمرة واحدة (قال) شيخنا رحمه الله قال لى شيخ من أشياخ الصعيد أعرف هذه النخلة فى الغربية تجنى عشرة أرادب ستين وبية وكان صاحبها يبيعها فى سنين الغلاء كل وبية بدينار (قال) الشيخ رضى الله عنه وشهدت انا بالاسكندرية والصيد فى الخليج مطلق للرعية والسمك فيه يغلى الماء به كثرة ويصيده الاطفال بالخرق ثم حجره الوالى ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يرى فيه الا الواحدة الى يومنا هذا وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم الى الرعية ان خيرا فخير وان شرا فشر (وروى) أصحاب التواريخ فى كتبهم قالوا كان الناس اذا أصبحوا فى زمان الحجاج يتلاقون يتساءلون من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وامثال ذلك وكان الوليد صاحب ضياع واتخاد مصانع فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الانهار وغرس الاشجار ولما ولى سليمان بن عبد الملك وكان صاحب نكاح وطعام فكان الناس يتحدثون فى الاطعمة الدقيقة ويتوسعون فى الانكحة والسراوى ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك ولما ولى عمر بن عبد العزيز كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم ورد لك فى كل ليلة وكم يحفظ فلان ومتى يختم وكم تصوم من الشهر وامثال ذلك

(الباب السادس فى ان السلطان مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح)

اعلموا أرشدكم الله ان السلطان خطره عظيم وبليته عامة وقد يطرقه من الآفات ويحتوشه من الامور المهلكات ما يجب على كل ذى لب ان يستعيذ بالله مما حله ويشكره على ما عصمه لا تهد أفكره ولا تسكن خواطره ولا يصفو قلبه ولا يستقر له الخلق فى شغل عنه وهو مشغول بهم والرجل يخاف عدوا واحدا وهو يخاف ألف عدو والرجل يضيق بتدبير أهل بيته وانالة ضيعته وتقدير معيشته وهو مدفوع لسياسة جميع اهل مملكته وكلما رتق فتقا من حواشى مملكته انفتق آخر وكلما رم منها شعثا رث آخر وكلما قمع عدوا أرصد له أعداء الى سائر ما يعانيه من اخلاق الناس وبقاسيه من خصوماته ونصب الولاة والقضاة وبعث الجيوش وسد الثغور واستجباء الاموال ودفع المظالم ثم من العجب العجاب انه نفس واحدة وانه يرزأ من الدنيا قوتها كما يرزأ آحاد الرعايا ثم يسأل غدا عن جميعهم ولا يسألون عنه فيالله و يا للعجب من رجل رضى ان ينال رغيفا ويحاسب عنها على آلاف آلاف رغيف و يأكل فى معاد واحد ويحاسب على آلاف آلاف معا و يستمتع بنفس واحدة ويحاسب على آلاف آلاف من الانفس وعلى هذا الغلط فى جميع أحواله يحمل اثقالهم ويريح اسرارهم ويجاهد عدوهم ويسد ثغورهم ويدافع مناويهم ومناصبهم ويعصى ربه فيهم ويخالف

أمره ويركب نهيه من أجلهم ويقتحم جرائيم جهنم على بصيرة فيهم ثم نجدهم له قالين وعنه غير راضين ولولا ان الله تعالى يحول بين المرء وقلبه لم يرض عاقل بهذه منزلة ولا اختارها لبيب مرتبة وكل ماذكرته في هذا الباب احكمه النبي عليه السلام في كلمة فقال مالكم ولامرائي لكم صفو أمرهم وعليهم كدره ومثال السلطان مع الرعية كالطباخ مع الاكلة له العناء ولهم الهناء وله الحمار ولهم القار طلب لقومه الراحة فحصل على التعب وطلب لهم النعيم فاخطأ الصراط المستقيم وعن هذا قالوا سيد القوم اشقاهم وفي الحديث ساقي القوم آخرهم شربا * وكان بعض سلاطين المغرب يسير يوما وبين يديه الوزراء اذ نظر الى جماعة من التجار فقال لوزيره احب ان اريك ثلاث طوائف طائفة لهم الدنيا والآخرة وطائفة لا دنيا ولا آخرة وطائفة دنيا بلا آخرة قال وكيف ذلك ايها الملك فقال الذين لهم الدنيا والآخرة فهؤلاء التجار يكسبون أقواتهم ويصلون صلاتهم ولا يؤذون احدا وأما الذين لا دنيا ولا آخرة فهؤلاء الشرط والخدمة الذين بين أيدينا وأما الذين لهم دنيا بلا آخرة فانا وأنت وسائر السلاطين فحق على جميع الورى ان يعدوا السلطان بالمناصحات ويحصوه بالدعوات ويعينوه على سائر المحاولات ويكونوا له أعينا ناظرة وايديا باطشة وجنانا واقية وألسنة ناطقة وقوادم تنهضه وقوائم تقله وهيهات منه السلامة وأنى له بالسلامة وعن هذا قال بعض السلاطين يوما لاصحابه اعلموا ان السلطان والجنة لا يجتمعان (قال) شيخنا رحمه الله وحدثني رجل له قدر قال ارسل الي السلطان أن طلق امرأتك وكان قد أرادها البعض أصحابه فابيت ذلك وراجعت الرسل غير مرة فقال لي ناصح منهم خذ الامر مقبلا فانه لا حيلة لك فان السلطان لا يخاف في الدنيا عارا ولا في الآخرة نارا فطارقتها (وروى) عن عبد الملك بن مروان انه لما ولي الخلافة أخذ المصحف فوضعه في حجره ثم قال هذا فراق بيني وبينك ولما حج هرون الرشيد لقيه عبد الله العمري في الطواف فقال له يا هرون قال لبيك يا عم قال كم ترى ههنا من الخلق قال لا يحصيهم الا الله فقال اعلم أيها الرجل ان كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه وانت واحد تسأل عنهم كلهم فانظر كيف تكون فبكى هرون وجلس فجعلوا يعطونه منديلا منديلا للدموع ثم قال له والله ان الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه فكيف بمن أسرع في مال المسلمين * ويقال ان هرون كان يقول والله اني أحب ان احج كل سنة وما يمنعني الا رجل من ولد عمر يسمعني ما أكره وقال مالك بن دينار قرأت في بعض الكتب القديمة يقول الله تعالى من احمق من السلطان ومن اجهل ممن عصاني ومن اعز ممن اعتزبي اياراعي السوء دفعت اليك غنما سمانا صحاحا فاكلت اللحم وشربت اللبن واتخذت بالسمن ولبست الصوف وتركتها عظاما تتقعقع ولم تاو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم انتقم لها منك

* (الباب السابع في بيان الحكمة في كون السلطان في الارض) *

اعلموا ارشدكم الله ان في وجود السلطان في الارض حكمة لله تعالى عظيمة ونعمة على العباد جزيلة لان الله سبحانه جبل الخلق على حب الانتصاف وعدم الانصاف ومثلهم بلا سلطان مثل الحيتان في البحر يزدرد الكبير الصغير فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر ولم يستقم لهم معاش ولم يهنؤا بالحياة ولهذا قال بعض القدماء لو رفع السلطان من الارض ما كان لله في اهل الارض من حاجة ومن الحكم التي في اقامة السلطان انه من حجج الله تعالى على وجوده

سبحانه ومن علاماته على توحيده لانه كما لايمكن استقامة أمور العالم واعتداله بغير مدبر ينفرد بتدبيره كذلك لايتوهم وجوده وترتيبه وما فيه من الحكمة ودقائق الصنعة بغير خالق خلقه وعالم اتقنه وحكيم دبره وكما لايستقيم سلطانان فى بلد واحد لايستقيم الهان للعالم والعالم باسره فى سلطان الله تعالى كالبلد الواحد فى يد سلطان الارض ولهذا قال على بن أبى طالب رضى الله عنه امران جليلان لايصلح احدهما بالتفرد ولايصلح الآخر بالمشاركة وهما الملك والرأى فكما لايستقيم الملك بالشركة لايستقيم الرأى بالانفراد به ومثال السلطان القاهر لرعيته والرعية بلا سلطان مثال بيت فيه سراج منير وحوله قوام من الخلق يعالجون صناعتهم فبينما هم كذلك طفئ السراج فقبضوا أيديهم للوقت وتعطل جميع ما كانوا فيه فتحرك الحيوان الشرير وخشخش الهام الخسيس فدبت العقرب من مكمنها وفسقت الفأرة من جحرها وخرجت الحية من معدنها وجاء اللص بحيلته وهاج البرغوث مع حقارته فتعطلت المنافع واستطارت فيهم المضار كذلك اذا كان قاهر الرعيته كانت المنفعة به عامة وكانت الدماء فى أهلها محقونة والحرم فى خدورهن مصونة والاسواق عامرة والاموال محروسة والحيوان الفاضل ظاهر والمرافق حاصلة والحيوان الشرير من أهل الفسوق والدعارة خامل واذا اختل أمر السلطان دخل الفساد على الجميع ولو جعل ظلم الناس حولا فى كفة كان هرج ساعة أعظم وأربح من ظلم السلطان حولا وكيف لا وفى زوال السلطان أو ضعف شوكته سوق اهل الشر ومكسب الاجناد ونفاق اهل العيارة والسوقة واللصوص والمناهبة * وقال الفضيل جور ستين سنة خير من هرج سنة ولا يتمنى زوال السلطان الا جاهل مغرور او فاسق يتمنى كل محذور فحقيق على كل رعية ان ترغب الى الله تعالى فى اصلاح السلطان وان تبذل له نصحه وتخصه بصالح دعائها فان فى صلاحه صلاح العباد والبلاد وفى فساده فساد العباد والبلاد * وكان العلماء يقولون اذا استقامت لكم امور السلطان فاكثروا حمد الله تعالى وشكره وان جاءكم منه ما تكرهون وجهوه الى ما تستوجبونه بذنوبكم وتستحقونه بآثامكم واقيموا عذر السلطان لانتشار الامور عليه وكثرة مايكابده من ضبط جوانب المملكة واستئلاف الاعداء وارضاء الاولياء وقلة الناصح وكثرة التدليس والطمع * وفى كتاب التاج هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار وألباب الملوك مشغولة بكل شئ والباب السوقة مشغولة بايسر شئ والجاهل منهم يعذر نفسه مع ما هو عليه من الراحة ولا يعذر سلطانه مع شدة ما هو عليه من المؤنة ومن هنالك يعز الله سلطانه ويرشده وينصره وعن هذا قالت حكماء العجم لا تستوطنن الا بلدا فيه سلطان قاهر وقاض عادل وسوق قائمة وطبيب عالم ونهر جار

* (الباب الثامن فى منافع السلطان ومضاره) *

(قال) حكماء العرب والعجم مثل مضار السلطان فى جنب منافعه مثل الغيث الذى هو سقيا الله تعالى وبركات السماء وحياة الارض ومن عليها وقد يتأذى به المسافر ويتسدا عى له البنيان وتكون فيه الصواعق وتدرسوله فتهلك الناس والدواب والذخائر ويموج له البحر فتشتد بليته على أهله ولا يمنع ذلك الخلق اذا نظروا الى آثار رحمة الله تعالى فى الارض التى أحيا والنبات الذى أخرج والرزق الذى بسط والرحمة التى نشر أن يعظموا رحمة ربهم

ويشكرونها ويلغوا ذكر خواص الاذية التى دخلت على خواص الخلق (ومثاله) أيضا مثل الرياح التى يرسلها الله تعالى نشرا بين يدى رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحا للثمرات ورواسا للعباد ويتنسمون منها ويتقلبون فيها وتجرى بها مياههم وتقلد بها نيرانهم وتسير بها فى البحر أفلاكهم وقد تضر بكثير من الناس فى برهم وبحرهم وتخلص الى أنفسهم فيشكرها الشاكرون وقد يتأذى بها كثير من الناس ولا يزيلها ذلك عن منزلتها من قوام عبادته وتمام نعمته (ومثاله) أيضا مثال الشتاء والصيف الذى جعل الله حرهما وبردهما اصلاحا للحرث والنسل وتتابع الحب والثمر يجمعهما البرد باذن الله ويخرجهما الحر باذن الله فينضج على اعتدال الى غير ذلك من منافعهما وقد يكون الاذى فى حرهما وبردهما وسمومهما وزمهريرهما وهما مع ذلك لا يفسبان الى الصلاح والخير وقد غمر صلاحهما اذيتهما ومثاله أيضا مثل الليل الذى جعله الله تعالى سكنا ولباسا ونوما وراحة وسباتا وقد يستوحش له أخو الفقر ويسارع فيه أهل الدعارة والفساد واللصوص وتعدو فيه السباع وتنتشر فيه الهوام وذوات الحمة والسموم القاتلة ثم لا ينسى العباد نعم الله تعالى عليهم به ولا يرزأ صغير ضرره بكبير نفعه (ومثاله) ايضا مثال النهار الذى جعله الله ضياء ونورا ونشورا واكتسابا وانتشارا وقد تكون فيه الحروب والغارات والتعب والنصب والشخوص والخصومات فتستريح الخلق منه الى الليل ثم لم ينس العباد نعمة الله عليهم فيه وهكذا كل جسيم من أمور الدنيا يكون ضرره خاصا ونفعه عاما فهو نعمة عامة وكل شئ يكون نفعه خاصا فهو بلاء عام ولو كانت نعم الدنيا صفوا من غير كدر وميسورها من غير معسور لكانت الدنيا هى الجنة التى لا تعب فيها ولا نصب (وقد قال الشاعر)

لا ترج شيأ خالصا نفعه * فالغيث لا يخلو من العيب

* (الباب التاسع فى بيان منزلة السلطان من الرعية) *

اعلموا ان منزلة السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد فاذا صفت الروح من الكدر سرت الى الجوارح سلمية وسرت فى جميع أجزاء الجسد فأمن الجسد من الغير فاستقامت الجوارح والحواس وانتظم أمر الجسد وان تكدرت الروح أو فسد مزاجها فيا ويح الجسد فتسرى الى الحواس والجوارح كدرة وهى منحرفة عن الاعتدال فاخذ كل عضو وحاسة بقسطه من الفساد فمرضت الجوارح وتعطلت فتعطل نظام الجسد وجر الى الفساد والهلاك (ومثال) السلطان أيضا مثال النار ومثال الخلق مثال الخشب فما كان منها معتدلا لم يحتج الى النار وما كان منها متاودا احتاج الى النار ليقام أوده فيعدل عوجه فان أفرطت النار احترق الخشب قبل ان يستقيم أوده وان قصرت النار لم يلن الخشب لقبول الاعتدال فيبقى متاودا واذا كانت النار معتدلة اعتدل الخشب كذلك السلطان فى أطواره ان أفرطت أهلك الخلق وان فرط لم يستقيموا وان اعتدل اعتدلوا (ومثاله) ايضا مثال عين خوارة فى أرض خوارة فان سلا مشربه وعذب طعمه وسلمت من الكدر والفساد أوصافه اختلج فى الارض فابتلعته صافيا صرفا ثم شربته عروق الاشجار فاغتذت به كذلك فغلظت سوقها وفرعت أغصانها وامتدت أفنانها ثم اخرجت أوراقها وأبرزت أزهارها ثم قذفت

ثمارها فجاءت على أتم طبيعتها كبرا وطعما ولونا ورائحة فتقوت بها العباد وأكلت حظوظها البهائم والحشرات وسقط عليها الطير فاحرز كل منها قوته واستقام النظام وان كان في حواشي الارض ما يضيق عن الانبات والنفع ويكدى عن الزكاة والريع أو كان فيها من الشجر ما يبر زحمله ويقل ريعه اعطى كل ذلك الغاية من نفسه وأطلع ما في قواه ولم يغادر ممكنا الا وفاه وان كان في العين كدر أو فساد وملح شربتها الاشجار كذلك فصفت مزاجها وأضر الجزء الفاسد بالطيب فرقت سوقها وضعفت أغصانها وتغيرت أوراقها وقلت ازهارها وثمارها ودخل الفساد على جميع ذلك فجاءت الثمرة وهي نزر قدرها ردي طعمها كاسف لونها فدخل بذلك من النقص على جميع الحيوان مثل ما دخل عليهم في الاولى ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم ان الحشرات لتموت في أجحرتها هزلا بذنب ابن آدم يعني اذا كثرت المعاصي في الارض حبست السماء غياثها ومنعت الارض نباتها فهلك الهوام والحشرات والدواب

(الباب العاشر في بيان معرفة خصال ورد الشرع بها فيها انتظام الملك والدول)

وهي ثلاثة اللين وترك الفظاظة والمشاورة وان لا يستعمل على الاعمال والولايات راغب فيها ولا طالب لها ولما علم الله تعالى ما فيها من انتظام أمر الملة واستقامة الامر نص عليها الله سبحانه ورسوله * اعلم ان هذه الخصال من أساس الممالك وقل من يعمل بها من الملوك اثنتان نزلتا من السماء وواحدة قالها الرسول صلى الله عليه وسلم اما الالهية فقال الله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر وفي الآية اشارتان * احداهما ان الفظاظة تنفر الاصحاب والجلساء وتفرق الجموع والحشم وانما الملك ملك بجلسائه وأصحابه وحشمه واتباعه وأخلق بخصلة تنفر الاولياء وتطمع الاعداء فتمن بكل سلطان رفضها والاحتراز من سوء مغبتها ولتكن كما قال الله تعالى واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم كان جالسا مع أصحابه فجاء رجل فقال أيكم ابن عبد المطلب فقالوا هذا الابيض المتكئ فقال الرجل يا ابن عبد المطلب فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد أجبتك دل الاثر على انه ما استأثر بشرف المجلس ولا فاتهم بزي ولا مقعد وقد يبلغ باللين ما لا يبلغ بالغلظة ألا ترى أن الرياح تهون أصواتها فيتداخل لها الشجر وتنعطف الافنان والاغصان وفي الفرط تنكسر الاغصان والماء بلينه في أصول الشجر يقلعها من أصلها واذا كانت الحية مع صعوبتها وسمها وتغيبها في جحرها ترقى بالكلام حتى تستعطف فتخرج فالانسان أحرى ان يستمال بلين القول وحسن المنطق فاذا أردت ان تنتقم ممن يسيء اليك فكافئه بكل كلمة سوء قالها كلمة جميلة وحسن ثناء عليه * والاشارة الثانية انه قال وشاورهم في الامر فاذا قيل لنا كيف يشاورهم وهو نبيهم وامامهم وواجب عليهم مشاورته وان لا يفصلوا أمرا دونه قلنا هذا أدب أدب الله تعالى نبيه عليه السلام به وجعله مأدبة لسائر الملوك والامراء والسلاطين لما علم الله تعالى ما في المشاورة من حسن الادب مع الجليس ومساهمته في الامور فان نفوس الجلساء والنصحاء والوزراء تصلح عليه وتميل اليه وتخضع عنوة بين يديه شرعة لنبيه عليه السلام ولاولى الامرة من أهل ملته فعلى

الله عليه وسلم ألا ترى ان النبي عليه السلام كان في غزوة فامرهم بالنزول فقال له سعد يا رسول الله ان كان هذا امرك فسمع وطاعة وان كان غير ذلك فليس بمنزل فسمع منه النبي عليه السلام وقال ارتحلوا * ومن أقبح ما يوصف به الرجال ملوكا كانوا أو سوقه الاستبداد بالرأي وترك المشاورة وسنعقد للمشاورة بابا ان شاء الله تعالى * والخصلة الثالثة مما روى البخاري ومسلم وغيرهما ان رجلا قال يا رسول الله استعملني فقال النبي عليه السلام انا لا نستعمل على عملنا من اراده والسر فيه ان الولايات امانات وتصرف في ارواح الخلائق وأموالهم والتسرع الى الامانة دليل على الخيانة وانما يخطبها من يريدأ كلها واذا ائتمن خائن على موضع الامانات كان كاسترعاء الذئب على الغنم ومن هذه الخصلة تفسد قلوب الرعايا على ملوكها لانه اذا اهتضمت حقوقهم وأكلت أموالهم فسدت نياتهم واطلقوا ألسنتهم بالدعاء والتشكي وذكر واسائر الملوك بالعدل والاحسان فكانوا كالبيت السائر الذي أنشدناه

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها * فكيف اذا الرعاة لها ذئاب

فاذا كان أهل الامانات وفسد أهل الولايات كان الامر كما قال الاول

بالملح يصلح ما يخشى تغيره * فكيف بالملح ان حلت به الغير

(وقال آخر)

ذئب تراه مصليا * فاذا مررت به ركع

يدعو وجل دعائه * ما للفريسة ما تقع

يجل بها يا ذا العلا * ان الفؤاد قد انصدع

*ومن اشراط الساعة التصدي للامانة وخطبة الولاية (وروى) عن النبي عليه السلام انه قال من اشراط الساعة ان تكون الزكاة مغرما والامانة مغنما فحينئذ يدعو عليه الضعيف وأهل الصلاح ويقعد له بالمراصد الشرير ويخاض عليه القوى ويقبح ثناؤه عند الجماعة ويتمنوا الراحة منه وينتظرون من يصلح لها سواه

(الباب الحادي عشر في بيان معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ولا ثبات له دونها)

فاول الخصال وأحقها بالرعاية العدل الذي هو قوام الملك ودوام الدول وأس كل مملكة سواء كانت نبوية أو اصلاحية * اعلم أرشدك الله ان الله تعالى أمر بالعدل ثم علم سبحانه ان ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الاحسان وهو فوق العدل فقال ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى فلو وسع الخلق العدل ما قرن الله به الاحسان فمن لم يصلح حتى يزاد على العدل كيف يصلح اذا لم يبلغ به العدل والعدل ميزان الله في الارض الذي به يؤخذ للضعيف من القوى وللمحق من المبطل وليس موضع الميزان بين الرعية فقط بل بين السلطان والرعية أيضا فمن أزال ميزان الله الذي وضعه من القيام بالقسط فقد تعرض لسخط الله تعالى * واعلم أيها الوالي ان الملك بمنزلة رجل فرأسه أنت وقلبه وزيرك ويداه أعوانك ورجلاه رعيتك وروحه عدلك وما بقاء جسد بلا روح واذا أردت ذروة العدل فاعلم ان الرعية ثلاثة أنفس كبير وصغير ووسط فاجعل كبيرهم أبا ووسطهم أخا وصغيرهم ابنا فبر أباك وأكرم أخاك وارحم ابنك فانك واصل بذلك الى بر الله وكرامته ورحمته * واعلم ان عدل الملك

يوجب الاجماع عليه وجوره يوجب الافتراق عنه عدل الملك حياة رعيته * وفي منثور الحكم سلطان جائر أربعين عاما خير من رعية مهملة ساعة واحدة من النهار اذا عدل السلطان فيما قرب منه صلح له ما بعد عنه فضل الملوك في الاعطاء وشرفها في العفو وعزها في العدل عدة السلطان ثلاثة مشاورة النصحاء وثبات نيات الاعوان واقامة سوق العدل افضل الازمنة ازمنة ائمة العدل ثم العدل ينقسم قسمين قسم الهي جاءت به الرسل والانبياء عليهم السلام عن الله تعالى والثاني ما يشبه العدل وهو السياسة الاصلاحية التي هرم عليها الكبير ونشأ عليها الصغير وبعيد أن يبقى سلطان أو تستقيم رعية في حال ايمان أو كفر بلا عدل قائم ولا ترتيب للامور ثابت فذلك ما لا يجوز ولا يمكن * وقد ذكرنا في أول الكتاب ان سليمان بن داود سأل ملكه حين جلس الخصمان بين يديه وكان لاحدهما خاصة بسليمان فقال في نفسه وددت أن يكون الحق لخاصتي فاقضي له فسلبه الله تعالى ملكه وقعد الشيطان على كرسيه فاجعل العدل رأس سياستك فتسقط عنك جميع الآفات المفسدة للسياسة وتقوم لك جميع الشرائط التي تقوم بها المملكة * قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه امام عادل خير من مطر وابل وأسد حطوم خير من سلطان ظلوم وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم وقال ابن مسعود اذا كان الامام عادلا فله الاجر وعليك الشكر وان كان جائرا فعليه الوزر وعليك الصبر * وقال سليمان بن داود عليهما السلام الرحمة والعدل يحرزان الملك واتفق حكماء العرب والعجم على هذه الكلمات فقالوا الملك بناء والجند أساسه فاذا قوي الاساس دام البناء وان ضعف الاساس انهار البناء فلا سلطان الا بجند ولا جند الا بمال ولا مال الا بجباية ولا جباية الا بعمارة ولا عمارة الا بعدل فصار العدل أساسا لسائر الاساسات * فاما العدل النبوي فأن يجمع السلطان الى نفسه حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه وهم الادلاء على الله تعالى والقائمون بأمر الله والحافظون لحدود الله والناصحون لعباد الله * وروى أبو هريرة ان النبي عليه السلام قال ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم فاتخذ أيها الملك العلماء شعارا والصالحين دثارا فتدور المملكة بين نصائح العلماء ودعوات الصلحاء وأخلق بملك يدور بين هاتين الخصلتين ان تقوم عمده ويطول أمده وكيف لا وقد فرقهم الله في سلطانه واصطفاهم بخالص معرفته فقال جل من قائل شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط فبدأ بنفسه وثنى بملائكته وثلث باولي العلم وهم ورثة الانبياء عليهم السلام الموفقون عن الله تعالى لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم ففي تعظيمهم وتقريبهم امتثال لامر الله تعالى وتعظيم لمن أثنى الله عليه ويجب ترفيع مجالسهم وتمييز مواضعهم عمن سواهم قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وفيه استمالة قلوب الرعية وخلوص نياتهم لسلطانهم واجماعهم على محبته فواجب على السلطان أن لا يقطع امر ادونهم ولا يفصل حكما الا بمشاورتهم لانه في ملك الله يحكم وفي شريعته يتصرف وأقل الواجبات على السلطان ان ينزل نفسه مع الله منزلة ولاته معه أليس اذا خالف واليه أمره وما رسمه له من الاحكام عزله وعاقبه ولم يأمن سطوته واذا امتثل أوامره

وازدجر

وازدجر من زواجره حل منه محل الرضا فواعجبا لمن يغضب على وليه اذا خالفه ثم لا يخاف سطوة ربه عليه اذا خالفه فهذا طريق اقامة العدل الشرعى والسياسة الاسلامية الجامعة لوجوه المصلحة الآخذة لازمة التدبير السالمة من العيوب الممهدة لاستقامة الدنيا والدين * وكما أن الملك الحازم لا يتم حزمه الا بمشاورة الوزراء والاخيار كذلك لا يتم عدله الا باستفتاء العلماء الابرار وقد وقع المأمون فى قصة متظلم من عمرو بن مسعدة يا عمرو اعمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها وفى اشاعة العدل قوة القلب وطيبة النفس ولزوم اليقين وامان من العدو ولما استأذن الهرمزان على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يجد عنده حاجبا ولا بوابا فقيل له هو فى المسجد فاتى المسجد فوجده مستلقيا متوسدا كوما من الحصباء ودرته بين يديه فقال له عدلت فامنت فنمت وقال الحسن رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه وقد جمع الحصباء فى مسجد النبى عليه السلام عند رأسه وقد وضع احد جانبى ردائه عليه وهو يومئذ أمير المؤمنين ما عنده أحد من الناس ودرته بين يديه وكتب عامل حمص الى عمر بن عبد العزيز ان مدينة حمص قد تهدمت واحتاجت الى اصلاح فكتب اليه عمر حصنها بالعدل ونق طرقها من الجور والسلام وقالت الحكماء من حرم العدل فلا خير فيه ولا للناس فى سلطانه وقال يحيى بن اكثم ماشيت المأمون فى بستان والشمس عن يسارى والمأمون فى الظل فلما رجعنا وقعت الشمس أيضا على فقال لى المأمون تحول مكانى واتحول مكانك حتى تكون فى الظل كما كنت وأقيك الشمس كما وقيتنى فان أول العدل ان يعدل الرجل على بطانته ثم الذين يلونهم حتى يبلغ العدل الطبقة السفلى فعزم على قحولت وكان يقال ليس شئ أبعد من بقاء ملك الغاصب وقيل للاسكندر ولأ كثرت من النساء حتى يكثر نسلك ويحياذ كرك فقال انما يحيى الذكر الافعال الجميلة والسيرة الحميدة ولا يحسن بمن يغلب الرجال ان تغلبه النساء وقال الحكيم من اتخذ العدل سنة كان له أحسن جنة ومن استشعر حلة العدل استكمل زينة الفضل وقال أبو عبيد ابن عبد الله بن مسعود ان الامام العادل ليسكت الاصوات عن الله وان الامام الجائر لتكثر منه الشكاية الى الله تعالى وقال الحكيم لا يزال السلطان مهملا حتى يتخطى الى أركان العمارة ومبانى الشريعة فحينئذ يرتج الله منه وقالوا لا تظلم الضعفاء فتكون من لئام الاقوياء وقال بعض الحكماء أمير بلا عدل كغيم بلا مطر وعالم بلا ورع كارض بلا نبات وشاب بلا توبة كشجر بلا ثمر وغنى بلا سخاء كقفل بلا مفتاح وفقير بلا صبر كسراج بلا ضوء وامرأة بلا حياء كطعام بلا ملح وقال كسرى اتفقت ملوك العجم على أربع خصال ان الطعام لا يؤكل الا على شهوة والمرأة لا تنظر الا الى زوجها والملك لا يصلحه الا الطاعة والرعية لا يصلحها الا العدل واحق الناس باجبار نفسه على العدل الملوك الذين بعدلهم يعدل من دونهم والذين اذا قالوا اوفعلوا كان نافذا غير مردود وقالت الحكماء رب ماشقيت بالانصاف وأنا زعيم لك بالظفر به والظلم ادعى شئ الى تغيير نعمة أو تعجيل نقمة وقال الحكيم شر الزاد الى المعاد الذنب بعد الذنب وشر من هذا العدوان على العباد ومتى أراد السلطان حسن الصيت وجميل الذكر فليقم سوق العدل وان أحب الزلفى عند الله وشرف المنزلة عنده فليقم سوق العدل وان أحبهما جميعا فليقم سوق العدل والذى يخلد به ذكر الملوك على غابر الدهور عدل

واضح اوجور فاضح هذا يوجب له الرحمة وهذا يوجب له اللعنة

(فصل) فاما القسم الثانى من العدل وهو السياسة الاصطلاحية وان كان أصلها على الجور فيقوم بها أمر الدنيا وكانها تشاكل مراتب الانصاف على نحو ما كانت عليه ملوك الطوائف فى أيام الفرس وكانوا كفارا يعبدون النيران ويتبعون هواجس الشيطان فواضعوا بينهم سننا واسسوا لهم أحكاما وأقاموا لهم مراتب فى النصفة بين الرعايا واستيفاء الخراجات وتوظيف المكوس على التجارات كل ذلك بعقولهم على وجوه ما أنزل الله بها من سلطان ولا نصب عليها من برهان بيد أنه لما جاءت الشريعة من عند الله تعالى على لسان نبيه صاحب المعجزة محمد صلى الله عليه وسلم فنهاها ما اقرته فى نصابه ومنها ما نسخته وابطلت حكمه فعادت الحكمة البالغة الى الله تعالى والحكم بما أنزل الله وبطل ما سواه وكان ملكهم محفوظا برعاياتهم للقوانين المألوفة بينهم فانقطع بذلك حبل الهمل فكانوا يقيمون بها واجب الحقوق ويتعاطون بها امالهم وعليهم ومن هذا كان يقال ان السلطان الكافر الحافظ لشرائط السياسة الاصطلاحية أبقى واقوى من السلطان المؤمن العدل فى نفسه المضيع للسياسة النبوية العدلية والجور المرتب ابقى من العدل المهمل اذ لا شئ أصلح لامر السلطان من ترتيب الامور ولا شئ افسد له من اهمالها واعلم ان درهما يؤخذ من الرعية على وجه الاهمال والخرق وان كان عدلا افسد قلوبها من عشرة تؤخذ منها سياسة على زمام معروف ورسم مألوف وان كان جورا فلا يقوم السلطان لاهل الايمان ولا لاهل الكفران الا باقامة العدل النبوى وأما يشبهه العدل من الترتيب الاصطلاحى وقال ابن المقفع الملوك ثلاثة ملك دين وملك حزم وملك هوى فاما ملك الدين فانه اذا أقام لاهل المملكة دينهم كانوا راضين وكان الساخط فيه بمنزلة الراضى واما ملك الحزم فيقوم به الامر ولا يسلم من الطعن والسخط ولن يضر طعن الدليل مع حزم القوى واما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر ولقد بلغنا أن ملكا من ملوك الهند نزل به ضعم فاصبح متوجعا مهتما بامور المظلومين وانه لا يسمع استغاثتهم فامر منادية ان لا يلبس أحد فى مملكته ثوبا أحمر الا مظلوم وقال لئن منعت سمعى لم أمنع بصرى فكان كل من ظلم لبس ثوبا أحمر ووقف تحت قصره فيكشف عن ظلامته قال شيصا واخبرنى ابو العباس الحجازى وكان ممن دخل الصين بسيرة عجيبة غريبة لملوكها فى سياستهم وذلك ان للبيت الذى يكون فيه الملك ناقوسا موصولا بسلسلة وطرف السلسلة فى خارج الطريق وعليها امناء للسلطان وحفظة فيأتى المظلوم فيحرك السلسلة فيسمع الملك صوت الناقوس فيأمر بادخال المظلوم فكل من حرك السلسلة تمسكه تلك الحفظة حتى تدخله على السلطان

(الباب الثانى عشر فى التنصيص على الخصال التى زعم الملوك انها ازالت دولتهم وهدمت سلطانهم)

ايها الملك احرص كل الحرص ان تكون خبيرا بامور عمالك فان المسئ يفرق من خبرتك به قبل ان تصيبه عقوبتك والمحسن يستبشر بعملك به قبل ان يأتيه ثوابك قال أبو جعفر المنصور مازال امر بنى أمية مستقيما حتى افضى أمرهم الى ابنائهم المترفين فكانت همتهم من عظيم شأن

الملك

الملك وجلالة قدره قصد الشهوات وايثار اللذات والدخول فى معاصى الله ومساخطه جهلا منهم باستدراج الله تعالى وامنا لمكره فسلبهم الله العز ونقل عنهم النعمة قال عبيد الله بن مروان ومروان هذا هو المعروف بمروان الحمار وهو آخر ملوك بنى أمية قتل فى أرض مصر فى كورة بوصير لما زال ملكا وهربت الى أرض النوبة فمن اتبعنى من أصحابى فسمع ملك النوبة بخبرى فجاءنى فقعد على الارض ولم يقعد على فراشه فقلت له الا تقعد على ثيابنا قال لا قلت ولم قال لانى ملك وحق على كل ملك ان يتواضع لامر الله سبحانه اذ رفعه ثم قال لى لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم ولم تطؤن الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم ولم تستعملون الذهب والفضة وتلبسون الديباج والحرير وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك فقل انصارنا واتصرنا بقوم من الاعاجم دخلوا ديننا ولنا عبيد واتباع فعلوا ذلك على كره منا فاطرق ملیا يقلب كفيه ويبكت فى الارض ثم قال ليس كما ذكرت بل انتم قوم استحللتم ما حرم الله وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز بذنوبكم ونقم فيكم نقمة لم تبلغ غايتها وأخاف ان يحل بكم العذاب وانتم ببلدى فيصيبنى معكم واعاد الضيافة ثلاثة أيام فنرودوا مما احتجتم اليه وارتحلوا عن بلدى فتزودنا وارتحلنا وسئل بزرجمهر مابل ملك آل ساسان صار الى ماصار اليه بعدما كان فيه من قوة السلطان وشدة الاركان فقال ذلك لانهم قلدوا كبارا لاعمال صغار الرجال وعن هذا قالت الحكماء موت ألف من العلية أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة وفى الامثال ان زوال الدول باصطناع السفل وقال الشافعى رضى الله عنه اظلم الناس لنفسه اللئيم اذا ارتفع جفا اقاربه وانكر معارفه واستخف بالاشراف وتكبر على ذوى الفضل وسئل بعض الملوك بعد زوال ملكه ما الذى سلبك ملكك قال اعطاؤنا من بطر وطغى ورفع عمل اليوم لغد وسئل بعض الملوك بعد ان سلبوا ملكهم ما الذى سلب عزكم وهدم ملككم فقال شغلتنا لذاتنا عن التفرغ لمهماتنا ووثقنا بكفاتنا فآثروا مرافقهم علينا وظلم عمالنا رعيتنا فانفسدت نياتهم لنا وتمنوا الراحة منا وحمل على أهل خراجنا فقل دخلنا وبطل عطاء جيدنا فزالت الطاعة منهم لنا وقصدنا عدونا فقل ناصرنا وكان أعظم ما زال به ملكنا استتار الاخبار عنا وقالت الحكماء أسرع الخصال فى هدم السلطان وأعظمها وأسرعها فى افساده وتفريق الجمع عنه اظهار المحاباة لقوم دون قوم والميل الى قبيلة دون قبيلة فتى أعلن بحب قبيلة فقد برئ من قبائل وقديما قيل المحاباة مفسدة وقال مهبوذ الموبذان من زوال السلطان تقريب من ينبغى ان يباعد ومباعدة من ينبغى ان يقرب وحينئذ حان أوان الغدر وقيل لملك بعد ذهاب ملكه ما الذى أذهب ملككم قال ثقتى بدولتى واستبدادى بمعرفتى واغفالى استشارتى واعجابى بشدتى واضاعتى الحيلة وقت حاجتى والتانى عند العجلة ولما أحيط بمروان الجعدى وهو آخر ملوك بنى أمية قال لهفناه على دولة ما نصرت وكف ما ظفرت ونعمة ما شكرت فقال له خادمه نسيل وكان من أولاد اشراف الروم من أغفل الصغير حتى يكبر والقليل حتى يكثر والخفى حتى يظهر اصابه مثل هذا وسئل بعض العلماء ما الذى أذهب ملك بنى مروان قال تحاسد الاكفاء وانقطاع الاخبار وذلك ان زيد بن عمر كان يحب أن يضع من نصر بن سيار وكان لا يعده بالرجال ولا يرفع الى السلطان ما يورد عليه من أخبار خراسان فلما رأى ذلك نصر

ابن سيار قال

أرى خلل الرماد وميض نار * فيوشك ان يكون لها ضرام
وان النار بالعودين تذكو * وان الحرب أولها الكلام
فقلت تجاهلا ليت شعرى * أايقاظ أمية أم نيام

وكان العباسيون يؤسسون لدولتهم ولا تصل اخبارهم الى بنى أمية حتى استفحل أمرهم وضعف امر بنى أمية وسئل مروان بن محمد الجعدى وهو آخر ملوك بنى أمية ما الذى أضعف ملكك بعد قوة السلطان وثبات الاركان فقال الاستبداد برأيى لما كثرت على كتب نصر بن سيار ان أمده بالاموال والرجال قلت فى نفسى هذا رجل يريد الاستكثار من الاموال بما يظهر من فساد الدولة قبله وهيهات ان ينتقض على خراسان فانتقضت دولته من خراسان

(الباب الثالث عشر فى الصفات الرائبة التى زعم الحكماء انه لا تدام معها الملكة)

ومن أعجب العجائب دوام الملك مع الكبر والاعجاب اعلموا ان الكبر والاعجاب يسلبان الفضائل و يكسبان الرذائل لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة والمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح وقبول التأديب والكبر يكسب المقت و يمنع من المسئلة وكل كبر ذكره الله فى القرآن فمقرون بالشرك ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم للعباس انهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله سبحانه يغضب منهما وقال اردشير بن بابك ما الكبر الا فضل حمق لم يدر صاحبه اين يذهب به فصرفه الى الكبر وقال الاحنف بن قيس ما تكبر احد الا من ذلة يجدها فى نفسه ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتأنف منه قال الشاعر

فتى كان عذب الروح لا من خصاصة * ولكن كبرا ان يقال به كبر

ونظر افلاطون الى رجل جاهل معجب بنفسه فقال وددت انى مثلك فى ظنك وان أعدائى مثلك فى الحقيقة قالت الحكماء قد يدوم الملك مع معظم النقائص فرب فقير ساد قومه ورب أحمق ساد قبيلته منهم الاقرع بن حابس الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم ذلك الاحمق المطاع قالوا ولا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب السيادة واعظم من ذلك ان الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال سبحانه وتعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا فقرن الكبر بالفساد ومنعا من دخول الجنة وقال جل وعز سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق وقال بعض الحكماء ما رأيت متكبرا الا تحول داؤه فى يعنى انى أتكبر عليه واعلم ان الكبر يوجب المقت ومن مقته ربه لم يستقم حاله ومن أبغضته بطانته كان كمن غص بالماء ومن كرهه الحماة تطاولت عليه الاعداء واما الاعجاب فيحمله على الاستبداد وترك مشورات الرجال ومن الصفات التى لا تقوم معها المملكة الكذب والغدر والخبث والجور والسخف وقالت حكماء العرب والعجم ست خصال لا تغتفر من السلطان الكذب والخلف والحسد والحدة والبخل والجبن فانه اذا كان كذابا لم يوثق بوعده ولا بوعيده فلم يرج خيره ولم يخف شره ولا بهاء للسلطان لا يرهب وقال الحكماء خراب البلاد وفساد العباد مقرونان بابطال الوعد والوعيد من الملوك والكذب اسقط

الاخلاق واغلب شئ على صاحبه وأحرى ان لاينزع عنه لضراوته وقيل لاعرابي لم تكذب قال لو تعززت به ماتركته وهو نوع من الفحش وضرب من الدناءة وأصله استعذاب المنى وهو أضغاث فكر الحمق ومن بليته انه يحمل على صاحبه ذنب غيره فاذا سمعت كذبة طائحة نسبت اليه قال الشاعر

حسب الكذوب من الها * نة بعض مايحكى عليه
واذا سمعت بكذبة * من غيره نسبت اليه

(وقال غيره)

لى حيلة فيمن ينم * وليس فى الكذاب حيله
من كان يخلق مايقو * ل فحيلتى فيه قليله

وقال الله تعالى انما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله واما الحسد فانه اذا كان حسود الم يشرف أحدا واذا ضاعت الاشراف هلكت الاتباع ولايصلح الناس الا على اشرافهم قال الشاعر

لاتصلح الناس فوضى لاسراة لهم * ولاسراة اذا جهالهم سادوا

واما البخل فاذا كان بخيلا لم يناصحه أحد ولاتصلح الولاية الا بالمناصحة وليس للملك ان يبخل لان بيوت الاموال فى يديه واما الجبن فاذا كان جبانا اجترأ عليه عدوه وضاعت ثغوره واذا كان حديدا غضوبا والقدرة من ورائه هلكت رعيته وليس للملك ان يغضب لان القدرة من وراء حاجته ولما دخل اسقف نجران على مصعب بن الزبير ضرب وجهه بالقضيب فادماه فقال الاسقف ان شاء الامير أخبرته بما أنزل الله على عيسى عليه السلام قال قل قال لاتغضب بعدها قال هات قال لاينبغى للامام ان يكون سفيها ومنه يلتمس الحلم ولاجائرا ومنه يلتمس العدل وقال الاوزاعى يهلك السلطان بالاعجاب والاحتجاب فاما الاعجاب فقد ذكرناه واما الاحتجاب فهو أوحى الخلال فى هدم السلطان وأسرعها خرابا للدول فانه اذا احتجب السلطان فكانه قدمات لان الحجبة موت حكمى فتعبث بطانته بارواح الخلائق وحريمهم وأموالهم لان الظالم قد أمن ان لايصل المظلوم الى السلطان ومعظم مارأيناه فى أعمارنا وسمعناه عن سمعناه من دخول الفساد على الملوك من حجبتهم عن مباشرة الامور ولاتزال الرعية ذا سلطان واحد ماوصلوا الى سلطانهم فاذا احتجب فهنالك سلاطين كثيرة يا أيها الملك المغرور احتجبت عن الرعية بالحجاب والابواب وجعلت دونهم بوابا شديدة وحفاظا كربا بالحجارة والماء والطين مانعة وباب الله مفتوح للسائلين ليس هنالك لاحاجب ولابواب قال الله تعالى الامن شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا وقال معاوية ليس بين ان يملك السلطان رعيته أو تملكه الا الحزم والتوانى وكماله امران شدة فى غير افراط ولين فى غير امتهان وسئل بزرجمهر أى الملوك أحزم قال من ملك جده هزله وقهر لبه هواه وأعرب عن ضميره فعله ولم يخدعه رضاه عن حظه ولاغضبه عن كيده وقال بعض الحكماء زوال الدول فى اصطناع السفل ومن طال عدوانه زال سلطانه وقالوا من لم يستظهر باليقظة لم ينتفع بالحفيظة وقال يحيى بن خالد أحسن ماوجدت فى طراز الحكم من البلاغة الجهل مع التواضع خير من السخاء والعلم مع الكبر فيالها حسنة غطت على سيئتين ويالها

سبعة غطت على حسناتين

(الباب الرابع عشر في الخصال المحمودة في السلطان)

وقد اتفقت العلماء والحكماء عليها فقالوا أيها الملك ان قصرت قوتك عن عدوك فتخلق بالاخلاق الجميلة التي ليس لعدوك مثلها فانها الكفاية من الغارة الشعواء وقال معاوية لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال كان عالما بريعته عادلا في قضيته عاريا من الكبر قبولا للعذر سهل الحجاب محمود الباب متحريا للصواب رفيقا بالضعيف غير محاب للقوي ولا يجاف للقريب وقالوا المنفعة توجب المحبة والمضرة توجب البغضة والمخالفة توجب العداوة والمتابعة توجب الالفة والصدق يوجب الثقة والامانة توجب الطمانينة والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة وحسن الخلق يوجب المودة وسوء الخلق يوجب المباعدة والانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب الوحشة والكبر يوجب المقت والتواضع يوجب المقة والجود يوجب الحمد والبخل يوجب المذمة والتواني يوجب التضييع والجد يوجب رجاء الاعمال والهوينى توجب الحسرة والحزم يوجب السرور والتغرير يوجب الندامة والحذر يوجب العذر واصابة التدبير توجب بقاء النعمة وبالتاني تسهل المطالب وبلين كنف المعاشرة تدوم المودة ويحفظ الجانب تأنس النفوس ويسعة خلق المرء يطيب عيشه والاستهانة توجب التباعد وبكثرة الصمت تكون الهيبة وعدل المنطق يوجب الجلالة وبالنصفة تكثر المواصلة وبالافضال يعظم القدر وبصالح الاخلاق تزكو الاعمال وباحتمال المؤن يجب السودد وبالحلم عن السفيه تكثر انصارك عليه وبالرفق والتؤدة تستحق اسم الكرم وبترك مالا يعنيك يتم لك الفضل واعلم ان السياسة تكسو أهلها المحبة والفظاظة تخلع عن صاحبها ثوب القبول ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة والنظر في العواقب نجاة ومن لم يحلم ندم ومن صبر غنم ومن سكت سلم ومن خاف حذر ومن اعتبر ابصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ومن أطاع هواه ضل ومع العجلة الندامة ومع التاني السلامة زارع البر يحصد السرور صاحب العاقل مغبوط صديق الجاهل تعب اذا جهلت فاسال واذا زللت فارجع واذا أسأت فاندم واذا ندمت فاقلع واذا افضلت فاكتم واذا منعت فاجمل واذا أعطيت فاجزل واذا غضبت فاحلم من بدأك ببره فقد شغلك بشكره المروآت كلها تبع للعقل الرأي تبع للتجربة العقل أصله التثبت وثمرته السلامة والتوفيق أصله العقل وثمرته النجح والتوفيق والاجتهاد زوجان فالاجتهاد سبب والتوفيق ينجح الاجتهاد قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا والاعمال كلها تبع للمقدور واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب من التوراة من قنع شبع ومن الزبور من سكت سلم ومن الانجيل من اعتزل نجا ومن القرآن ومن اعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم الحلم شرف والصبر ظفر والمعروف كنز والجهل سقه والايام دول والدهر غير والمرء منسوب الى فعله ومأخوذ بعمله اصطناع المعروف يكسب الحمد أكرموا الجليس يعمر ناديكم أنصفوا من نفوسكم يوثق بكم اياكم والاخلاق الدنيئة فانها تضيع الشرف وتهدم المجد تهنئة الجاهل أهون من جريرته رأس العشيرة يحمل اثقالها واجتمعت

سكماء العرب والعجم على أربع كلمات لا تحمل بطنك ما لا تطيق ولا تعمل عملا لا ينفعك ولا تفتقر بامرة ولا تثق بمال وان كثر

(الباب الخامس عشر فيما يعز به السلطان)

وهي الطاعة قال ملك فارس لوبذان موبذه ما شيء واحد يعز به السلطان قال الطاعة قال فما ملاك الطاعة قال التودد الى الخاصة والعدل على العامة قال صدقت الامانة معقل الطاعة والطاعة زينة الملك وكان يقال طاعة السلطان على أربعة أوجه على الرغبة والرهبة والمحبة والديانة ولما دخل سعد العشيرة على بعض ملوك حمير قال له يا سعد ما صلاح الملك قال معدلة شائعة وهيبة وازعة ورعية طائعة فان في المعدلة حياة الانام وفي الهيبة نفي الظلام وفي طاعة الرعية التآلف والالتئام طاعة الائمة فرض على الرعية كما أن طاعة السلطان مقرونة بطاعة الله اتقوا الله بحقه والسلطان بطاعته من اجلال الله اجلال السلطان عادلا كان أو جائرا الطاعة تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين عصيان الائمة يهدم أركان الملة أولى الناس بطاعة السلطان ومناصحته أهل الدين والنهى والمروآت اذ لا يقوم الدين الا بالسلطان ولا تكون النهى والحرم محفوظة الا به الطاعة ملاك الدين الطاعة معاقد السلامة وارفع منازل السعادة الطريقة المثلى والعروة الوثقى قوام الامة وقيام السنة بطاعة الائمة الطاعة عصمة من كل فتنة ونجاة من كل شبهة طاعة الائمة عصمة لمن لجأ اليها وحرز لمن دخل فيها وليس للرعية ان تعترض على الائمة في تدبيرها وان سولت لها أنفسها بل عليها الانقياد وعلى الائمة الاجتهاد بالطاعة تقوم الحدود وتؤدى الفرائض وتحقن الدماء وتأمن السبل الامامة عصمة للعباد وحياة للبلاد أوجب الله لمن خصه بفضلها وحمله اعباءها الطاعة فقرنها بطاعته وطاعة رسوله فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم طاعة الائمة هدى لمن استضاء بنورها وموئل لمن حافظ عليها الخارج من الطاعة منقطع العصمة برئ من الذمة مبدل بالكفر النعمة طاعة الائمة حبل الله المتين ودينه القويم وجنته الواقية وكفايته العالية اياكم والخروج عن أنس الطاعة الى وحشة المعصية ولا تسروا غش الائمة وعليكم بالاخلاص والنصيحة ما مشى قوم الى سلطان ليذلوه الا اذلهم الله قبل ان يموتوا الطاعة مقرونة بالمحبة طاعة المحبة أفضل من طاعة الهيبة للرعية على السلطان الاستصلاح لهم والتعهد لامورهم وحسن السيرة فيهم والعدل عليهم والتعديل بينهم وحق السلطان عليهم الطاعة والاستقامة والشكر والمحبة بالرعية من الحاجة الى الراعي ما ليس بالراعي من الحاجة اليهم لولا الرعاة هلكت الرعية ولولا السيم هلكت السوائم

(الباب السادس عشر في ملاك أمور السلطان)

قال سليمان بن داود عليهما السلام الرحمة والعدل يحرزان الملك وقال زياد ملاك السلطان ثلاثة أشياء الشدة على المذنب والمجازاة للمحسن وصدق القول ولما غزا سابور ذو الاكتاف ملك الروم وأخرب بلاده وقتل جنده وافنى بطارقته قال له ملك الروم انك قد قتلت وأخربت فاشعرني ما الامر الذي تشبثت به حتى قويت على ما أرى وبلغت في السياسة ما لم يبلغه ملك فان

كان مما يضبط الامر بمثله اديت اليك الخراج وصرت كبعض الرعية فى الطاعة لك فقال له سابور انى لم أزد فى السياسة على ثمان خصال لم أهزل فى أمر ولا نهى ولم أخلف فى وعد ولا وعيد وليت أهل الكفاية وأثبت على العناء لا على الهوى وضربت للادب لا للغضب واودعت قلوب الرعية المحبة من غير جرأة والهيبة من غير ضغينة وعممت بالقوت ومنعت الفضول فآذن له وأدى اليه الخراج وكتب الوليد الى الحجاج ان يكتب له بسيرته فكتب اليه انى أيقظت رأيى وأغمضت هواى وأدنيت السيد المطاع فى قومه وليت الحرب الحازم فى أمره وقلدت الخراج الموفى لامانته وقسمت لكل خصم من نفسى قسما يعطيه حظا من نظرى ولطيف عنايتى وصرف السيف الى البطر والمسىء فخاف المذنب صولة العقاب وتملك المحسن بحظه من الثواب وقال أبو عبيدة اذا كان الملك محصنا لسره بعيدا من أن يعرف ما فى نفسه متخيرا للوزراء مهيبا فى أنفس العامة مكافئا بحسن البلاء لا يخافه البرىء ولا يأمنه المجرم كان خليقا ببقاء ملكه

(الباب السابع عشر فى خير السلطان وشر السلطان)

افضل الملوك من كان شكره بين الرعايا كلهم واحدا منهم فيه قسطه ليس احد احق به من احد لا يطمع القوى فى حيفه ولا ييأس الضعيف من عدله كان النبى صلى الله عليه وسلم تأخذ بيده الامة من اماء المدينة فتطوف به على سكك المدينة حتى تقضى حاجتها وفى حكم الهند افضل السلطان من امنه البرىء وخافه المجرم وشر السلطان من خافه البرىء وامنه المجرم وقال عمر للمغيرة لما ولاه الكوفة يا مغيرة ليأمنك الابرار ولتخفك الفجار وفى حكم الهند ايضا شر المال ما لا ينفق منه وشر الاخوان الخاذل وشر السلطان من خافه البرىء وشر البلاد ما ليس فيه خصب ولا امن وخير السلطان من اشبه النسر وحوله الجيف لا من اشبه الجيفة وحولها النسور وعن هذا المعنى قالوا سلطان تخافه الرعية خير للرعية من سلطان يخافها وفى الامثال العامة رهبوت خير لك من رحموت وكان يقال شر خصال الملوك الجبن عن الاعداء والقسوة على الضعفاء والبخل عند الاعطاء وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثلاثة من الفواقر جار ملازم ان رأى حسنة سترها وان رأى سيئة اذاعها وامرأة ان دخلت عليها لسنتك وان غبت عنها لم تأمنها وسلطان ان احسنت لم يحمدك وان اسأت قتلك وقال رجل لبعض العلماء متى اضل وانا اعلم فقال اذا ملكتك امرأة ان اطعتهم اذلوك وان عصيتهم قتلوك وقال ابو حازم لسليمان بن عبد الملك السلطان سوق ما نفق عنده اتى به وفى كتاب ابن المقفع الناس على دين الملك الا القليل فان يكن للبر والمروءة عنده نفاق فسيكسد بذلك الفجور والدناءة فى آفاق الارض وسمع زياد رجلا يذم الزمان فقال لو كان يدرى ما الزمان لعاقبته ان الزمان هو السلطان وقال معاوية لابن الكواء صف لى الزمان فقال انت الزمان ان تصلح يصلح وان تفسد يفسد والمثل السائر فى كل زمان وعلى كل لسان الناس على دين الملك وقال بعض الحكماء ان احق الناس ان يحذر العدو الفاجر والصديق الغادر والسلطان الجائر وقال بزرجمهر أدوم التعب صحبة السلطان السيئ الخلق وقال بعض الحكماء اذا ابتليت بصحبة سلطان لا يريد صلاح رعيته فقد خيرت بين امرين ليس بينهما خيار اما الميل مع الوالى على الرعية فهو

هلاك الدين واما الميل مع الرعية على الوالى فهو هلاك الدنيا فلا حيلة لك الا الموت او الهرب منه وقالوا الملك العادل كالنهر الصافى ينتفع به الاشرار والاخيار ولا يضر احدا والملك السوء مثل الجيفة يسرع اليها شرار الحيوان ويتصاماها الناس

(الباب الثامن عشر فى منزلة السلطان من القرآن)

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله ليرعى بالسلطان ما لا يرعى بالقرآن معناه اى يدفع وقال كعب مثل الاسلام والسلطان والناس مثل الفسطاط والعمود والاطناب والاوتاد فالفسطاط الاسلام والعمود السلطان والاطناب والاوتاد الناس لا يصلح بعضهم الا ببعض وقال اردشير لابنه يا بنى ان الملك والدين اخوان لا غنى لاحدهما عن الآخر فالدين اس والملك حارس ومالم يكن له اس فهو مهدوم ومالم يكن له حارس فضائع يا بنى اجعل حديثك مع اهل المراتب وعطيتك لاهل الجهاد وبشرك لاهل الدين وسرك لمن عناه ما عناك ولتكن من اهل العقل وكان يقال الدين والسلطان توامان

(الباب التاسع عشر فى خصال جامعة لامر السلطان)

قالوا ظفر الملك بعدوه على حسب عدله فى رعيته وفكوبه فى حروبه على حسب جوره فى عساكره واصلاح الرعية أنفع من كثرة الجنود وقالوا تاج الملك عفافه وحصنه انصافه وسلاحه كفافه وماله رعيته وقالت حكماء الهند لا ظفر مع بغى ولا صحة مع نهم ولا بناء مع كبر ولا شرف مع سوء أدب ولا برء مع شح ولا اجتناب محرم مع حرص ولا ولاية حكم مع عدم فقه ولا سودد مع انتقام ولا ثبات ملك مع تهاون وجهالة وزارة ولما ولى أبو بكر رضى الله عنه خطب فقال أيها الناس انه لا أحد أقوى عندى من المظلوم حتى آخذ له بحقه ولا أضعف من الظالم حتى آخذ الحق منه وقيل للاسكندر بم نلت ما نلت قال باستمالة الاعداء والاحسان الى الاصدقاء وقال بزرجمهر سوسوا احرار الناس بمحض المودة والعامة بالرغبة والرهبة والسفلة بالمخافة وقال الموبذان السياسة التى بها صلاح الملك الرفق بالرعية وأخذ الحق منهم فى غير مشقة وسد الفروج وأمن السبل وان ينصف المظلوم من الظالم ولا يحمل القوى على الضعيف وقالوا الوالى من الرعية كالروح من الجسد لا حياة له الا به وبعد الوالى من اصلاح الرعية مع افساد نفسه كبعد الجسد مع البقاء بعد ذهاب الرأس والسلطان خليق أن يعود نفسه الصبر على من خالف رأيه من ذوى النصيحة والتجرع لمرارة قولهم ولا ينبغى أن يحسد الاعلى حسن التدبير ولا ان يكذب لان أحدا لا يقدر على استكراهه ولا أن يغضب لان الغضب والقدرة لقاح الشر والندامة ولا أن يبخل لانه أقل الناس خوفا من الفقر ولا أن يحقد لان قدره جل عن المجازاة ولا ينبغى للوالى أن يستعمل سيفه فيما يكتفى فيه بالسوط ولا سوطه فيما يكتفى فيه بالحبس ولا حبسه فيما يكتفى فيه بالجفاء والوعيد وقال معاوية انى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا سوطى حيث يكفينى لسانى ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت اذا مدوها خليتها واذا خلوها مددتها ونحو هذا قول الشعبى كان معاوية كالجمل الطيب والجمل الطيب هو الحاذق بالشئ لا يضع يده الا حيث تبصر عينه وينبغى له أن يعلم رعيته أنه لا يصاب خيره الا بالمعونة له على الخير ولا ينبغى له أن يدع تفقد لطيف أمور الرعية

اتكالا على نظره فى جسيمها فان اللطيف موقعا ينتفع به وقد آتى الله ملك الدنيا سليمان بن داود عليهما السلام ثم تفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد لان التهاون باليسير أساس الوقوع فى الكبير وقد قال الشاعر

لا تحقرن شبيبا * كم جر شر اشبيب

وقالوا أصل الاشياء كلها شئ واحد ولا تدع مباشرة جسيم أمره فللجسيم موضع ان غفل عنه تفاقم ولا يلزم نفسه مباشرة الصغير أبدا فيضيع الكبير وقال زياد لحاجبه وليتك حجابتى وعزلتك عن أربع المؤذن للصلاة وصاحب الطعام فان الطعام اذا أعيد مضغه فسد وصارخ الليل لشردهاء وصاحب البريد فالتهاون بالبريد ساعة يخرب عملا سنة وكان أبو العباس السفاح يقول لاعمان اللين حتى لا ينتفع الا بالشدة ولا كثرة من الخاصة مأمنهم على العامة ولا غمدت سيفى حتى يسله الحق ولا عطين حتى لا أرى للعطية موضعا وقال أردشير لما كمل ملكه وأباد أعداءه انه لم يحكم حاكم على العقول كالعبر ولم يحكمها محكم كالتجربة وليس شئ أجمع للعقل من خوف وحاجة يتأمل بهما صفحات حاله وكان عمر يقول ان هذا الامر لا يصلح له الا اللين فى غير ضعف والقوة فى غير عنف وقال الاصمعى قال لى الرشيد هل تعرف كلمات جامعات لمكارم الاخلاق يقل لفظها ويسهل حفظها تكون لاغراضها لفقا ولمقاصدها وفقا تشرح المستبهم وتوضح المستعجم قلت نعم يا أمير المؤمنين دخل أكثم بن صيفى حكيم العرب على بعض ملوكها فقال له انى سائلك عن أشياء لا تزال بصدرى مختلجة وما تزال الشكوك عليها واجلة فأتانى بما عندك فيها فقال أبيت اللعن سألت خبيرا واستنبأت بصيرا والجواب يشفعه الصواب فسل عما بدا لك قال ما السؤدد قال اصطناع المعروف عند العشيرة واحتمال الجريرة قال فما الشرف قال كف الاذى وبذل الندى قال فما المجد قال حمل المغارم وابتناء المكارم قال فما الكرم قال صدق الاخاء فى الشدة قال فما العز قال شدة العضد وكثرة العدد قال فما السماحة قال بذل النائل وحب السائل قال فما الغنى قال الرضا بما يكفى وقلة الغنى قال فما الرأى قال اب تعينه تجربة قال له الملك أوريت زنادا بصيرتى وأذكيت نار حيرتى فاحتكم قال لكل كلمة هجمة قال هى لك قال الاصمعى فقال لى الرشيد ولك بكل كلمة بدرة فانصرفت بثمانين ألفا وكان قس بن ساعدة يفد على قيصر فيكرمه فقال له يوما ما أفضل العقل قال معرفة الرجل بنفسه قال ما أفضل العلم قال وقوف الرجل عند علمه قال فما أفضل المروءة قال استبقاء الرجل ماء وجهه قال فما أفضل المال قال ما قضى به الحقوق

(الباب الموفى عشرين فى الخصال التى هى أركان السلطان)

قال أبو جعفر المنصور ما كان أحوجنى أن يكون على بابى أربعة لا يكون على بابى أعف منهم قيل من هم يا أمير المؤمنين قال هم أركان الملك لا يصلح الملك الا بهم كما أن السرير لا يصلح الا بأربع قوائم فان نقص قائمة واحدة عابه ذلك أحدهم قاض لا تأخذه فى الله لومة لائم والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فانى غنى عن ظلمهم ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه آه قال من هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة وقال عمر بن الخطاب

رضى الله عنه لا يصلح الوالى الا بأربع خصال ان نقصت واحدة لم يصلح له أمر ولا نهى قوة على جمع المال من أبواب حله ووضعه فى حقه وشدة لا جبروت فيها ولين لا وهن فيه

(الباب الحادى والعشرون فى بيان حاجة السلطان الى العلم)

قال ابن المقفع اذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك فان زوال الكرامة بزوالهما ولكن يعجبك ان أكرموك لادب أو علم أو دين * اعلم أرشدك الله أن اكثر الناس حاجة الى التفقه أكثرهم عيالا واتباعا وحشما وأصحابا والخلق مستدون من السلطان ما لهم من الخلائق السنية والطرائق العلية مفتقرون اليه فى الاحكام وقطع التشاجر وفصل الخصام فهو أحوج خلق الله الى معرفة العلوم وجمع الحكم وشخص بلا علم كبلد بلا أهل وأفضل ما فى السلطان خصوصا وفى الناس عموما محبة العلم والتحلى به والشوق الى استماعه والتعظيم لحملته فان ذلك دليل على قوة الانسانية فيه وبعده من البهيمة ومضاهاته للعالم العلوى وهو من أوكد ما يتحبب به الى الرعية واذا كان الملك خاليا من العلوم ركب هواه وأضر برعيته كالدابة بلا رسن تعرفى غير طريق وقد تلف ما تقربه * واعلم أن زهر الفضائل وحسن المناقب وبهاء المحاسن وماضاد ذلك من قبح المثالب وخمش الرذائل كل ذلك يظهر عليك ويعظم منك بقدر ما أوتيته من علو المنزلة وشرف الحظوة فيكون حسنك أحسن كما يكون قبحك أقبح وليس أحد من أهل الدرجات السنية والمراتب العلية أحوج الى مجالسة العلماء ومصاحبة الفقهاء ودراسة كتب العلوم والحكم ومطالعة دواوين العلماء ومجامع الفقهاء وسير الحكماء من السلطان وانما كان كذلك من وجهين * أحدهما انه قد نصب نفسه لممارسة أخلاق الناس وفصل خصوماتهم وتعاطى حكوماتهم وكل ذلك يحتاج الى علم بارع ونظر ثاقب وبصيرة بالعلم قوية ودراسة طويلة فكيف يكون حاله لو لم يعتد لهذه الامور عدتها ولم يقدم لها أهبتها والثانى أن من سواه من الناس لا يعدمون من ينكر عليهم ويعارضهم ويذكرلهم مساويهم ويخالفهم فى مذاهبهم فيكون ذلك مما يعينهم على رياضة أنفسهم وتعلمهم مراشدهم ومناظرة الاكفاء ومعاشرة النظراء تلقح العقول وتهذب النفوس وتدريب لمأخذ الاحكام بخلاف السلطان فان ارتفاع درجته يقطع عنه جميع ذلك اذ لا يلقاه ولا يجالسه الا معظم لقدره مبجل لشأنه وساتر لمساويه ومادح له بما ليس فيه وانما جوابه لهم صدق الامير وعلى قدر المرتبة يكون علو السقطة كما ان على قدر ارتفاع الحائط يكون صوت الوجبة

(فصل) يا أيها الملك ليس أحد فوق أن يؤمر بتقوى الله ولا أحد دون أن يؤمر بتقوى الله ولا أحد أجل قدرا من أن يقبل أمر الله ولا أرفع خطرا من أن يتعلم حكم الله ولا أعلى شانا من أن يتصف بصفات الله ومن صفات الله العلم الذى وصف به سبحانه نفسه ومدح بسعته فقال تعالى وسع كرسيه السموات والارض والكرسى هو العلم والكرامى هم العلماء واذا كان العلم فضيلة فرغبة الملوك وذوى الاخطار والاقدار والاشراف والشيوخ فيه أولى لان الخطأ فيهم أقبح والابتداء بالفضيلة فضيلة (حكى) أن ابراهيم بن المهدى دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون فى الفقه فقال ياعم ما عندك فيما يقول هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين شغلونا فى السفر

واشتغلنا في الكبر فقال المأمون لم لا تتعلم اليوم فقال أو يحسن بمثلي طلب العلم فقال نعم والله لأن تموت طالبا للعلم خير من أن تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن العلم قال ما حسنت بك الحياة * وروى أن بعض الحكماء رأى شخصا يطلب العلم ويحب النظر فيه ويستحي فقال يا هذا أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله ولان الصغير أعذر وان لم يكن في الجهل عذره * وفي منثور الحكم جهل الشباب معذور وعلمه محقور فاما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه عليه أفضح لان علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما كان الصغير أفضل منه لان الامل فيه أقوى وحسبك نقيصة في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل أفضل منه وكما ذكرنا من حاجة الشيخ الى العلم فحاجة السلطان اليه أكثر ودواعيه الى اكتسابه أشد لان من عداه انما تخصه نفسه الواحدة فيقرب عليه تحصيل ما يقومها به والملك منتصب لسياسة أهل مملكته وتعليمهم وتقويمهم أودهم فهو الى العلم أحوج قال الشاعر

اذا لم يكن مر السنين مترجما * عن الفضل في الانسان سميته طفلا
وما تنفع الاعوام حين تعدها * ولم تستفد فيهن علما ولا عقلا
أرى الدهر من سوء التصرف ماثلا * الى كل ذي جهل كان به جهلا

وقال بعض الحكماء كل عز لا يوطده علم مذلة وكل علم لا يؤكده عقل مضلة وكيف يستمسك ملك آوذ ومنزلة عالية عن طلب العلم وهذا موسى عليه السلام ارتحل من الشام الى مجمع البحرين في أقصى المغرب على بحر الظلمات الى لقاء الخضر ليتعلم منه فلما ظفر به قال هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا هذا وهو نبي الله وكليمه وهذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته من جميع خلقه قد أوصاه ربه وعلمه كيف يستنزل ما في خزانته فقال وقل رب زدني علما فلو كان في خزانته أشرف من العلم لنبهه عليه وهذا آدم عليه السلام لما تفوقت الملائكة بتسبيحها وتقديسها الربها تفوق آدم بالعلم فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين فلما عجزوا أمرهم بالسجود له وأخلق بخصلة تستدعي السجود لحاملها أن يتنافس فيها كل ذي لب وهذا فصل الخطاب لمن تدبره ولا تنصبن لك عذرا بما روى في بعض الاخبار مثل الذي يتعلم العلم في الصغر كالوشم على الصخر والذي يتعلم في الكبر كالنقش على الماء فقد سمع الاحنف رجلا يقول التعلم في الصغر كالنقش في الحجر فقال الكبير أكبر عقلا ولكنه أشغل قلبا ففحص عن المعنى ونبه عن العلة * وقد كان أصحاب النبي عليه السلام يسلمون شيوخا وكهولا وأحداثا وكانوا يتعلمون العلم والقرآن والسنن وهم بحور العلم وأطواد الحكم والفقه غير أن العلم في الصغر أرسخ أصولا وأبسق فروعا وليس اذا لم يحزه بفوته كله * قال رجل لابي هريرة رضي الله عنه اني أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال أبو هريرة كفى بترك له تضييعا وبعض الخير خير من كل الشر وانما مثل الجاهل تحت غب الجهل مثل الحمال تحت حمل ثقيل فانه كلما أعيا نقصه قليلا قليلا يوشك أن ينقصه كله فيستريح منه وان هو لم يطرح القليل حتى يطرح الكثير فأوشك أن يصرعه حمله وكذلك الجاهل اذا تعلم قليلا قليلا يوشك أن يأتي على بقيته وان لم يتعلم في الكبر لما فاته في الصغر فأوشك به أن يموت تحت غب الجهل

* (الباب الثاني والعشرون في وصية علي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) *

رضى الله عنه لكميل بن زياد فى العلم وأهله قال كميل بن زياد النخعى خرجت مع على بن أبى طالب رضى الله عنه الى الجبانة فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال يا كميل بن زياد ان القلوب اوعية فخيرها اوعاها للخير احفظ عنى ما اقول لك الناس ثلاثة فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤا منه الى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم يزكو على الانفاق والمال تنقصه النفقة والعلم حاكم والمال محكوم عليه ومحبة العالم دين يدان الله به بكسبه الطاعة فى حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته مات خزان الاموال وهم أحياء والعلماء باقون مابقى الدهر أشخاصهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة ها ان ههنا وأشار بيده الى صدره لعلما جما لو أصبت له حملة بلى قد أصبت له لقنا غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا فيستظهر بحجج الله تعالى على كتابه أو كما قال وبنعمته على عباده أو منقادا لاهل الحق لا بصيرة له فى احنائه ينقدح الشك فى قلبه باول عارض من شبهة الا لا ذا ولا ذاك أو مهموما باللذات سريع الانقياد للشهوات أم آخر شانه جمع المال والادخار ليس من رعاة الدين أقرب شبها بهما الانعام السائمة اللهم فكذلك يموت العلم بموت حامليه ولكن لن تخلو الارض من قائم لله سبحانه بحجة لئلا تبطل حجج الله وبيناته ومن أولئك وأين أولئك أولئك الاقلون عددا الاكثرون عند الله قدرا بهم يحفظ الله حججه حتى يزرعوها فى قلوب أشباههم ويودعوها فى صدور نظرائهم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعره المترفون واستأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأجساد أرواحها متعلقة بالمحل الاعلى أولئك خلفاء الله فى بلاده ودعاته الى دينه آه شوقا الى رؤيتهم

(الباب الثالث والعشرون فى العقل والدهاء والنجابة)

قد ذكرت فى كتاب الاسرار حقيقة العقل وأقسامه ومحله وأحكامه بما لا مزيد عليه ونذكر ههنا منافعه ومداركه ولباب ما تحرر من القول فيه انه الاستشهاد بالشاهد على الغائب فمن كان فى طوقه ان يستدل بما شاهد على ما غاب عنه كان معه عقل ويسمى عاقلا عند الموحدين وبه يتوجه التكليف عليه وذلك ان من نظر الى قصر قد كمل بنيانه وحصنت أركانه وجعلت فيه من الآلات ما يكتفى به ساكنوه فاشرف عليه انسان فرأى بيوتا مقطوعة وأبوابا منصوبة وفرشا مفروشة وزرابى مبثوثة وموائد موضوعة وصحافا مصفوفة وأرائك منصوبة وحجلا مشدودة وطسوتا وأباريق وبيوت ماء وميازيب تصب الماء وتحتها بلاليع لغيض الماء الى سائر ما يبتغيه العقلاء للانتفاع ثم فكر هل هذا القصر بما حواه صنعة قادر صانع عالم حى أو اتفق لنفسه وتركب على صورته بلا صانع فيستقر فى عقله بالضرورة استحالة وجوده من غير صانع وانه مفتقر الى صانع صنعه وهذا علم يهجم على العقول لا يفتقر الى نظر واستدلال وانما كثرت لك هذه الامثلة لان ما فى الانسان من الاعضاء ولطيف الصنعة والعجائب أكثر مما فى القصر بأضعاف مضاعفة فاذا نظر الى ما فى نفسه فرأى فيها من العجائب والتركيب ومنفعة كل عضو وتخصيصه اما بجلب نفع أو دفع ضر فأنم نظره فى عضو واحد مثلا وهو فمه فيرى فى

أوله اسنانا تشبه الناس تصلح للقطع وفي آخره طواحين ضرسة تصلح للطحن وشدقين كأنهما ثفال الرحى يمنعان ان ينهرق الطعام الى خارج ولسانا يرد ما انقلب من الطعام اليه على الطواحين ثم يلى ذلك بلعوم لازدراده بعد الطحن علم بادنى تامل ان هذه الخلقة ما انفعلت بنفسها اتفاقا بل هي مفتقرة الى قصد قاصد وجعل جاعل وعلى هذا النمط لو ذهبنا نذكر منفعة كل عضو لوقفت على العجب ولكن تركناه كراهية التطويل وعلى هذا المعنى نبه الكتاب المهين فقال تعالى وفي أنفسكم أفلا تبصرون وبهذه العبرة تستقل العقول باثبات الصانع وتستغني عن النظر في الجواهر والاعراض فالعلم المفيد لاثبات الصانع في الشاهد مثل البناء والنجار والخياط وأشباههم بعد النظر في صنائعهم على اضطرار والعلم المثبت للصانع سبحانه عند النظر في حدوث العالم علم استدلال اعتبارا للغائب بالشاهد اذ لا فرق في العقول بين صنعة وصنعة في اقتضاء صانع وانما كان العلم في الشاهد ضروريا لان الانسان لم يزل يرى البناء يبني والخياط يخيط والنجار ينجر الخشب ولم تزل العقلاء القديم سبحانه يخلق ويخترع وانما استفادوه من النظر في الشاهد فان قيل فاي العلمين أقوى في النفوس وأثبت في العقول العلم بالصانع النظر في السرير واقتضائه للنجار أم العلم بالاله عند النظر في السموات والارضين وما بينهما فالجواب ان هذا يستدعي تفصيلا وتدقيقا وليس هذا الكتاب موضوعا لذلك فحينئذ نعلم ان معه عقلا غريزيا ونسميه عقلا ونوجه التكليف عليه وهو العقل التكليفي واذا ثبت هذا فاعلم ان الله تعالى خلق الخلق على أربعة اضعاف ملائكة وآدميين وشياطين وبهائم فاما الملائكة فعقول بلا شهوات ولا هوى يقارنه وأما البهائم فشهوات بلا عقول وأما الشياطين والجن فركب الله فيها العقول والشهوات والهوى وهكذا ركب في بني آدم العقل والهوى والشهوة فغلبت شهوات الشياطين وهواهم عقولهم فقطعوا أوقاتهم بالاخلاق المذمومة بالكبر والعجب والمقت والفخر والدعوى والحسد والاذية وسائر الاخلاق المهلكة وأما البهائم فتقضت اوقاتها في شهوات البطن والفرج واما الآدميون فركب فيهم عقول الملائكة واخلاق الشياطين وشهوات البهائم فمن غلب عقله هواه منهم فكأنه من عالم الملائكة كالانبياء والرسل والاولياء والاصفياء وقليل ماهم واما من كان عقله مغلوبا بهواه وشهواته فان كان ذلك من المباحات من المطاعم والملابس والمراكب والنساء والخيل المسومة والانعام والحرث فأكل وتمتع بعد ان كسبه من حله فهذا من عالم البهائم وانما الحقناه بعالم البهائم لانه لا تكليف على البهائم وكذلك هذه المباحات لا حرج في الاستمتاع بها بعد ان يكون كسبه من حله وان كان الغالب عليه اخلاق الشياطين من الكبر والعجب والحسد والغش الى سائر الاخلاق المذمومة فهذا من عالم الشياطين وان اجتمع في الشخص افراط الشهوات واتباع الهوى والاخلاق المذمومة فيكون آدميا في صورته شيطانا في خلائقه بهيمة في شهواته فلا يصلح للعصمة وان ثبت هذا فاعلم ان هذا العقل الغريزي اطول رقدة من العين واسوح الى الشحذ من السيف

* (فصل) * فاما العقل المكتسب وهو نتيجة العقل الغريزي فهو ثقابة المعرفة واصابة الفكرة وليس له حد ينتهي اليه لانه ينمو اذا استعمل وينقص ان اهمل وغاؤه يكون باحد وجهين اما ان يقارنه من مبدا النشوء ذكاء وحسن فطنة كالذي قال الاصمعي قلت لغلام حدث من

اولاد العرب كان يحدثني وامتعني الله بفصاحته وملاحته ايسرك ان يكون لك مائة الف درهم وانك احمق قال لا والله قلت ولم قال اخاف ان يجني علي احمق جناية تذهب بمالي ويبقى علي احمق فاستخرج هذا الصبي بشرط ذكائه مايدق على من هو اكبر منه سنا وقيل لبعض الصبيان اللئاب قال فمكائي عيسى بن مريم وقد قالت الحكماء آية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم وليس للذكاء غاية ولا للجودة القريحة نهاية الا ترى ان اياس بن معوية الذي يضرب المثل بذكائه قال لابيه وهو طفل وكان ابوه يؤثر أخاه عليه يا أبت تعلم ما مثلي ومثل أخي معك انا كفرخ الحمام أقبح مايكون اصغر مايكون وكلما كبر ازداد ملاحة وحسنا فتبقى له العلالي ويتخذله المربعات ويستحسنه الملوك ومثل أخي مثل الخنفس أملح مايكون أصغر مايكون وكلما كبر قبح وصار الى القهقرى انما يصلح لحمل الزبل والتراب والوجه الثاني مايصلح لذوي الحنكة وصحة الروية لطول ممارسة الامور وكثرة التجارب ومرور الغير على اسماعهم وتقلب الايام وتصرف الحوادث وتناسخ الدول قد مرت على عيونهم وجوه الغير وتصدت لاسماعهم أنواع الاخبار وآثار العبر قال بعض الحكماء كفى بالتجارب تاديا وبتقلب الايام عظة وقالوا التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل ولذلك حدث اراء الشيوخ حتى قالوا المشايخ اشجار الوقار وينابيع الاخبار لايطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم وعليكم باراء الشيوخ فانهم ان عدموا ذكاء الطبع فقد افادتهم الايام حنكة وتجربة وقد قال الشاعر

الم تران العقل زين لاهله * ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر

اذا طال عمر المرء في غير آفة * افادت له الايام في كرها عقلا

غير ان للعقل آفات كما قال بعض الحكماء كيف يرجو العاقل النجاة والهوى والشهوة قد اكتنفاه والهوى ابعد من ان ينفذ فيه حيلة الحازم المحتال وهو اغمض مسلكا في الجنان من الروح في الجثمان واملك بالنفس من النفس والمالك للشيء ولهذا قيل كم من عقل اسير عند هوى امير فمن احب ان يكون حرا فلا يهوى والا صار عبدا كما قال علي بن الجهم

انفس حرة ونحن عبيد * ان رق الهوى لرق شديد

واختلف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى وزاد في الانسان هل يكون فضيلة ام لا فقال معظم العقلاء انه فضيلة اذا كان مجموع آحاد والآحاد فضائل ولا شك ان كثرة الفضائل فضيلة اما الشيء المحدود فتكون الزيادة فيه نقصا من المحدود كالتهور في الشجاعة والتبذير في الكرم فاما الزيادة في العقل المكتسب فزيادة علم بالامور وحسن اصابة بالظنون ومعرفة مالم يكن بما قد كان وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال افضل الناس اعقل الناس وقال عليه السلام العقل حيث كان الف مالوف وقال القاسم بن محمد من لم يكن عقله اغلب خصال الخير عليه كان حتفه في اغلب الخصال عليه ولما مات بعض الخلفاء حشدت الروم واجتمعت ملوكها وقالوا الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض فيمكننا الغرة منهم والوثبة عليهم وضربوا في ذلك مشاورات وتراجعوا فيه بالمناظرات واجمعوا على انه فرصة الدهر وغرة العصر وكان رجل منهم من ذوي الراي والمعرفة غائبا عنهم فقالوا من الحزم عرض الراي عليه فلما اخبروه بما اجمعوا

عليه قال لا ارى ذلك صوابا فسألوه عن علة ذلك فقال غدا اخبركم ان شاء الله فلما اصبحوا غدوا عليه للوعد وقالوا لقد وعدتنا قال نعم فاحضر بابين عظيمين قد اعدهما ثم حرش بينهما والب كل واحد على الآخر فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وارسل منه على الكلبين ذئبا عنده قد اعده فلما ابصراه تركا ما كانا عليه وتالفت قلوبهما ووثبا جميعا على الذئب فنالا منه ما أحبا ثم أقبل الرجل على أهل الجمع فقال لهم مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب لا يزال الهرج والقتال بينهم ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم فاذا ظهر لهم عدو من غيرهم تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله وتفرقوا عن رأيهم وأما المذموم في هذا الباب فصرف العقل الى الدهاء والمكر قال الشعبي ودهاة العرب ستة معاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن امية وقيس بن سعد بن عبادة وعبد الله بن بديل بن ورقاء وقال الاصمعي كان معاوية يقول أنا للاناة وعمرو للبديهة وزياد للصغار والكبار والمغيرة للامر العظيم قال قبيصة بن جابر ما رأيت اعطى لجزيل مال بغير سلطان من طلحة بن عبيد الله ولا رأيت أثقل حلما ولا اطول اناة من معاوية ولا رأيت أغلب للرجال ولا أبذل لهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ولا اشبه سرا بعلانية من زياد ولو ان المغيرة كان في مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها الا بالمكر لخرج من ابوابها كلها (وقال) أبو الدرداء قال النبي عليه السلام يا عويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت بابي وامي ومن لي بالعقل قال اجتنب محارم الله وأد فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل صالح الاعمال تزدد في الدنيا عقلا وتزدد من ربك قربا وعليه عزا (ويروى) لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه شعر

ان المكارم اخلاق مطهرة * فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها * والجود خامسها والعرف ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم اني لا أصدقها * ولست أرشد الا حين أعصيها
والعين تعلم في عيني محدثها * ان كان من حزبها أو من أعاديها

وقال بعض الحكماء العاقل من عقله في ارشاد ومن رأيه في امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في اغواء فقوله سقيم وفعله ذميم فاما من صرف فضل عقله الى الدهاء والمكر والشكر والحيل والخديعة كالحجاج وزياد واشباههما فمذموم وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لست بالخب والخب لا يخدعني وقال المغيرة كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل من أن يخدع وأعقل من أن يخدع والموصوف بالدهاء والمكر مذموم وصاحبه محذور تخاف غوائله وتحذر عواقب حبائله وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الاشعري ان يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد أعن موجدة أو خيانة يا أمير المؤمنين قال لا عن واحدة منهما ولكن كرهت ان أحمل الناس على فضل عقلك وكتب زياد الى معاوية رضي الله عنه ان العراق في شمالي وبيعتي فارغة فولني اطجازا كفك أهله فبلغ ذلك ابن عمر فقال اللهم اكفه فطعن في أصبعه بعد أيام فمات فضن وان كان رغب عن الدهاء والمكر فانا

نرغب فى الحيلة ونرضى بها والاتساع فى الحيلة مما تواصى به العقلاء قديما وحديثا وليس شئ من أمور الدنيا لطالب الرفعة وباغى الوسيلة ومرتادى أمر كان دق أو جل خيرا من الحيلة وأضعف الحيلة أنفع من كثرة الشدة * وقالت الحكماء ملاك العقل الحيلة والتانى للسبب الضعيف والقوى من الامور (وروى) ان رجلا وقف لكسرى فقال أنا أصنع ما تعجز الخلائق عنه قال ما هو قال يشد برجلى حبل طرفه برقبة الفيل وبرجلى الاخرى كذلك ويشد طرفه برقبة الفيل ثم يساق الفيل بالضرب والزجر فلا اتزحزح ثم طلب ان يفعل ذلك باربع من الفيلة فرغت بحدتها فقسموه شطرين فقال كسرى من لم يكن أكبر ما فيه عقله هلك بأكبر ما فيه فنظمه بعض الشعراء فقال

من لم يكن أكبر عقله * أهلكه أكبر ما فيه

(وسمعت) استاذنا أبا الوليد يحكى ان رجلا استأذن على هرون الرشيد وقال انى أصنع ما تعجز الخلائق عنه قال الرشيد هات فاخرج انبوبة قصب فيها اربعة ثم وضع واحدة فى الارض وقام على قدميه وجعل يرمى ابرة ابرة من قامته فتقع كل ابرة فى عين الابرة الموضوعة حتى فرغ دسته فامر الرشيد بضربه مائة سوط ثم أمر له بمائة دينار فسئل عن جمعه بين الكرامة والهوان فقال وصلته بجودة ذكائه وأدبته كى لا يصرف فرط ذكائه فى الفضول ومن زعم أن العقل المكتسب اذا تناهى لا يكون فضيلة قال لان الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة كالكرم الذى هو متوسط بين البخل والتبذير والشجاعة وسط بين التهور والجبن (وقالت الحكماء للاسكندر) أيها الملك عليك بالاعتدال فى كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز (وفى الحديث) ان النبى عليه السلام قال خير الامور أوساطها (وقال) على بن أبى طالب رضى الله عنه خير الامور الاوسط اليه يرجع العالى ومنه يلحق التالى قالوا ولان زيادة العقل تفضى بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذموم (قلنا) هذا كله باطل بما قدمناه لنصرة القول الاول وهو منقوض بالعقل الغريزى وبالعلوم وبسائر الفضائل وأما قولهم انه يفضى بصاحبه الى الدهاء والمكر قلنا الدهاء والمكر كسب معان آخر غير العقل ليست من لوازم العقل فان شاء تداهى ومكر وان شاء كف عما يقول فى كل شر يكتسبه العاقل باختياره وليس عقله أوقعه فيه بل انما أوقعه فيه قلة عقله * وكان يزدجهر لما فرغ من كتاب أمثاله ونسق كل باب على حياله يقول ليس العجب ممن حفظ هذه الامثال فصار عالما انما العجب ممن حفظها ولم يصر عالما وأنا أقول ليس العجب ممن قرأ كتابى هذا وصار مهذبا كاملا انما العجب ممن قرأه ولم يصر مهذبا كاملا

(الباب الرابع والعشرون فى الوزراء وصفاتهم والجلساء وآدابهم)

قال الله تعالى فى قصة موسى عليه السلام واجعل لى وزيرا من أهلى فلو كان السلطان يستغنى عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران ثم ذكر حكمة الوزراء فقال اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى دلت الآية على ان موضع الوزارة أن تشد قواعد المملكة وأن يفضى اليه السلطان بسره وبجره اذا استكملت فيه الخلال المحمودة ثم قال كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا دلت هذه الكلمة على ان بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة

تنتظم أمور الدنيا وأمور الآخرة وكان أشجع الناس يحتاج الى السلاح وأقره الخيل الى السوط وأحد الشفار الى المسن كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم الى الوزير (وروى أبو سعيد الخدري) قال ما بعث الله نبيا ولا استخلف خليفة الا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله تعالى وانما اشتقت الوزارة من الوزر وهو الثقل يريد انه يحمل من أمر المملكة واعبائها وأثقالها ما مثل الاوزار * أسعد الملوك من له وزير صدق ان نسي ذكره وان ذكر أعانه * وقال وهب بن منبه قال موسى عليه السلام لفرعون آمن ولك الجنة ولك ملكك قال حتى أشاور هامان فشاوره في ذلك فقال بينما أنت اله تعبد اذ صرت تعبد فانف واستكبر وكان من أمره ما كان * وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن ابي مسلم لا يألوه خبالا ولبئس القرناء شر قرين لشر خدين وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة الوزير عون على الامور وشريك في التدبير وظهير على السياسة ومفزع عند النازلة الوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه * وفي الامثال نعم الظهير الوزير (واعلم) ان أول ما يستفيد الملك من الوزراء أمر ان علم ما كان يجهله ويقوى عنده علم ما كان يعلمه فيزول شكه واول ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله في استخاب الوزراء واستنقاد الجلساء ومحادثة العقلاء فهذه ثلاث خلال تدل على كماله وبها يجمل في الخلق ذكره ويجل في العقول قدره وترسخ في النفوس عظمته والمرء موسوم بتزيينه * وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم * وفي كتاب كليلة ودمنة لا يصلح السلطان الا بالوزراء والاعوان الا بالمودة والنصيحة والمودة والنصيحة الا بالسر والعفاف وأعظم الاشياء ضررا على الناس عامة وعلى الولاة خاصة أن يحرموا اصالح الوزراء والاعوان فتكون اعوانهم غير ذي جدوى وغناء ويحذر الملك ان يولي الوزارة غير المتحرين كي لا تضيع الامور كما يحذران يتطبب بغير طبيب بصير مأمون (قال شريح بن عبيد) لم يكن في بني اسرائيل ملك الا ومعه رجل حكيم اذا رآه غضبان كتب له ثلاث صحائف في كل صحيفة ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة فكلما غضب الملك ناوله صحيفة حتى يسكن غضبه (وقال اردشير) يحق على الملك أن الطف ما يكون نظرا أعظم ما يكون خطرا ولا يذهب حسن أثره في الرعية خوفه لها ولا يستغني بتدبير اليوم عن تدبير غد وأن يكون حذره للملاقين أكثر من حذره للمتباعدين وان يتقي بطانة السوء أشد من اتقائه العامة ولا يطمعن في اصلاح العامة الا بالخاصة (وقال اردشير) لكل ملك بطانة حتى يجمع بذلك جميع المملكة فاذا أقام الملك بطانة على حال الصواب أقام كل امرئ منهم بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على الصلاح عامة الرعية * ومثال الملك الخير والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافي فيه القساح فلا يستطيع المرء دخوله وان كان سابحا وكان الى الماء محتاجا ومثل السلطان مثل الطبيب ومثل الرعية كمثل المرضى ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والاطباء فان كذب السفير بطل التدبير وكما ان السفير اذا أراد أن يقتل أحدا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه فاذا اسقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل كذلك الوزير ينقل الى الملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك عن * ههنا شرطنا أن يكون الوزير

صدوقا فى لسانه عدلا فى دينه مأمونا فى الخلافة بصيرا بامور الرعية وتكون بطانة الوزير من أهل الامانة والبصيرة ويحذر الملك أن يولى الوزارة اثيما فالاثيم اذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالاشراف وتكبر على ذوى الفضل * ولما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتب الحجاج يزيد بن ابى مسلم قال له عمر بن عبد العزيز أسألك بالله يا أمير المؤمنين أن لا تحيى ذكر الحجاج باستكتابك اياه فقال يا أبا حفص انى لم أجد عنده خيانة دينار ولا درهم قال عمر أنا أوجدك من هو اعف منه فى الدينار والدرهم قال ومن هو قال ابليس ما مس دينارا ولا درهما وقد أهلك هذا الخلق (ودخل) رجل له عقل وأدب على بعض الخلفاء فوجد عنده رجلا ذكيا كان الخليفة يميل اليه ويقربه فقال

يا ملك طاعته فى الورى * وحبه مفترض واجب
ان الذى شرفت من أجله * يزعم هذا انه كاذب

وأشار الى الذمى فاسئله يا أمير المؤمنين عن ذلك فسأله فلم يجد بدا من أن يقول هو صادق فاعترف بالاسلام * لا يعرف وزير الملك ماله وما عليه حتى يراعى من صاحبه الواثق به ما يراعيه العاشق الغيور من المعشوقة المتهومة (وكان) بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع وقال لوزيره اذا رأيتنى غضبانا فادفع الى رقعة فكان فى الواحدة انك لست بالله وانك ستموت وتعود الى التراب فيأكل بعضك بعضا وفى الثانية ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء وفى الثالثة اقض بين الناس بحكم الله فانهم لا يسلطهم الا ذلك * اذا كان الوزير يساوى الملك فى الرأى والهيبة والطاعة فليصرعه الملك فان لم يفعل فليعلم انه المصروع (وفى الامثال) اذا سكنت الدهماء خاف الوزراء * ولما كانت أمور المملكة عائدة الى الوزراء وازمة الملوك فى اكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر فقالوا لا تغتر بمودة الامير اذا غشك الوزير واذا أحبك الوزير فلا تخش الامير ويقال الخرق مماراة الامراء ومعاداة الوزراء ورب أمر كرهه الامير فتم بالوزير وكم من أمر أراده الامير فثناه عنه الوزير وانما السلطان كالدار والوزير بابها فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها ازعج (وقال أنوشروان) لا يتم للملك أمره حتى يرفع نفسه عن كل عيب ويكون له جليس مأمون الغيب وخادم ناصح الجيب وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من الناظر فكما ان من لم ينظر الى المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه كذلك السلطان اذا لم يكن له وزير لا يعرف محاسن دولته وعيوبها وكاتب الملك مستقر اسراره ولسانه الناطق عنه فى آفاق مملكته والمخصوص بقربه ولزومه دون نظرائه ظهير الامير وزيره وزينه حاجبه ولسانه كاتبه ورسوله عينه الكتابة قوام الخلافة وقرينة الرياسة وعمود المملكة * للكاتب على الملك ثلاثة أشياء يرفع الحجاب عنه ويتهم الوشاة عليه ويفشى سره اليه (وقد قالت الحكماء) لا يطمعن ذو الكبر فى الثناء ولا نجب فى كثرة الصديق ولا السيئ الادب فى الشرف ولا الشحيح فى البر ولا الحريص فى قلة الذنوب ولا الملك المتهاون الضعيف الوزراء فى بقاء الملك وكما ان المرآة لا تريك وجهك الا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدا كذلك الامير لا يكمل أمره الا بجودة عقل الوزير وصحة فهمه وصفاء نفسه ونقاء قلبه (ومن شروط الوزير) أن يكون مكين الرحمة

للخلق رؤفا بهم لياسو برحمته مايجرحه السلطان بغلظته (ومن شروطه) أن يكون نقى الجيب ناصح الغيب لايقبل دقيقة ولايكتم نصيحة * وقال بعض الملوك لوزيره لاتكونن الى ماتسرنى به أسرع مبادرة من انذارى فيما يخاف على منه * وقال بعض الملوك اعط من أتاك بما تكره كما تعطى من أتاك بما تحب فان من أنذرك بشر (ومن شروطه) أن يكون معتدلا كامل تهامة لاحر ولاقر وموقع الوزير من الملك موقع الملك من العامة وكما ان السلطان اذا صلح صلحت الرعية واذا فسد فسدوا كذلك الوزراء اذا فسدوا فسد الملك واذا صلحوا صلح الملك (وكان) يقال آفة العقل الهوى وآفة الامير سخافة الوزير * وقال المقتدر بالله لوزيره على بن عيسى اتق الله يعطفنى عليك ولاتعصه فيسلطنى عليك * وقال المأمون لمحمد بن يزداد اياك أن تعصى الله فيما تتقرب به الى فيسلطنى عليك (واعلم) انه ليس للوزير أن يكتم السلطان نصيحة وان استقلها وموقع الوزير من المملكة كموقع العينين من الانسان وكاليدين فانه اذا صح قبضهما وبسطهما صح التدبير واذا سقما دخل النقص على الجسد ولاتصلح الوزارة أن تكون فى غير أهلها كما لايصلح الملك أن يكون فى غير أهله وشر الوزراء من كان الاشرار أيضا له وزراء وبطانة ودخلا * وأوصت امرأة ابنها وكان ملكا فقالت يابنى ينبغى للملك أن يكون له ستة أشياء وزير يثق برأيه ويفضى اليه باسراره وحصن يلجأ اليه اذا فزع وسيف اذا نازل الاقران لم يخنه وذخيرة خفيفة المحمل اذا نابه نائبة كانت معه وامرأة اذا دخلت عليه أذهبت همه وطباخ اذا لم يشته الطعام طبخ له مايشتهيه

* (الباب الخامس والعشرون فى الجلساء وآدابهم) *

قال الله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال سبحانه يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا * وينبغى للملك أن يجالس أهل العقل والادب وذوى الرأى والحسب وذوى التجارب والعبر فمجالسة العقلاء تلقح العقل وماذته ولذلك حدث آراء الشيوخ فقال القدماء المشايخ أشجار الوقار وينابيع الاخبار لايطيش لهم سهم ولايسقط لهم وهم وقالوا عليك بآراء المشايخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لاسماعهم آثار الغير * وقالوا رأى الشيخ خير من مشهد الغلام (وقال عبد الملك) لجلسائه جنبونى ثلاثا لاتطرونى فانى أعرف بنفسى منكم ولاتكذبونى فانه لارأى لمكذوب ولاتغتابوا عندى أحدا فيسقط فى عينى عليكم (وقال بعض الحكماء) كفى بالتجارب تاديبا وبتقلب الايام عظة * وقالوا التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل * وقد قال هرم بن قطبة وهو أحد حكماء العرب حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحديث السن الحديد النظر (وقال كثير من حكماء العرب) عليكم بمشاورة الشباب فانهم يتلقون رأيا لم يعله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم والمذهب الاول أصدق على العقول * وقال عبد العزيز بن زرارة لمعاوية عليك بمجالسة الالباء اعداء كانوا او اصدقاء فان العقل يقع على العقل (وقال ابن عباس) مجالسة العقلاء تزيد فى الشرف * وقال سفيان بن عيينة ان الرجل ممن كان قبلكم ليأتى الرجل العاقل فيكون عاقلا أياما وقال مالك بن أنس مر سليمان بن داود عليهما السلام بقصر بارض مصر فوجد فيه مكتوبا

غدونا

غدونا من قرى اصطخره * الى القصر فعلنا
فمن يسأل عن القصر * فبنيا وجدناه
يقاس المرء بالمرء * اذا ماهو ماشاه
وفى الشيء الى الشيء * علامات واشباه
فلا تعجب أخا الجهل * واياك واياه
فكم من جاهل أردى * حليما حين آخاه

قال ووجدنا عليه نسرا واقعا فدعاه فقال من بنى هذا القصر قال لا ادرى قال كم لك منذ وقعت عليه قال تسعمائة سنة (وفى الامثال) يطن بالمرء ما يظن بجليله (ولما) حج عبيد الله بن جعفر نزل مكة ليلا فلما أصبح قال يا أهل مكة عرفنا خياركم من أشراركم فى ليلة واحدة قالوا كيف ذلك قال نزلنا ومعنا اخيار واشرار فنزل أخيارنا على أخياركم وأشرارنا على أشراركم فعرفنا كم * واعلم أنه ليس الدخان على النار بادل من الصاحب على الصاحب * وقال الاوزاعى الصاحب للصاحب كالرقعة فى الثوب ان لم تكن فى مثله شانته * وقال ملك بن مسمع للاحنف بن قيس يا أبا بحر ما اشتاق الى غائب اذا حضرت ولا أنتفع بحاضر اذا غبت فاخذه ابراهيم بن العباس الكاتب فنظمه فقال

وأنت هوى النفس من بينهم * وأنت الحبيب وانت المطاع
ومالك ان بعدوا وحدة * ومامعهم ان بعدت اجتماع

* وقال عبد الله بن طاهر المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والاخوان كنوز وافرة * وقال الاصمعى تناظر رجلان واعرابى حاضر فقال لاحدهما مناظرة مثلك فى الدين فرض والاستماع منك أدب ومجالستك زين ومعرفتك عز ومذاكرتك تلقيح للعقول وشحذ واشاؤك شرف وفخر * وقال السمسمانى غنى مخارق بين يدى المأمون

وانى لمشتاق الى ظل صاحب * يروق ويصفو ان كدرت عليه
عذيرى من الانسان لان جفوته * صفالى ولان صرت طوع يديه

فطرب المأمون وقال ويحك يا مخارق خذ منى نصف الخلافة واعطنى هذا الانسان * وقالت الحكماء النظر فى عواقب الامور تلقيح العقول وقالوا العاقل لا تنقطع صداقته والاحمق لا تدوم مودته فاتخذ من نصحاء أصحابك مرآة طبائعك وفعائلك كما تتخذ لوجهك المرآة المجلوة فانك الى صلاح طبائعك أحوج منك الى تحسين صورتك * وقال المأمون للحسن بن سهل نظرت فى اللذات فوجدتها كلها معلولة خلا السبعة قال وما السبع يا أمير المؤمنين قال خبز الحنطة ولحم الضأن والماء البارد والثوب الناعم والرائحة الطيبة والفراش الوطى والنظر الى الحسن من كل شئ قال فاين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال قال صدقت وهى أولاهن * وقال هشام بن عبد الملك قد قضيت الوطر من كل شئ فاكلت الحلو والحامض حتى لا اجد منهما طعما وشممت الرائحة حتى لا أجد لها رائحة وأتيت النساء حتى ما أبالى مرآة أتيت أم حائطا فلو جدت شيأ ألذ من جليس يسقط بينى وبينه مؤنة التحفظ * وقال عبد الملك بن مروان قد قضيت الوطر من كل شئ الا من محادثة الاخوان فى الليالى الزهر على

العلا الى الحقر * وقال عبد الملك من قرب السفلة وأدناهم وباعد ذوى العقل وأقصاهم استحق الخذلان ومن منع المال من الحمد ورثه من لا يحمده ومن الكلام الشريف قول الحكماء ما أسوج ذا القدرة الى دين يعجزه وحياء يكفه وعقل يعدله * والى تجربة طويلة وعبر محفوظة والى اعراق تسرى اليه واعلاق تسهل الامور عليه والى جليس رفيق ورائد شفيق والى عين تنتظر العواقب وعقل يحاف الغير ومن لم يعرف يوم ظفر الايام لم يحترس من سطوات الدهر ولم يتحفظ من فلتات الزلل ولم يتعاظمه ذنب وان عظم ولا تناه وان سمج واذا رأيت من جليسك امرا تكرهه أو خلة لا تحبها أو صدرت منه كلمة عوراء أو هفوة غبراء فلا تقطع حبله ولا تصرم وده ولكن داوكلمه واستر عورته فما بقيه وابر أمن عمله قال الله تعالى فان عصوك فقل انى برى مما تعملون فلم يأمر بقطعهم وانما أمر بالبراءة من عملهم السوء قال الشاعر

اذا راب منى مفصل فقطعته * بقيت وما بى للنهوض مفاصل

ولكن أداويه فان صح سرنى * وان هو أعيا كان فيه تحامل

* وأتى رجل الى بعض الحكماء فشكا اليه صديقه وعزم على قطعه والانتقام منه فقال له الحكيم أتفهم ما أقول لك فما كملك أم بك من فورة الغضب ما شغلك عنه فقال انى لما تقول واع فقال أسرور لك بعودته كان أطول أم غمك بذنبه قال بل سرورى قال أحسناته عندك أكثر أم سيآته قال بل حسناته قال فاصفح لصالح أيامك عن ذنبه وهب لسرورك لجرمه واطرح مؤنة الغضب والانتقام منه ولعلك لا تنال ما أملت فتطول مصاحبة الغضب وأنت صائر الى ما تحب

* (الباب السادس والعشرون فى بيان معرفة الخصال التى هى جمال السلطان) *

قد ذكرنا الخصال التى تجرى من المملكة مجرى الاساس من البنيان ونذكر الآن الخصال التى تجرى من المملكة مجرى التاج والطيلسان وحسن الهيئة والكمال فاكملها وقاعدتها العفو قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فلما نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم قال يا جبريل ما هذا قال لا أدرى حتى أسأل العالم فذهب جبريل ثم عاد فقال يا محمد ربك يقرئك السلام ويأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك واعلموا ارشدكم الله ان الله تعالى أمر بالعفو وندب اليه وذكر فضيلته وحث عليه ووصف به نفسه فقال سبحانه والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين فاوجب الله تعالى محبته للعافين وأثنى عليهم بالاحسان فقال ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور وعزائم الامور من صفات المصطفين من الرسل قال الله تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل وقال سبحانه واذا ما غضبوا هم يغفرون وقال سبحانه وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم فاستعطف الخلق وندبهم الى أن يعفوا عن الجناة والظالمين والخاطئين كما يحبون أن يفعل الله بهم وقال فيمن انتصر ولم يعف ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل فرفع الحرج عن المنتصر والمنتقم ولم يوجب له فضيلة ثم كشف الغطاء وأزاح العذر وصرح بتفضيل العافين على المنتصرين والواهبين حقوقهم على المنتقمين فقال

سبحانه وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وهذا نص لا يحتمل التأويل وتحقيق القول فى ذلك ان الانتصار عدل والعفو فضل وفضل الله أحب الينا من عدله لانه ان عدل علينا فاخذنا بجهله هلكنا وان عفا عنا برحمته تخلصنا ولو كان العدل يسع الخلائق لما قرنه الله بالاحسان فلما علم ان العدل استقصاء ومناقشة وذلك مما تضيق عنه النفوس وتحرج له الصدور ربط الاحسان بالعدل فقال ان الله يامر بالعدل والاحسان وأيضا فان الانتصار انتقام وعذاب بلا امتنان والعفو محسنة من الله واحسان وأيضا فالانتصار سيئة والعفو حسنة قال الله تعالى ولا تستوى الحسنة ولا السيئة والدليل على ان الانتصار سيئة قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها غير انها انما سميت سيئة لما كانت نتيجة سيئة لانه لا يجوز الانتصار وهو كقول عمرو بن كلثوم التغلبى

الا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى الجزاء على الجهل جهلا وان لم يكن فى الحقيقة جهلا وعن هذا روت عائشة رضى الله عنها قالت ما رأيت النبى صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط غير انه اذا انتهك شئ من محارم الله فلا يقوم لغضبه شئ (وروى) انه قال ينادى مناد يوم القيامة من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم الا من عفا فى الدنيا فان عفوت أيها الطالب كان أجرك على الله وان لم تعف كان حقك قبل من ظلمك ولان يكون أجرك فى ضمان الله تعالى أوثق من ان يكون قبل مخلوق وأيضا فان لم تعف تلت حقك بلا زيادة عليه وان عفوت كان حسنة أسديتها لاخيك والله تعالى يقول من جاء بالحسنة فله عشر امثالها وشفع الاحنف بن قيس فى محبوس الى السلطان فقال له ان كان مجرما فالعفو يسعه وان كان بريا فالعدل يسعه (وقيل) لبعض الكتاب بين يدى أمير المؤمنين بلغ أمير المؤمنين عنك أمر فقال لا أبالى فقيل له ولم لا تبالى قال ان صدق الناقل وسعنى عفوه وان كذب الناقل وسعنى عدله * ولما دخل عيينة بن حصن على عمر بن الخطاب قال يا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل وما تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر وهم بان يوقع به فقال ابن اخيه يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين وان هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان عمر وقافا عند كتاب الله تعالى (وقال) النبى صلى الله عليه وسلم ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء وقال ارحم ترحم وكان يقال أولى الناس بالسلطان احقهم بالرأفة والرحمة وفى الانجيل افلح أهل الرحمة لانهم سيرحمون (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام لقد أبغض الله المتسرعين الى اراقة الدماء فانهم انتهت القسوة والغلظة والتباعد من الرحمة * ولما تمكن داود من قتل جالوت ابقى عليه وهو يومئذ عدوه وطالبه وقال يا رب أعظم ذلك فى عين أعدائى كما عظمت فى عينى دم عدوى وكذلك خلصنى من جميع الهموم * وقالت حكماء الهند لا سؤدد مع انتقام ولا سياسة مع عزازة نفس وعجب (وقالت) الحكماء ليس الافراط فى شئ أجود منه فى العفو ولا هو فى شئ أقبح منه فى العقوبة وكذلك التقصير مذموم فى العفو محمود فى العقوبة * واعلم أنك ان تخطئ فى العفو فى ألف قضية خير من أن تخطئ فى العقوبة فى قضية واحدة (وقال) معاوية انى لارفع نفسى أن يكون ذنب أعظم من عفوى وجهل أكبر من حلمى وعورة لا أوارى بها ستر (وقال) المأمون

ليس على الحلم مؤنة ولوددت ان أهل الجرائم علموا رأيي في العفو فيذهب الخوف عنهم فتخلص لي قلوبهم * وقال رجل للمنصور يا أمير المؤمنين ان الانتقام انتصاف والتجاوز فضل والمتجاوز قد جاوز حد المنصف ونحن نعيذ أمير المؤمنين أن يرضى لنفسه باوكس النصيبين وأن لا يرتفع الى أعلى الدرجتين فاعف عنا يعف الله عنك فعفا عنهم وانشدوا

واذا بغى باغ عليك بجهله * فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

وقال بعضهم لمسلم بن قتيبة لما عفا عنه والله ما أدري أيها الامير أي يوميك أشرف أيوم ظفرت أم يوم عفوت وقال الشاعر

مازلت في العفو للذنوب واطئ * لاقاتك جان بجرمة علق

حتى تمنى العفاة أنهم * عندك أمسوا في القيد والحلق

ورفع الى انوشروان ان العامة توثب الملك في معاودة الصفح عن المذنبين مع تتابعهم في الذنوب فوقع المذنبون مرضى ونحن اطباء وليس معاودة الداء اياهم بمانعنا من معاودة العلاج لهم (وقال) عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما قرن شيء الى شيء أفضل من حلم الى علم ومن عفو الى قدرة (وقال) رجل لعبد الملك بن مروان لما ظفر بالمهلب ما رأيت أحدا يا أمير المؤمنين ظلم ظلمك ولا نصر نصرك ولا عفا عفوك (وقال) بعض التابعين المعاقب مستدع لعداوة اولياء المذنب والعافي مستدع لشكرهم أو مكافأتهم أيام قدرتهم ولان ينثني عليك باتساع الصدر خير من أن تنسب الى ضيقه واقالة العثرة موجبة اقالة عثرتك من ربك وعفوك عن الناس موصول بعفو الله عنك وعقابك موصول بعقاب الله تعالى لك والله يحب العافين (وقال) المنصور عقوبة الاحرار التعريض وعقوبة الاشرار التصريح * وقال المامون لما رأيت الذنوب جلت عن المجازاة بالعقاب جعلت العقاب فيها عفوا أمضى من الضرب للرقاب * وقال الاحنف لا تزال العرب بينة الفضل مالم تعد العفو ضيما والبذل سرفا * وفي الحكمة اذا انتقمت فقد انتصفت واذا عفوت فقد تفضلت (وقال) بعض الحكماء اقبل العذر وان كان مصنوعا الا أن يكون ممن أوجبت المروة قطيعته أو يكون في قبولك عذره تشجيعه على المكروه أو معونة على الشر فان قبولك للعذر فيه اشتراك في المنكر (ولما دخل) الفيل دمشق حشر الناس لرؤيته وصعد معاوية الى علية له مطلعا فبيناهو كذلك اذ نظر في بعض الحجر في قصره رجلا مع بعض حرمه فاتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من قصه بد فوقعت عينه على الرجل فقال يا هذا أفي قصري وتحت جناحي تهتك حرمي وأنت في قبضتي ما حملك على ذلك فبهت الرجل وقال حلمك أو قعني قال له معاوية فان عفوت عنك تسترها علي قال نعم فخلى سبيله وهذا من الدهاء العظيم والحلم الواسع ان يطلب الستر من الجاني وهو عروض قول الشاعر *

اذا مرضنا أتيناكم نعودكم * وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

(واتى موسى الهادي) برجل قد جنى فجعل يقرعه بذنوبه ويتهدده فقال اعتذاري مما تقرعني به ردعليك واقراري بما ذكرته ذنب ولكني أقول

فان كنت ترجو في العقوبة راحة * فلا تزهدن عند المعافاة في الاجر

فامر باطلاقه (وقال المهلب) لا شيء أبقى للملك من العفو فان الملك اذا وثقت رعيته منه

بحسن العفو لم يوحشها الذنب وان عظم وان خشيت منه العقوبة أوحشها الذنب وان صغر حتى يضطره ذلك الى المعصية * ومن الحكمة البالغة فى مثل هذا قول سابور وقد جمع أولاده فقال يا بنى ان أعجز كم ان تملؤا قلوب الرعية حبا فاملؤها خوفا وليس ذلك بان تحمل العقوبة على من لا يستحقها ولكن تجعلها لمن يستحقها * وفى هذا المعنى قال الله تعالى فشرد بهم من خلفهم وهذا معنى لا يختل عما أوجبناه وهو معنى قول سابور ولا يخالف ما قررناه من حسن العفو بل هذا محمول على الواجب المستحق أو على ما فى تركه اغراء بركون أمثاله فههنا يكون العفو مفسدة فيا أيها المعاقب اذا أقمت على مذنب عقوبة فلا تكن كالمشتفى المتلذذ بعذابه لانك واياه اخوان لاب وأم آدم وحواء لم تفضله بحولك وقوتك بل بما فضلك الله به تطولا عليك فاذكر لو كنت فى مقامه وكان فى مقامك ولا تأمن تقلب الدهر فتقوم مقامه بين يدى من لا يرحم ولا ينظر فى العواقب واحذر التفريط والتقصير وأقم نفسك مذنبا أقيم للعقوبة وليكن عقابك مقدرا كما كان عطاؤك مقدرا وليكن عقابك للتقويم لا للانتقام وللزجر لا للهوى وعن هذا قال بزرجمهر لا ينبغى للملوك أن يكرموا أحدا بهوان من ليس للهوان اهلا ولا ان يهينوا أحدا باكرام من ليس للكرامة اهلا * لا تكن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ولا على البخل اسرع منك الى البذل قال الشاعر

صفوح عن الاجرام حتى كانه * من العفو لم يعرف من الناس مجرما

فليس يبالى أن يكون به الاذى * اذا ما الاذى بالكره لم يغن مسلما

(وقال سليمان بن داود) عليهما السلام التنكيل والعقوبة امنية الملك الشرير وعلى مثله يبعث الله ملكا غير رحيم * وقال معاوية لا ينبغى للملك ان يظهر منه غضب أو رضا الا لثواب أو عقاب وقال اردشير فضل الملك على السوقة انما هو بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم فكلما استكثر منها بانت فضيلته واستحقاقه لموضعه من الولاية عليهم وكلما انقص منها قرب من السوقة (وقال المامون) انى لاجد لعفوى لذة أعظم من لذة الانتقام واعلم انه اذا عاقب الملك أو أهان على ظن بغير يقين ادخل على نفسه من قبح الخطا فى الرأى أعظم مما أدخل على صاحبه من العقوبة * وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الغالب بالشر مغلوب وما ظفر من ظفر بالاثم (وقيل) لافلاطون أى شئ من افعال الناس يشبه أفعال الله تعالى فقال الاحسان الى الناس وقال الحكيم الحلم فدام السفيه والعفو زكاة العقل * وقال الحكيم السيد الذى لا يشين حسن الظفر بقبح الانتقام وخير مناقب الملوك العفو * وكان يحيى بن معاذ يقول سبحان من أذل العبد بالذنب واذل الذنب بالعفو الهى ان عفوت فخير راحم وان عذبت فغير ظالم الهى ان كنت لا ترضى الا عن أهل طاعتك فكيف يصنع الخاطئون وان كان لا يرجوك الا أهل وفائك فبمن يستغيث المستغيثون وقال الشاعر

وان الله ذو حلم ولكن * لعز الحلم ينتقم الحليم

(وروى ان الحجاج) أخذ القطرى بن الفجاءة فقال لاقتلنك قال ولم قال لخروج أخيك على قال فانا معى كتاب امير المؤمنين ان لا تأخذنى بذنب أخى قال هاته قال ان معى أو كد منه قال الله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى فتعجب من جوابه وخلى سبيله * ولما وفد عقيل بن أبى طالب على

معاوية امر له بمائة ألف درهم فلما اراد الانصراف رأى في الطريق جارية باربعين ألف درهم فرجع الى معاوية فاخبره فقال وما تصنع بها قال تلد لي غلاما فان اغضبني يضرب مفرقك بالسيف فامر له بها فابتاعها فولدت له مسلم بن عقيل ثم قدم مسلم الشام فابتاع منه معاوية ضيعة فبلغ الحسين بن علي الخبر فكتب الى معاوية انى لا اجيز بيع مسلم فارسل معاوية الى مسلم فقال هذا كتاب الحسين يامر برد المال فقال مسلم أما دون ان اضرب مفرقك بالسيف فلا فخصك معاوية وقال والله لقد تهددني أبو لبذلك قبل ان يشتري أملك وسوغه المال فقال الحسين غلبنا معاوية حلما وجودا

(الباب السابع والعشرون في المشاورة والنصيحة)

وهذا الباب مما يعده الحكماء من أساس المملكة وقواعد السلطنة ويفتقر اليه الرئيس والمرؤس وقد ذكرناه في باب الخصال الفرقانية ونذكره ههنا فوائدها ومحاسنها *اعلموا ان المستشير وان كان أفضل رأيا من المشير فانه يرداد برأيه رأيا كما تزداد النار بالسليط ضوأ فلا يقذفن في روعك انك اذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة الى رأي غيرك فيمنعك ذلك عن المشاورة فانك لا تريد الرأي للفخر به ولكن للانتفاع به فان أردت الذكر كان أفخر لذكرك وأحسن عند ذوي الالباب لسياستك أن يقولوا لا ينفرد برايه دون ذوي الرأي من اخوانه ولا يمنعك عزمك على انفاذ رأيك وظهور صوابه لك عن الاستشارة الا ترى ان ابراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه عزمة لا مشورة فيها فحمله حسن الادب وعلمه بموقعه في النفوس على الاستشارة فيه فقال فيه يابتي انى أرى في المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى وهذا من أحسن ما يرسم في هذا الباب *وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرأي الفرد كالخيط السحيل والرأيان كالخيطين والثلاثة الآراء لا تكاد تنقطع ويروى أن روميا وفارسيا تفاخرا فقال الفارسي نحن لا نغلبك علينا من يشاور وقال الرومي ونحن لا نغلبك علينا من لا يشاور وقال بزرجمهر اذا أشكل الرأي على الحازم كان بمنزلة من أضل لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها فالتقمها فوجدها كذلك الحازم يجمع وجوه الرأي في الامر المشكل ثم يضرب بعضها ببعض حتى يخلص له الصواب (وكان) يقال من كثرت استشارته حمدت امارته وفي حكم الهند قال بعض الملوك ان الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزمة كما يزداد البحر بمواده من الانهار وينال بالحزم والرأي ما لا ينال بالقوة والجند ولم تزل عزمة الرجال يستعلون مرارة قول النصحاء كما يستحلي الجاهل المساعدة على الهوى *وقال المأمون لطاهر بن الحسين صف لي اخلاق الخلوع يعني أخاه الأمين فقال كان واسع الصدر ضيق الادب ينتج من نفسه ما تأباه همم الاحرار لا مصغيا الى نصيحة ولا يقبل مشورة يستبد برأيه فيرى سوء عاقبته فلا يردعه ذلك عما يهم به قال فكيف حروبه قال يجمع الكتائب بالتبذير ويفرقها بسوء التدبير فقال المأمون لذلك ما حل محله أما والله لو ذاق لذاذة النصائح واختار مشورة الرجال وملك نفسه عند شهوتها ما ظفر به *وقال بعضهم انفاذ الملوك الامور بغير روية كالعبادة بغير نية ولم تزل العقلاء على اختلاف آرائهم يشهدون الغيوب ويستثيرون صواب الرأي من كل أحد حتى الائمة الوعلة هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ اهدى الى عيوبي *وكان يقال من أعطى أربعا لم يمنع اربعا من أعطى

الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب * وقال بعضهم خير الرأى خير من فطيره وتأخيره خير من تقديمه (وذكر صاحب كتاب التاج) أن بعض ملوك العجم استشار وزراءه فقال أحدهم لا ينبغى للملك أن يستشير منا أحدا الا خاليا فانه أموت للسر وأحزم فى الرأى وأجدر للسلامة واعنى لبعضنا من غائلة البعض * وكان بعض ملوك العجم اذا شاور رمز ازبته فقصر وافى الرأى دعا الموكلين بارزاقهم فعاقبهم فيقولون تخطئ مرازبتك وتعاقبنا فيقول نعم لم يخطؤا الا لتعلق قلوبهم بارزاقهم واذا اهتموا أخطؤا * وكانوا اذا اهتموا بمشاورة رجل بعثوا اليه بقوته وقوت عياله لسنته ليتفرغ لبه * وكان يقال النفس اذا احرزت قوتها اطمأنت واذا شاورت فاصدق الخبر تصدق المشورة ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك * وقال بعض ملوك العجم لا يمنعنك شدة ياسك فى باطنك ولا علو مكانك فى نفسك من أن تجمع الى رأيك رأى غيرك فان أحمدت احببت وان اخطأت عذرت فان فى ذلك خصالا منها ان وافق رأيك رأى غيرك ازداد رأيك شدة عندك وان خالفه عرضته على نظرك فان رأيته معتليا لما رأيته قبلته وان رأيته متصعبا استغنيت عنه وبجد بذلك النصيحة ممن شاورته وان اخطأ وتحمض لك مودته وان قصر ولم يكن من فضيلة المشاورة الا انك أن أصبته مستبدا سلمت فائدة الاصابة بألسنة الحسدة وقال قائل هذا اتفاق ولو فعل كذا لكان احسن واذا شاورت فاصبت أحد الجماعة رأيك لانهم لنفوسهم يحسدون وان اخطأت حمل الجماعة خطأك لانهم عن نفوسهم يكافحون * واعلم أن القول الغليظ يستمع لفضل عاقبته كما يتكاره شرب الدواء المر لفضل مغبته (وقال اعرابى) ما عثرت قط حتى عثر قومى قالوا وكيف ذلك قال لا افعل شيأ حتى اشاورهم (وقيل) لرجل من بنى عبس ما أكثر صوابكم يا بنى عبس فقال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد ونحن نطيعه فكأنا ألف حازم * وكان ابن هبيرة أمير البصرة يقول اللهم انى أعوذ بك من عصبة من غايته خاصة نفسه والاغتباط فى هوى مستشيره (وفى حكم الهند) من النفس من الاخوان الرخصة عند المشورة ومن الاطباء عند المرض ومن الفقهاء عند الشبه اخطأ الرأى وازداد مرضا وحمل الوزر * وقالت الحكماء لا تشاور معلما ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء ولا صاحب حاجة يريد قضاءها ولا خائفا ولا من يرهقه احد السبيلين * وقالوا لا رأى لحاقن ولا لحازق ولا لحاقب ولا تشاور من لا دقيق عنده والحازق هو الذى ضغطه الخلف الضيق والحاقب هو الذى يجد فى بطنه ثقلا وقالوا من شكا الى عاجز أعاره بعجزه وامده من جزعه (ومن لطيف ما جرى فى الاستشارة) ان زياد بن عبيد الله الحارثى استشار عبيد الله بن عمر فى اخيه ابى بكر ان يوليه القضاء فاشار به فبعث الى ابى بكر فامتنع عليه فبعث زياد الى عبيد الله يستعين على أبى بكر فقال ابو بكر لعبيد الله انشدك الله اترى لى القضاء قال اللهم لا قال زياد سبحان الله استشرتك فاشرت على به ثم اسمعك تنهاه فقال ايها الامير استشرتنى فاجتهدت لك الرأى ونصحتك ونصحت للمسلمين واستشارنى فاجتهدت له رأيى ونصحته (وروى ان الحجاج) بعث الى المهلب يستحثه حرب الازارقة فكتب اليه المهلب ان من البلاء ان يكون الرأى لمن يملكه دون من لا يبصره

(فصل فى النصيحة) اعلموا ان النصح للمسلمين والخلائق أجمعين من سنن المرسلين قال الله تعالى اخبارا عن نوح عليه السلام ولا ينفعكم نصحى ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم وقال شعيب عليه السلام ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين وقال عليه السلام ان العبد اذا نصح لسيده واحسن عبادة الله فله أجره مرتين (وروى) أبو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة قيل لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين ولعامتهم فالنصح فى الجملة فعل الشئ الذى به الصلاح ودفع الملامة ماخوذ من النصاحة وهى السلوك التى يخاط بها وتصغيرها نصيحة تقول العرب هذا قميص منصوح أى مخيط ونحته نصحا اذا خطته ويختلف النصح فى الاشياء لاختلاف الاشياء فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس باهل له عقدا وقولا والقيام بتعظيمه والخضوع له ظاهرا وباطنا والرغبة فى محابه والتباعد من مساخطه وموالاة من اطاعه ومعاداة من عصاه والجهاد فى رد العصاة الى طاعته قولا وفعلا وارادة بث جميع ما ذكرناه فى عباده والنصيحة لكتابه اقامته فى التلاوة وتحسينه عند القراءة وتفهم ما فيه واستعماله والذب عنه من تاويل المحرفين وطعن الطاعنين وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين قال الله تعالى كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب والنصيحة للرسول عليه السلام موازرته ونصرته والحماية من دونه حيا وميتا واحياء سنته بالطلب واحياء طريقته فى بث الدعوة وتالف الكلمة والتخلق بالاخلاق الطاهرة والنصيحة للائمة معاونتهم على ما تكلفوا القيام به فى تنبيههم عند الغفلة وارشادهم عند الهفوة وتعليمهم ما جهلوا وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء واعلامهم باخلاق عمالهم وسيرهم فى الرعية وسد خلتهم عند الحاجة ونصرتهم فى جمع الكلمة عليهم وردّ القلوب النافرة اليهم والنصح لجماعة المسلمين الشفقة عليهم وتوقير كبيرهم والرحمة لصغيرهم وتفريج كربهم ودعوتهم الى ما يسعدهم وتوقى ما يشغل خواطرهم ويفتح باب الوساوس عليهم ومن النصيحة للمسلمين رفع مؤنة نفسه وبدنه وحوائجه عنهم (قال الاصمعى) لفظ عمر بن الخطاب رضى الله عنه نواة من الطريق فامسكها بيده حتى مر بدار قوم فالقاها فى الدار وقال يا كلها اجنهم والنصح لجميع الملل ان يحب اسلامهم ويدعوهم الى الايمان بالقول ويحذرهم سوء مغبة الكفر وبالسيف ان كان ذا سلطان أو يكفوا عن قتال المسلمين فيكونوا ذمة والا فالقتل نصحا لاقامة أمره فيهم (وروى معاذ) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم العمل لله ومناصحة ولاة الامر والاعتصام بجماعة المسلمين فان دعوتهم تحيط من ورائهم * وقال جابر ابن عبد الله بايعت النبى صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فلقنى فيما استطعت والنصح لكل مسلم (وروى) أنس ان النبى عليه السلام قال لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه * وقال أبو الدرداء العلم يبلغه البر والفاجر والحكمة ينطق بها البر والفاجر والنصيحة لله تعالى لا تثبت الا فى قلوب المنتخبين الذين صحت عقولهم وصدقت نياتهم واعلم ان جرعة النصيحة مرة لا يقبلها الا أولو العزم * وكان عمر بن الخطاب رحمه الله يقول رحم الله امرأ أهدى الى عيوبى * وقال ميمون بن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز رحمه الله قل لى فى وجهى

ما أكره فان الرجل لاينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه مايكره * وقال مالك النصيحة لله فى أرضه هى التى بعث الله بها انبياءه * ومن أمر الاسلام القصد والنصيحة لعباد الله فى امورهم والنفوس مستثقلة للنصح نافرة عن أهله ومائلة الى ماوافق هواها (وفى منثور الحكم) ودلك من نصحك وقلالك من مشى فى هواك * وكان يقال أخولك من احتمل ثقل نصيحتك وقال بعضهم شعرا

عرضت نصيحة منى لزيد * فقال غششتنى والنصح مر
ومالى أن أكون نصحت زيدا * وزيد طاهر الاثواب بر
ولكن قد اتانى أن زيدا * يقال عليه فى مغناه شر
فقلت له تجنب كل شئ * يقال عليك ان الحر حر

وقال آخر

وعلى النصوح نصيحتى * وعلى عصيان النصوح

وللقطامى شعر

ومعصية الشفيق عليك مما * تزيدك مرة منه استماعا
وخير الامر ما استقبلت منه * وليس بان تتبعه اتباعا

ولورقة بن نوفل

لقد نصحت لاقوام وقلت لهم * انا النذير فلا يغرركم أحد
لاشئ مما ترى تبقى بشاشته * الا الاله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه * والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال ابن وهب انما يحسن الاختيار لغيره من يحسن الاختيار لنفسه ولا خير لك فيمن لا خير له فى نفسه * وقالت العلماء لن ينصحك امرؤ لا ينصح لنفسه (وقال بعضهم) رأيى ورأيك فى المعرفة امثل لنشكك من رأيك لانه خلو من هواك * وقال أبو الدرداء ان شئتم لا نصحن لكم ان أحب عباد الله الى الله الذين يحببون الله الى عباده ويعملون فى الارض نصحا وروى ان رجلا لطم ابراهيم بن أدهم فرفع رأسه الى السماء وقال الهى ان كنت تنيبنى وتعاقبه فلا تنيبنى ولا تعاقبه * ومن الخصال التى تجرى مجرى الجمال والكمال الحلم *

(الباب الثامن والعشرون فى الحلم)

قال الله تعالى ان ابراهيم لحليم أواه منيب وقال تعالى فاصفح الصفح الجميل (قال) على رضى الله عنه الصفح الجميل الرضا بلا عتاب وقيل الصفح الجميل الرضا بلا توبيخ فيه ولا حقد معه وفى الامثال القديمة كاد الحليم أن يكون نبيا (ويروى) ان رجلا قال يا رسول الله علمنى كلمات اعيش بهن ولا يكثرن على قال لا تغضب * واعلم ان الحلم أشرف الاخلاق وأحقها بذوى الالباب لما فيه من راحة السر واجتلاب الحمد وأحق الناس به السلطان لانه منصوب لاقامة أود الخلائق وممارسة اخلاقهم ولا يطيقون به فى حال سلمهم وانما يغشون بابه حين تنازعهم وخصوماتهم وشرورهم وتكدر نفوسهم وضيق اخلاقهم فان لم يكن معه حلم يرد به بوادرهم ولا وقع تحت عيب ثقيل * وكان أنوشروان ذا حلم واناة وكان يقول فى خصلتان لولا انهما ظاهرتان عند الرعية لضقت بهما ذرعا الحلم والاناة (وروى) ان يحيى بن زكريا لقى عيسى

ابن مريم عليهم السلام فقال يا روح الله اخبرني باشد الاشياء في الدارين قال غضب الله تعالى قال يا روح الله وما ينجيني من غضب الله تعالى قال ترك الغضب قال يا روح الله كيف يدع الغضب قال التعزز والتكبر والتفخر على الناس * وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال وجبت محبة الله تعالى على من أغضب فحلم * والذي يجمل أن يضرب في هذا الباب قصة اسحق عليه السلام قال له ابراهيم يا بني اني رأيت في المنام اني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين ثم انه تله للجبين وأمر على حلقه السكين فلم يقل الا خيرا فقال الله تعالى وبشرناه بغلام حليم (وفي الاخبار) يقول ابليس لعنه الله ان الحديد من الرجال لم ييأس منه وان كان يحيي الموتى بدعائه لانه تأتي عليه ساعة يحتد فيها فيصير منه الى ما يريد (ويروى) ان جعفر بن محمد دخل على الرشيد وقد استخفه الغضب فقال له يا أمير المؤمنين انك انما تغضب لله تعالى ولا تغضب له باكثر من غضبه لنفسه * واعلم أرشدك الله ان هذه الكلمة لا قيمة لها والله أعلم حيث يجعل رسالاته فما أنفسها وأجل قدرها وأعظم شانها لانك اذا كنت أيها السلطان انما تتصرف في ملك الله بامر الله فالله تعالى قد حد حدودا وشرع شرائع وأقام فروضا وسننا ونهى عن حدود ورسوم ثم قدر في كل خصلة عند مخالفته حدا محدودا ونهى أن يتجاوز ذلك الحد فلا يقيل من استحق القطع والحبس والادب والحد ولا يحبس غير من استوجب الحبس * وكانت الخلفاء يؤدبون الناس على قدر منازلهم فمن عثر من ذوي المروآت اقيلت عثرته ولم يقابل بشئ لقوله عليه السلام اقيلوا ذوي الهيآت عثراتهم ومن سواهم كان يقابل على قدر منزلته وهفوته فكان يقام قائما في مجلس يقعد فيه نظراؤه فتكون هذه عقوبته وآخر يشق جيبه وآخر تنزع عمامته من رأسه وآخر يكلم بالكلام الذي فيه بعض الغلظة * قال الشعبي كانت العصا في زمن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم اذا أخذ الرجل منهم نزعت عمامته وطيف به في المسجد على قومه وقيل هذا أخذ بثغره فلما ولي زياد ضربهم ونزع عمائمهم فلما ولي مصعب بن الزبير حلق مع الضرب رؤسهم فلما ولي بشر بن مروان اقامهم على الكراسي ثم مدت أيديهم وسمرها بمسمار ثم نزع الكرسي من تحت رجليه حتى يخرم يده مفى ميت ومن حي فلما ولي الرجل المعروف بالحجاج قال كل هؤلاء يا هب من أخذ بثغره نثرب عنقه وقال ارسطاطاليس النفس الذليلة لا تجد ألم الهوان والنفس الشريفة يؤثر فيها يسير الكلام وفيه قيل

من يهن يسهل الهوان عليه * ما لجرح بميت ايلام

واعلم ان من تجاوز في العقوبة فوق ما حد الله تعالى فيها شارك المجرم في الذنب واستوجب ما استوجبه المجرم من العقوبة ويتبين في الآخرة انه انما يعاقب للهوى والتشفي اذا غاضب الله تعالى (وفي كتاب سليمان بن داود عليهما السلام) القاهر لنفسه أشد ممن يفتتح المدينة وحده وصدق نبي الله صلى الله عليه وسلم فان السلطان يفتتح المدينة ويقهر أهلها ويغلب جنودها وحماتها ويقتل ابطالها ثم تغلبه شهوته ويبقى اسيرا في ذل هواه قد قهرته قينة بطنبورها أو قدح خمر يذهب بعقله * وقال اكثم بن صيفي الصبر على جرع الحلم اعذب من جنى ثمر الندم (وسأل علي بن أبي طالب) رضي الله عنه كثيرا من كبراء فارس من أحد ملوكهم عندهم فقال

لاردشير

لاردشير فضل السبق غير ان أحدهم سيرة أنوشروان قال فاى اخلاقه كان اغلب عليه قال الحلم والاناة فقال على رضى الله عنه هما توأم ينتجهما علو الهمة * ومن محمود السيرة ان يعرف الناس من اخلاقك انك لا تعجل بالثواب ولا بالعقاب فان ذلك ادوم لخوف الخائف ورجاء الراجى وقال محمود الوراق

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب * وان عظمت منه على الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذى فوقى فاعرف فضله * واتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فان قال صنت عن * اجابته نفسى وان لام لائم
وأما الذى مثلى فان زل أوهفا * تفضلت ان الحلم بالفضل حاكم

(وقال الاصمعى) سمعت اعرابيا يقول اسرع الناس جوابا من لم يغضب لا توقدن بين جنبيك جمرة الغضب واردد اساءته بالحلم فان شجر النار اذا الحت عليها الرياح حاكت اغصانها فتشتعل نارا وتحترق من أصولها * وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ثلاث من اجتمعن فيه فقد سعد من اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل واذا قدر عفا وكف (وسئل جعفر بن محمد) عن حد الحلم فقال وكيف يعرف فضل شئ لم يركمله فى أحد * وقال الاحنف لابنه يا بنى ان اردت أن تؤاخى رجلا فأغضبه فان انصفك والا فاحذره (وكان سلم بن نوفل) سيد بنى كنانة فضربه رجل من قومه بسيفه فأخذ فاتى به اليه فقال له ما الذى فعلت أما خشيت انتقامى قال فلم سودنا لك الا أن تكظم الغيظ وتعفو عن الجانى وتحلم عن الجاهل وتحتمل المكروه فى النفس والمال فخلى سبيله فقال قائلهم شعرا

يسود أقوام وليسوا بسادة * بل السيد المعروف سلم بن نوفل

وقال رجل من كلب للحكم بن عوانة انما أنت عبد فقال والله لاعطينك عطية ما يعطيها العبيد فاعطاه مائة رأس من السبى ومن امثال العرب احلم تسد ويروى ان هشاما غضب على رجل من أشراف الناس فشتمه فوبخه الرجل فقال له اما تستحى ان تشتمنى وأنت خليفة الله فى أرضه فاطرق هشام واستحيا وقال له اقتص فقال اذا استبه مثلك فقال خذ من ذلك عوضا من المال قال ما كنت لافعل قال فهبها لله قال هى لله ثم لك فنكس هشام رأسه وقال والله لا أعود لمثلها وقال الشاعر

ان يبلغ المجد أقوام وان شرفوا * حتى يذلوا وان عزوا لاقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة * لاصفح ذل ولكن صفح اكرام

وقال آخر

وجهل رددناه بفضل حلومنا * ولو اننا شئنا رددناه بالجهل
رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة * وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

وقال هشام لخالد بن صفوان صف لى الاحنف بن قيس فقال يا أمير المؤمنين ان شئت أخبرتك عنه بثلاث وان شئت باثنتين وان شئت بواحدة فقال اخبرنى عنه بثلاث قال كان لا يحرص ولا يجهل ولا يدفع الحق اذا نزل به قال فاخبرنى عنه باثنتين قال كان يؤثر الخير ويتوقى

الشر قال فاخبرني عنه بواحدة قال كان أعظم الناس سلطانا على نفسه وقال اكثم بن صيفي الغلبة والعز للحلم وقال الاحنف بن قيس وجدت الحلم انصر لي من الرجال وصدق الاحنف فان من حلم كان الناس انصاره كما روى ان رجلا أسرف في شتم بعض الادباء وهو ساكت فمر به بعض المارين في الطريق وقال له يرحمك الله لا تنتصر لك قال لا قال ولم قال لاني وجدت الحلم انصر لي من الرجال وهل حميت في الا لحلمي وقال رجل لعمرو بن العاص والله لاقرعن لك فقال له الآن وقعت في الشغل وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه ان رجلا ممن كان قبلكم استضاف قوما فاضافوه ولهم كلبة تنبح فقالت والله لا أنبح ضيف أهلي الليلة فعوى جروها في بطنها فباح ذلك نبيالهم أو قيلا من أقيالهم فقال مثل هذا مثل أمة تكون بعدكم يظهر سفهاؤها على حلمائها وقال الاحنف اياكم ورأي الاوغاد قالوا وما رأي الاوغاد قال الذين يرون الصفح والعفو عارا وسئل الاحنف عن الحلم فقال هو الذي تصبر عليه ولست بحليم ولكني صبور ويروى ان المهلب نازعه رجل من كاربني تميم فاربى على المهلب والمهلب ساكت فقيل له في ذلك فقال كنت اذا سبني استحييت مني لضعف السباب وغلبة اللئام والسفلة وكان اذا سبني تهلل وجهه وشمخت نفسه بان ظفر بفضل القحة ونبذ المروءة وخلع ربقة الحياء وقلة الاكتراث بسوء الثناء ومر المسيح عليه السلام على قوم من اليهود فقالوا له شرا وقال لهم خيرا فقيل له انهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا فقال كل ينفق مما عنده وقال اكثم بن صيفي من حلم ساد ومن تفهم ازداد وكفر النعمة لؤم وصحبة الجاهل شؤم ولقاء الاخوان غنم والمباشرة بعين ومن الفساد اضاعة الزاد وسب رجل الشعبي بقبائح نسبها اليه فقال الشعبي ان كنت كاذبا فغفر الله لك وان كنت صادقا فغفر الله لي وقال رجل لابي بكر الصديق رضي الله عنه لاسبنك سبا يدخل معك في قبرك فقال أبو بكر معك والله يدخل لا معي وقال رجل للاحنف بن قيس ان قلت كلمة لتسمعن عشرا فقال له الاحنف لكنك لو قلت عشرا لم تسمع مني واحدة ويروى ان رجلا سب الاحنف وهو يماشيه في الطريق فلما قرب من المنزل وقف الاحنف وقال يا هذا ان كان بقي معك شئ فقله ههنا فاني أخاف ان سمعك فتياني الحي أن يؤذوك وسب رجل بعض الحكماء فقال له الحكيم لست أدخل في حرب الغالب فيه شر من المغلوب وقال لقيط بن زرارة شعر

فقل لبني سعد فمالكم * ترقون مني ما استطعتم واعتق
اغركم اني باحسن شيمة * بصيرو اني بالفواحش اخرق
وانك قد سايتني فقهرتني * هنيئا مريئا أنت بالفحش أحذق

وقال رجل لابي ذر رضي الله عنه أنت الذي نقال معاوية من الشام لو كان فيك خير ما نقالك فقال يا ابن أخي ان ورائي عقبة كؤودا ان نجوت منها لم يضرني ما قلت وان لم أنج منها فانا شر مما قلت وقال لقمان لابنه يا بني ثلاثة لا يعرفون الا عند ثلاثة لا يعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ولا أخوك الا عند الحاجة اليه وسب رجل بعض الحكماء فاعرض عنه فقال له اياك أعني فقال الحكيم وعنك أعرض وفي هذا المعنى قيل

قل ما بدا لك من زور ومن كذب * حلي أصم وأذني غير صماء

وقيل يوما للاحنف ما أحلمك فقال لست بحليم ولكني اتحالم والله اني لأسمع الكلمة فاجرع لها ثلاثا ما يمنعني من جوابها الا الخوف من ان أسمع ما هو شر منها وقال الشاعر

وليس يتم الحلم للمرء راضيا * اذا كان عند السخط لا يتحلم
كما لا يتم الجود للمرء موسرا * اذا كان عند العسر لا يتحشم

و روى ان رجلا سب جعفر بن محمد رضي الله عنه فقال اما ما قلت مما هو فينا فانا نستغفر الله منه وما قلت مما ليس فينا فانا نكلك فيه الى الله تعالى وقال بعض الحكماء احذروا الغضب فرب غضب استحق الغضبان به غضب الله تعالى وقال اكثم بن صيفي لا يكون الرجل حليما حتى يقول السفيه انه لضعيف مستذل ولا يكون مخلصا حتى يقول الاحمق انه لمفسد ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير

اذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى * أصبت حليما أو أصابك جاهل

و وصف اعرابي رجلا فقال احلم من فرخ طائر وقال اعرابي ان الغضب عدو العقل ولذلك يحول بين صاحبه و بين العقل والفهم وقال صعصعة بن صوحان الغضب مقدحة العقل فربما أصلد وربما ازند وقال اعرابي اذا جاء الغضب تسلط العطب وكان ابن عوان اذا غضب على أحد من اهله قال سبحان الله بارك الله فيك وقال الاصمعي دفع اردشير الى رجل كان يقوم على رأسه كتابا وقال له اذا رأيتني اشتد غضبي فادفعه الي فكان فيه اسكن فلست بالله انما أنت بشر يوشك ان يأكل بعضك بعضا وتصير عن قريب للدود والتراب وهذه السيرة أول من سنها ملك تبع أمر أن يكتب في كتاب اسكن فلست بالله وقال لصاحبه اذا غضبت فأعرضه علي فكان اذا غضب أعرضه عليه فاذا قرأه سكن غضبه وقال معاوية أفضل ما اعطى الرجل العقل والحلم فاذا ذكر ذكر واذا أعطى شكر واذا ابتلى صبر واذا غضب كظم واذا قدر عفا واذا أساء استعفى واذا وعد أنجز وفي الحكمة مكتوب من أطاع الغضب حرم السلامة ومن عصى الحق نجم له الذل وقال بعض الحكماء كظم الغيظ حلم والحلم صبر والتشفي ضرب من الجزع وقال آخر أول الغضب جنون وآخره ندم وقال بعض الحكماء اذا غلب على الرجل أربع خصال فقد عطب الرغبة والرهبة والشهوة والغضب (وقيل) لبعض الصالحين ان فلانا يقع فيك فقال لاغيظن من أمره يغفر الله لي وله قيل له ومن أمره قال الشيطان وقال رجل لاخيه اني مررت بفلان وهو يقع فيك ويذكرك باشياء رحمتك منها قال فهل سمعتني اذكره بشيء قال لا قال فاياه فارحم وقال الفضيل ثلاثة لا يبلاهون على الغضب المريض والصائم والمسافر وقال الاحنف بن قيس لقد تعلمت الحلم من قيس ابن عاصم المنقري اني جالس معه في فناء وهو يحدثنا اذ جاء جماعة يحملون قتيلا ومعهم رجل مأسور فقيل له هذا ابنك قتله أخوك فوالله ما قطع حديثه ولا حل حبوته حتى فرغ من منطقه ثم أنشد

أقول للنفس تأنيبا وتعزية * احدى يدي أصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه * هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ثم التفت الى بعض ولده فقال قم فاطلق عمك ووار أخاك وسق الى امه مائة من الابل فانها

غريبة ومن أنبل بيت قالته العرب قول بعضهم

فصح بالخير خرس بالخنى * ربح الاحلام ذيال الازر

وقال غيره

باحلام عاد لايخاف جليسهم * اذا نطق العوراء عرب لسان

اذا حدثوا لم يخش سوء استماعهم * وان حدثوا أدوا بحسن بيان

وقال المسيح عليه السلام ماحلم من لم يصبر عند الجهل وماقوة من لم يرد الغضب وماعبادة من لم يتواضع للرب تعالى وقيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينتقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهم فقال هم بعد العقوبة اعذر فى ثلبى وتنقيصى (ويروى) ان جريربن عبدالله ببغاهو راكب قد أورف اينه اذ لقيه رجل فنال منه وجرير ساكت فلما ولى قال له ابنه ياأبت لم سكت عنه قال يابنى أفأوسع بر حى وقال بعض الحكماء متى أشفى غيظى أحين اقدر فيقال لو عفوت أم حين اعجل فيقال لو صبرت وسئل بعض أصحاب الاحنف أكان الاحنف يغضب فقال نعم لولم يغضب مابان حلمه كان يغضبه الشئ بين فى وجهه اليومين والثلاثة وهو يصبر ويحلم ومن لم يغضب من الاشياء التى مثلها يغضب فقد فقد من الفضائل الشجاعة والانفة والحمية والدفاع والاخذ بالثار والغيرة لان هذه الخصال نتائج الغضب ومن فقد الغضب فقد فقد أس الفضائل على ماستذكر فى باب الشجاعة ان شاء الله تعالى وعند فقد الشجاعة تكون المهانة ومن المهانة يكون سفساف الاخلاق ورذالة الطباع فلا يبقى لسائر فضائله موقع وكان يقال من لم يغضب فليس بحليم لان الحليم انما يعرف عند الغضب وقال الشعبى الجاهل خصم والحليم حاكم قال الشافعى من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو جبار وقد كان النبى عليه السلام يغضب ولكنه انما كان يغضب لا لنفسه بل عند انتهاك حرمة ربه واعلم ان الله تعالى مامدح من لايغضب وانما مدح من كظم الغيظ فقال والكاظمين الغيظ وقد انشد النابغة الجعدى بحضرة النبى عليه الصلاة والسلام

ولاخير فى حلم اذا لم تكن له * بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولاخير فى جهل اذا لم يكن له * حليم اذا ما أورد الامر أصدرا

فلم ينكر النبى صلى الله عليه وسلم قوله وكان ابن عمر اذا سافر استتبع ستيها ويقول أستدفع به شر السفهاء عنى واعلموا أرشدكم الله أن أحسن خصال الملوك وأجلها قدرا وهى حلية الانبياء ولبسة الاصفياء وجمال السوقة والرؤساء واعظمها فى النفوس موقعا واعمها على الرعايا نفعا واخلدها على مر الايام ذكرا واجلها فى المحافل والمحاسن نشرا وهى الفضيلة التى تعم سائر الفضائل وتكمل بها سائر المحاسن الحلم وها أنا أتلو عليك من ذلك مايقضى فيه العجب (هذه) دولة آل العباس أولهم أبو العباس السفاح والى يومنا هذا لم يكن فيهم أجل من المامون بلغ من حلمه انه كان يقول لو علم الناس مالى فى لذة العفو ماتقربوا الى الا بالجرائم فاق حلمه سائر خلفاء بنى العباس حتى صار يضرب المثل بحلمه وبهذه الخصلة تهيأ ملكه وقهر أخاه الامين (ومنها) دولة بنى أمية أولهم معاوية بن أبى سفيان وآخرهم مروان الجعدى لم يكن فيهم أحلم من معاوية ولاجرم دانت له الدنيا وملك بها رقاب العرب

والعجم

والعجم وصار حلمه يضرب به المثل ويقتدى به الخلق ويتخلق به العقلاء حتى حكى عنه انه كان يقول لو كان بيني وبين الناس خيط عنكبوت أو شعرة ما انقطعت اذا جذبوا ارسلت واذا أرسلوا جذبت (وهذه) دولة الفرس وكانت أعلم دول الارض وأشدها باسا واكثرها علوما وحكما لم يكن في اكاسرها أحلم من كسرى أنوشروان وصار يضرب به المثل وتطارز بسيرته الكتب والمصنفات فيروى ان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه لقي كبيرا من كبراء فارس فقال له ما أحمد خصال ملوككم فقال السبق لكسرى يعني رأحدهم سيرة انوشروان فقال له علي وما كان أغلب خصاله عليه قال الحلم والاناة قال علي هما توأم ينتجهما علو الهمة ويلغ من حلمه انه كان يضيق صدره بحلمه فقال في خصلتان لولا انهما ظاهرتان عند الرعية لانفقت بهما ذرعا الحلم والاناة فأخلق بخصلة تعم منفعتها ويبقى على الدهر جمالها وتخلد في العلماء والعقلاء والملوك والسوقة بهجتها وحسن مصادرها ومواردها أن يتخذها الملوك شعارا ودثارا وانما قصدت الحكماء من الملوك خاصة فاما من سواهم من الرعية كالاحنف ونظرائه فلا يحصون كثرة

(الباب التاسع والعشرون فيما يسكن الغضب)

فاول ذلك انك اذا نظرت الى تغير أشكالك وتبدل صورتك واحمرار وجهك وانتفاخ أوداجك وذهاب جنانك وسقط كلامك وفحش ما يخرج من فيك لامسك عن الغضب واطالما كنت تستحي أن تتكلم بين يدي الجلساء باليسير الجائز فعمدت تهدر بالكثير الفاحش ولو أن من غضب استذكر اذا صحا وسكن غربه انقلاب صورته وتغير وجهه واضطراب شفتيه وارتعاد أطرافه وسقط كلامه وفحوى خطابه والتفاف لسانه وخشنة عقله وطيشه وتوبه من مجلسه كانه نمر وسرعة التفاته عينا وشمالا كانه قرد وعدم فهمه لما يسمع وقلة التفاته الى من يعظه وينصحه كانه أحمق ومن شؤم الغضب وعظيم بليته انه قد يقتل النفوس ويسلب الروح وكان سبب موت مروان بن عبد الملك انه وقع بينه وبين أخيه سليمان كلام فعجل عليه سليمان فقال يا من يلحق أمه ففتح فاه ليعيبه واذا بجنبه عمر بن عبد العزيز فامسك على فيه ورد كلمته وقال يا ابن عبد الملك اخوك وامامك وله السن عليك فقال يا أبا حفص قتلتني قال وما صنعت بك قال رددت في جوفي احر من الجمر ومال بجنبه فمات ولعمري انه يزيد على الحمق (ومنها) أن ينتقل من الحالة التي كان عليها الى غيرها كانت العرس تقول اذا غضب القائم فليجلس واذا كان جالسا فليقم وبهذا المذهب كان يأخذ المامون نفسه (ويروى) شكى الى النبي صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع في القبور واعتبر بالنشور (وكان) بعض ملوك الطوائف اذا غضب القى بين يديه مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه (وكان) عكرمة يقول في قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت يعني اذا غضبت فانه اذا ذكر الله خاف منه فيزول غضبه (وفي) التوراة يا ابن آدم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب ولا أمحقك فيمن امحق (ومنها) أن يذكر نفرة القلوب عنه وسقوط منزلته عند أبناء جنسه ووصفهم لقبح وجهه وسخفه فيكون ذلك سببا لزوال غيظه (ومنها) أن يتذكر انعطاف القلوب عليه وانطلاق الالسنة بالثناء عليه وميل النفوس اليه وان الحلم عز وزين وان

السفه ذل وشين (روى) أبو سعيد الخدرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما ازداد رجل بعفو الا عزا فاعفوا يعزكم الله (وقال) بعض الحكماء من تذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته فى ظلم عباده (وكتب) بعض ملوك الفرس كتابا ودفعه الى وزيره وقال له اذا غضبت فتأول فيه وفيه مكتوب مالك وللغضب انما أنت بشر ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء (وكان) معاوية كثيرا ما ينشد

انا اذا مالت دواعى الهوى * وانصت السامع للقائل
واعتلج الناس بألبابهم * نقضى بحكم عادل فاصل
نخاف أن تسفه احلامنا * فنحمل الدهر مع الحامل

(وقال) بعض الحكماء اياك وعزة الغضب فانها تفضى الى ذلة العذر وقال الشاعر

واذا ما اعترتك فى الغضب العزة فاذكر تذلل الاعتذار

وقال غيره

زررنا على غير الفواحش قصنا * ولم نستجز الا الذى هو أجوز

(وقال) عبد الله بن مسلم بن محارب لهرون الرشيد يا أمير المؤمنين أسألك بالذى انت بين يديه أذل منى بين يديك وبالذى هو أقدر على عقابك منك على عقابى لما عفوت عنى فعفا عنه لما ذكره قدرة الله عليه (وقال) رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان فى أسارى ابن الاشعث ان الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله تعالى ما يحب من العفو (وقال) المأمون لعمه ابراهيم بن المهدى وكان مع أخيه عليه انى شاورت فى أمرك فاشاروا على بقتلك الا انى وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك فقال يا أمير المؤمنين ان المشير اشار بما جرت به العادة فى السياسة الا انك أبيت ان تطلب النصر الا من حيث عودته من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وأنشا يقول

البر بى منك وطا العذر عندك لى * فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى * مقام شاهد عدل غير متهم

(وقال) بعض الحكماء الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم (ومنها) أن يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذلة الانتقام وشروع القصاص فى بدنه بين يدى من لا يرحمه فان ذلك مما يرده من الغضب

* (الباب الثلاثون فى الجود والسخاء وهذه الخصلة الجليل قدرها العظيم موقعها الشريف موردها ومصدرها) *

وهى احدى قواعد المملكة وأساسها وتاجها وجمالها تعنو لها الوجوه وتذل لها الرقاب وتخضع لها الجبابرة ويسترق بها الاحرار ويستمال بها الاعداء ويستكثر بها الاولياء ويحسن بها الثناء ويملك بها القرباء والبعداء ويسود بها فى غير عشائرهم الغرباء (وهذه) الخصلة بالعزائم الواجبات أشبه منها بالجمال والمتممات وكم قد رأينا من كافر ترك دينه والتزم دين الاسلام ابتغاء عرض قليل من الدنيا يناله وكم قد سمعنا من مسلم ارتد فى أرض الشرك افتتانا بيسير من عرض الدنيا واخلق بخصلة يترك لها الانسان دينه الذى يبذل دونه نفسه

أن تكون جليلة القدر عظيمة الخطر وأحوج خلق الله اليها افقرهم الى عطف القلوب عليه وصرف الوجوه اليه وهم الملوك والولاة (واعلموا) يامعشر من وسع الله عليه دنياه واسبغ عليه آلاءه ونعماه انه ليس فى الجنة لاوحسبك بكلمة لاتدخل الجنة سقوطا رضعة وانما اسست الجنة على ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين (وهذه) الخصلة أعنى الكرم والجود والسخاء والايثار بمعنى واحد يوصف البارى تعالى بالجود ولايوصف بالسخاء كما يوصف بالعلم ولايوصف بالعقل لعدم التوقف (وحقيقة) الجود هى أن لايصعب عليه البذل ويقال السخاء هو الرتبة الاولى ثم الجود ثم الايثار فمن أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الاكثر فهو صاحب جود ومن آثر غيره بالحاضر وبقى هو فى مقاساة الضر فهو صاحب ايثار (قال) ذوالنون بداية السخاء أن تسخو نفسك بما فى يديك ونهايته أن تسخو نفسك بما فى أيدى الناس وان لاتبالى من كل الدنيا (وتذاكر) قوم من الزهاد عند رابعة العدوية فجعلوا يذمون الدنيا ويكثرون من ذلك فقالت رابعة من أحب شيأ أكثر من ذكره وأصل السخاء هو السماحة وان يؤتى مايؤتيه من طيبة نفس (وقد يكون) المعطى بخيلا اذا صعب عليه البذل والممسك سخيا اذا كان لايستصعب العطاء وان منع ولهذا قال علماؤنا ان الله تعالى لم يزل جوادا وان لم يقع منه عطاء فى الازل لان العطاء فعل والفعل فى الازل مستحيل (وقالت) الحكماء أيها الجامع لاتخدعن فالمأكول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو وقال الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (قال) أبوهريرة رضى الله عنه جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى جائع فاطعمنى فبعث النبى صلى الله عليه وسلم الى أزواجه فقلن والذى بعثك بالحق ماعندنا الا الماء فقال النبى صلى الله عليه وسلم ماعند رسول الله مايطعمك الليلة ثم قال من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله فقال رجل من الانصار أنا يارسول الله فحمله الى منزله وقال لاهله هذا ضيف النبى صلى الله عليه وسلم فاكرميه ولاتدخرى عنه شيأ فقالت ماعندنا الاقوت الصبية فقال قومى فعللیهم عن قوتهم حتى ينام واثم أسرجى وابرزى فاذا أخذ الضيف يأكل قومى كأنك تصلحين السراج فأطفئيه وتعالى نمضغ ألسنتنا الضيف النبى صلى الله عليه وسلم فتعللت وجعلا يمضغان ألسنتهما والضيف يظن أنهما يأكلان وباتا طاويين فلما أصبحوا ونظر النبى صلى الله عليه وسلم اليهما تبسم ثم قال لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة ونزلت ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة الآية (وقال) أنس اهدى لبعض الصحابة رأس شاة مشوية وكان مجهودا فوجه به الى جاره فوجه به الجار الى أهل بيت آخر فتداولته سبعة أبيات حتى عاد الى الاول فنزلت ويؤثرون على انفسهم (وقال) حذيفة العدوى انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شئ من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته فاذا أنا به بين القتلى فقلت أسقيك فاذا رجل يقول آه فاشار ابن عمى ان انطلق اليه فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع آخر يقول آه فاشار هشام أن انطلق اليه بشئته فاذا هو قد مات ثم رجعت الى هشام فوجدته قد مات ثم رجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات (وروت) عائشة رضى الله عنها قالت قال النبى صلى الله عليه وسلم السخى قريب من الله

قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة والجاهل السخي احب الى الله من العابد البخيل (وروى) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن آدم انما لك من مالك ما اكلت فافنيت أو لبست فأبليت أو اعطيت فامضيت (واعلم) ان السخاء على وجوه سخاء في الدين وسخاء في الدنيا فالسخاء في الدنيا البذل والعطاء والايثار وسماحة النفس قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وعلامته ترك الادخار وبغض جمع المال وتعاهد الاخوان مسرورا قلبه بذلك والسخاء في الدين ان تسخو نفسك أن يتلفها الله تعالى وتريق دمك في الله سماحة من غير كراهة لا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا وان كنت غير مستغن عن الثواب لان الغالب على قلبك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله تعالى حتى يفعل الله بك ما الاحسن أن تختاره لنفسك (وقيل) لعمر بن الخطاب رضي الله عنه من السيد قال الجواد اذا سئل والحليم اذا استجهل والكريم المجالسة لمن جالسه الحسن الخلق لمن جاوره (وقال) النعمان بن المنذر يوما لجلسائه ممن أفضل الناس عيشا وانعمهم بالا واكرمهم طباعا وأجلهم في النفوس قدرا فسكت القوم فقال فتى ابيت اللعن أفضل الناس من عاش الناس في فضله قال صدقت (وقال) الحسن باع طلحة بن عثمان أرضا بسبعمائة ألف درهم فلما جاءه المال قال ان رجلا يبيت هذا عنده لا يدري ما يطرقه لغرير بالله ثم جعل رسوله يختلف حتى قسمها وما أصبح عنده منها درهم (وكان) أسماء بن خارجة يقول ما أحب ان ارد أحدا عن حاجة لانه ان كان كريما أصون عرضه وان كان لئيما اصون عنه عرضي (وكان) مروان المحلي يتلطف في ادخال الرفق على اخوانه فيضع عند أحدهم الف درهم ويقول امسكوها حتى أعود اليكم ثم يرسل اليهم أنتم منها في حل (وقال) العتبي أعطى الحكم بن عبد المطلب جميع ما يملكه فلما نفد ما عنده ركب فرسه وأخذ رمحه يريد الغزو ومات بمنبج فاخبرني رجل من أهل منبج قال قدم علينا الحكم وهو مملق لا شئ معه فاغنانا قيل كيف أغناكم وهو مملق فقال ما اغنانا بمال ولكنه علمنا الكرم فعاد بعضنا على بعض فاستغنينا وكرم العرب في الاسلام طلحة بن عبيد الله جاءه رجل فسأله برحم بينه وبينه فقال هذا حائط بمكان كذا وكذا وقد أعطيت به سبعمائة ألف درهم براح بالمال الى العشية فان شئت فالمال وان شئت فالحائط (ويروى) ان رجلا بعث الى حنظلة بجارية فوافقه بين أصحابه فقال قبيح ان آخذها لنفسي وأنتم حضور واكره ان اخص بها واحدا منكم وكلكم له حق وحرمة وهذه لا تحتمل القسمة وكانوا ثمانين رجلا فأمر لكل واحد منهم بجارية أو وصيف (وقيل) لقيس بن عاصم هل رأيت قط أسخى منك قال نعم نزلنا بالبادية على امرأة فخضرز وجها فقالت له انه نزل بك ضيفان فجاء بناقة فنحرها وقال شأنكم فلما كان الغد جاء باخرى ونحرها وقال شأنكم فقلنا ما اكلنا من التي نحرت البارحة الا اليسير فقال اني لا اطعم أضيافي القاتت فاقمنا عنده اياما والسماء تمطر وهو يفعل كذلك فلما اردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة اعتذري لنا منه وهو نائم فلما ارتفع النهار اذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام اعطيتموني ثمن القرى ثم انه لحقنا وقال لتأخذونها والا طعنتكم برمحي فاخذناها وانصرف (وقال) ميمون بن مهران من طلب مرضاة الاخوان بشئ فليتعهد أهل القبور

(وقال)

(وقال) ابن عباس لا يتم المعروف الا بثلاثة تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته هنأه واذا صغره فقد عظمه واذا ستره فقد تممه (وقال) الحسن كان احدهم يشق ازاره لاخيه بنصفين (وقال) المغيرة في كل شئ سرف الا في المعروف (وقيل) للحسن بن سهل لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير فقلب اللفظ واستوفى المعنى ونظمه محمد بن حازم فقال

لا الفقر عار ولا الغنى شرف * ولا مضاء في طاعة سرف
مالك الاشئ تقدمه * وكل شئ أخرته تلف

* واما طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي المعروف بطلحة الطلحات وانما سمي بهذا الاسم لانه كان عظيم البذل في كل وجه وكان يبتاع الرقاب فيعتقها وكان كل معتق يولد له ولد ذكر سماه طلحة فبلغ عددهم ألف رجل كل يسمى طلحة فسمي طلحة الطلحات ثم ولي سجستان وفيه يقول الشاعر

نضر الله اعظما دفنوها * بسجستان طلحة الطلحات

فقد بلغه ان معلمه كان في الكتاب بالحجاز قد قعد به الدهر فارسل اليه مع غلامه مائة ألف فقال سلمها اليه فان يكن مات وله ولد فادفعها الى ولده وان لم يكن له ولد ففرقها على قومه فوافقه الرسول قد مات ولم يعقب ففرقها في قومه (وقال) زيد بن أسلم وكان من الخاشعين يا ابن آدم أمرك الله أن تكون كريما وتدخل الجنة ونهاك أن تكون لئيما وتدخل النار (وقال) حكيم بن حزام ما اصبحت قط صباح أربيا بي طالب حاجة الا عددتها مصيبة أرجو ثوابها (ولما) مات وجد عليه مائتا ألف دينار ووجد مكتوبا على حجر انتهز الفرص عند امكانها ولا تحمل على نفسك هم مالم يأتك * واعلم ان تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك فكم من جامع لبعل حليلته (وقال) علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما جمعت من المال فوق قوتك فانما أنت فيه خازن لغيرك (وروى) مالك في الموطا ان مسكينا سال عائشة وهي صائمة وليس في بيتها الا رغيف فقالت لمولاة لها اعطيه اياه فقالت ليس لك ما تفطرين عليه فقالت اعطيه اياه ففعلت فلما امست أهدى لها أهل بيت شاة وكفنها يعني ملفوفة بالزعفران فقالت لي عائشة كلي هذا خير من قرصك (وقال) عبد الله بن عمر ما كان أحدنا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يحسب ان له في الفضل شيا (وقال) الحسن كانوا يعدون البخيل من يقرض أخاه الدرهم (ومن عجائب) ما روى في الايثار ما ذكره أبو محمد الازدي قال لما احترق المسجد بمصر وظن المسلمون ان النصارى أحرقوه فاحرقوا اخانا لهم فقبض السلطان جماعة من الذين أحرقوا الخان وكتب رقاعا فيها القتل وفيها القطع وفيها الجلد ونثرها عليهم فمن وقعت عليه رقعة فعل به ما فيها فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال ما كنت أبالي لولا أم لي وكان بجانبه بعض الشبان فقال له في رقعتي الجلد وليست لي أم فادفع الي رقعتك وخذ رقعتي ففعلا فقتل ذاك وتخلص هذا (وحكى) ان أبا العباس الانطاكي اجتمع عنده ضيف وعمانون رجلا بقرية بقرب الري ولهم أرغفة لم تسع جميعهم فكسروا الرغفان واطفؤا السراج وجلسوا للطعام الى أن كفوا فلما رفع اذا الطعام بحاله لم يأكل منه واحد منهم ايثارا لصاحبه على نفسه (وروى) انه اجتمع بالرملة جماعة من ارباب القلوب فحضر طبق فيه تينتان وقد غسق الليل فكان الواحد يمد يده فاذا ظفر بحبة حضرم يأكلها وان ظفر بطيب دفعه الى صاحبه وليأكله فلما رفع الطبق اذا الطيب كله في الطبق لم يأكلوا

منه شيأ (وقال) بعض الرواة دخلت على بشر الحافى فى يوم شديد البرد وقد تعرى من الثياب فقلت يا ابا نصر الناس يزيدون الثياب فى مثل هذا اليوم وانت تنقص فقال ذكرت الفقراء وما هم فيه ولم يكن لى ما واسيهم به فاردت ان أرافقهم بنفسى فى مقاساة البرد (وقال) الاستاذ ابو على لما سعى غلام خليل بالصوفية الى الخليفة بالزندقة أمر بضرب أعناقهم فاما الجنيد فانه تستر بالفقه وكان يفتى على مذهب ابى ثور واما الشحام والرقام والنورى وجماعة فقبض عليهم وبسط النطع لضرب اعناقهم فتقدم النورى أمامهم فقال له السياف اتدرى لماذا تتقدم وتسابق قال نعم قال وماذا يعجلك قال أوثر أصحابى بحياة ساعة فتحير السياف واتى الخبر الى الخليفة فردهم الى القاضى ليتعرف حالهم فالقى القاضى على أبى الحسن النورى مسائل فقهية فاجاب عن الكل ثم أخذ يقول ان لله عبادا اذا قاموا قاموا بالله واذا نطقوا نطقوا بالله وسرد الفاظا حتى أبكى القاضى فأرسل الى الخليفة وقال ان كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الارض مسلم (ولما) مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ اخوانه فى العيادة فسأل عنهم فقال انهم يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع الاخوان من الزيارة ثم أمر مريناديا من كان لقيس عنده مال فهو منه فى حل فكسرت عتبة بابه بالعشى لكثرة العواد (ويروى) ان عبد الله بن جعفر وكان أحد الاجواد خرج الى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيها غلام اسود يقوم عليها فاتى بقوته ثلاثة أقراص ودخل كلب ودنا من الغلام فرمى اليه بقرص فاكله ثم رمى اليه بالثانى والثالث فاكلهما وعبد الله ينظر فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال مارأيت قال فلم آثرت هذا الكلب قال ماهى بأرض كلاب وانه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت رده قال فما أنت صانع اليوم قال أطوى يومى هذا قال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء وهذا أسخى منى فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فاعتق الغلام ووهب ذلك له (وقال) النورى رأيت محمد بن سوقة بالغداة صاحب مائة ألف وبالعشى سالناله من أصحابه خبزة (وقال) أبو عبد الرحمن دخل أبو عبد الله الروذبارى الى دار بعض أصحابه فوجده غائبا وهناك بيت مقفل فكسر القفل وأمر بجميع ما وجد فيه من المتاع فانفذوه الى السوق فباعوه وأصلحوا به وقتا من الثمن فجاء صاحب الروذبارى فلم يقل شيأ فدخلت امرأته بعدهم الدار وعليها كساء فدخلت بيتا ورمت بالكساء وقالت يا أصحابنا هذا أيضا من جملة المتاع فبيعوه فقال زوجها لم تكلفت هذا باختيارك فقالت اسكت مثل هذا الشيخ يباسطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شئ ندخره عنه (واما) عبد الملك بن بحر فورث خمسة آلاف درهم فبعث بها الى اخوانه صررا وقال ما كنت لأسأل لاخوانى الجنة فى صلاتى وابخل عليهم بحلالى (ويروى) ان الاشعث بن قيس ارسل الى عدى بن حاتم يستعير منه قدورا كانت لابيه حاتم فلأها وبعث بها اليه وقال انا لانعيرها فارغة (وقال) بزرجمهر لا عز اثبت اركانا ولا أبذخ بنيانا من بث الكرم واكتساب الشكر وذلك أن عز التعظيم بالفعل الجميل باق فى قلوب الرجال ومن تحصن بالجود وتحرز بالمعروف فقد ظفر بمن ناواه وربح الشكر والثواب (ويروى) ان عبد الله بن أبى بكر وكان أحد الاجواد عطش يوما فى طريقه فاستسقى من منزل امرأة فاخرجت كوزا وقامت خلف الباب وقالت تنحوا عن الباب وليأخذه بعض غلمانكم فانى امرأة من العرب مات زوجى منذ أيام

فشرب عبد الله وقال يا غلام احمل اليها عشرة آلاف فقالت سبحان الله تسخر بي فقال يا غلام احمل اليها عشرين ألفا فقالت أسأل الله العافية فقال يا غلام احمل اليها ثلاثين ألفا فقالت أف لك فحمل اليها ثلاثين ألف درهم فما أمست حتى كثر خطابها (وقال) بعض الرواة قصد رجل الى صديق له فدق عليه الباب فلما خرج قال ما حاجتك قال أربعمائة درهم على دين فدخل الدار وأخرجها اليه ثم دخل الدار باكيا فقالت له امرأته هلا تعللت حين شقت عليك الاجابة قال انما أبكي لاني لم أتفقد حاله حتى احتاج الى مكاشفتي (وقال) أكثم بن صيفي صاحب المعروف لا يقع فان وقع وجد متكأ (وقال) الفضيل ما كانوا يعدون القرض معروفا (ويروى) عن امرأة من المتعبدات انها قالت لحبان بن هلال وهو في جماعة من أصحابه ما السخاء عندكم قال البذل والايثار قالت فما السخاء في الدين قال أن تعبدي الله تعالى سخية به نفسك غير مكرهة قالت أفتريدون على ذلك جزاء قالوا نعم لان الله تعالى وعد على الحسنة بعشر امثالها قالت فاذا اعطيتم واحدة وأخذتم عشرا فأي شيء خيتم به وانما السخاء أن تعبدوا الله تعالى متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين لا تريدون بذلك اجرا ألا تستحيون ان يطلع على قلوبكم فيعلم منها انها تريد شيأ بشيء (وقالت) بعض المتعبدات لبعض المتعبدين أتظن السخاء في الدينار والدرهم فقط انما السخاء في بذل مهج النفوس لله تعالى (وقال) أبو بكر الدقاق وليس السخاء ان يعطي الواجد المعدم انما السخاء ان يعطي المعدم الواجد (وقال) الشيخ ابو عبد الرحمن كان الاستاذ أبو سهل الصعلوكي من الاجواد لم يكن يتناول احدا شيأ بيده وانما كان يطرحه على الارض فيتناوله الآخذ من الارض وكان يقول الدنيا أقل خطرا من ان يرى من اجلها يدي فوق يد أخرى وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى وكان يتوضأ يوما في صحن داره فدخل عليه انسان وسأله شيأ ولم يحضره شيء فقال اصبر حتى أفرغ فلما فرغ قال خذ القمقمة واخرج فلما خرج وعلم انه بعد صاح وقال دخل انسان وأخذ القمقمة فشوا خلقه فلم يدركوه وانما فعل ذلك لانهم كانوا يلومونه على البذل (وفي معناه قال الشاعر)

ملأت يدي من الدنيا مرارا * فطامع العواذل في اقتصادي

ولا وجبت علي زكاة مال * وهل تجب الزكاة على جواد

(وكان) أبو مرثد أحد الكرام فمدحه بعض الشعراء فقال ما عندي ما أعطيك ولكن قدمني الى القاضي وادع علي عشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها ثم احبسني فان أهلي لا يتركونني محبوسا ففعل ذلك فلم يعبأوا حتى دفع اليه عشرة آلاف درهم (وقال) زياد بن جرير رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس وانه ليخيط أزراره بيده (ولما) دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها يا أم المؤمنين اصابني فاقة فقالت ما عندي شيء فلو كانت عندي عشرة آلاف لبعثت بها اليك فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف من عند خالد بن أسيد فارسلت بها في أثره فاشترى جارية بالف درهم فولدت له ثلاثة أولاد فكانوا عباد المدينة محمد وأبو بكر وعمر بنو المنكدر (وقال) يحيى بن معين كان جرير بن يزيد في دار المطلب فجاء انسان يسأله فقال للغلام اذهب الى الجواري فقل لهن من أراد منهن ان تصبغ ثيابها فلتبعث بها فجاء الغلام بثياب كثيرة فقال للسائل خذها (وقال الاصمعي) كانت حرب حرب بالبادية ثم انتقلت بالبصرة

فتفاقم الامر فيها حتى مشى بين الناس بالصلح فاجتمعوا في المسجد الجامع قال فبعثت وأنا غلام الى ضرار بن القعقاع بن حازم فاستأذنت عليه فاذن لي فاذا هو عليه شملة يخبط نوى لعنزله حلوب فخبرته بمجتمع القوم فأمهل حتى أكلت العنز ثم غسل القصعة وقال يا جارية غدينا فأتته بزيت وتمر قال فدعاني فقذرته أن آكل معه حتى اذا قضى من أكله حاجته وثب الى طين ملقى في الدار فغسل به يده ثم صاح بالجارية فقال اسقني ماء فأتته بماء فشرب به ومسح فضله على وجهه ثم قال الحمد لله ماء الفرات بقرب البصرة بزيت الشام متى نؤدي شكر هذه النعم ثم قال على بردائي فأتته برداء عدني فارتدى به على تلك الشملة قال الاصمعي فتجافيت عنه استقبالا حاليه فدخل المسجد وصلى ركعتين ومشى الى القوم فلم تبق حبوة الا حلت اعظاما له ثم جلس فتحمل ما كان بين الاحياء من الديات في ماله وانصرف (وكان) البهلول بن راشد الفقيه لما سجن يعطى كل يوم السجان دينارا فاستكثره أصحابه وكلموه في ذلك فقال لهم حفص بن عمارة سمعت سفيان الثوري يقول اذا كذل صدق الصادق لم يملك ما في يديه فخر بهلول على يديه وقبلها وجعل يقول سألتك بالله أنت سمعته يقول هذا فحلف بالله لقد سمعته يقوله (وقال الشاعر)

ذريني أكن للمال ربا ولا يكن * لي المال ربا تحمدي غبه غدا
أريني جوادا مات هزلا لعلني * أرى ما تريني أو بخيلا مخلدا

(وكان) عبد الله بن ابي بكر ينفق على أربعين دارا من جيرانه عن يمينه واربعين عن يساره واربعين امامه واربعين خلفه ويبعث اليهم بالاضاحي والكسوة في الاعياد ويعتق في كل عيد مائة مملوك واشترى يوما جارية بعشرة الاف فطلب دابة يحملها عليها فقال رجل هذه دابتي فقال احملوها على دابته الى داره (وقال عبد الله بن زهير)

وعاذلة تخشى الردى أن يصيبني * تروح وتغدو باللامة والقسم
تقول هلكنا ان هلكت وانما * على الله ارزاق العباد كما زعم
واني احب الخلد لو أستطيعه * وكالخلد عندي أن أموت ولم ألم

(وروي) ان اعرابيا قدم على علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقال يا امير المؤمنين لي اليك حاجة الحياء يمنعني أن اذكرها قال فخطها في الارض فخط في الارض اني فقير فقال لغلامه يا قنبر اكسه حلتي فكساه الحلة فقال

كسوتني حلة تبلى محاسنها * فسوف اكسوك من حسن الثنا حللا
ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه * كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
ان نلت حسن ثناء نلت مكرمة * لا تبغين بما قد نلته بدلا
لا تزهدن الدهر في عرف بدأت به * كل امرئ سوف يجزى بالذي فعلا

قال علي زده مائة دينار فاعطاه اياها فلما ولى الاعرابي قال قنبر يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لاصلحت بها من شأنهم فقال مه يا قنبر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اشكروا لمن اثنى عليكم واذا أتاكم كريم قوم فاكرموه (وقال) مطرف بن الشخير اذا اراد أحدكم مني حاجة فليرفعها في رقعة فاني اكره ان ارى في وجهه ذل الحاجة (قرئ) على القاضي أبي الوليد وأنا اسمع

وآمر بالبخل قلت لها اقصري * فليس اليه ما حييت سبيل

ارى الناس خلان الكرام ولا ارى * بخيلا له فى العالمين خليل
وانى رأيت البخل يزرى باهله * فأكرمت نفسى أن يقال بخيل
ومن خير حالات الفتى لو علمته * اذا نال خيرا أن يكون ينيل

(ولعروة بن الورد)

وانى امرؤ عافى اناتى شركه * وانت امرؤ عافى انائك واحد
اتضحك منى أن سمنت وأن ترى * بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة * واحسو قراح الماء والماء بارد

(وقال) بعض الحكماء أصل المحاسن كلها الكرم وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما ملكت على الخاص والعام وجميع خصال الخير من فروعه (وروى) انه كان عند البهلول بن راشد طعام فغلا السعر فامر به فبيع له ثم أمر ان يشترى له ربع القفيز فقيل له تبيع وتشترى يقال نفرح اذا فرح الناس ونحزن كما حزنوا (ولبعض حاتم طى فقال)

لعمرى لقد ما عضنى الجوع عضة * فقلت أن لا أمنع الدهر جائعا
فقولا لهذا اللائم الآن أعفنى * فان أنت لم تستطع فعض الاصابعا
فهل ما ترون الآن الا طبيعة * فكيف بستركى يا ابن أم الطبائعا

(وقال آخر)

أصون عرضى بمالى لا أدنسه * لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال ان أودى فأجمعه * وليس للعرض ان اودى بمحتال

(ويروى) ان رجلا سأل الحسن بن على رضى الله عنه شيأ فاعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار وقال ائت بجمال يحمله لك فاتاه بجمال فاعطاه طيلسانه وقال يكون كراء الجمال من قبلى (ويروى) ان الليث بن سعد سألته امرأة سكرجة عسل فامرلها برزق عسل فقيل له فى ذلك فقال انها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر نعمتنا (وروى) ان رجلا استضاف لعبد الله بن عامر بن كريز فلما اراد الرجل ان يرتحل لم يعنه غلمانه فسئل عن ذلك فقال عبد الله انهم لا يعينون من ارتحل عنا (وفى معناه يقول المتنبى)

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا * أن لا تفارقهم فالراحلون هم

(الباب الحادى والثلاثون فى بيان الشح والبخل وما يتعلق بهما)

الشح فى كلام العرب البخل ومنع الفضل * كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم انى أعوذ بك من شح نفسى واسرافها ووسواسها (وروى) جابر أن النبى عليه السلام قال اتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا الدماء واستحلوا محارمهم وقد فرق بينهما مفرقون فقالوا الشح أشد من البخل فان البخل أكثر ما يقال فى النفقة وامساكها قال الله تعالى سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وقال تعالى ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه وقال تعالى فى الشح أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا وقال تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون فالشح يبقى على الكرازة والامتناع فهو يكون فى المال وفى جميع منافع البدن (وقال) ابن عمر ليس الشح أن يمنع الرجل ماله وانما الشح ان يطمع فيما ليس له ولهذا قال ابن المبارك سخاء

النفس عما فى ايدى الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل (وقال) رجل لابن مسعود انى أخاف ان أكون قد هلكت سمعت الله تعالى يقول ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وانا رجل شحيح لا يكاد ان يخرج من يدى شئ فقال له ابن مسعود هذا ليس بالشح الذى ذكره الله تعالى فانه أن تأكل مال أخيك ظلما ولكن ذلك البخل وبئس الشئ البخل ففرق بينهما كما ترى (وقال) ابن عباس الشح أن يتبع هواه فلم يقبل الايمان وقال طاوس الشح ان يبخل المرء بما فى ايدى الناس والبخل ان يبخل بما فى يديه (وروى) أنس ان النبى عليه الصلاة والسلام قال برئ من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف واعطى فى النائبة (وقال) ابن زيد من لم يأخذ شيأ نهاه الله عنه ولم يدعه الشح الى ان يمنع شيأ أمر الله به فقد وقاه شح نفسه (وقال) أبو التياح الاسدى رأيت رجلا فى الطواف يقول اللهم قنى شح نفسى لا يزيد على ذلك شيأ فسألته عن ذلك فقال اذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل شيأ يكرهه الله تعالى واذا الرجل عبد الرحمن بن عوف (واعلم) ان البخل يكون من سوء الظن بالله أن لا يخلف ولا يثيب وهذا يوهن التصديق بما تكفل الله به ويطرق الخلل والامتناع الى جميع الاوامر بين العبد وبين الخالق وبين العبد وبين الخلق فى ترك معاونتهم والنصح لهم (وقال) كسرى لاصحابه أى شئ أضر بابن آدم قالوا الفقر فقال كسرى الشح أضر من الفقر لان الفقير اذا وجد اتسع والشحيح لا يتسع أبدا ولما قدم الشافعى من صنعاء الى مكة كان معه عشرة آلاف دينار فقالوا له تشترى بها ضيعة فضرب خيمته خارج مكة وصب الدنانير فكل من دخل عليه كان يعطيه قبضة قبضة فلما جاء وقت الظهر قام ونفض الثوب ولم يبق شئ (ولما) قربت وفاته قال مروا فلانا يغسلنى وكان الرجل غائبا فلما قدم اخبر بذلك فدعا بتذكرته فوجد عليه سبعين ألف درهم دينا فقضاها وقال هذا غسلى اياه (وروى) ان رجلا أراد ان يؤذى عبد الله بن عباس فاتى وجوه البلد وقال يقول لكم ابن عباس تغدوا اليوم عندى فاتوه فملؤا الدار فقال ما هذا فاخبر الخبر فامر ان تشترى الفواكه فى الوقت وامر بالخبز والطبيخ فاصلح القرى فلما فرغ قال لو كلفته أمورا وجود لنا هذا كل يوم قالوا انهم قال فليتغد هؤلاء كلهم كل يوم عندنا * ومن الخصال الجارية مجرى الكمال والجمال ولعلها من الاصول الصبر

(الباب الثانى والثلاثون فى الصبر)

الصبر زمام سائر الخصال وزعيم الغنم والظفر وملاك كل فضيلة وبه ينال كل خير ومكرمة قال الله تعالى وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فعظم وظائف الدين ذكر الله ورسوله جزاء معلوما لمن أقامها الا الصبر فانه بغير حساب وقال تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا قيل عن الدنيا وقال ابن عيينة لما أخذوا برأس الامر جعلهم الله رؤساء وقال تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون وقال تعالى قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون وقال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ثم ندبهم الى الصبر مع وجود الاذى فقال وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور فالصبر حبس النفس على الاوامر والمكاره وعن النواهى والمعاصى الا ترى ان أهل الجنة لما دوا فقيل لهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار فاخبر الله تعالى انه أثابهم جنته ببصبرهم يعنى صبرتم على

طاعة الله وصبرتم عن معصية الله قال الله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي اى احبس نفسك الآية فمن امارات حسن التوفيق وعلامات السعادة الصبر في الملمات والرفق عند النوازل (وفيما يروى) ان الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام يا داود من صبر علينا وصل الينا (وقال) سفيان بلغنا ان لكل شئ ثمرة وثمرة الصبر الظفر قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون فعلق الفلاح على الصبر والتقوى يعني اصبروا على ما فرض الله عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه قولان قيل رابطوا على الجهاد والثاني رابطوا على انتظار الصلوات بدليل ما روى ابو هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط (وقال) الحسن في قوله تعالى واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال ابتلاه بالكوكب فصبر وابتلاه بذبح ابنه فصبر وقال سبحانه وتعالى استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم قال قولا عظيما فجعل نفسه مع الصابرين دون المصلين وقال النبي عليه الصلاة والسلام للانصار ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر (وقال ابن مسعود) قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسما فقال رجل من الانصار والله انها لقسمة ما أريد بها وجه الله فاخبرت النبي عليه الصلاة والسلام فشق عليه وتغير وجهه وغضب حتى وددت اني لم أكن أخبرته ثم قال قد اوذي موسى باكثر من هذا فصبر (وروى) ان النبي عليه الصلاة والسلام مر على امرأة تبكي عند قبر فقال لها اتقي الله واصبري فقالت اليك عني فانك لم تصب بمثل مصيبتي فلما قيل لها هذا رسول الله جاءت اليه تعتذر انها لم تعرفه وقالت ما أصبر فقال النبي عليه الصلاة والسلام انما الصبر عند الصدمة الاولى ويحتمل هذا الحديث وجهين اما الطابني فقال معناه ان الصبر المحمود عند أول نزول المصيبة وقد فاتك بالجزع واما القابسي فقال معناه ان الصدمة الاولى وقت امرها النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر وكان هذا تعليما لكل من فاته الصبر بذهول أو نسيان او غلبة (ويروى) ان النبي عليه الصلاة والسلام سئل عن الايمان فقال الصبر والسماحة (وفي منثور الحكم) قالت الصحة انا لاحقة بارض المغرب قال الجوع وأنا معك قال الايمان انا لاحق بارض الحجاز قال الصبر أنا معك قال الملك أنا لاحق بارض العراق قال الفتك انا معك (واعلم) ان العجلة خرق ومخرجها من قلة العقل والخرق من ذلك التفريط في الامر بعد القدرة ومثل ذلك كالقدر على النار ان كان ماؤه قليلا غلت بيسير من النار وان كان عملوءة لم تغل حتى تكثر نارها وتطول مدتها وفي كتاب جاويدان خرد وليس للعجم كتاب مثله قال محرم على السامع تكذيب القائل الا في ثلاث من غير الحق صبر الجاهل على مضض المصيبة وعاقل ابغض من أحسن اليه وحماة أحبت كنة

(فصل) واعلم ان الصبر على أقسام صبر على ما هو كسب للعبد وصبر على ما ليس بكسب فالصبر على الكسب على قسمين صبر على ما امر الله تعالى به وصبر على ما نهى الله عنه فاما الصبر على ما ليس بكسب للعبد فكصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله تعالى فيما له فيه مشقة وينقسم

من وجه آخر على أربعة اقسام فاول اقسامه وأولاها الصبر على امتثال أمر الله سبحانه والانتهاء عما نهى عنه والثانى الصبر على ما فات ادراكه من مسرة أو تقضت أوقاته من مصيبة والثالث الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة يرجوها أو يخشى حدوثه من رهبة يخافها والرابع الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من امر مخوف وجميع أقسامه محمود بكل لسان وفى كل ملة وعند كل امة مؤمنة او كافرة (وقال اكثم بن صيفى) من صبر ظفر (وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه) الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو (وقال اردشير) الصبر الدرك (وقال) عليه الصلاة والسلام الصبر ضياء والصبر يقع الفرج (وقال) عليه الصلاة والسلام الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب (وقال ابن عباس) افضل العدة الصبر عند الشدة (وقال عبد الحميد الكاتب) لم اسمع اعجب من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو كان الصبر والشكر مطيتين ما باليت ايهما ركبت (وقال) بعض الحكماء بالصبر على مواقع المكروه تدرك الحظوظ (وقال) ابن المقفع فى كتاب اليتيمة الصبر صبران فالتام اصبر اجساما والكرام اصبر نفوسا وايمن الصبر الممدوح صاحبه ان يكون قوى الجسد على الكد والعمل فان هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس غلوبا وللامور محتملا وبلباسه عند الحفاظ مرتبطا (وفى منثور الحكمة) من احب البقاء فليعد للمصائب قلبا صبورا (وقال) بزرجمهر لم ار ظهيرا على تنقل الدول كالصبر ولا مذلا للعباد كالتجمل ولا مكسبة للاجلال كتوقى المزاح ولا مجلبة للمقت كالاعجاب ولا متلفة للمروءة كاستعمال الهزل فى موضع الجد (فاما القسم الاول) وهو الصبر على امتثال اوامر الله تعالى والانتهاء عن محارمه فبه يصح اداء الفرائض واستكمال السنن ويدخل فى قوله تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب ولذلك قال على بن ابى طالب رضى الله عنه الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد (وقال الجنيد) الصبر من الدنيا سهل هين على المؤمن وهو الخلق فى جنب الله شديد والصبر من النفس الى الله شديد والصبر مع الله تعالى شديد وسئل عن الصبر فقال تجرع المرارة من غير تعبيس (وكان حبيب بن ابى حبيب) اذا قرأ هذه الآية انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب بكى ثم قال واعجباه اعطى وأثنى (وقال الخواص) الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة (وقال عبد الواحد بن زيد) من نوى الصبر على طاعة الله تعالى صبره الله تعالى عليها وقواه ومن عزم على الصبر عن معصية الله تعالى اعانه الله تعالى وعصمه منها (وقال عمر بن عبد العزيز) للقاسم بن محمد أوصنى فقال القاسم عليك بالصبر فى مواضع الصبر (وقال الحسن) الصبر صبران صبر عند المصيبة وصبر عما نهى الله عنه وهو الافضل وانما يختلف الصبر بالخوف والرجاء فان من خاف شيأ صبر على النار منه وصبر عند الكراهية لما يحذر من ضرره ومن رجا شيأ صبر على طلبه ليظفر به (واما القسم الثانى) وهو الصبر على ما فات ادراكه من مسرة أو تقضت أوقاته من مصيبة فانه يتجمل به الراحة مع اكتساب المثوبة فان صبر طائعا استراح واحرز الثواب وان لم يصبر حمل الهم والوزر (وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه) للاشعث بن قيس ان تجزع فقد استحق ذلك منك بالرحم وان تصبر ففى ثواب الله تعالى خلف من ابنك ان تصبر يجرى عليك القلم وأنت ماجور وان جزعت يجرى عليك القلم وأنت مأزور ونظمه أبو تمام فقال

وقال علي في التعازي لاشعث * وشاف عليه بعض تلك المآتم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة * فتؤجر أم تسلو سلوة البهائم
خلقنا رجالا للتجلد والعزا * وتلك الايامي للبكا والمآتم

(وقال عمر بن الخطاب) رضي الله عنه لرجل ان صبرت مضى امر الله وكنت مأجورا وان جزعت مضى امر الله وكنت مأزورا (وقال الحسن) والله لو كلفنا الجزع ما قنا به فالحمد لله الذي آجرنا على مالو نهانا عنه لصرنا اليه وعن هذا قالت الحكماء الجزع اتعب من الصبر في الجزع التعب والوزر وفي الصبر الراحة والاجر ولو صور الصبر والجزع لكان الصبر احسن صورة وأكرم طبيعة وكان الجزع اقبح صورة واخور طبيعة ولكان الصبر أولاهما بالغلبة لحسن الخلقة وكرم الطبيعة (وقال بعض العلماء) لو وكل الناس بالجزع للبؤا الى الصبر (وقال) شبيب بن شيبة للمهدي ان المرء أحق ما صبر عليه ما لم يجد سبيلا الى دفعه وأنشد

* واذا تصبك مصيبة فاصبر لها * عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

* (وقال آخر) *

وعوضت أجرا من فقيد فلا تكن * فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب

(وقال) بعض الحكماء لبعض مجموع له الرشد من تابع التلهف على فائت أو آكثر الفرح عند مستطرق (وقال) الحكيم ان كنت جازعا على ما تفلت من يديك فاجزع على ما لم يصل اليك ومن ايقن ان كل فائت الى نقصان حسن عزاؤه عند نزول القضاء (وقال الشاعر)

اذا طال بالمحزون أيام صبره * كساه ضنا طول المقام على الصبر
ولاشك ان الصبر يحمد غبه * ولكن انفاقي عليه من العمر

(وقال بعض القدماء) الصبر على أربع مراتب على الشوق والاشفاق والزهد والترقب فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار ورجع عن المحرمات ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات ومن راقب الموت اقصر عن الخطيآت (واما القسم الثالث) وهو الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة يرجوها أو يخشى حدوثه من رهبة يخافها فبالصبر والتلطف تدفع عادية ما يخاف وينال نفع ما يرجو (قال) النبي عليه السلام انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة (وقال محمد بن بشير)

ان الامور اذا اشتدت مسالكها * فالصبر يفتح منها كل ما ارتجا
لاتيأسن وان طالت مطالبه * اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا
اخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجته * ومدمن القرع للابواب ان يلجا

(وقال بعض الرواة) دخلت مدينة يقال لها ذفار فبينا انا اطوف في خرابها اذ رأيت مكتوبا على قصر خراب

يا من أناخ عليه الهم والفكر * وغيرت حاله الايام والغير
اما سمعت بما قد قيل في مثل * عند الاياس فاين الله والقدر
ثم للخطوب اذا أحداثها اطرقت * واصبر فقد فاز أقوام بما صبروا
فكل ضيق سيأتي بعده سعة * وكل فوت وشيك بعده الظفر

(وتحته مكتوب بخط آخر) لو كان كل من صبر اعقب الظفر صبرت ولكنا نجد الصبر في العاجل يفني العمر ويدني من القبر وما كان أصلح لذي العقل موته وهو طفل والسلام (قلت) لو رأيته لكتبت تحته في الصبر استجلاب الراحة وانتظار الفرج وحسن الظن بالله وايجر بغير حساب وفي الجزع استجلاب الهم ونهك البدن واستشعار الخيبة وسوء الظن بالله وحمل الاثم مع العقوبة وما أحسن بذي العقل اجتناب هذا والسلام (وقال بعض البلغاء) من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعماء (وقال الشاعر)

الصبر مفتاح كل خير * وكل شر به يهون
اصبر وان طالت الليالي * فربما ساعد الحرون
وربما تيل باصطبار * ما قيل هيهات لا يكون

(وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله) ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه صبرا الا كان ما عوضه أفضل مما انتزعه منه وقرأ انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (وروى) ان جارية كانت لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه تتصرف في حوائجه فكلما خرجت تصدى لها خياط كان يقرب داره علي ويقول لها والله اني لأحبك لله فلما اكثر من ذلك شكته الى علي فقال لها علي اذا قال لك مرة اخرى فقولي له والله اني لأحبك ما الذي تريد فعاد فقال لها ذلك فقالت له وانا والله احبك فيه فقال لها تصبرين واصبر حتى يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فرجعت الجارية واخبرت مولاها فدعا علي رضي الله عنه الخياط فوجد أمره على الصحة فوهبها له مع نفقة يستعين بها (وقال) علي رضي الله عنه الصبر كفيل بالنجاح والتوكل لا يخيبه والعاقل لا يذل بأول نكبة ولا يفرح بأول رفعة وكان يقال الصبر سلامة والطيش ندامة (واما القسم الرابع) وهو الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف فالصبر فيه تنفتح وجوه الآراء وتتوفى مكايد الاعداء قال الله تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا وقال تعالى واصبروا وما صبرك الا بالله وقال تعالى واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور * وروى ابن عباس ان النبي عليه السلام قال ان استطعت ان تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل وان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم ان النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب واليسر مع العسر (وقال علي رضي الله عنه) الصبر مناضل الحدثان والجزع من أعوان الزمان * وقال الحكيم مفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور (وانشدوا)

انما الجزع مما أتى * فاذا حل فعالي والجزع

ولما حبس ابو ايوب في الحبس خمس عشرة سنة ضاقت حيلته وقل صبره وكتب الى بعض اخوانه يشكو طول حبسه وقلة صبره فرد عليه جواب رقعته

صبرا أبا ايوب صبر مبرح * فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها
ان الذي عقد الذي انعقدت به * عقد المكاره فيك يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة * فلعلها أن تنجلي ولعلها *

فلما وقف عليها ابو أيوب كتب اليه

صبرتني ووعظتني فانالها * وستنجلي بل لا اقول لعلها

ويحلها من كان صاحب عقدها * كرما به اذ كان يملك حلها

فغالبت بعد ذلك الا اياما حتى اطاق مكرما (ولتميم بن المعز)

سأسكت صبرا واستبا فانني * ارى الصبر سيفا ليس فيه فلول
عذابي أن اشكو الى الناس أنني * عليل ومن اشكو اليه عليل
وان الذي يشكو الى غير نافع * ويسخو بما في نفسه لجهول

(وانشدوا)

دع الدهر يجري باقداره * ويقضي عجائب أوطاره
ونم نومة عن ولاة الامور * وخل الزمان بتدواره
فانك ترحم من قد غبطت * وتعجب من قبح آثاره

(وانشدني بعضهم)

ويمنعني الشكوى الى الناس أنني * عليل ومن اشكو اليه عليل
ويمنعني الشكوى الى الله أنه * عليم بما ألقاه قبل أقول

ولآخر

اذا ابتليت فثق بالله وارض به * ان الذي يكشف البلوى هو الله
الياس يقطع أحيانا بصاحبه * لا تيأسن فان الصانع الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته * ما للامرئ حيلة فيما قضى الله

وصرف من هذه اللفظة صابر وصبور وصبار ومتصبر فالمتصبر من صبر في الله على المكاره فتاره يعجز وتاره يصبر والصابر من لا يشكو ولا يعجز والصبار الذي لو دفع عليه جميع البلايا والمحن لم يتغير وجهه في الحقيقة وان تغير من وجهه الرسم والبشرية والخلقة كما قال القائل

صابرا الصبر فاستعان به الصـ * ـبر فصاح الصبور يا صبر صبرا

وهذا اقوى بيت قيل في الصبر واحسنه وقريب منه قول القائل

صبرت على الايام صبرا اصارني * الى ان ينادي الحال لا صبر للصبر

والصبور هو الثابت على هذه المقامات وقيل أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام تخلق باخلاقي وان من اخلاقي أني انا الصبور ويقال الصبر لله غنى والصبر بالله تقى والصبر في الله بلاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وأنشدوا

اذا لعب الرجال بكل شئ * رأيت الحب يلعب بالرجال
وكيف الصبر عمن حل مني * بمنزلة اليمين مع الشمال

وقال المحاسبي بين الصبر والتصبر حالة هي التنعم وذلك اذا رفع الله له علما من أعلام الآخرة يدله على منازل الصابرين عنده فيتنعم القلب بسرور النعيم وقال أبو محمد الجريري الصبر هو ان لا تفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما والصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان اثقال المحبة وأنشدوا

صبرت ولم أطلع هوى على صبري * واخفيت ما بي منك عن موضع السر
مخافة ان يشكو ضميري صبابتي * الى دمعتي سرا فتجري ولا ادري

وقيل للمحاسبي بماذا يقوى الصابر على صبره فقال اذا علمت ان في صبرك رضا مولاك اما سمعت قول الحكيم

رضيت وقد ارضى اذا كان مسخطى * من الامر ما فيه رضا صاحب الامر
وفى معناه ساصبر كى ترضى وأتلف حسرة * وحسبى ان ترضى ويتلفنى صبرى
قال شيخنا وثكلك لمن يحبه أعظم من ثكلان لنفسك هذا أيوب لما أصيب بنفسه قال مسنى الضر ويعقوب لما أصيب بحبيبه قال واأسفا على يوسف قال احمد قال لى أبو سليمان الدارانى اتدرى بماذا أزال العقلاء اللائمة عمن اساء اليهم قلت لا قال لعلمهم بان الله تعالى ابتلاهم بذلك فصبروا ويروى ان الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه اذا أنزلت بعبدى بلائى فدعانى فعاطلته بالاجابة فشكانى فقلت عبدى أرحمك من شئ به ارحمك وقيل فى قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذى لا شكوى فيه ولا بث قال أنس ما صبر من بث وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تستعزروا الدموع بالتذكر وقال الشاعر * ولا يبعث الاحزان مثل التذكر * ومما يعين على عظم الاسى وشدة الجزع تذكر المسار المنقضية وتصور المضار الذاهبة وكثرة الشكوى والاسف وقال الشاعر

لا تكثر الشكوى الى الصديق * وارجع الى الخالق لا المخلوق * لا يخرج الغريق بالغريق

وفى منثور الحكم المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين واعلم انه قل من صبر على شدة الا ونال ما يرجوه من فرج وينبغى لمن نزلت به مصيبة أو كان فى شدة ان يسهلها على نفسه ولا يغفل عن تذكر ما يتبعه من وجوب الفناء وتقضى المسار فان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا ثقة له من صح فيها سقم ومن سقم فيها برم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها فتن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب لا خيرها يدوم ولا شرها يبقى ولا فيها لمخلوق بقاء فاذا تصور حقيقتها لعينه تذيرى الحوادث سهلة والمصائب هينة وقال الشاعر

يمثل ذو اللب فى نفسه * مصائب من قبل ان تنزلا
فان نزلت بغتة لم ترعه * لما كان فى نفسه مثلا
رأى الامر يفضى الى آخر * فصير آخره أولا

وقال بعض الحكماء من حاذر لم يخدع ومن راقب لم يهلع ومن كان متوقعا لم يلف متوجعا ومن لم يشعر نفسه ما ذكرنا من أحوال الدنيا وتقضى المسار ثم النواء فى اللحود بين اطباق الترب والجنادل قد فارقه الاحباء وهجره القرباء والبعداء الفتنه الحوادث وايقاف سليته الصبر وضاعفت عليه الاسى وقال ابن الرومى

ان البلاء يطاق غير مضاعف * فاذا تضاعف فهو غير مطاق

وأنشدوا تعودت مس الضر حتى الفته * واسلمنى حسن العزاء الى الصبر
ووسع صدرى للاذى كثرة الاذى * وان كنت احيانا يضيق به صدرى
وحسن لى ما بى من الناس كلهم * لعلى بصنع الله من حيث لا ادرى

ولبعض الاعراب

تعز فان الصبر بالحر أجمل * وليس على ريب الزمان معول
فلو كان يبقى ان يرى المرء جازعا * لنائبة أو كان يفنى التبذل

لكان التعزى عند كل مصيبة * ونازلة بالحر أولى وأجمل
فكيف وكل ليس يعدو حمامه * وما المرئ عما قضى الله مرحل
فان تكن الايام فينا تبدلت * ببؤس ونعمى والحوادث تفعل
فما لينت منا قناة صليبة * ولا ذللتنا للذى ليس يجمل
ولكن وجدناها نفوسا كريمة * تحمل مالا تستطيع فتحمل
وقينا بفضل الله منا نفوسنا * فصنا لنا الاعراض والناس هزل

(الباب الثالث والثلاثون فى كتمان السر)

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا فلما أفشى يوسف رؤياه بشهد امرأة يعقوب أخبرت اخوته فعمل به ما علم وفى الحديث استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود واعلم ان كتمان السر من الخصال المحمودة فى جميع الخلق ومن اللوازم فى حقوق الملوك ومن الفرائض الواجبة على الوزراء وجلساء الملوك والاتباع * قال على رضى الله عنه سرك أسيرك فاذا تكلمت به صرت أسيره واعلم ان امناء الاسرار أشد تعذرا وأقل وجودا من امناء الاموال وحفظ الاموال أيسر من كتم الاسرار فان أحراز الاموال منيعة بالابواب والاقفال وأحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق وعبء الاسرار أثقل من عبء الاموال وان الرجل يستقل بالحمل الثقيل يحمله ويشى به ويقله ولا يستطيع كتم السر وان الرجل يكون سره فى قلبه فيلحقه من القلق والكرب مالا يلحقه بحمل الاثقال فاذا أذاعه استراح قلبه وسكن جاشه وكأنما ألقى عن نفسه جبلا وقال عمر بن عبد العزيز القلوب أوعية والشفاه اقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره * ومن اعجب الامور ان اغلاق الدنيا كلما كثرت خزائنها كان اوثق لها الا السر فانه كلما كثر خزانه كان أضيع له وكم من اظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من بلوغ ما آربه ولو كتمه أمن من سطوانه قال انوشروان من حسن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات وقال بعض الحكماء سرك من دمك فلا تجره فى غير أوداجك فاذا تكلمت به فقد أرقته وكان لعثمان بن عفان رضى الله عنه كاتب له يقال حمران فاشتكى عثمان فقال اكتب العهد بعدى لعبد الرحمن بن عوف فقال حمران لعبد الرحمن البشرى فقال عبد الرحمن لك البشرى بماذا فاخبره الخبر فانطلق عبد الرحمن فاخبر عثمان فقال عثمان اعاهد الله أن لا يساكننى حمران أبدا ونفاه الى البصرة فلم يزل بها حتى قتل عثمان رضى الله عنه واعلم ان كتمان الاسرار يدل على جواهر الرجال وكأنه لا خير فى آنية لا تمسك ما فيها فلا خير فى انسان لا يمسك سره ويروى ان رجلا أودع سره عند رجل فقال له افهمت قال بل جهلت قال احفظت قال بل نسيت وقيل لبعضهم كيف كتمك للسر قال اجحد الخبر واحلف للمستخبر وقال الشاعر

ولو قدرت على كتمان ما اشتملت * منى الضلوع على الاسرار والخبر
لكنت أول من يفشى سرائره * اذ كنت من نشرها يوما على خطر

قال شيخنا ومن احسن شئ سمعته فى كتمان السر ما أنشدنيه بعض فقهاء البصرة بالبصرة فقال

ولها سرائر في الضمير طويتها * نسي الضمير بانها في طيه
وفي معناه ومستودعي سرا كتمت مكانه * عن الحس خوفا ان يمم به الحس
وخفت عليه من هوى النفس شهرة * فاودعته في حيث لا تبلغ النفس

قال العتبي أسر معاوية رضي الله عنه الى عثمان بن عنبسة حديثا فقلت لابي ان أمير المؤمنين أسر الى حديثا افاحدثك به قال لا ان كتم حديثا كان الخيار له ومن أظهره كان الخيار عليه فلا تحمل نفسك على ما لو كابدت أن كنت ما لكا قلت يا ابت أفيدخل هذا بين الرجل وأبيه قال لا يا بني ولكن اكره ان تذل لسانك بافشاء السر قال فحدثت به معاوية فقال أعتقك أخي من رق الخطا وقيل لبعض الملوك ما اصعب الاشياء على الانسان قال ان يعرف نفسه ويكتم سره وقال قيس ابن الخطيم

اجود بمكنون البلاد وانتي * بسرك عمن سالني اثنين
اذا جاوز الاثنين سر فانه * يشيع وتكثير الوشاة قمين
وان ضيع الاقوام سر افانني * كتوم لاسرار العشير أمين
يكون له عندي اذا ما ضمنته * مكان سويداء الفؤاد مكين

قال شيخنا قلت الناس يقولون أراد بالاثنين المودع والمودع ولا يعدان يريد به الشفتين وكان يقال اصبر الناس من صبر على كتمان سره فلم يبده لصديقه فيوشك ان يصير عدوا وقد روي في الحديث عن النبي عليه السلام انه قال اذا حدث الرجل الرجل ثم التفت فهي امانة قلت واذا كانت امانة حرمت فيها الخيانة كالامانة في الاموال وقال أبو بكر بن حزم انما يتجالس المتجالسان بامانة الله فلا يحل لاحدهما ان يفشي على صاحبه ما يكره وقال هشام بن عروة ما من رجل ينتقص من امانته الا نقص ايمانه وقال جعفر بن عثمان

ياذا الذي اودعني سره * لا ترج أن تسمعه مني
لم أجره قط على فكرتي * كانه لم يجر في اذني

وكان عمرو بن العاص يقول ما افشيت سري الى رجل فافشاه على فلمته اذا كان صدري اضيق به وقال الاحنف بن قيس يضيق صدر أحدهم بسره حتى يحدث به ثم يقول اكتمه علي وفي منثور الحكم انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون وأنشدوا

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذي يستودع السر اضيق

وفي منثور الحكم من أفشى سره كثر عليه المتامرون وقال الشاعر

وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفي

وقال آخر ولا تنطق بسرك كل سر * اذا ما جاوز الاثنين فاشي

وقال آخر تبوح بسرك ضيقا به * وتبغي لسرك من يكتم
وكفائك السر فيما تخاف * وفيما تحاذره أحزم
اذا ذاع سرك من مخبر * فانت اذا المتم ألوم

وقال آخر اذا ما ضاق صدرك من حديث * وافشته الرجال فمن تلوم
وان عاتبت من افشى حديثي * وسر عنده فأنا الملوم

وقال

وقال الحكيم ما كتمته من عدوك فلا تطلعن عليه صديقك فان لم يكن لك بد من اذاعته لقرينة تقتضيه من صديق مساهم أو استشارة ناصح مسالم فى صفات أمير الاسرار ان يكون ذا عقل ودين ونصح ومروءة فان هذه امور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الامانة ومن كملت فيه فهو عنقاء مغرب ولا تودع سرك عند من يستدعيه فان طالب الوديعة خائن قال صالح بن عبد القدوس لا تذع سرا الى طالبه منك والطالب للسر مذيع وفى الجملة اذا زال سرك عن عذبة لسانك فلا اذاعة مسئولة عليه وان أودعته قلب ناصح محب فاحتمال مرارة الكتمان على قلبك أسهل عليك من التململ بتمليك سرك غيرك واعلم ان افشاء سر غيرك أقبح من اظهار سر نفسك لانه يروح باحدى وصمتين اما الخيانة ان كان مؤتمنا أو الغيمة ان كان مستخبرا وقال بعض الحكماء لانه يا فتى كن جوادا بالمال فى مواضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق فان احمد جود المرء الانفاق فى وجه البر والبخل بمكتوم السر وكان يقال صدور الاحرار قبور الاسرار وقال الشاعر

الم تران وشاة الرجا * ل لا يتركون أديما صحيحا
فلا تفش سرك الا لمن * فان لكل نصيح نصيحا

وقال غيره

ما كل مكتوم يباح به * احذر لسانك من جوابه
ليس الهوى ما كنت تعرفه * أيام تلعب فى جوابه
هذا هوى لو قد فصحت به * ضحك الحسام الى مضاربه

(الباب الرابع والثلاثون فى بيان الخصلة التى هى رهن بسائر الخصال وزعيم بالمزيد من النعماء والآلاء من ذى الجلال)

وهى الشكر قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وقد آتاه الله ملك الدنيا والجن والانس والطير والوحش والرياح تجرى بامره كيف أراد فلما استمكن ملكه قال صلى الله عليه وسلم هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر فاعدها نعمة كما عدها ملوك الارض ولا حسبها كرامة من الله تعالى عليه كما ظنها ملوك الارض بل خاف ان تكون استدراجا من حيث لا يعلم كما قال تعالى فى أمة أراد هلاكهم سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم ان كيدى متين جاء فى التفسير أصب عليهم النعم وانسيهم الاستغفار وانما الفرح بما أوتى من الدنيا والغبطة بزهرتها والاغترار بزخرفها من شعار الكفار الا ترى الى قول قارون انما أوتيته على علم عندى وكان جوابه ما قال الله تعالى فخسفنا به وبداره الارض ولما خاف سليمان عليه السلام ان يكون استدراجا كان جوابه ما قال الله تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب واعلم ارشدك الله ان الشكر ليس هو حافظا للنعم فقط بل هو مع حفظه لها زعيم بزيادة النعم وأمان من حلول النقم والشكر على ثلاث مراتب شكر بالقلب وشكر باللسان وشكر بالجوارح فاما الشكر الواجب على جميع الخلق فشكر القلب وهو ان يعلم ان النعمة من الله وحده ولا نعمة على الخلق من أهل السموات والارض الا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله تعالى عن نفسك وعن غيرك بمعرفة نعم الله تعالى عليك وعلى غيرك وهذا النوع هو الذى يقال فيه يجب على العبد أن يشكر الله على نعمة اسديت الى غيره

والدليل على ان الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى وما بكم من نعمة فمن الله أى ايقنوا انها من الله والى هذه الكلمة انتهى جميع ما قاله الخلق فى الشكر والدليل عليه أيضا قوله تعالى ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون أى اتقونى فانه شكر نعمتى وخلق الله تعالى الحياة نعمة على العبد قال الله تعالى ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون والعبارة عنه أن يقال الشكر اعتراف القلب بانعام الله تعالى على وجه الخضوع ويقال فيه الشكر اعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة وقال أبو عثمان الشكر معرفة العجز عن الشكر وروى ان داود عليه السلام قال الهى كيف اشكرك وشكرى لك نعمة من عندك فاوحى الله تعالى اليه الآن قد شكرتنى وقال وهب بن منبه قال داود عليه السلام الهى ابن آدم ليس منه شعرة الا وتحتها نعمة وفوقها منك نعمة فمن اين يكافؤها فاوحى الله تعالى اليه يا داود انى أعطى الكثير وارضى باليسير وان شكر ذلك ان تعلم ان ما بك من نعمة فنى وفى هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر وذلك بان ترى شكرك توفيقه ويكون ذلك التوفيق من أجل النعمة فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر الى ما لا يتناهى وهذا الشكر أيضا واجب ولمحمود الوراق

اذا كان شكرى نعمة الله نعمة * على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله * وان طالت الايام واتصل العمر
اذا مس بالسراء عم سرورها * وان مس بالضراء أعقبها الاجر
فما منهما الا له فيه نعمة * تضيق بها الاوهام والسر والجهر

ومن أقر بنعم الله واحسانه فقد أقر بقدر ما كلف لان أحدا لا يمكنه ان يوازى شكر نعم الله تعالى وفى مناجاة موسى عليه السلام الهى خلقت آدم بيدك ونفخت فكيف شكرك فقال أن يعلم أن ذلك منى فكان معرفته بذلك شكره لى

(فصل) واما شكر اللسان فقال الله تعالى فيه واما بنعمة ربك فحدث قيل يعنى النبوة وقيل يعنى القرآن وحكم الآية عام فى جميع النعم وروى النعمان بن بشير أن النبى عليه الصلاة والسلام قال من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعم شكر وقال تعالى حكاية عن أهل الجنة انهم قالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده قال عامل عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما حفر نهر البصرة الذى يقال له نهر عمر انى حفرت لاهل البصرة نهرا عذبا لهم يشربه وجادت عينه ولم أرد بهم على ذلك شكرا فان اذنت لى قسمت عليهم ما أنفقت عليه فكتب اليه عمر بن عبد العزيز انى لا أحسب أهل البصرة خلوا من رجل قال الحمد لله حين حفرك هذا النهر وان الله قد رضيها شكرا من جنته فارض بها شكرا من نهرك والسلام وحقيقة الشكر فى هذا القسم الثناء على المحسن بذكر احسانه وعلى هذا القول يوصف الرب تعالى بانه شكور حقيقة فشكر العبد لله ثناؤه عليه بذكر احسانه وشكر الله للعبد ثناؤه عليه باحسانه واحسان الرب للعبد انعامه عليه وهذه اللفظة ماخوذة من قولهم دابة شكور اذا اظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف ويقال وجه شكور اذا كان ممتلئ المحاسن ظاهرها وفى الحديث يقول الله تعالى انا والجن والانس فى نبأ عظيم اخلق ويعبد

غيري وارزق ويشكر غيري وقال بعضهم انما أتى الناس لانهم في موضع صبرهم يحسبون انهم في موضع شكر

* (فصل) * واما الشكر الذي على الجوارح فقال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور فجعل العمل شكرا وقال عطاء دخلت على عائشة رضي الله عنها مع عبيد بن عمير فقال لها عبيد يا أم المؤمنين حدثينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت وأي شأنه لم يكن عجبا انه أتاني في ليلة فدخل معي في فراشي حتى مس جلدي جلده ثم قال يا ابنة أبي بكر ذريني اتعبد لربي قالت قلت اني أحب قربك وأذنت له فقام الى قربة من ماء فتوضأ واكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال افلا أكون عبدا شكورا فلم لا أفعل وقد أنزل علي آن في خلق السموات والارض فجعل النبي عليه الصلاة والسلام الشكر بالعمل وبين به مراد الكتاب قال الله تعالى وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد ان يذكر أو أراد شكورا أي كل واحد منهما يخلف الآخر فمن فاته العمل في أحدهما عمل في الآخر فجعل الاوراد والاعمال بالجوارح شكرا * وروى ان النبي عليه السلام قام حتى انتفخت قدماه فقيل يا رسول الله تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال افلا اكون عبدا شكورا * وقال أبو هرون دخلت على أبي حازم فقلت له رحمك الله ما شكر العينين قال اذا رأيت بهما خيرا أذعته وان رأيت بهما شرا سترته قلت له فما شكر الاذنين فقال اذا سمعت بهما خيرا حفظته واذا سمعت بهما شرا سترته قلت فما شكر اليدين قال أن لا تأخذ بهما ما ليس لك ولا تمنع حق الله تعالى فيهما قلت فما شكر البطن قال ان يكون أسفله صبرا وأعلاه علما قلت فما شكر الفرج قال كما قال الله تعالى والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فان أنت فعلت فانت الشاكر حقا وفي حكمة ادريس عليه السلام لن يستطيع أحد ان يشكر الله تعالى على نعمة بمثل الانعام على خلقه ليكون صانعا الى الخلق مثل ما صنع به الخالق تعالى واذا ثبت ان فعل الطاعات شكر فان فيها ما هو أشد ملازمة من غيره فالطاعة في مواساة الفقراء أشكل بالشكر على الغنى من غيرها لانها من جنس النعمة فاذا أردت أن تحرس دوام نعم الله تعالى عليك فأدم مواساة الفقراء والطاعة في رفع ذوي الضعة والخمول والمسكنة بغير معصية أشبه بالشكر على رفع قدرك والتنويه باسمك والطاعة في تمريض الفقراء وتلطيف أغذيتهم أشبه بالشكر على العافية من سائر الطاعات والطاعة في الشفاعات عند السلطان وقضاء حوائج الغرباء والاخوان أشبه بذوي الجاه من سائر الطاعات وعلى هذا المثال ينبغي ان يقال سائر نعم الله تعالى على العبد ومن العبارات الجامعة للشكر أن يقال معرفة بالجنان وذكر باللسان وعمل بالجوارح

* (فصل) * في الكلام على الزيادة قال الله تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم فقال قوم انما خاطب الله تعالى بهذا وبقوله ادعوني استجب لكم قوما دون قوم والدليل عليه انا نرى من يشكر على الغنى ثم يبتلى بالفقر ومن يشكر على العافية ثم يبتلى بالمرض والله تعالى لا يخلف

وعده وقال قوم معناه لازيدنكم نعمة الآخرة فان قيل انما تكون الزيادة من جنس المزيد عليه فاجابوا ان النعم الدنيوية والاخروية وان تفاضلت واختلفت فكلها متجانسة من حيث انها نعمة وقال قوم معناه لازيدنكم خيرا والخير والصلاح قد يكون في كثير من الاوقات بالمنع والسقم ونحوهما فان من سأل الله تعالى ان يعطيه مالا أو يصح جسمه وهو يعلم انه ان وهبه المال أنفقه في المعاصي أو وهبه الصحة صرف صحته الى المشي في الآثام فالمنع ههنا موهبة من الله تعالى جزيلة وعلى هذا قال العلماء منع الله تعالى عطاء وقال قوم يمكن تقدير الاستثناء فيها أي لئن شكرتم لازيدنكم الا ان تعصوا فاعاقبكم بالحرمان فأجعل ذلك كفارة لكم وهو أصلح من ان اعاقبكم في الآخرة والناس لا يسلمون من الذنوب ولو تهيأ ان يسلموا من الذنوب لدرت الزيادات قال الله تعالى ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقال استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين وقال قوم الآية خاصة لا محالة اذ لو كانت على عمومها لوجب ان لا يموت من شكر على الحياة * قال الشيخ قلت ان الله تعالى وعد الزيادة وقوله الحق وقد جعل الله العبادة علامة يعرف بها الشاكر فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا انه لم يشكر فاذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه وماله في نقصان علمنا انه قد أخل بالشكر الذي أخذ عليه اما ان لا يزكيه أو يزكيه لغير أهله أو يؤخره عن وقته أو يمنع حقا واجبا عليه فيه من كسوة عريان أو اطعام جائع وشبهه فيدخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم لو صدق السائل ما أفلح من رده قال الله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم بترك أدب أو اخلال بحق أو الملم بذنب كما قال بعضهم ادنى الشكر ان لا تعصي الله بنعمه فان جوارحك كلها من نعم الله تعالى عليك فلا تعصه بها ويحتمل ان يكون معنى الآية لئن شكرتم لازيدنكم ان شئنا ألا ترى انه قال ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وكثير من الخلق يريدون حرث الدنيا ولا يؤتونه فيكون التقدير نؤته منها لمن نشاء بدليل قوله في الآية الاخرى يجعلناله فيها ما نشاء لمن نريد وهكذا قوله تعالى ادعوني استجب لكم ثم ان كثيرا من الناس يدعون فلا يستجيب لهم ولكن معنى الآية استجب لكم ان شئت وان شئت بدليل قوله تعالى فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وهذا من باب حمل المطلق على المقيد * قال الجنيد كنت بين يدي السري وانا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي يا غلام ما الشكر فقلت أن لا يعصي الله تعالى بنعمه قال يوشك ان يكون حظك من الله لسانك فلا أزال أبكي على هذه الكلمة فان قيل ما معنى قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وما تحصل من الافعال في الوجود يمكن احصاؤه قلنا نعم الله تعالى على وجهين دفع ومنع فالدفع يمكن احصاؤه ودفع البلايا نعم لا يمكن احصاؤها وما يدفع الله عنهم مما في مقدوره من ذلك وما يدفع تعالى عن العبد لا يحصى

* (فصل) * ثم عدنا الى أقوال العلماء والحكماء في الشكر فقال بعض الحكماء موضع الشكر من النعمة موضع القرى من الضيف ان وجده لم يرم وان عدمه لم يتم واجمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة فقالوا الشكر قيد النعم وقالوا الشكر قيد الموجود وصيد المفقود وقالوا مصيبة وجب أجرها خير من نعمة لا يؤدى شكرها وقال بعض الحكماء من أعطى

أربعا لم يمنع أربعا من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب * وكان يقال اذا رعيت النعم بالشكر فهى أطواق واذا رعيت بالكفر فهى أغلال (قال حبيب)

نعم اذا رعيت بشكر لم تزل * نعما فان لم ترع فهى مصائب

(وبعث) الحجاج الى الحسن بعشرين ألف درهم فقال الحمد لله الذى ذكرنى (وقال) على بن أبى طالب رضى الله عنه لا تكن ممن يعجز عن شكر ما أوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى ينهى ولا ينتهى ويأمر الناس بما لا يأتى تحب الصالحين ولا تعمل بأعمالهم وتبغض المسيئين وأنت منهم تكره الموت لكثرة ذنوبك ولا تدعها فى طول حياتك * وقال المغيرة بن شعبة اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا بقاء للنعمة اذا كفرت ولا زوال لها اذا شكرت وان الشكر زيادة من النعم وامان من النقم (وكان) الحسن يقول ابن آدم متى تنفك من شكر النعم وأنت مرتهن بها كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر اعظم منها عليك فانت لا تنفك بالشكر من نعمة الا الى ما هو أعظم منها * وقال سفيان لما جاء البشير الى يعقوب عليه السلام قال على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الحمد لله الآن تمت النعمة (وروى) ان عثمان بن عفان رضى الله عنه دعى الى قوم ليأخذهم على ريبة فافترقوا قبل أن يبلغهم فأعتق عثمان رقبة شكرا لله تعالى أن لا يكون جرت على يديه فضيحة رجل مسلم (ويروى) أن الحسن بن على الترم الركن وقال الهى نعمتنى فلم تجدنى شاكرا وابتليتنى فلم تجدنى صابرا فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ولا أنت أدمت النقمة بترك الصبر الهى ما يكون من الكريم الا الكرم ولا من الجانى الا الجفاء * وقال عون بن عبد الله الخير الذى لا شر فيه الشكر مع العافية والصبر عند المصيبة (وروى) ان غلة قالت لسليمان بن داود عليه السلام يا نبى الله أنا على قدرى اشكر لله منك وكان راكبا على فرس ذلول فخر عنه ساجدا شكرا لله ثم قال لولا أنى أجللك لسألتك أن تنزع منى ما أعطيتنى (وقال) صدقة بن يسار بيناداود عليه السلام فى محرابه اذ مرت به دودة فتفكر فى خلقها وقال ما يعبأ الله بخلق هذه فأنطقها الله تعالى فقالت له يا داود تعجبك نفسك لا ما على قدر ما آتانى الله اذكر الله واشكر له منك فيما آتاك (ولمحمود الوراق)

الهى لك الحمد الذى أنت أهله * على نعمة ما كنت منك لها أهلا

متى ازددت تقصيرا تزدنى تفضلا * كأنى بالتقصير أستوجب الفضلا

(وكان) لبعضهم صديق فحبسه السلطان فارسل اليه فقال له صاحبه اشكر الله تعالى فضرب الرسل فكتب اليه اشكر الله تعالى فجىء بالمحبوس مجوسى مبطون وقيد فجعل حلقة فى رجله وحلقة فى رجل المجوسى يقوم بالليل مرات ويحتاج هذا الى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يفرغ فكتب الى صاحبه فقال اشكر الله تعالى فقال الى متى تقول وأى بلاء فوق هذا فقال له صاحبه لو وضع الزنار الذى فى وسطه فى وسطك كما وضع القيد الذى فى رجله فى رجلك ماذا كنت تصنع

ولبعضهم ومن الرزية أن شكرى صامت * عما فعلت وأن برك ناطق

أأرى الصنيعة منك ثم أسترها * انى اذا لندى الكريم لسارق

(وقال) رجل لسهل بن عبد الله ان اللص دخل دارى وأخذ متاعى فقال اشكر الله تعالى لو دخل

اللص قلبك وهو الشيطان فاخذ التوحيد ماذا كنت تصنع (ولما) بشر ادريس عليه السلام بالمغفرة سأل المغفرة فقيل له فيم فقال لأشكره فانى كنت اعمل قبله للمغفرة فبسط الملك جناحه فرفعه الى السماء * ويروى أن نبيا من الانبياء عليهم السلام مر بجحر صغير يخرج منه الماء الكثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت الله يقول وقودها الناس والحجارة فانا أبكى من خوفه فدعا النبى عليه السلام ربه أن يجيره من النار فاوحى الله تعالى اليه انى أجرته من النار فمر النبى عليه السلام ثم عاد فوجد الحجر يتفجر منه مثل ما كان فتعجب فأنطق الله تعالى الحجر فقال له لم تبك فقال ذلك بكاء الحزن والخوف وهذا بكاء الشكر والسرور * وروى ان الله تعالى أوحى الى موسى عليه السلام ارحم عبادى المبتلى والمعافى فقال الهى ما بال المعافى فقال لقلة شكرهم على عافيتى اياهم وبلا رجل اعرابيا بلاء حسنا فقال لا أبالك الله بلاء يعجز عنه صبرك وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك (وأنشد بعضهم)

سأشكر لا أنى اجازيك منعما * بشكرى ولكن كى يرى ذلك الشكر
وأذكر ايامالدى اصطنعتها * وآخر مايبقى على الشاكر الذكر

(وانشدوا)

أوليتنى نعما أبوح بشكرها * وكفيتنى كل الامور بأسرها
فلاشكرنك ماحييت وان أمت * فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

(ولبعض الاعراب)

الهى قد أحسنت عودا وبدأة * الى فلم ينهض باحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة * فعذرى اقرارى بأن ليس لى عذر

(وكان) مطرف يقول الهى منك تكون النعمة وعليك تمامها وأنت تعين على شكرها وعليك ثوابها وهذا باب عظيم من النعم على العباد وقد أثنى الله على بعض عباده فقال انه كان عبدا شكورا (وقال) تعالى شاكرا لانعمه اجتباه وكذلك سائر ما اثنى الله تعالى به على عباده ثم قال فمن شكر فانما يشكر لنفسه ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم ليس للرب تعالى فيها الا قليل ولا كثير فانه أجل من ان ينال الحظوظ وأجل من ان يلحقه ثناء مثن أو شكر شاكر فأخبر ان العلو والجلال له دونهم وانه يتقدس عن الناس بثناء مثن أو كفر كافر قال الله تعالى يدعوكم ليغفر لكم فواعجبا أعطى ثم أثنى * وقال على رضى الله عنه كفر النعمة داعية المقت ومن جازاك بالشكر فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك وحقيق بمن أسديت اليه نعمة أو قضيت له حاجة ان يكافئ فان لم يقدر فليشكر فان شكرها فقد أدى حقها (قال الشاعر)

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد * لرفعة حال أو علو مكان
لما أمر الرحمن بالشكر خلقه * فقال اشكرونى أيها الثقلان

(وقال البستى)

ان عجزت عن شكر برك قوتى * وأقوى الورى عن شكر برك عاجز
فان ثنائى واعتقادى وطاعتى * لآلائك الأولى تنيه مراكز

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى وقفت علينا امرأة فقالت ياقوم تغير علينا الدهر اذ قل منا الشكر

وفارقنا الغنى وحالفنا الفقر فرحم الله امرأ فهم بعقل واعطى من فضل وواسا من كفاف واعان على عفاف (وأنشدوا)

فلو كان للشكر شخص يبين * اذا ما تامله الناظر
لمثلته لك حتى تراه * فتعلم اني امرء شاكر
ولكنه ساكن في الضمير * يحركه الكلم السائر

(وقيل) لكسرى ما الشكر فقال المكافاة على قدر الطاعة قيل فما الكفر قال ترك الجزاء ولو بالثناء قيل وهل يكون أحد ابخل ممن يبخل بالثناء قال نعم من عادى على الصنيعة

(الباب الخامس والثلاثون في بيان السيرة التي يصلح عليها الامير والمأمور ويستريح اليها الرئيس والمرؤس مستخرجة من القرآن العظيم)

قال الله تعالى وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم فاثبت الله تعالى المماثلة بيننا وبين سائر البهائم ومعلوم انهم لا يماثلوننا في خلقنا واشكالنا وسائر ما تدركه العين منهم ومنا فتبقى المماثلة في الاخلاق فلا أحد من الخلق الا وفيه خلق من اخلاق البهائم ولهذا تجد اخلاق الخلائق مختلفة فاذا رأيت من الانسان خلقا شاردا عن الاعتدال فابصر ما يماثل ذلك الخلق من خلق سائر الحيوان فالحقه به وعامله كما كنت تعامله فحينئذ تستريح من منازعتهم ويستريحون منك وتدوم الصحبة فاذا رأينا الرجل الجاهل في خلائقه العليظ في طباعه القوي في بدنه لا يؤمن طغيانه وافراطه فالحقه بعالم الثور والعرب تقول أجهل من ثور وأنت اذا رأيت الثور بعدت عنه ولم تخاصمه ولا تسابه فاسلك بالرجل كذلك واذا رأيت الرجل الغالب على اخلاقه السرقة خفية والنقب ليلا على وجه الاستسرار قلنا هذا يماثل عالم الجرذ فدع ملاحاته ومخاصمته كما تدع سباب الجرذ اذا أفسد رحلك ثم أحي رحلك بما يصلح له واذا رأيت هجاما على اعراض الناس وثلبهم فقد ماثل عالم الكلاب فان داب الكلب ان يجنو من لا يجفوه ويبتدئ بالاذية من لا يؤذيه فعامله بما كنت تعامل به الكلب اذا نبحك الست تذهب في شاتك ولا تخاصمه ولا تسبه فافعل بمن يهتضم عرضك مثل ذلك واذا رأيت انسانا قد جبل على الخلاف ان قلت لا قال نعم وان قلت نعم قال لا فالحقه بعالم الحمير فان داب الحمار ان ادنيته بعد وان أبعدته قرب وانت تستمتع بالحمار ولا تسبه ولا تفارقه فاستمتع أيضا بهذا الانسان ولا تسبه ولا تفارقه واذا رأيت رجلا يطلب عثرات الناس وسقطاتهم غفلة في الآدميين كمثل الذباب في عالم الطير فان الذباب يقع على الجسد فيتحامى صحيحه ويطلب المواضع النغلة منه وذرات المادة والدم والنجاسة واذا بليت بسلطان يهجم على الاموال والارواح فالحقه بعالم الاسود وخذ حذرك منه كما تاخذ حذرك من الاسد وليس الا الهرب منه كما قال النابغة * ولا قرار على زأر من الاسد * واذا بليت بانسان خبيث كثير الروغان والمفاخرة فالحقه بعالم الثعالب واذا بليت بمن يمشي بالنمائم ويفرق بين الاحبة فالحقه بعالم الظربان وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة فسا بينهم ظربان فتفرقوا وخاصة هذه الدويبة اذا حصلت وسط جماعة ان يتفرقوا وكما ان الجماعة اذا أقبلت نحوهم هذه الدابة طردوها ومنعوها الدخول بينهم كذلك ينبغي اخراج النمام من بين الجماعة فان لم يفعلوا فلا شك ان يفرق ما بينهم ويفسد قلوب بعضهم على بعض واذا رأيت انسانا

لايسمع العلم والحكمة ويتفرمن مجالس العلماء والحكماء ويالف سماع اخبار اهل الدنيا وسائر الخرافات وما يجرى فى مجالس العوام فالحقه بعالم الخنافس فانه يحبه أكل العذرات ويالف روائح النجاسات ولاتراه الاملابسا للاخلية والمراحيض ويتفرمن روائح المسك والورد واذا طرح عليه المسك والورد مات واذا رأيت انسانا انما دأبه حفظ الدنيا لايستحى فى الوثوب عليها فالحقه بعالم الاحدية بان تنحى رجلك عنه واذا بليت بالرجل تظهر عليه الديانه والسكينة وقد نصب اشراكه لاقتناص الدنيا وأكل أموال الودائع والامانات والارامل واليتامى فالحقه بعالم الذئاب وهو كما قال فيه القائل

ذئب تراه مصليا * فاذا مررت به ركع
يدعو وجبل دعائه * ماللفريسة لاتقع
يجعل بها ياذا العلا * ان الفؤاد قد انصدع

احترزمنه كما تحترزمن الذئب واذا بليت بصحبة انسان كذاب فاعلم ان الانسان الكذاب كالميت فى الحكم لانه لايقبل له خبر كما لاخبر للميت وكما لاتصحب الموتى لاتصحب الكذاب (وقيل) فى المثل كل شئ ثنى وصحبه الكذاب لاثنى ويجوز ان يلحق بعالم النعام فانه يدفن جميع بيضه تحت الرمل ثم يترك واحدة على وجه الرمل وأخرى تحت طاقة من الرمل وسائر بيضه فى قعر الحفرة فاذا رآه الغرياخذ تلك البيضة وينصرف أو يكشف عن وجه الرمل فيجد الاخرى فيظن انه ليس ثم شئ آخر والخير بحالة النعام اذا رأى البيضة لايزال يحفر حتى يصل الى حاجته ولايغتر بتلك البيضة كذلك الكذاب اذا سمعت منه خبرا لاتصدقه حتى تبلغ الغاية فى الكشف عنه واذا رأيت الرجل انما دأبه ان يصنع نفسه كما تصنع العروس لبعلها يبيض ثيابه ويعدل عمامته ويتقى ان يمسه شئ غيره وينظر فى عطفيه ويطرح القذا عن ثوبه ليس له همة بين الجلساء الا نظره الى نفسه واصلاح ما أتلف من ثيابه فالحقه بعالم الطواويس الذى هذه صفته فانه يتبختر فى مشيته وينظر الى نفسه ويفرش ذنبه فيتخذه الملوك استحسانا له واذا بليت بانسان حقود لاينسى الهفوات ويجازى بعد المدة على السقطات فالحقه بعالم الجمل والعرب تقول فلان أحقد من جمل وتجنب قرب الجمل الحقود فاجتنب صحبة الرجل الحقود واذا بليت بانسان منافق يبطن خلاف مايظهر فالحقه بعالم اليربوع فان اليربوع وهو فار يكون فى البرية يتخذ جحرا تحت الارض يقال له النافقاء وله فوهتان يدخل من احداهما ويخرج من الاخرى ومنه اشتق اسم المنافق فاذا هم أحد بأخذه دخل بحره وخرج من الباب الآخر فيحفر الصياد خلفه فلا يظفر بشئ كذلك حال المنافق لايصح منه شئ وعلى هذا النمط كن فى صحبة الناس تستريح منهم وتريحهم منك فلعمر الله ما استقامت لى صحبة الناس وسكنت نفسى واستراحت من مكايدة اخلاقهم الا من حيث سرت معهم بهذه السيرة (وقال) الرياحى يابنى رياح لاتحقروا صغيرا تأخذون عنه فانى أخذت من الثعلب روغانه ومن القرد مكايده ومن السنور صرعه ومن الكلب نصرته ومن ابن آوى حذره وقد تعلمت من القمر مشى الليل ومن الشمس الطهور فى الحين بعد الحين

* (الباب السادس والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها غاية كمال السلطان وشفاء الصدور وراحة القلوب وطمأنينة النفوس) *

اعلم أيها الملك انه متى كملت فيك الخصال المحمودة والاخلاق المشكورة والسيرة المستقيمة وملكت نفسك وقهرت هواك ووضعت الاشياء مواضعها ثم ان الرعية اهتضمت حقك وجهلت قدرك ولم توفك حظك فبلغك منهم ما يسوءك ورأيت منهم ما لا يعجبك فاعلم انك لست بالله فلا تطمعن ان يصفو لك منهم ما لا يصفو منهم للاله وفصل الخطاب فى هذا الباب ان تعلم ان الله تعالى خلق الخلائق أجمعين وأنعم عليهم بانواع النعم فاكمل حواسهم وخلق فيهم الشهوات ثم أفاض عليهم نعمه وكملت لهم اللذات وبعد هذا فما قدروا الله حق قدره ولا عظموه حق عظمته بل قالوا فيه ما لا يليق به ووصفوه بما يستحيل عليه واضافوا اليه ما يتقدس عنه وسلبوه ما يجب له من الاسماء الحسنى والصفات العلى فمنهم من قال هو ثالث ثلاثة ومنهم من قال له زوجة ومنهم من قال له ابن ومنهم قال له البنات ومنهم من يجسمه ومنهم من يشبهه ومنهم من انكره رأسا وقال ما للخلق صانع كما حكاه الخالق عنه فقال نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وهو مع ذلك يحييهم ويبقيهم ويصح أجسامهم وحواسهم ويرزقهم وينعشهم ويقضى ما ربهم وأوطارهم ويمتعهم متاعا حسنا ويبلغهم آمالهم فى معظم ما يحتاجون اليه فعاصيهم اليه صاعدة وبركاته عليهم نازلة كل يعمل على شاكلته وينفق مما عنده وكل ذى حال أولى بها (وفى مناجاة) موسى عليه السلام انه قال الهى أسالك ان لا يقال فى مالبس فاوحى الله تعالى اليه ذلك شئ ما فعلته لنفسى فكيف أفعله بك وفى هذه السيرة عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن اذكر مع انك ان التمست رضا جميع الناس القمت ما لا يدرك وكيف يدرك رضا المختلفين فيا أيها الملك الذى قد كتب الله عليه الفناء والعمر القصير والزمان اليسير والايام المعدودة والانفاس المحصورة كيف أردت ان يصفو لك من الرعية ما لم يصف منهم لخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم هيهات هيهات بعيد ما أملت ومستحيل ما طلبت فلك فى الله اسوة حسنة ان ترضى منهم بما رضى منهم خالقهم وتسير فيهم بسيرة ربهم فيهم ألم تر كيف أحسن اليك فرضى منك باليسير من العمل وأكثر لك من النعم من الاموال والخول فانظر كيف يسترزلاتك ويتغمد سيئاتك ولا يفضحك فى خلواتك ففى هذا ما يهد النفوس ويؤدب ذوى العقول ويهدى الى الصواب ويوضح طرق الرشاد ولله در عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقد كان واعيا لما تلوته عليك فانه روى عنه انه كتب الى عمرو بن العاص كن لرعيتك ما تحب ان يكون لك أمير لك

(الباب السابع والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها ملجأ الملوك عند الشدائد ومعقل السلاطين عند اضطراب الامور وتغير الوجوه والاحوال)

أيها الملك اذا اعتلجت الامور فى صدرك واضطربت عليك القواعد ومرجت فى قلبك وجوه الرأى وتنكرت عليك المعارف واكفهرلك وجه الزمان فلا يغلبنك خصلتان اتركك للناس دينهم ودنياهم ولك الامان من طوارق الحدثان وما يأتى به الملوان وقد روى ان المأمون قال فى آخر موافقة مع أخيه الامين وقد نفدت بيوت الاموال والحت الاجناد فى طلب أرزاق المأمون بقيت لاخى خصلة لو فعلها ملك موضع قدمى هاتين قيل له وما هى فقال والله انى لاضن بها على نفسى فكيف على غيرى فلما خلص له الامر سئل عن تلك الخصلة فقال لوان الامين نادى فى جميع بلاده انه قد حط الخراجات والوظائف السلطانية وسرا لجبايات عشر

سنين لملك الامر على ولكن الله غالب على أمره واما خشى المأمون انتقاض بيعته مع أهل خراسان فى امر فتنته مع أخيه الامين استشار الفضل بن سهل وكان وزيره فقال له الفضل قد قرأت القرآن وحديث الرسول عليه السلام والذى عندى ان تجمع الفقهاء وتدعوهم الى الحق والعمل به واحياء السيرة وبسط العدل والقعود على اللبود وتواصل النظر فى المظالم وتكرم السواد والملوك وابناء الملوك وتعهد بالمواعيد الكريمة والمراتب السنية والولايات المشاكلة ففعل ذلك وحط عن أهل خراسان ربع الخراج فمالت وجوه الخلائق اليه وكانوا يقولون ابن اختنا وابن عم نبينا عليه السلام وانقاد اليه رافع بن الليث وكان من عظماء الملوك بخراسان ويدخل تحت هذه الترجمة أمر اتفق عليه حكماء العرب والروم والفرس والهند وهو ان تصطنع وجوه كل قبيلة والمتقدمين من كل عشيرة وتحسن الى حملة القرآن والعلم وحفاظ الشريعة وتدنى مجالسهم وتقرب الصالحين والمترهدين وكل متمسك بعروة الدين وكذلك فليفعل بالاشراف من كل قبيلة والرؤساء المتبوعين من كل نمط فهؤلاء هم أزمة الخلق وبهم يملك من سواهم فمن كمال السياسة والرياسة ان تبقى على كل ذى رياسة رياسته وعلى كل ذى عز عزته وعلى كل ذى منزل منزلته فحينئذ يكون الرؤساء الملك اعوانا ومن دانت له الفضلاء من كل قبيلة فاخلق به أن يدوم سلطانه والعامة والاتباع دون مقدميهم وساداتهم واتباعهم اجساد بلا رؤس واشباح بلا ارواح ولما قامت العامة على السلطان بقرطبة ولبسوا السلاح كان شيخ جالس على كبره يعالج صنعته فقال ما بال الناس قالوا قامت العامة على السلطان قال ولهم رأس قالوا لا قال شق الكير يا صبى فذهبت مثلا

(الباب الثامن والثلاثون فى بيان الخصال الموجبة لذم الرعية للسلطان)

قال حكيم الفرس ذم الرعية للملك على ثلاثة أوجه اما كريم قصر به عن قدره فاورثه ذلك ضغنا واما لئيم بلغ به فوق قدره فاورثه ذلك بطرا واما رجل منع حظه من الانصاف وفى الامثال احسانك الى الحر يبعثه على المكافأة واحسانك الى اللئيم الخسيس يبعثه على معاودة المسئلة (وقيل) للاسكندر ان فلانا ينتقصك ويسىء الثناء عليك فقال أنا أعلم انه ليس بشرير فينبغى أن نعلم هل ناله منا حسبتنا أمر دعاه الى ذلك فبحث عن حاله فوجد هارثة قاهر له بصلة سنية فبلغه بعد ذلك انه بسط لسانه بالثناء عليه فقال أما ترون ان الامر البنا ان يقال فينا خير أو شر وينبغى للسلطان ان لا يتخذ الرعية مالا وقنية فيكونوا عليه بلاء وفتنة ولكن يتخذهم أهلا واخوانا فيكونون له جندا واعوانا وقد سبق المثل اصلاح الرعية خير من كثرة الجنود

(الباب التاسع والثلاثون فى مثل السلطان العادل والجائر)

مثل السلطان العادل مثل الياقوتة النفيسة الرفيعة فى وسط العقد ومثل الرعية مثل سائر الشذر فلا تلحظ العيون الا الواسطة وأول ما يبصر المقلبون وينتقد الناقدون الواسطة وانما يثنى المثنون على الواسطة وكلما حسنت الواسطة عمرت سائر الشذر فلا يكاد يذكر كما قال ابن صعدة لقيت بالحجاز بين مكة والمدينة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما فسفرت لى عن وجه ابنتها واذا وجه كانه قطعة قمر وقد أثقلتها بالجواهر واليواقيت وأنواع الدرر فالتفتت الى وقالت والله ما علقته عليها الا لتفضحنه وكما ان جمال السلك ان يلى الواسطة الافضل فالافضل

من

من الشذر وان كان على خلاف ذلك كان سببا لانتظام كذلك السلطان ينبغي ان يكون الاقرب فالاقرب اليه أهل العلم والعقل والادب والرأي والاصالة والشرف والحصافة وذوي الكمال من كل قبيلة وان كان على خلاف ذلك كان نقصا في التدبير وكما ان جمال العقد بواسطته كذلك جمال الرعية بكمال سلطانهم وفضله وبراعته وعدله ومثل السلطان الجائر مثل الشوكة في الرجل فصاحبها تحت ألم وقلق ويتداعى لها سائر الجد ولا يزال صاحبها يروم قلعها ويستعين بما في ميسوره من الآلات والمناقيش والابر على اخراجها الا انها في غير موضعها الطبيعي ويوشك ان تقلع بالاجرة فاين غرز الباقون من شوك القتاد

(الباب الموفي أربعين فيما يجب على الرعية اذا جار السلطان)

اعلم ارشدك الله ان الزمان وعاء لاهله ورأس الوعاء أطيب من أسفله كما ان رأس الجرة أترع واصفى من أسفلها فلئن قلت ان الملوك اليوم ليسوا كمن مضى من الملوك فالرعية أيضا ليسوا كمن مضى من الرعية ولست بان تذم أميرك اذا نظرت آثار من مضى منهم باولى من ان تذم أميرك اذا نظرت آثار من مضى من الرعية فاذا جار عليك السلطان فعليك الصبر وعليه الوزر (روى) البخاري عن عبادة بن الصامت قال بايعنا النبي عليه السلام فكان فيما أخذ علينا ان بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الامر أهله الا ان تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان ومنه قال ابن عباس من كره من أميره شيأ فليصبر عليه فانه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية ومنه قال ابن مسعود قال لنا النبي عليه السلام انكم سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال أدوا اليهم حقوقهم واسألوا الله حقكم (وروى) أبو داود في سننه ان النبي عليه السلام قال سيأتيكم ركب مبغضون يطلبون منكم ما لا يجب عليكم فاذا سألوا ذلك فأعطوهم ولا تسبوهم ولتدعوا لهم وهذا حديث عظيم الموقع في هذا الباب فتدفع اليهم ما طلبوا من ظالم ولا تنازعهم فيه ونكف ألسنتنا عن سبهم يا عبد الله لا تجعل سلاحك على من ظلمك الدعاء عليه ولكن الثقة بالله فلا محنة فوق محنة ابراهيم عليه السلام لما جعلوه في كفة المنجنيق ليقذف به في النار قال اللهم انك تعلم اني بك وعداوة قومي فيك فانصرني عليهم واكفني كيدهم (وقال) مالك ابن دينار وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى اني أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا انفسكم بسب الملوك ولكن توبوا الى الله أعطفهم عليكم وفي بعض الكتب ابن آدم تدعو علي من ظلمك ويدعو عليك من ظلمته فان شئت أجبتك وأجبناه عليك وان شئت أخرت الامر الى يوم القيامة فيعكم العفو (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام لا تجعل ملجأ لك في الاعداء الا كفاة ولكن الثقة بالله وروى أبو داود في السنن قال سرقت ملحفة لعائشة رضي عنها فجعلت تدعو على من أخذها فسمعها النبي عليه السلام فقال لا تسخطي عنه يعني لا تحتفي عنه فنهاها عن الدعاء على الظالم كما ترى فاذا قال المظلوم في دعائه اللهم لا توفقه فقد دعا على نفسه وعلى سائر الرعية لانه من قلة توفيقه ظلمك ولو كان موفقا ما ظلمك فان استجيب دعاؤك فيه زاد ظلمه لك ومن الالفاظ المروية عن سلف هذه الامة قولهم لو كانت عندنا دعوة مستجابة ما جعلناها الا في السلطان (وقال) الفضيل

لو ظفرت ببيت المال لاخذت من حلاله وصنعت منه أطيب الطعام ثم دعوت الصالحين وأهل الفضل من الاخيار والابرار فاذا فرغوا قلت لهم تعالوا ندعو ربنا أن يوفق ملوكنا وسائر من يلي علينا وجعل اليه أمرنا ولما قدم معاوية المدينة دخل دار عثمان فقالت عائشة ابنة عثمان وأبيتاه فقال معاوية يا بنت أخي ان الناس أعطونا طاعة واعطيناهم أمانا وأظهرنا لهم حلما تحت غضب واظهروا لنا طاعة تحتها حقد ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان انصاره فان نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون أم لنا ولان تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين (وروى) ان رجلا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له فاستعدى عليه الى المنصور فقال له أصلحك الله أذكر حاجتي أم أشرب لك قبلها مثلا فقال بل اضرب لي قبلها مثلا قال أصلحك الله ان الطفل الصغير اذا نابه امر يكرهه فانه يفر الى أمه اذ لا يعرف غيرها وظننا منه انه لا ناصر فوقها فاذا ترعرع واشتد فاوذي كان فراره وشكواه الى أبيه لعلمه بان أباه أقوى من أمه على نصرته فاذا بلغ وصار رجلا وحزبه أمر شكا الى الوالي لعلمه بانه اقوى من أبيه فاذا زاد عقله واشتدت شكيمته شكا الى السلطان لعلمه بانه أقوى من سواه فان لم ينصفه السلطان شكا الى الله عز وجل وقد نزلت بي نازلة وليس فوقك أحد أقوى منك فان انصفتني والا رفعت أمرها الى الله في الموسم فاني متوجه الى بيته وحرمه اذ ليس فوقك أحد الا الله تعالى قال بل تنصفك وامر بان يكتب الى واليه برد ضيعته اليه

(الباب الحادي والاربعون في كما تكونوا يولى عليكم)

لم ازل اسمع الناس يقولون اعمالكم عمالكم كما تكونوا يولى عليكم الى ان ظفرت بهذا المعنى في القرآن قال الله تعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا وكان يقال ما أنكرت من زمانك فانما أفسده عليك عملك وقال عبد الملك بن مروان انصفونا يا معشر الرعية تريدون مناسيرة أبي بكر وعمر ولا تسيروا فينا ولا في انفسكم بسيرتهم ما نسأل الله أن يعين كلا على كل (وقال) قتادة قالت بنو اسرائيل الهنا أنت في السماء ونحن في الارض فكيف نعرف رضاك من سخطك فاوحى الله تعالى الى بعض أنبيائهم اذا استعملت عليكم خياركم فقد رضيت عنكم واذا استعملت عليكم شراركم فقد سخطت عليكم وقال عبيدة السلماني لعلي رضي الله عنه يا أمير المؤمنين ما بال أبي بكر وعمر اطاع الناس لهما والدنيا عليهما أضيق من شبر فاتسعت عليهما وليت أنت وعثمان الخلافة ولم يطاعوا لكما وقد اتسعت فصارت عليكما أضيق من شبر فقال لان رعية أبي بكر وعمر كانوا مثلي ومثل عثمان ورعيتي انا اليوم مثلك وشبهك (وكتب) أخ لمحمد بن يوسف يشكو اليه جور العمال فكتب اليه محمد بن يوسف بلغني كتابك تذكر ما انتم فيه وليس ينبغي لمن يعمل بالمعصية ان ينكر العقوبة وما ارى ما انتم فيه الا من شوم الذنوب والسلام

(الباب الثاني والاربعون في بيان الخصلة التي تصلح بها الرعية)

اعلم ان ادعى خصال السلطان الى اصلاح الرعية وأقواها أثرا في تمسكهم بادیانهم وحفظهم مروآتهم اصلاح السلطان نفسه وتنزهه عن سفساف الاخلاق وبعده عن مواضع الريب وترفيعه نفسه عن استصحاب البطالة والمجون واللعب واللهو والاعلان بالفسوق وقد كانت صحبة محمد الامين لذلك الرجل الخليع والماجن الرقيع أبي نواس الشاعر وصحة

عظيمة عليه أوهن بها سلطانه ووضع عند الخاص والعام قدره وأطلق السنة الخلق بالشتم والثناء القبيح على نفسه فخلعه بذلك أخوه المأمون عن الولاية ووجه طاهر بن الحسين لمحاربته ببغداد وحاربه حتى قتله وانفذ برأسه الى المأمون وكان يعمل كتبا تقرأ على المنابر من خراسان ويقف الرجل فيذم أهل العراق فيقول أهل فسوق وخمور وماخور ويعيب الامين بذلك فيقول استحسب أبا نواس شاعرا ماجنا كافرا استخلصه معه لشرب الخمور وارتكاب المآثم ونيل المحارم وهو القائل

الا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر * ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر
ويح باسم من تهوى ودعني من الكنى * فلا خير في اللذات من دونها ستر

حتى تغيرت عليه نفوس الخلق وتنكرت له وجوه الورى فلما بلغ الامين حبسه ثم أطلقه بعد ان أخذ عليه أن لا يشرب خمرا ولا يقول فيه شعرا فمتى أراد السلطان اصلاح رعيته وهو معتاد على سيئ أخلاقه كان كمن أراد بقاء الجسد مع فقد رأسه أو أراد استقامة الجسم مع عدم حياته وكمن أراد تقويم الضلع مع اعوجاج الشخص وكيف يحيا النون مع فساد الماء ولقد اصاب الخليل في قوله اصلح نفسك لنفسك تكون الناس تبعا لك وقديما قيل من أصلح نفسه أرغم أنف أعدائه ومن أعمل جده بلغ كنه أمانيه (وسئل) بعض الحكماء بم ينتقم الانسان من عدوه فقال باصلاح نفسه ولابي الفتح البستي

اذا غدا ملك باللهو مشتغلا * فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة * لما غدا وهو برج اللهو والطرب

وصحبة الاشرار توريث الشر كالريح اذا مرت على الستن حملت نتنا واذا مرت على الطيب حملت طيبا فحمل استصلاح رعيتك وأنت فاسد وارشادهم وأنت غاو وهدايتهم وأنت ضال وقد سبق لمثل ومن العجائب أعمش يكحل وتقول العرب ياطبيب طب نفسك وكيف يقتدر الاعمى على أن يهدي والفقير على أن يغني والذليل على أن يعز فبعدك عن تطهير غيرك من العيوب قبل تطهير نفسك كبعد الطبيب عن ابراء غيره من دائه مثله (وقال) بعض حكماء الهند لان يبلغ الف رجل في اصلاح رجل واحد بحسن القول دون حسن الفعل كما يبلغ رجل واحد في اصلاح ألف رجل بحسن الفعل دون القول وفيه قال القائل

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء من السقام لذي الضنى * كيما يصح به وأنت سقيم
ما زلت تلقح بالرشاد عقولنا * عظة وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى * بالرأي منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتاتي مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

ولكن أقوى الاسباب في صلاحهم عند فوت صلاحه استعماله عليهم الخاصة منهم وذوي الاحلام والمروآت القائمة والاذيال الطاهرة فمتى رأس العامة سراتهم فهو الطريق الى حفظ أديانهم ومروآتهم وتماسكهم عن الانهماك في المحظورات وملابسة المحرمات وقال الشاعر

لاتصلح الناس فوضى لاسراة لهم * ولا سراة اذا جهالهم سادوا

(وقال) مردك الفارسي خلتان في السلطان اقرب الى صلاح الرعية عما سواهما ثقة الرأي وشدة الرحمة وما آحق السلطان أن يسلك بالرعية كل سبيل يصلحون عليه ويسودون معه فحينئذ يكون رئيس الرؤساء وأميرا على السادة والفضلاء وان أهملهم وركوب شهواتهم وتوسط لذاتهم ذهبت أديانهم وسقطت مروآتهم وبقوا كما جاء المثل في الجماعة المذمومة تقول العرب في القوم لا رؤساء فيهم ولا سروات بينهم هم سواسية كاسنان الحمار وتقول سواسية كاسنان المشط وفيهم يقول الشاعر

سواسية كاسنان الحمار فلا ترى * لذي شيبة منهم على ناشئ فضلا

ولان يكون أميرا على الفضلاء والرؤساء خير من ان يكون أميرا على الاخساء والرمادية والغوغاء والادنياء (وقد قال) عبد الملك بن مروان يوما وقد استقام له الامر من يعذرني من عبد الله بن عمر فانه أبى ان يدخل في سلطاني فقال بعض جلسائه تستحضره وتضرب عنقه وتستريح منه فقال عبد الملك ويلك اذا قتلت ابن عمر على من أكون أميرا وأما صار داود الى الحجاز في الدولة العباسية ليقتل من هنالك من بني أمية قال له عبد الله بن الحسن يا ابن عم اذا اسرعت في قتل اكفائك فمن تباهي بسلطانك اعف يعف الله عنك فعفا (وقال) ارسطاطاليس للاسكندر استصلح الرعية وأذهب شرهم تكون رئيسا لاخيار ممدوحين ولا تكون رئيسا لاشرار مذمومين فتكون كراعي البقر

* (الباب الثالث والاربعون فيما يملك السلطان من الرعية) *

كتب ارسطاطاليس الى الاسكندر املك الرعية بالاحسان تظفر منهم بالمحبة فان طلب ذلك منهم بالاحسان هو أدوم بقاء منهم بالاعتساف واعلم انك انما تملك الابدان فتخطاها الى القلوب بالمعروف (واعلم) انه اذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية واذا جار لم يملك منهم الا الرياء والتصنع وفي سير المتقدمين قلوب الرعية خزائن ملوكها فما أودعوها من شئ فليعلموا انه فيها (واعلم) ان الرعية اذا قدرت على ان تقول قدرت على ان تفعل فاجتهد ان لا تقول تسلم من ان تفعل وليس هذا خلاف ما روي عن معاوية ان رجلا أغلظ له فحلم عليه فقيل له احتلم على مثل هذا فقال اني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا وذلك ان تفسير قوله فاجتهد ان لا تقول يعني اذا عدلت لم يتكلموا بشئ وهذه السيرة أحسن من سيرة اردشير لما رفع اليه ان جماعة من بطانته قد فسدت نياتهم فوقع شن معاشر الملوك انما تملك الاجساد لا النيات وتحكم بالعدل لا بالرضا وتفحص عن الاعمال لا عن السرائر (قلت) وانما تحسن هذه السيرة لمن عجز عن الاولى لان ملك الاجساد قد يكون بالعدل والظلم وملك القلوب لا يكون الا بالعدل وابن هذا من قوله وقد رفع اليه انك ركبت أمس في عدة قليلة وتلك حالة لا يؤمن اغتيال الاعداء فيها فوقع من عم احسانه أمن أعداءه وما أحسن ما قال عبد الملك بن مروان يا أهل الشام انما انا لكم كالظليم الرائع على فراخه يتقي عنهم القذر ويباعد عنهم الحجر ويكنهم من المطر ويحميهم من الضباب ويحرسهم من الذئاب يا اهل الشام أنتم الجبة والرداء وأنتم العدة والجداء وقال العجم أسوس الملوك من قادر عيته الى طاعته بقلوبها ولا ينبغي للوالي أن يرغب

فى الكرامة التى ينالها من العامة كرها ولكن فى التى يستحقها بحسن الاثر وصواب التدبير وقال عمر بن عبد العزيز انى لاجمع ان أخرج للمسلمين أمرا من العدل فاخاف ان لا تحمله قلوبهم فأخرج معه طمعا من طمع الدنيا فان نفرت القلوب من هذا سكنت الى هذا وقال معاوية لزياد من أسوس الناس أنا أو أنت فقال يا أمير المؤمنين ما جعل الله رجلا حفظ الناس بسيفه كمن اسمع الناس وأطاعوا له باللين ويروى ان سليما مولى زياد فخر بزياد عند معاوية فقال معاوية اسكت فما أدرك صاحبك بسيفه أدركت أكثر منه بلسانى

(الباب الرابع والاربعون فى التحذير من صحبة السلطان)

اتفقت حكماء العرب والعجم ووصاياهم على النهى عن صحبة السلطان قال فى كتاب كليلة ودمنه ثلاثة لا يسلم عليها الا القليل صحبة السلطان وائتمان النساء على الاسرار وشرب السم على التجربة وكان يقال قد خاطر بنفسه من ركب البحر وأعظم منه خطرا صحبة السلطان وقال مردك أحق الامور بالتثبت فيها أمر السلطان فانه من صحب السلطان بغير عقل فقد لبس شعار الغرور وفى حكم الهند أيضا صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر وانما تشبه بالجبل الوعر فيها الثمار الطيبة والسباع العادية والثعابين المهلكة فالارتقاء اليه شديد والمقام فيه أشد وليس يتكافأ خير السلطان وشره لان خير السلطان لا يعدو مزيد المال وشر السلطان قد يزيل المال ويتلف النفس التى لها طلب المزيد ولا خير فى الشئ الذى فى سلامته مال وجاه وفى نكبته الجائحة والتلف ولهذا قيل للعتابى لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الادب قال انى رأيته يعطى عشرة آلاف فى غير شئ ويردى من الصور فى غير شئ ولا أدرى أى الرجلين أكون (وأخبرنى) أبو العباس الجازى وكان ممن دوخ أرض الهند والصين وانتهى الى صير الصين الى جبل الياقوت بالهند وان فيه ثعابين ليس فى معمور الارض أعظم منها فان الواحد منها يبلع الثور صحيحا فلا يصل أحد الى ذلك الجبل ولا يقربه فاذا كثرت الامطار أحدرت السيول منه الحصى وسائر ما فيه من المنافع الى مستقر المياه على مسير أيام من الجبل فيبحث الناس ذلك الحصى فيوجد فيه الواحدة بعد الواحدة من أحجار الياقوت وقال معاوية لرجل من قريش اياك والسلطان فانه يغضب غضب الصبى ويرضى رضا الصبى ويبطش بطش الاسد وقال المأمون لو كنت رجلا من العامة ما صحبت السلطان وقال الاحنف بن قيس ثلاثة لا أقولهن الا ليعتبر بهن لا أحلف جليسى الا بما أحضره به ولا أدخل فى أمر لا أدخل فيه ولا آتى السلطان الا ان يرسل الىّ وقال ابن المقنع لابنه ان وجدت من السلطان وصحبته غنى فاغن عن نفسك واعتزله جهدك فانه من يأخذه السلطان بحقه يحل بينه وبين لذة الدنيا ومن لا يأخذه بحقه يكسبه الفضيحة فى الدنيا والوزر فى الآخرة وقال ميمون بن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز يا ميمون احفظ عنى أربعا لا تصحب سلطانا وان أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر ولا تخلون بامرأة وان قرأتها القرآن ولا تصل من قطع رحمه فانه لك أقطع ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدا (وفى منثور الحكم) كثرة الاشغال مذهلة عن وجود اللذات بكنهها وكم قد رأينا وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه فسد هو به فكان كما قال الاول

عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

ومثل من يصحب السلطان ليصطلمه مثل من ذهب ليقيم حائطا مائلا فاعتمد عليه ليقيمه فخر الحائط عليه فأهلكه وفى كتاب كليلة ودمنة لايسعد من ابتلى بصحبة الملوك فانه لاعهد لهم ولاوفاء ولاقريب ولاحميم ولايكرم عليهم احد الا أن يطمعوا فيما عنده فيقربوه عند ذلك فاذا قضوا حاجتهم تركوه ولاود ولا اخاء الا البلاء يجزى والذنب لايغفر له وقال بزرجمهر لاتصلح صحبة السلطان الا بالطاعة والبذل ولامؤاخاة الاخوان الا باللين والمواساة (وقال) بعض حكماء الفرس المال والسلطان مفسدان لكل أحد الا الرجل له عقل كامل وقالت الحكماء صاحب السلطان كراكب الاسد يخافه الناس وهو لمركبه أخوف وقالوا من لزم باب السلطان بصبر جميل وكظم الغيظ واطراح الاذى رصل الى حاجته كالكرم لايتعلق باكرم الشجر لكن بادناها وكانت العرب تقول ان لم تكن من قرباء الملك فكن من بعدائه (وفى) حكم الهند انما مثل السلطان فى قلة وفائه مع أصحابه وسخاء نفسه عمن فقده بهم كمثل الصبى والمكتب كلما ذهب واحد جاء آخر والعرب تقول السلطان ذو غدوات وذو بدوات وذو ندرا وتريد انه سريع الانصراف كثير البدوات هجام على الامور وأصله من الدرء وهو الدفع

(الباب الخامس والاربعون فى صحبة السلطان)

قال ابن عباس قال لى أبى يابنى انى أرى أمير المؤمنين يستخليك ويستشيرك ويقدمك على الاكابر من أصحاب محمد عليه السلام وانى أوصيك بخلال ثلاث لاتفشين له سرا ولايجربن عليك كذبا ولاتغتابن عنده أحدا (قال) الشعبى قلت لابن عباس كل واحدة منهن خير من ألف قال اى والله ومن عشرة آلاف وقالوا صحبة السلطان بالحذر والصديق بالتواضع والعدو بالجهر والعامة بالبشر ولاتحكم لاحد بحسن رأى الملك الا بحسن أثره (قال) بعض الحكماء لاتستطلع السلطان ما كتمك ولاتفش ما أطلعك عليه من أدل على السلطان استثقله ومن امتن عليه عاداه ومن أظهر انه يستصغره باعده (وقال) بعض الحكماء اذا زادك السلطان تأنيسا فزده اجلالا واذا جعلك السلطان أخا فاجعله أبا وان زادك احسانا فزده فعل العبد مع سيده وان ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس فاخذوا فى الثناء عليه فعليك بالدعاء له وان نزلت منه منزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملق ولاتكثر فى الدعاء له عند كل كلمة فان ذلك شبيه بالوحشة والغربة الا ان تكلمه على رؤس الناس فلا تألوا باعظمته وذكرته وقاله ابن المقفع لتكن حاجتك فى سلطانك ثلاث خلال رضا ربك ورضا سلطانك ورضا من تلى عليه ولاعليك ان تلهو عن المال والذخر فسيأتيك منهما مايكفى ويطيب (وقال) مسلم بن عمرو لمن خدم السلطان لاتغتر بالسلطان اذا أدناك ولاتتغير اذا أقصاك وروى ان بعض الملوك استصحب حكيما فقال له أصحبك على ثلاث خلال قال وما هن قال لاتهتك لى سترا ولاتشم لى عرضا ولاتقبل فى قول قائل حتى تستشيرنى قال هذا لك فما لى عندك قال لاأفشى لك سرا ولاأدخر عنك نصيحة ولاأوثر عليك أحدا قال نعم الصاحب المستصحب انت وقيل لعبد الله بن جعفر ما الخرق قال الدالة على السلطان والوثبة قبل الامكان وقال ابن المقفع أولى الناس بالهلكة الفاحشة المقدم على السلطان بالدالة وقال يحيى بن خالد الدالة تفسد الحرمة القديمة وتضر بالمحبة

المتأكدة وقال بزرجمهر اذا خدمت ملكا من الملوك فلا تسعه في معصية خالقك فان احسانه اليك فوق احسان الملك وايقاعه بك أغلظ من ايقاعه بك أغلظ من ايقاعه اصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار لانهم انما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة فلا تترك الهيبة وان طال انسك بهم فهو حسبهم منك لاتعط السلطان مجهودك في أول صحبتك له فلا تجد بعد ذلك مزيدا موضعا ولكن دع للمزيد موضعا علم السلطان وكانك تتعلم منه وأشر عليه وكانك تستشيره اذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ويثق بك فاياك والدخول بينه وبين بطانته فانك لاتدري متى يتغير لك فيكون عونا عليك اياك ان تعادي من اذا شاء يطرح ثيابه ويدخل مع الملك في ثيابه فعل وفي الامثال القديمة أحذر رماة الحدقة وفيه قيل

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرا * مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

وفي الامثال لاتدل فتمل ولا توجف فتحجف وقال الرشيد لاسمعيل ابن صبيح اياك والدالة فانها تفسد الحرمة وقال سليمان بن داود عليهما السلام لاتغش السلطان ولا تقعد عنه وقال الحكماء شدة الانقباض عن السلطان تورث التهمة وشدة الانبساط تفتح باب الملالة واعلم ان من طلب العز بالذل كانت ثمرة سعيه الذل أحرز منزلتك عند السلطان بمثل ما اكتسبتها من الجد والمناصحة واحذر ان يحطك المتهاون عما رفعك اليه التحفظ ان أشقى الناس بالسلطان صاحبه كما ان أقرب الاشياء الى النار أسرعها احتراقا من لزم باب السلطان بصبر جميل وكظم الغيظ واطراح الاذى وصل الى حاجته (وقال الاحنف بن قيس) لاتنقبضوا عن السلطان ولا تهالكوا عليه فانه من أشرف على السلطان أرداه ومن تضرع له تخطاه * وقال ابن عباس رضي الله عنه ثلاثة من عاداهم عادت عزته ذلة السلطان والولد والعريم واعلم انه اذا يستطيع صحبة السلطان أحد رجلين اما فاجر مصانع ينال حاجته بفجوره ويسلم بصانعته واما مغفل مهين لايحسده أحد فاما من أراد ان يصحب السلطان بالصدق والنصيحة والعفاف فقلما تستقيم له صحبته لانه يجتمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد اما الصديق فينافسه في منزلته فيطعن عليه لنصيحته له فاذا اجتمع عليه هذان الصنفان كان قد تعرض للهلاك * وقال بعض الحكماء من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة لايوحشك من السلطان اكرام الاشرار فان ذلك لضرورة اليهم كما يضطر الملك الى الحجام فيشرط فناه ويخرج دمه (وفي الامثال) لاحلم لمن لاسفيه له * وكان ابن عمر اذا سافر الى مكة استصحب معه رجلا فيه مافيه يستدفع به شر السفهاء وأهل الوقاحة والدعارة وقال المعتصم ان للسلطان لسكرات فخها الرضا عن استوجب السخط والسخط على من استوجب الرضا ومنه قول الحكماء خاطر من لج في البحر وأعظم منه خطرا من صحب السلطان وقال ابن المقفع لابنه لاتعدن شتم السلطان شتما ولا اغلاظه اغلاظا فان ريح العزة تبسطه في غير بأس ولا تعضه (وقال سامد) أحد حكماء الفرس أربعة أشياء ينبغي ان تفسر للفهيم كما تفسر للبليد ولا يتكل فيها على ذكاء أحد تأويل الدين واخلاط الادوية وصفة الطريق المخوف والرأي في السلطان واعلم ان السلطان اذا انقطع منك في الآخرة نسي الاول فارض سامهم متطوعة وحبالهم مصرومة الامن رضوا عنه في وقتهم وساعتهم واذا رأيت من الوالي خللا لاتنبغي

فلا تكابده على ردها فانها رياضة صعبة لكن أحسن مساعدته على أحسن رأيه فاذا استحكمت منه ناحية من الصواب كان ذلك الصواب هو الذي يبصره الخطايا اللطيفة أكثر من تبصرك واجعل العدل من حكمتك فان العدل يدعو بعضه الى بعض فاذا تمكن اقتلع الخطأ ولا تطلب ما قبل الوالي بالمسئلة ولا تستبطئه وان أبطأ ولكن اطلب ما قبله بالاستحقاق والاستيناء فانك اذا استحققته أتاك من غير طلب واذا لم تستبطه كان أعجل له وقال يحيى بن خالد اذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة التبيعة للزوج الاحمق المبغض وقال يحيى بن خالد لبعض اخوانه تنكر لي هرون الرشيد فقال له ارض بقليله من كثيره واياك ان تسخط فيكون اسخط منك

(الباب السادس والاربعون في سيرة السلطان مع الجند)

اعلم ان الجند عدد الملك وحصونه ومعاقله وأوتاده وهم حماة البيضة والذابون عن الحرمة والدافعون عن العورة وهم جنن الثغور وحراس الابواب والعدة للحوادث وامداد المسلمين والحد الذي يلقى العدو والسهم الذي يرمى به والسلاح المدفوع في نحره فبهم يذب عن الحريم وتؤمن السبل وتسد الثغور وهم عز الارض وحماة الثغور والذادة عن الحريم والشوكة على العدو وعلى الجند الجد عند اللقاء والصبر عند البلاء فان كانت لهم الغلبة فليمعنوا في الطلب وان تكن عليهم فليكسروا الاعنة وليجمعوا الاسنة وليذكروا أخبار غد وينبغي للملك ان يتفقد جنده كتفقد صاحب البستان بستانه فيقلع العشب الذي لا ينفعه فمن العشب ما لا ينفع ومع ذلك يضر بالنبات النافع فهو بالقلع اجدر ولا يستصلح الجند الا بادرار أرزاقهم وسد حاجاتهم والمكافأة لهم على قدر عنائهم وبلائهم وجنود الملوك وعددها وقف على سعود الائمة ونحوسها وقال أبرويز لابنه شيرويه لا توسعن على جندك فيستغنوا عنك ولا تضيق عليهم فيضجوا منك واعطهم عطاء قصدا وامنعهم منعا جميلا ووسع عليهم في الرخاء ولا توسع عليهم في العطاء * ولما آفضى الامر الى أبي جعفر المنصور انفذ جيشا وقال لقواده سيروا بمثل هذه السيرة ثم قال صدق الاعرابي اجع كلبك يتبعك فقام أبو العباس الطوسي فقال يا أمير المؤمنين أخشى أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك (ويروى) ان كسرى صنع طعاما في سماط فلما فرغوا ورفعت الآلات وقعت عينه على رجل من أصحابه قد أخذ جاما له قيمة كثيرة فسكت عنه وجعل الخدم يرفعون الآلات فلم يجدوا الجام فسمعهم كسرى يتكامون فقال ما لكم فقالوا فقدنا جاما من الجامات فقال لاعايكم آخذ ممن لا يرده ورآه من لا يفضحه فلما كان بعد أيام دخل الرجل على كسرى وعليه حلية جميلة وحال مستجدة فقال له كسرى هذا من ذاك قال نعم ولم يقل له شيأ (وسئل عمرو بن معاذ) وكان على السوائف بم قدرت على جيوش الصائفة وكان يغزو في كل سنة ويجر الجيوش الى بلاد الروم فقال بسمانة الظهر والقديد وكثرة الكعك (وروى) ان بعض أمراء العرب كان ظالما لرعيته شديد الاذى لهم في أموالهم فعوتب في ذلك فقال اجع كلبك يتبعك فوثبوا عليه فقتلوه فمر به بعض الحكماء فقال ربما أكل الكلب صاحبه اذا لم يشبعه

(الباب السابع والاربعون في سيرة السلطان في استيفاء الخراج)

أيها الملك من طال عدوانه زال سلطانه واعلم ان المال قوة السلطان وعمارة المملكة ولقاحه

الامن ونتاجه العدل وهو حصن السلطان ومادة الملك والمال أقوى العدد على العدو وهو ذخيرة الملك وعمارة المملكة وحياة الارض ومن حقه ان يؤخذ من حقه ويوضع في حقه ويمنع من سرف ولا يؤخذ من الرعية الا ما فضل عن معاشها ومصالحها ثم ينفق ذلك في الوجوه التي يعود عليها نفعها فيا أيها الملك احرص كل الحرص على عمارة الارضين والسلام أيها الملك مرجباة الاموال بالرفق ومجانبة الخرق فان العلقة تنال من الدم بغير أذى ولا سماع صوت مالا تناله البعوضة بلسعتها وهول صوتها (ولما عزل عثمان) عمرو بن العاص عن مصر استعمل عليها ابن أبي السرح فحمل من المال أكثر مما كان يحمله عمرو فقال عثمان يا عمرو أشعرت ان اللقاح درت بعدك فقال عمرو ذلك لانكم أعجفتم أرلادها * وقال زياد احسنوا الى المزارعين فانكم لم تزالوا سمانا ما سمنوا * وفي منثور الحكمة من جاور في الحلب حلب الدم (وفي الامثال) اذا استقصى العجل في مص امه رفصته * وقال جعفر بن يحيى الخراج عمود الملك وما استغزر بمثل العدل ولا استتر بمثل الظلم وأسرع الامور في خراب البلاد تعطيل الارضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج بالجور والتحامل ومثل السلطان اذا حمل على أهل الخراج حتى ضعفوا عن عمارة الارضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو وان قوي من ناحية فقد ضعف من ناحية وما أدخل على نفسه من الوجع والضعف أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع ومثل من كلف الرعية من الخراج فوق طاقتها كالذي يطين سطحه بتراب أساس بيته ومن يدمن حز العمود يوشك ان يضعف فتقع الخيمة واذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الارضين فيتركونها فتخرب الارض ويهرب الزراع فتضعف العمارة فيضعف الخراج وينتج ذلك ضعف الاجناد واذا ضعف الجند طمع الاعداء في السلطان أيها الملك كن بما يبقى في يد رعيتك أفرح منك بما تأخذ منها لا يقل مع الصلاح شيء ولا يبقى مع الفساد شيء وصيانة القليل أولى من تربية الجليل فلا مال لاخرق ولا عيلة لمصلح (وروى) ان المأمون أرق ليلة فاستدعى سميرا فحدثه بحديث فقال يا أمير المؤمنين كان بالموصل يوما وبالبصرة يوما فخطبت بموصل الموصل الى بوصرة البصرة بنتها لابنها فقالت يوصرة البصرة لا أنكحك ابنتي الا ان تجعلي في صداقها مائة ضيعة خراب فقالت بوصرة الموصل لا أقدر عليها الآن ولكن ان دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت لك ذلك قال فاستيقظ المأمون وجلس للمظالم وانصف الناس بعضهم من بعض وتفقد امر الولاة (وسمعت) بعض شيوخ الاندلس من الاجناد وغيرهم يقولون مازال أهل الاسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو في ضعف وانتقاض لما كانت الارض مقطعة في أيدي الاجناد فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يربي التاجر تجارته وكانت الارض عامرة والاموال وافرة والاجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج اليه الى ان كان الامر في آخر أيام ابن أبي عامر فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الاموال على القطع وقدم على الارض جباة يجبونها فاكلوا الرعايا واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم فتهاربت الرعايا وضعفوا عن العمارة فقلت الجبايات المرتفعة الى السلطان وضعفت الاجناد وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ولم يزل أمر المسلمين في نقص وأمر العدو في ظهور الى ان دخلها المتلثمون فردوا الاقطاعات كما كانت في الزمان القديم ولا

أدرى مايكون وراء ذلك

(الباب الثامن والاربعون فى سيرة السلطان فى بيت المال)

وهذا باب سلكت فيه ملوك الطوائف والهند والصين والسند وبعض ملوك الروم خلاف سيرة الانبياء والمرسلين والخلفاء الراشدين فكانت الملوك تدخر الاموال وتحتجبها دون الرعية وتعدها ليوم كريهة على ماوينا فى الباب قبله وكانت الرسل والخلفاء بعدهم تبذل الاموال ولاتدخرها وتصطنع الرعية وتوسع عليها فكانت الرعية هم الاجناد والحماة وهذه سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد علمتم ان جوعه كان أكثر من شبعه وانه مات ودرعه مرهونة فى صاع شعير عند يهودى وكذلك الخلفاء الراشدون بعده أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وابنه الحسن وعمر بن عبد العزيز وان النبى عليه السلام لما فتح الله عليه اليمن كان تجبى له الاموال فيفرقها ليومها وقد توضع فى المسجد وتفرش الانطاع ويفرقها من الغد ولم يكن له بيت مال (وروى) أبو داود فى السنن أن النبى عليه السلام صلى العشاء الآخرة ثم دخل حجرته وخرج مسرعا وفى يديه خريقة فيها ذهب فقسمه ثم قال ماظن ال محمد لو أدركه الموت وهذا عنده ولم يكن للنبى عليه السلام بيت مال ولا للخلفاء الراشدين بعده وانما كانت الخلفاء تقسم الاموال التى جبيت من حلها بين المسلمين وربما يفضل منها فضلات فيجعل فى بيت فمن حضر من غائب أو احتاج من حاضر قسم له حظه ثم يفرق حتى لايبقى فى البيت منه درهم كما روى ان امير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه اشرف على بيت المال وفيه مال فقال ياصفراء ويابيضاء ويا حمراء ابيضى واحمرى وغرى غيرى ثم أمر فقسم جميع مافيه على المسلمين وأمر قنبرا أن يكنسه ويرشه ثم دخل فصلى فيه ثم كثير من الملوك ساروا فى الاموال على نحو هذه السيرة من ملوك الاسلام وملوك الروم ومعظم ماأهلك بلاد الاندلس وسلط عليها الروم ان الروم التى كانت تجاورنا لم تكن لهم بيوت أموال وكانوا يأخذون الجزية من سلاطين الاندلس ثم يدخلون الكنيسة فيقسمها سلطانهم على رجاله بالطاس ويأخذ مثل مايأخذون وقد لايأخذ شيأ منها وانما كانوا يصطنعون بها الرجال وكانت سلاطيننا تحتجب الاموال وتضييع الرجال فكان للروم بيوت رجال وللمسلمين بيوت أموال فبهذه الحيلة قهرونا وظهروا علينا وكان من يذهب هذا المذهب ولايدخر الاموال تضرب فيه الامثال ويقال عدة الملك بيت المال وصديقه جنده فاذا ضعف أحدهما قوى الآخر واذا ضعف بيت المال بيذله للحماة قوى الناصر واشتد بأس الجند وقوى الملك واذا قوى بيت المال وامتلأ بالاموال قل الناصر وضعفت الحماة فضعف الملك فوثبت عليه الاعداء وقد شاهدنا ذلك فى بلاد الاندلس مشاهدة واذا كان الدفاع فى الرجال لافى الاموال وانما يدفع بالاموال بواسطة الرجال فلاشك ان بيت رجال خير من بيت مال وقد قال بعض الملوك لابنه ياابنى لاتجمع الاموال لتتقوى بها على الاعداء فان فى جمعها تقوية الاعداء يعنى اذا جمعت الاموال أضعفت الرجال فيطمع فيك الصديق ويثب عليك العدو وانما مثل الملك فى مملكته مثل رجل له بستان فيها عين معينة فان هو قام على البستان فاحسن تدبيرها فهندس أرضها وغرس أشجارها وخطر على جوانبها ثم أرسل عليها الماء اخضر عودها فقويت اشجارها

وأينعت ثمارها وزكت بركاتها فكانوا جميعا فى أمان من الضيعة ولا يخافون فقرا ولا شتاتا وان هو رغب فى غلتها وجناها ولم ينفق فيها ما يكفيها ولا ساق اليها من الماء ما يرويها رغبة فى الغلة وضنة بالمال ضعفت عمارتها ودقت أشجارها وقلت ثمارها وذهبت غلتها ومحق الدهر ما جبى من غلتها فافتقر القوم وهلكوا وتشتتوا ومثال الملك فى جمع المال ليتقوى به على عدوه مثل طائر يتتف ريشه ويمص أصولها ويأكل ما نبت منها فاذا له طيبها وأعجبه خصب جسمه على ذلك وقوته على عدوه فلم يزل كذلك حتى خف ريشه فسقط الى الارض فاكلته الهوام والحشرات (ورأيت) فى أخبار بعض الملوك ان وزيره اشار عليه بجمع الاموال واقتناء الكنوز وقال ان الرجال وان تشرقوا عنك اليوم فمتى احتجتهم عرضت عليهم الاموال فتهافتوا عليك فقال له الملك هل لهذا من شاهد قال نعم هل بحضرتنا الساعة ذباب قال لا قال فامر باحضار جفنة فيها عسل فحضرت فتساقط عليها الذباب لوقتها فاستشار السلطان بعض أصحابه فى ذلك فنهاه عن ذلك وقال لا تغير قلوب الرجال فليس فى كل وقت أردتهم حضروا فسأل هل لذلك من دليل قال نعم اذا أمسينا سأخبرك فلما أظلم الليل قال للملك هات الجفنة فحضرت ولم تحضر ذبابة واحدة (وقد روينا) عن سيرة بعض السلاطين فى أرض مصر وكان قد ملكها وكان اسمه يادقور انه كان يجمع الاموال ولا يحفل بالرجال فقال له أصحابه ان أمير الجيوش بالشام وهو يتواعدك وكأنه قد قدم عليك فاستعد بالرجال وانفق فيهم الاموال فاومأ الى صناديق موضوعة عنده وقال الرجال فى الصناديق فعزا أمير الجيوش ذلك الملك فى مصر وقتله وتسلم الصناديق والملك فكان رأيه رأيا فاسدا لان رجالا يقيمهم لوقته ويصطنعهم لحاجته انما يكونون أجنادا مجتمعين وشرذمة ملتقين ليس فيهم عناء ولا عندهم دفاع ولا ممارسة للحروب (ومن السير) المروية فى هذا الباب انه لما فتحت العراق جىء بالمال الى عمر فقال صاحب بيت المال أدخله بيت المال فقال لا ورب الكعبة لا يؤوى تحت سقف بيت حتى نقسمه فغطى فى المسجد بالانطاع وحرسه رجال من المهاجرين والانصار فلما أصبح نظر الى الذهب والفضة والياقوت والزبرجد والدر يتلألأ فبكى فقال له العباس أو عبد الرحمن بن عوف يا أمير المؤمنين والله ما هذا بيوم بكاء ولكنه يوم شكر وسرور فقال انى والله ما ذهبت حيث ذهبت ولكنه والله ما كثر هذا فى قوم الا وقع بأسهم بينهم ثم أقبل على القبلة ورفع يديه وقال اللهم انى أعوذ بك أن أكون مستدرجا فانى أسمعك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ثم قال أين سراقة بن جعشم فاتى به أشعر الذراعين دقيقهما فاعطاه سوارى كسرى وقال البسهما ففعل فقال قل الله أكبر قال الله أكبر قال قل الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سراقة بن جعشم اعرابيا من بنى مدلج ثم قبلهما وقال ان الذى أدى هذا الامين فقال له رجل أنا أخبرك أنت أمين الله تعالى وهم يؤدون اليك ما أديت لله تعالى فاذا ارتعت رتعوا قال صدقت وانما ألبسهما سراقة لان النبى صلى الله عليه وسلم قال لسراقة ونظر الى ذراعيه كأنى بك قد لبست سوارى كسرى ولم يجعل له الا السوارين (ولما ولى أبو بكر الصديق) رضى الله عنه جاءه مال من العمال فصب فى المسجد وأمر فنادى من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم دين أو عدة فليحضر قال أبو أيوب الانصارى فجئته

فقلت ياخليفة رسول الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لي لو قد جاءني مال أعطيتك هكذا وهكذا وأشار بكفيه فسكت أبو بكر فانصرفت ثم عاودته فسكت عني ثم انصرفت وعاودته فقلت اما أن تعطيني واما أن تبخل عني فقال ما أبخل عنك اذهب فخذ فقمت حفنة قال عدها فعددتها فوجدت فيها خمسمائة دينار وأبو أيوب من أغنياء الانصار وهو نزيل النبي صلى الله عليه وسلم دل الحديث على ان بيت المال للغني والفقير ودل أيضا انه لا يجب أن يساوى فيه جميع المسلمين بل ذلك موكول الى اجتهاد الامام

(فصل) قال الحسن بن علي الاسدي أخبرني أبي قال وجدت في كتاب قبطي باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف من أموال مصر بحق الخراج مما يؤخذ من وجوه الجبايات لسنة واحدة على العدل والانصاف والرسوم الجارية من غير اضطهاد ولا مناقشة وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان نظرا للمعاملين وتقوية لحالهم من العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف دينار من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد لحفر الخليج والانفاق على الجسور وسد الترع واصلاح المنشآت ثم تقوية من يحتاج الى تقويته من غير رجوع عليه بها لاقامة العوامل والتوسعة في البذار وغير ذلك من الآلات وأجرة من يستعان به لحمل البذار وسائر نفقات تطبيق الارضين ثمانمائة ألف دينار ولما ينصرف في ارزاق الاولياء الموسومين بالسلاح ومن في جملتهم من الشادية والغلمان وأشياعهم وعدة جميعهم مع ألف كاتب موسومين بالدواوين سوى أتباعهم من الخزان ومن يجري مجراهم مائة ألف واحدى عشر ألف دينار وثمانية ألف ألف درهم ولما ينصرف للارامل والايتام يرضون به من بيت المال وان كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من بر فرعون اربعمائة ألف دينار ولما ينصرف في كهنة برابيهم وسائر بيوت صلواتهم مائتا الف دينار ولما ينصرف في الصدقات مما يصب صبا وينادى برئت الذمة من رجل كشف وجهه افاقة ولم يحضر فيحضر لذلك من يحضر ولا يرد أحد والامناء جلوس فاذا رأوا انسانا لم يجر رسمه بان يأخذ افردوه بعد قبضه ما قبضه حتى اذا فرق المال واجتمع من هذه الطائفة عدد دخل أمناء فرعون اليه وهنؤه بتفرقة المال ودعوا له بطول البقاء ودوام العز والسلامة وأنهى اليه حال تلك الطائفة فيأمر بتغيير شعثها بالحمام واللباس ثم يعد السماط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستعلم من كل واحد سبب فاقته فان كان ذلك من آفة الزمان رد عليه مثل ما كان له وان كان سوء رأى وتدبير غير مستقيم ضمه الى من يشرف عليه ويأخذه بالادب والمعرفة التي لا يصلح الا بها مائتا ألف دينار ولما ينصرف من نفقات فرعون الراتبة لسنته مائتا ألف دينار تكون النفقات على ما تقدم تفصيلها تسعة آلاف ألف وثمانمائة الف دينار ويحصل بعد ذلك ما يسلمه يوسف الصديق عليه السلام ويحصله لفرعون في بيت المال لنوائب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار (وقال أبو رهم) كانت ارض مصر أرضا مدبرة حتى ان الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيحبسوه كيف شاؤا ويرسلوه كيف شاؤا وذلك قول فرعون أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي أفلا تبصرون وكان ملك مصر عظيما لم يكن في الارض أعظم من ملك مصر وكانت الجنات بحافتي النيل متصلة لا ينقطع منها شئ عن شئ والزرع كذلك من اسوان الى رشيد وكانت أرض مصر كلها

تروى من ستة عشر ذراعا الماء بر وافى جسورها وحافاتها والزروع ما بين الجبلين من أولها
الى آخرها وذلك قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها
فاكهين والمقام الكريم المنابر وكان بها ألف منبر (وقال عبد الله بن عمرو) استعمل فرعون
هامان على حفر خليج سردوس فاخذ فى حفره وتدبيره فجعل أهل القرى يسألونه ان يجرى
الخليج تحت قريتهم ويعطوه مالا وكان يذهب به من قرية الى قرية من الشرق الى الغرب ومن
الشمال الى القبلة ويسوقه كيف أراد فليس فى مصر خليج أكثر عطوفا منه فاجتمع له من
ذلك أموال عظيمة فحملها الى فرعون وأخبره بالخبر فقال له فرعون انه ينبغى للسيد أن يعطف
على عبيده ويفيض عليهم من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بايديهم ورد على أهل القرى
ما أخذت منهم فرد عليهم أموالهم فهذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه ولا يخاف
عذابه ولا يؤمن بيوم الحساب فكيف يجب ان تكون سيرة من يقول لا اله الا الله ويوقن
بالحساب والثواب والعقاب (وقال ابن عباس) رضى الله عنهما فى قوله تعالى اجعلنى على
خزائن الارض انى حفيظ عليم قال هى خزائن مصر وكانت أربعين فرسخا فى مثلها ولم يطع
يوسف فرعون ويحالفه وينوب عنه الا بعد أن دعاه الى الاسلام فاسلم فحينئذ قال اجعلنى على
خزائن الارض (ولما استوثق) أمر يوسف الصديق عليه السلام وكل وصارت الاشياء اليه
وأراد ربك أن يعوضه على صبره لما لم يركب محارمه وحلت سنوا الغلاء والجوع مات العزيز
وذهبت الذخائر وافتقرت زليخا وعمى بصرها وجعلت تتكفف الناس فقيل لها لو تعرضت
للملك لعله يرحمك ويغنيك فظلما حفظتيه وأكرمتيه ثم قيل لها لا تفعلى لانه ربما يتذكر
ما كان منك اليه من المراودة والحبس فيسىء اليك ويكافئك فيما سبق منك اليه فقالت أنا
أعلم بحلمه وكرمه وجلست له على رابية فى طريقه يوم خروجه وكان يركب فى زهاء مائة ألف
من عظماء قومه وأهل مملكته فلما أحست به قامت وقالت سبحان من جعل الملوك عبيدا
بمعصيتهم وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم فقال يوسف ومن أنت قالت أنا التى كنت اخدمك
على صدور قدمى وأرجل جمتك بيدى وأكرم منوالك بجهدى وكان منى ما كان وذقت
وبال أمرى وذهبت قوتى وتلف مالى وعمى بصرى وصرت أسأل الناس فمنهم من يرحمنى
ومنهم من لا يرحمنى بعدما كنت مغبوطة أهل مصر كلها صرت مرحومتهم بل محرومتهم
هذا جزاء المفسدين فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديدا وقال لها هل بقى فى قلبك من حبك
اياى شىء فقالت والذى اتخذ ابراهيم خليلا لنظرة اليك أحب الىّ من ملء الارض ذهبا
وفضة فمضى يوسف وأرسل اليها ان كنت ايما تزوجناك وان كنت ذات بعل أغنيناك
فقالت للرسول الملك أعرف بالله من أن يستهزئ بى هو لم يردنى فى أيام شبابى وجمالى فكيف
يقبلنى وأنا عجوز عمياء فقيرة فامر بها يوسف عليه السلام فجهزت فتزوجها وأدخلت عليه
فصف قدميه وجعل يصلى ودعا الله باسمه الاعظم فرد الله تعالى عليها شبابها وجمالها
وبصرها كهيئتها يوم راودته فراقعها فاذا هى بكر فولدت له افراثيم بن يوسف وميشا بن
يوسف وطاب فى الاسلام عيشهما حتى فرق الدهر بينهما فيجب للقوى أن لا يغنى الضعيف
وللغنى أن لا ينسى الفقير فرب مطلوب يصير طالبا ومرغوب اليه يصير راغبا ومسؤل يصير

سائلا وراحم يصير مرحوما (فهذا يوسف) الصديق عليه السلام انظر الى ضعفه فى يد اخوته يوم الجب ثم ضعفهم بين يديه يوم الصاع (وهذه زليخا) ملكة مصر وسيدة أهلها عادت تتكفف الناس فى الطرقات قال الله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها فكان يوسف عليه السلام بعد هذا يجوع ويأكل خبز الشعير ولا يشبع فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الارض قال أخاف أن أشبع فانسى الجائعين (وقد رأيت) أن ألحقه بمنقبة فى مثلها يتنافس العقلاء ويرغب فيها الملوك والوزراء وذلك انى لما كنت بالعراق وكان الوزير نظام الملك والغالب على ألقابه خواجا بزرك رحمه الله تعالى قد وزر لأبى الفتح ملكشاه ابن الب ارسلان وكان قد وزر لأبيه من قبله فقام بدولتهما أحسن قيام فشد أركانها وشيد بنيانها واستمال الاعداء ووالى الاولياء واستعمل الكفاة وعم احسانه العدو والصديق والبغيض والحبيب والبعيد والقريب حتى ألقى الملك بجرانه وذل الخلق لسلطانه وكان الذى مهد له ذلك باذن الله تعالى وتوفيقه انه أقبل بكليته على مراعاة جمال الدين فبنى دور العلم للفقهاء وأنشأ المدارس للعلماء وأسس الرباطات للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء ثم أجرى لهم الجرايات والكساوى والنفقات وأجرى الخير والرزق لمن كان من أهل الطلب للعلم مضافا الى ارزاقهم وعم بذلك سائر أقطار مملكته فلم يكن من أوائل الشام وهى بيت المقدس الى سائر الشام الاعلى وديار بكر والعراقين وخراسان باقطارها الى سمرقند من وراء نهر جيحون مسيرة زهاء مائة يوم حامل علم أو طالبه أو متعبد أو زاهد فى زاويته الا وكرامته شاملة له وسابغة عليه وكان الذى يخرج من بيوت أمواله فى هذه الابواب ستمائة ألف دينار فى كل سنة فوشى به الوشاة الى أبى الفتح الملك وأوغروا صدره عليه وقالوا ان هذا المال المخرج من بيوت الاموال يقيم به جيشا يركز رايته فى سور قسطنطينية فخامر ذلك قلب أبى الفتح الملك فلما دخل عليه قال يا أبت بلغنى انك تخرج من بيوت الاموال كل سنة ستمائة ألف دينار الى من لا ينفعنا ولا يغنى عنا فبكى نظام الملك وقال يا بنى أنا شيخ أهجمى لو نودى على فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير وأنت غلام تركى لو نودى عليك عسى تحفظ ثلاثين دينارا وأنت مشتغل بلذاتك منهمك فى شهواتك واكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك وجيوشك الذين تعدهم للنوائب اذا احتشدوا كفوا عنك بسيف طوله ذراعان وقوس لا ينتهى مدى مرماه ثلثما ئة ذراع وهم مع ذلك مستغرقون فى المعاصى والخمور والملاهى والمزمار والطنبور وأنا أقيت لك جيشا يسمى جيش الليل اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفا بين يدى ربهم فارسلوا دموعهم وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك فانت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون وبدعائهم تبيتون وببركاتهم تمطرون وترزقون تخرق سهامهم الى السماء السابعة بالدعاء والتضرع فبكى ابو الفتح الملك بكاء شديدا ثم قال شاباش يا أبت شاباش أكثر لى من هذا الجيش (ومن مناقب) هذا الرجل وفضائله ان رجلا قصده يقال له أبو سعيد الصوفى فقال له يا خواجا أنا أبنى لك مدرسة ببغداد مدينة السلام لا يكون فى معمور الارض مثلها يخلد بها ذكرك الى أن تقوم الساعة

قال

قال افعل وكتب الى وكلائه ببغداد أن يكنزوا من الاموال فابتاع بقعة على شاطئ دجلة وخط المدرسة النظامية وبناها أحسن بنيان وكتب عليها اسم نظام الملك وبنى حولها أسواقا تكون محبسة عليها وابتاع ضياعا وخانات وحمامات وأوقفت عليها فكملت لنظام الملك بذلك رياسة وسودد وذكر جميل طبق الارض خبره وعم المشارق والمغارب أثره وكان ذلك فى سنى عشر الخمسين وأربعمائة من الهجرة ثم رفع حساب النفقات الى نظام الملك فبلغ ما يقارب ستين ألف دينار ثم نمى الخبر الى نظام الملك من الكتاب وأهل الحساب أن جميع ما أنفق فيها نحو من تسعة عشر ألف دينار وان سائر الاموال احتجبها لنفسه وخانك فيها فدعاه نظام الملك الى اصبهان للحساب فلما أحس أبو سعيد بذلك أرسل الى الخليفة أبى العباس يقول هل لك فى أن أطبق الارض بذكرك وأنشر لك ذخرا لا يمحوه الايام قال وما هو قال تمحو اسم نظام الملك عن هذه المدرسة وتكتب عليها اسمك وتزن له ستين ألف دينار فأرسل اليه الخليفة يقول له أنفذ من يقبض المال فلما استوثق منه مضى الى أصبهان فقال له نظام الملك انك قد رفعت الينا نحوا من ستين ألف دينار نفقة وأحب اخراج الحساب فقال له ابو سعيد لا تطل الخطاب ان رضيت والا محوت اسمك المكتوب عليها وكتبت عليها اسم غيرك وأرسل من يقبض المال فلما أحس نظام الملك بذلك قال ياشيخ قد سوغناك جميع ذلك كله ولا تمح اسمنا ثم ان أبا سعيد بنى بتلك الاموال الرباطات للصوفية واشترى الضياع والخانات والبساتين والدور ووقف جميع ذلك على الصوفية فالصوفية الى يومنا هذا فى رباط أبى سعيد الصوفى وأوقافه يتقلبون ببغداد فتى هذه المناقب فليتنافس المتنافسون ولمثل هذا فليعمل العاملون فان فيها عز الدنيا وشرف الآخرة وحسن الصيت وخلود جميل الذكر فانما لم نجد شيأ يبقى على الدهر الا الذكر حسنا كان أو قبيحا وقال الشاعر

ولا شئ يدوم فكن حديثا * جميل الذكر فالدنيا حديث

فانتهز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الامر وقدم لنفسك كما قدموا تذكر بالصالحات كما ذكروا وادخر لنفسك فى الآخرة كما ادخروا واعلم ان الماكول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو فاختر أى الثلاث شئت والسلام (وكا) ابن أبى دواد الوزير واسع النفس مبسوط اليدين يعطى الجزيل ويستقل الكثير ولا يرد سؤالا ويبتدئ بالنوال فقال له الواثق أمير المؤمنين يوما قد بلغنى بسط يدك بالاعطاء وهذا يتلف بيوت الاموال فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال يا أمير المؤمنين ذخائر أجرها أصل الملك ومفاتيح شكرها موصولة بك وانما لى من ذلك تعشق فى ايصال الثناء اليك فقال الواثق لله أنت جد بالعطاء وأكثر بالشكر والثناء

(الباب التاسع والاربعون فى سيرة السلطان فى الانفاق من بيت المال وسيرة العمال)

اعلم ان يوسف الصديق عليه السلام لما ملك خزائن الارض كان يجوع ويأكل الشعير فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الارض فقال أخاف أن أشبع فانسى الجائعين (وروى) البيهقى باسناده قال لما استخلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه غدا الى السوق فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه أين تريد قال السوق قال قد جاءك ما يشغلك عن السوق قال سبحان الله يشغلنى

عن عيالي قال نفرض لك بالمعروف قال فأنفق في سنتين وبعض أخرى ثمانية آلاف درهم ووصى أن ترد من ماله في بيت المال (وروى) هذه القصة الحسن البصري قال لما حضرت أبا بكر الوفاة قال انظروا كم أنفقت من مال الله فوجدوا قد أنفق في سنتين ونصف ثمانية آلاف درهم قال اقضوها عني فقضوها عنه ثم قال يا معشر المسلمين انه قد حضر من قضاء الله ما ترون ولا بد لكم من رجل يلي أمركم ويصلي بكم ويقاتل عدوكم فان شئتم اجتمعتم وائتمرتم لكم وان شئتم اجتهدت لكم فوالذي لا اله الا هو ما آلوكم ونفسي خيرا فبكوا وقالوا أنت خيرنا وأعلمنا فاختر لنا فقال قد اخترت لكم عمر (وروى) مالك هذه القصة على غير هذا الوجه قال بلغني ان أبا بكر لما ولي لم ينفق من مال الله شيأ وغدا يوما من بني عمرو بن عوف وكانت له هناك امرأة من الانصار في جمال له يريد أن يبيعها فلقيه بعض المسلمين فقالوا له ما تصنع هذا يشغلك عن الناس وعن النظر في أمرهم قال فكيف أصنع قالوا تتفرغ للنظر في أمورهم وتستنفق من هذا المال فباع تلك الابل وغيرها من ماله الا الارض ثم طرحه في بيت المال فكان ينفق من المال على نفسه وعلى عياله * ثم كان عمر على مثل ذلك * ثم وليه عمر بن عبد العزيز فلم ينفق منه فقيل له قد صنع أبو بكر وعمر ما قد علمت قال أجل ولكني أخذت من هذا المال فان يكن لي فيه حق فقد استوفيت وزدت ولولا ذلك لنعلت (قال) ابن القاسم قلت لمالك فاين قولهم عن عمر انه رد ثمانين ألفا قال كذبوا انما يقول هذا أعداء الله هو لم يجز لولد مسلف أبي موسى اياه حين أخذ منه نصفه فكيف يأخذ من مال الله ثمانين ألفا * فلما توفي أبو بكر استرجع علي رضي الله عنه وجاء مسرعا باكيا وقال رحمك الله يا أبا بكر لقد كنت والله أول القوم اسلاما وأكملهم ايمانا وأشدهم يقينا وأخوفهم لله تعالى وأحوطهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشبههم به هديا وخلقا وسمتا وفضلا وأكرمهم عليه وأرفعهم عنده فجزاك الله عن الاسلام خيرا صدقت رسول الله حين كذبه الناس فسماك الله في كتابه صديقا فقال تعالى والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون وآنسته حين تخلفوا وقمت معه حين قعدوا وصحبته في الشدة حين تفرقوا أكرم الصحبة ثاني اثنين وصاحبه في الغار ورفيقه في الهجرة والمنزل عليه السكينة وخلفته في أمته أحسن الخلافة فقويت حين ضعف أصحابك وبرزت حين استكانوا وقمت بالامر حين فشلوا ومضيت بقوة اذ وقفوا كنت أطولهم صمتا وأبلغهم قولا وأشجعهم قلبا وأشدهم يقينا وأحسنهم عملا كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا في بدنك قويا في أمر دينك متواضعا في نفسك عظيما عجبوبا الى أهل السموات والارض فجزاك الله عنا وعن الاسلام خيرا (وقال) عمر رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده تعبا شديدا (وروى) البيهقي عن عمر رضي الله عنه انه قال اني أنزلت نفسي من مال الله تعالى بمنزلة ولي اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف (وفي رواية أخرى) ان احتجت أخذت منه فاذا أيسرت رددته (وفي رواية أخرى) أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى وما قال يحل لي أستحل منه حلتين حلة للشتاء وحلة للقيظ وما أحج عليه وأعتمر وقوتي وقوت عيالي كقوت رجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم ثم انه بعد ذلك رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم (وقال) أنس بن مالك غلا الطعام على عهد عمر

رضى الله عنه فاكل خبز الشعير وكان قبل ذلك لا يأكله فاستنكره بطنه فصوت فضربه بيده وقال هو والله ما ترى حتى يوسع الله على المسلمين (وقال) أبو عثمان النهدى رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطوف بالبيت وعليه جبة صوف فيها اثنتا عشرة رقعة احداها بادم أحمر (وقال) عطاء بن السائب استعمل عمر بن الخطاب السائب بن الاقرع على المدائن فدخل ايوانا من ايوان كسرى فاذا صنم يشير باصبعه الى الارض قد عقد أربعين فقال والله ما يشير هذا الى الارض الا وتحتها شئ فاحتفروا فاستخرجوا منه سفطا فيه جوهر فكتب الى عمر بن الخطاب أما بعد فانى دخلت ايوانا من ايوان كسرى فرأيت كذا وكذا فاحتفرت فأخرجت سفطا فيه جوهر فلم أجد أحق به منك يا أمير المؤمنين لم يكن من فىء المسلمين فاقسمه بينهم انما أصبناه تحت الارض فلما قدم السفط على عمر وعليه خاتم السائب فرأى عمر فيما يرى النائم كأن نارا أججت وهو يراد يلقى فيها فكتب الى السائب أن اقدم على فقال فقدمت عليه وهو يطوف فى ابل الصدقة فطفت معه الى نصف النهار ثم دعا بماء فاغتسل ودعا لى بماء فاغتسلت ثم ذهب الى منزله فاتى بلحم غليظ وخبز متحمش فقال انظر من على الباب فاذا سودان من الصوفية فاذن لهم فجعل يأكل معهم فاذا لحم غليظ لا أستطيع أن أسيغه وقد كنت تعودت درمك أصبهان اذا وضعته فى فى دخل بطنى ثم دعا بالسفط وقال أتعرف خاتمك قلت نعم فقال كتبت ترفق لى تزعم انى أحق به من أين أصبته فأخبرته قال اذهب فاجعله فى بيت مال المسلمين حتى أقسمه بينهم (وقال) قتادة قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام فصنع له طعام لم ير قبله مثله فقال هذا لنا فما للفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير قال خالد بن الوليد لهم الجنة فاغرورقت عينا عمر وقال لئن كان حظنا فى هذا الطعام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيدا (وقال) عبد الله بن عمر العمرى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين قدم الشام قال لابى عبيدة اذهب بنا الى منزلك قال ما تريد الى ان تقصر عينك على قال فدخل منزله فلم ير شيأ فقال عمر أين متاعك لا أرى الا بدا أوثنا وصحفة وأنت أمير أعندك طعام فقام أبو عبيدة الى جونة فأخرج منها كسرات فبكى عمر فقال أبو عبيدة قد قلت لك انك تقصر عينك على يا أمير المؤمنين يكفيك من الدنيا ما بلغك المقيل فقال عمر غرتنا الدنيا بعدك يا أبا عبيدة (وقال) النخعى بعث عمر بن الخطاب مصدقين فأبطؤا عليه وبالناس حاجة شديدة فجاؤا بالصدقات فقام فيها متزرا بعباءة يختلف فى أولها وآخرها يقول هذه لآل فلان وهذه لآل فلان حتى انتصف النهار وجاع ودخل بيته حتى اذا أمكن أكله أكله ثم قال من أدخله بطنه أبعده الله (وقال) طاوس اجدب الناس على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فما أكل سمنا ولا سمينا حتى أكل الناس (وقال) سعيد بن جبيران عليا رضى الله عنه قدم الكوفة وهو خليفة وعليه ازار ان قطريان قد رقع ازاره بخرقة ليست بقطرية من ورائه فجاءه اعرابى فنظر الى تلك الخرقة فقال يا أمير المؤمنين كل من هذا الطعام والبس واركب فانك ميت أو مقتول قال ان هذا خير لى فى صلاتى وأصلح لقلبى وأشبه بشبه الصالحين قبلى وأجدر أن يقتدى بى من أتى من بعدى (وقال) الحسن ان عمر بن الخطاب بينا هو يعس فى المدينة بالليل أتى على امرأة من الانصار تحمل قربة فسألها فذكرت ان لها عيالا وأن ليس لها خادم وأنها تخرج فى الليل فقسم لهم

الماء وتكره أن تخرج بالنهار فحمل عمر عنها القربة حتى بلغ منزلها وقال اغدى على عمر غدوة يخدمك خادما قالت لا أصل اليه قال انك ستجدينه ان شاء الله تعالى فغدت عليه فاذا هي به فعرفت أنه الذي حمل قربتها فذهبت تولي فأرسل في اثرها وأمر لها بخادم ونفقة * ولما جاع عمر رضي الله عنه قال كم بلغت نفقتنا يا يرفا قال ثمانية عشر دينارا يا أمير المؤمنين قال ويحك أجحفنا ببيت مال المسلمين (وقال) شهر بن حوشب لما قدم عمر الشام طاف بكورها حتى نزل حمص فقال اكتبوا لي فقراءهم فرفعوا اليه الرقعة واذا فيها سعيد بن عامر فقال من سعيد بن عامر قالوا أميرنا فعجب عمر وقال كيف يكون أميركم فقيرا فقالوا انه لا يصلك شيء فبكى عمر وبعث اليه بألف دينار يستعين بها في حاجته فجعل يسترجع فقالت له امرأته مالك أصابك امير المؤمنين بشيء قال أعظم من ذلك أتتني الدنيا دخلت علي الدنيا واني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ان فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل أغنيائها باربعين عاما فوالله ما يسرني أني حبست عن الرعيل الاول وان لي به ما طلعت عليه الشمس قالت فاصنع فيه ما شئت قال هل عندك معونة قالت نعم فأتته بخمارها فصر الدنانير فيها صررا ثم جعلها في مخلاة وبات يصلي ويبكي حتى أصبح فأعرض جيشا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها فقالت امرأته رحمك الله لو حبست منها شاة نستعين به فقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لو اطلعت امرأة من نساء اهل الجنة الى الارض لملأت الارض من ريح المسك واني والله ما اخترت لك عليهن فسكتت (وروى) ان عمر رضي الله عنه استعمل على حمص رجلا يقال له عمير بن سعد فلما مضت السنة كتب اليه ان يقدم عليه فلم يشعر به عمر الا أن قدم ماشيا حافيا معه عكازته وادواته ومزودته وقصعته على ظهره فلما نظر اليه عمر قال يا عمير أختنا أم البلاد بلادسوء فقال يا امير المؤمنين آمانك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن وما ترى من سوء الحال وقد جئتك بالدنيا أجرها بقرابها فقال وما معك من الدنيا قال عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا ان لقيته ومزودي احمل فيه طعامي واداوتي هذه احمل فيها ماء لشربي وصلاتي وقصعتي هذه أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسي وآكل فيها طعامي فوالله يا امير المؤمنين ما الدنيا بعد الا تبع لما معي قال فقام عمر من مجلسه الى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر فبكى ثم قال اللهم ألحقني بصاحبي غير مفتضح ولا مبدل ثم عاد الى مجلسه ثم قال ما صنعت في عملك يا عمير قال أخذت الرقة من اهل الرقة والابل من أهل الابل وأخذت الجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي منها شيء عندي أتيتك به فقال عمر عد الى عملك فقال عمير أنشدك الله ان لا ترديني الى عملي فاني لم أسلم منه حتى قلت لذمي اخزاك الله ولقد خشيت أن يخصمني له محمد صلى الله عليه وسلم ولقد سمعته يقول أنا حجيج المظلوم فما حاجته حجيجه ولكن ائذن لي الى أهلي فأذن له فأتى أهله فبعث عمر رجلا يقال له حبيب بمائة دينار فقال ائت عميرا فانزل عليه ثلاثا فان بك خائنا لم يخف عليك في عيشه وحال أهل بيته وان لم يك خائنا لم يخف عليك فادفع اليه المائة فأتاه حبيب فنزل به ثلاثا فلم ير له عيشا الا الشعير والزيت فلما مضت ثلاث قال يا حبيب ان رأيت أن تحول الى جيراننا فلعل ان يكونوا أوسع عيشا منا أما نحن فوالله لو كان

قوله فما حاجته هكذا في النسخة التي بايدينا ولعله فمن أو استعمل ما فيمن يعقل اه

عندنا غير هذا الاثر نأتك به (قال) فدفع اليه المائة وقال بعث بها اليك أمير المؤمنين فدعا بشرو خلق لامرأته فصرها الخمسة والستة والسبعة فقسمها فقدم حبيب على عمر فقال يا أمير المؤمنين جئتك من عند أزهد الناس وما عنده من الدنيا الا قليل ولا كثير فبعث اليه عمر وقال ما صنعت في المائة يا عمير قال لا تسألني عنها قال لتخبرني (قال) قسمتها بيني وبين اخواني المهاجرين والانصار قال فامر له بوسق طعام ونوبين قال يا أمير المؤمنين (أما الثوبان) فأقبل (وأما الوسقان) فلا حاجة لي بهما عند أهلي صاع من بر هو كافيهم حتى ارجع اليهم (وروى) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه صر اربعمائة دينار وقال للغلام اذهب بها الى عبيدة بن الجراح ثم تلكأ ساعة في البيت حتى ترى ما يصنع فذهب بها الغلام اليه وقال يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك قال وصله الله ورحمه (ثم قال) تعالي يا جارية اذهبي بهذه السبعة الى فلان وبهذه الخمسة الى فلان حتى أنفدها ورجع الغلام الى عمر فاخبره (ووجده) قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال له اذهب بهذه الى معاذ بن جبل وتلكأ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع فيها فذهب بها اليه وقال ان أمير المؤمنين يقول لك اجعل هذه في بعض حاجتك فقال رحمه الله وأوصله (ثم قال) يا جارية اذهبي الى فلان بكذا والى فلان بكذا فقالت امرأته معاذ ونحن والله مساكين فأعطنا ولم يبق في الخرقة الا دينار ان فرمى بهما اليها فرجع الغلام فاخبر بذلك عمر فقال عمر انهم اخوة بعضهم من بعض

(الباب الموفي خمسين في سيرة السلطان في تدوين الدواوين وفرض الارزاق وسيرة العمال)

(اعلم) أرشدك الله تعالى ان اول من اتخذ الدواوين واجرى العطية على ما روي عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان يفضل أهل السابقة ثم الذين يلونهم حتى اجرى على العامة شيأ واحدا ثلثمائة واربعمائة وفرض للعيال مائة درهم في كل سنة (وكان) أبو بكر رضي الله عنه يساوي بين الناس في العطاء ولا يفضل أهل السابقة ويقول انما عملوا لله فاجورهم على الله وانما هذا المال عرض حاضر يأكله البر والفاجر وليس ثمنا لاعمالهم (وكان) عمر يقول لا اجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ولم يقدر عمر الارزاق الا في ولاية عمار فاجرى على عمار ستمائة درهم مع عطائه لولايته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه في كل شهر لما بعثه وبعث معه عثمان بن حنيف وابن مسعود الى العراق وأجرى عليه في كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ونصف جريب كل يوم وأجرى على عثمان بن حنيف ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه (وكان) عطاؤه خمسة آلاف درهم وأجرى على عبد الله ابن مسعود مائة درهم في كل شهر وربع شاة في كل يوم وأجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر وعشرة اجرية (وانما) فضل عمارا عليهم لانه كان على الصلاة (قال) مالك وكان عمر لا يفرض لصغير رضيع فاذا فطم فرض له فمر من الليل وصبي يبكي يبغي الرضاع وامه لا ترضعه فقال لها عمر أرضعيه قالت اذا لا يفرض له عمر قال بلى هو يفرض له ثم فرض عمر بعد ذلك للمولود مائة درهم في كل سنة (قال ابن) حبيبة وفرض عمر للعيالات لكل عيل من ذكر وأنثى جريبين من بر في كل شهر وقسطين من زيت وقسطا من خل ومائة درهم في كل

سنة (قال) والجريب قفيزبالقرطبي والقسط قدرثمن ربع الزيت بالقرطبي (قال) الحسن وكان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان على زهاء ثمانين الف من الناس (وكان) يخطب الناس في عباءة يلبس نصفها ويفترش نصفها فاذا خرج عطاؤه امضاه وكان يسف الخوص ويا كل من سفيف يده (وقال) الحسن قدم على عمر بن الخطاب وفد من البصرة مع أبي موسى الاشعري قال فكنا ندخل عليه وله كل يوم خبز ثلاث (فربما) وافقناها مأدومة بسمن واحيانا بزيت واحيانا باللبن وربما وافقنا القديد اليابس قددق ثم أغلى عليه بماء وربما وافقنا اللحم الغريض وهو قليل فقال لهم يوما انى أرى والله تقذيركم وكراهيتكم لطعامي فانى لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وارقكم عيشا اما والله ما اجهل كراكرواسفة وأعرف صلاءوصنابا وصلائق (قال) والصلاء الشواء والصناب الخردل والصلائق الخبز الرقاق ولكني سمعت الله تعالى عير أقواما بامر فعلوه فقال أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فكلمنا أبو موسى فقال لو كلمتم أمير المؤمنين لفرض لكم من بيت المال طعاما فأكلتموه فكلمناه فقال يا معشر الامراء هل ترضون لانفسكم ما أرضاه لنفسي فقلنا يا أمير المؤمنين ان المدينة ارض العيش بها شديد ولا نرى طعامك يغنينا ولا يؤكل طعامك وانا بارض ذات ريف وان أميرنا يغنينا وان طعامه يؤكل قال فنظر ساعة ثم رفع رأسه فقال قد فرضت لكم من بيت المال شاتين وجريبين فاذا كان بالغداة فضع احدى الشاتين على احدى الجريبين وكل أنت وأصحابك ثم ادع بشراب ثم اسق الذي عن يمينك ثم اسق الذي عن شمالك ثم قم لحاجتك واذا كان العشاء فضع الشاة الغابرة على الجريب الآخر فكل أنت وأصحابك الا وأوسعوا الناس في بيوتهم وأطعموا عيالهم والله ما أظن رستاقا يؤخذ منه كل يوم شاتان وجريبان الا يسرعان في خرابه (وكان عمر) قد أطعم جريبين بالخل والزيت لثلاثين رجلا فكفاهم فأجراه على كل رجل في كل شهر ممن كان في الديوان مكان ما كانت فارس يجريه على خيولهم وأساوريهم (وقال) سعيد بن المسيب وأبو سلمة كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا العيال يسلم على أبوابهن ويقول ألكن حاجة وأيتكن تريد ان تشتري شيأ فيرسل معه بحوائجهن ومن ليس عندها شئ اشترى لها من عنده واذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعهن بنفسه في منازلهن يكتب أزواجهن ويقول ازواجكن في سبيل الله وانتن في بلاد رسول الله ان كان عندكن من يقرأ والا فاقربن من الابواب حتى أقرأ لكن ثم يقول الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتبن حتى نبعث بكتبكن ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة يقول هذه دواة وقرطاس فادنين من الابواب حتى أكتب لكن وبمر الى المغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها الى ازواجهن (وقال) الربيع بن زياد الحارثي كنت عاملا لابي موسى الاشعري على البحرين فكتب اليه عمر بن الخطاب يامره بالقدوم عليه هو وعماله وان يستخلفوا جميعا فلما قدمت المدينة اتيت يرفا فقلت يا يرفا مسترشد وابن سبيل أي الهياآت احب الى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله فأومأ الى الخشونة فاتخذت خشين مطارقين ولبست جبة صوف ولبست عمامتي على رأسي فدخلنا على عمر فصفقنا بين يديه فصعد فينا وصوب فلم تأخذ عينه غيري فدعاني فقال من انت قلت الربيع ابن زياد الحارثي (قال) وما تتولى من أعمالنا قلت البحرين قال وكم ترزق قلت الفا قال كثيرا فما

تصنع

تصنع بها قلت اتقوت منها شيأ واعود على أقارب لى فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين قال فلا باس ارجع الى موضعك فرجعت الى موضعى من الصف فسعدت فينا وصوب فلم تمع عيناه الا على فدعانى فقال كم سنك قلت خمس وأربعون سنة قال الآن حين استكملت (ثم دعا) بالطعام وأصحابى حديثو عهد بلين العيش وقد تجوعنا له فاتى بخبز وأعضاء بعير فجعل أصحابى يعافون ذلك وجعلت آكل وجعلت أنظر اليه يلحظنى من بينهم ثم سقت منى كلمة تمنيت انى سخت فى الارض ولم أقلها فقلت يا أمير المؤمنين ان الناس يحتاجون الى سلامتك فلو عمدت الى طعام الين من هذا وزجونى ثم قال كيف قلت قلت يا أمير المؤمنين لو نظرت الى قوتك من الطعام ان يحبزلك قبل ارادتك اياه بيوم ويطبخ لك اللحم كذا فتريتى بالخبز اليابس وباللحم غريضا فسكن غيظه ثم قال هاهنا رعت قلت نعم (قال) يا رسيع اما لو شئنا الا ناهذه الرحاب من صلائق رسنا يلك يعنى خبز الحوارى ولكنى رأيت الله تعالى عاب على قوم شهواتهم فقال اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ثم امر أبا موسى باقرارى على عملى وان يستبدل باصحابى (وقال) قبيصة بن ذؤيب دعا عمر بن الخطاب عبيد الله بن سعد وكان على أهل حمص فقال علام يحبك أهل الشام قال انى أحبهم فاحبونى قال مالك قلت عبدى وفرسى وبغلى وخادمى (قال) فماذا تلبس فى الشتاء قلت عباءة اشد بها رأسى وجبة وكساء قال فما تلبس فى الصيف قلت قميصا ورويلة فاعطانى عمر الف دينار (وقال) خذها واستنفق منها فأعط منها قلت لا ارب لى فيها ستجد من هو أحوج اليها منى قال خذها فان النبى عليه السلام دفع الى مالا وهو دون الذى عطيتك فقلت له كما قلت لى فقال يا عمر ما آتاك الله من هذا المال عطاء من غير ان تعرض له أو تشرف له فخذه فاقبله فاخذه فانطلق به الى امرأته فقال أترين رجلا له هذا من فقراء المهاجرين هو امس الاغنياء فقالت لعن الاغنياء فقسمها حتى بقيت منها صرة أظن فيها ثلاثين أو نحو ذلك فقالت له امرأته اليس لى أنا حق فاعطاها اياه (وقال) زياد بن حيوة بينا نحن بخناصرة اذا بامرأة تسأل عن دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فارشدناها الى الدار فرأت دارا مشمسة فقالت لخياط هناك استأذن لى على فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز قال فادخلى وصوتى بها فانها تأذن لك فدخلت فلما أبصرت ما هنالك قالت جئت ارتم فقرى من بيت الفقراء واذا رجل يعمل فى الطين فسالتها عن أمير المؤمنين فقالت هو ذلك يعمل فى الطين فقالت له يا أمير المؤمنين مات زوجى وترك ثمان بنات فبكى عمر بكاء شديدا ثم قال ايها ما تريدين قالت تفرض لهن قال نفرض للكبرى ما اسمها قالت فلانة فكتبها فقالت الحمد لله قال ما اسم الثانية قالت فلانة فكتبها فقالت الحمد لله حتى كتب السابعة فقالت جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين فطرح القلم من يده وقال لها أما انك لو وليت الحمد أهله لاتممناهن لك مرى السبع فلتواسين هذه الثامنة

* (الباب الحادى والخمسون فى أحكام أهل الذمة) *

(روى) عبد الرحمن بن غنم قال كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ان لا نحدث فى مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة

راهب ولانجدد ماخرب منها ولا ما كان مختطا منها في خطط المسلمين في ليل ولانهار وان نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وان تنزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤوى في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوسا ولا نكتم غشا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركنا ولا ندعو اليه أحدا ولا نمنع أحدا من ذوى قرابتنا الدخول في الاسلام ان اراده وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شئ من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب بالسروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيأ من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وان نجز مقادم رؤسنا ونلزم زينا حيثما كنا وان نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا وكتبنا في شئ من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا الا ضربا خفيفا ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شئ من حضرة المسلمين ولا نخرج شعانيننا ولا باعوثنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران في شئ من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع على منازلهم (فلما أتيت) عمر رضى الله عنه بالكتاب زاد فيه ولا نضرب احدا من المسلمين شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا في شئ مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق فكتب اليه عمر رضى الله عنه ان أمض ما سألوه وألحق فيه حرفين اشترطتهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم ان لا يشتروا شيأ من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده (وروى) نافع عن سالم مولى عمر بن الخطاب ان عمر كتب الى أهل الشام في النصارى أن يقطع ركبهم وان يركبوا على الاكف وان يركبوا في شق وان يلبسوا خلاف زى المسلمين ليعرفوا (وروى) ان بنى تغلب دخلوا على عمر بن عبد العزيز فقالوا يا أمير المؤمنين انا قوم من العرب افرض لنا قال نصارى قالوا نعم قال ادعوا الى جزاما ففعلوا فجز نواصيهم وشق من أرديتهم حزما يحتزمونها وأمرهم ان لا يركبوا السروج ويركبوا الاكف من شق واحد (وروى) ان أمير المؤمنين المتوكل اقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم واذلهم وأقصاهم وخالف بين زيهم وزى المسلمين وجعل على أبوابهم مثالا للشياطين لانهم أهل ذلك وقرب منه أهل الحق وباعد عنه أهل الباطل والاهواء فاحيا الله به الحق وأمات به الباطل فهو يذكر بذلك ويترحم عليه مادامت الدنيا (وكان) عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لا تستعملوا اليهود والنصارى فانهم أهل رشا في دينهم ولا تحل في دين الله الرشا ولما استقدم عمر بن الخطاب أبا موسى الاشعرى من البصرة وكان عاملا عليها للحساب دخل على عمر وهو في المسجد فاستأذن لكاتبه وكان نصرانيا فقال له عمر قاتلك الله وضرب بيده على فخذه وليت ذميا على المسلمين أما سمعت الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ألا اتخذت حنيفا فقال يا أمير المؤمنين لى كتابته وله دينه فقال لا أكرمهم اذ أهانهم الله ولا أعزهم اذ أذلهم الله ولا أدنيهم اذ اقصاهم الله وكتب بعض العمال الى عمر بن الخطاب ان العدد قد كثر

وان الجزية قد كثرت فنستعين بالاعاجم وكتب اليه عمر انهم اعداء الله وانهم لنا غشة فأنزلوهم حيث أنزلهم الله ولا ترد والهم شيئا وقال عمران بن أسد أتانا كتاب عمر بن عبد العزيز الى محمد بن المنتشر أما بعد فانه بلغني ان في عملك رجلا يقال له حسان بن برزى على غير دين الاسلام والله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين واذا أتاك كتابي هذا فادع حسان الى الاسلام فان أسلم فهو منا ونحن منه وان أبى فلا تستعين به ولا تأخذ من غير أهل الاسلام على شئ من أعمال المسلمين فقرأ الكتاب عليه فاسلم (ولما) خرج النبي عليه السلام الى بدر تبعه رجل من المشركين فلحقه عند الحرة فقال اني أريد أن أتبعك وأصيب معك قال تؤمن بالله ورسوله قال لا قال ارجع فلن أستعين بمشرك ثم لحقه عند الشجرة ففرح به أصحاب النبي عليه السلام وكانت له قوة وجلد فقال جئتك لاتبعك وأصيب معك قال تؤمن بالله ورسوله قال لا قال ارجع فلن أستعين بمشرك ثم لحقه على ظهر البيداء فقال له مثل ذلك قال تؤمن بالله ورسوله قال نعم فخرج به وهذا أصل عظيم في ان لا يستعان بكافر هذا وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي عليه السلام ويراق دمه فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين وكتب عمر بن عبد العزيز الى عماله ان لا تولوا على أعمالنا الا أهل القرآن فكتبوا اليه انا وجدنا فيهم خيانة فكتب اليهم ان لم يكن في أهل القرآن خير فاجدر أن لا يكون في غيرهم خير

* (فصل) * ومتى نقض الذمي العهد بمخالفته لشئ من الشروط المأخوذة عليه لم يرد الى مأمنه والامام فيه بالخيار بين القتل والاسترقاق وقال أصحاب الشافعي ويلزمهم ان يتميزوا عن المسلمين في اللباس وان لبسوا قلانس ميزوها عن قلانس المسلمين بالخرق ويشدون الزنانير في أوساطهم ويكون في رقابهم خاتم من رصاص أو نحاس أو جرس يدخل معهم الحمام وليس لهم ان يلبسوا العمائم والطيلسان واما المرأة فتشد الزنار تحت الازار وقيل فوق الازار وهو الاولى ويكون في عنقها خاتم يدخل معها الحمام ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض ولا يركبون الخيل ويركبون البغال والحمير بالاكف عرضا ولا يركبون بالسروج ولا يتصدرون في المجالس ولا يبدؤن بالسلام ويلجؤن الى أضيق الطريق ويمنعون ان يعلوا على المسلمين في البناء وتجوز المساواة وقيل لا تجوز بل يمنعون وان تملكوا دارا عالية أقروا عليها ويمنعون من اظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والانجيل ويمنعون من المقام في الحجاز وهي مكة والمدينة واليمامة ويجعل الامام على كل طائفة منهم رجلا يكتب أسماءهم وحلاهم ويستوفي جميع ما يؤخذون به من جميع الشروط وان امتنعوا من اداء الجزية والتزام أحكام الملة انتقض عهدهم وان زنى أحدهم بمسلمة أو أصابها بنكاح أو آوى عينا للكفار أو دل على عورة للمسلمين أو فتن مسلما عن دينه أو قتله أو قطع عليه الطريق أو ذكر الله ورسوله بما لا يجوز قيل ينتقض وان فعل ما يمنع منه مما لا ضرر فيه كترك العيار واظهار الخمر وما أشبههما عزر عليه ومتى فعل ما يوجب نقض العهد رد الى مأمنه في أحد القولين وقتل في الحين في القول الآخر .

(فصل) فى تقدير الجزية اختلاف بين العلماء قيل انها مقدرة الاقل والاكثر على ما كتب به عمر الى عثمان بن حنيف بالكوفة فوقع على الغنى ثمانية وأربعون درهما وعلى من دونه أربعة وعشرون درهما وعلى من دونه اثنا عشر درهما وهذا مذهب أبى حنيفة وابن حنبل واحد قولى الشافعى وجعلوه كأنه حكم امام فلا ينقض وقيل انها مردودة الى الامام فى الزيادة والنقصان وهو الاقيس وقيل انها مقدرة الاقل دون الاكثر فيجوز للامام ان يزيد على ما قدره عمر ولا يجوز ان ينقص عنه وقال بعضهم يجوز ان يساوى بينهم من كل واحد دينار وقال مالك يؤخذ من الموسر اربعون درهما ومن الفقير دينار وعشرة دراهم ويتخرج على مذهب مالك فى وجوب تقدير طرفيها قولان بناء على العشر المأخوذ منهم هل هو تقدير شرعى لا تجوز فيه الزيادة والنقصان وعن مالك فيه روايتان ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين وكتب عمر بن عبد العزيز الى عبد الحميد بن عبد الرحمن سلام عليك أما بعد فان أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور من العمال وبعثت سيئة سنها عليهم عمال السوء فاحرز عليهم أرضهم ولا تحمل خرابا على عامر ولا عامرا على خراب ولا تأخذ من الخراب الا ما يطيقون ولا من العامر الا وظيفة الخراج الا وزن سبعة ليس لها أس ولا اجور الضرابين ولا اداة الفضة ولا هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن المصحف ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح ولا خراج على من أسلم من أهل الارض والواجب أن يؤخذ ما ضربه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو من كل جريب كرم عشرة دراهم ومن كل جريب نخل ثمانية دراهم ومن كل جريب حنطة أربعة دراهم ومن كل جريب شعير درهمان

(فصل) وأما الكنائس فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ومنع أن تحدث كنيسة وأمر ان لا تظهر علية خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين وشدد فى ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر ان لا يترك فى دار الاسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة وهكذا قال الحسن البصرى قال من السنة ان تهدم الكنائس التى فى الامصار القديمة والحديثة ويمنع أهل الذمة من بناء ما خرب قال الاصطخرى ان طينوا ظاهر الحائط منعوا وان طينوا داخله الذى يليهم لم يمنعوا ويمنعون ان يعلوا على المسلمين فى البناء وتجوز المساواة وقيل لا تجوز

ن الخ كذا بالاصل

(الباب الثانى والخمسون فى بيان الصفات المعتبرة فى الولاة)

اعلم أرشدك الله تعالى ان منزلة العمال من الوالى منزلة السلاح من المقاتل فاجتهد جهدك فى ابتغاء صالح العمال واذا فقد الوالى عمال الصدق كان كفاقد المقاتل السلاح يوم الحرب ويحتاج الى طبقات الرجال كما يحتاج الحرب الى اصناف العدة فمنها الدرق للاستجنان والسيف للمناجزة والرمح للمطاعنة والسهم للمباعدة والدرع للتحصن ولكل منها موضع ليس للآخر والرجال للملك كالاداة للصانع لا يسد بعضها مسد بعض كذلك طبقات الرجال للملك منهم للرأى والمشورة ومنهم لادارة الحرب ومنهم لمباشرة الحرب ومنهم لجمع الاموال ومنهم لحفظها ومنهم للحماية ومنهم للكتابة ومنهم للجمال والفخر ومنهم للمباهاة والذكر

ومنهم

ومنهم للدعاء والوقار ومنهم للعلم والفتيا وحفظ أساس الملة فلا يكمل للملك ملك مالم يجمع هذه الطبقات وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما مات كسرى بلغ موته رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من استخلفوا قالوا ابنته بوران قال لن يفلح قوم اسندوا أمرهم الى امرأة وقال ابن عباس لما كانت فتنة الحرة قيل من استعمل القوم قالوا عبد الله بن مطيع على قريش وعبد الله بن حنظلة الراهب على الانصار قال أمير ان هلك والله القوم وليس يشترط الا في الامامة العظمى دون سائر الولايات (ولما) استحضر هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين وكان من الخطباء قال له هشام بلغني انك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لانك ابن أمة قال زيد فقد كان اسمعيل بن ابراهيم بن أمة واسحق بن حرة ومحمد عليه السلام من ولد اسمعيل ثم اتهمه في أمر فقال له زيد أنا أحلف لك قال هشام ومن يصدقك قال زيد انه ليس أحد فوق ان يأمر بتقوى الله ولا أحد دون ان يؤمر بتقوى الله وقال بعض الخلفاء دلوني على رجل أستعمله على أمر قد أهمني قالوا وكيف تريده قال اذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم واذا كان في القوم وهو اميرهم كان كأنه رجل منهم قالوا ما نعلمه الا الربيع بن زياد الحارثي قال صدقتم هو لها ويروى ان عمر بن عبد العزيز استشار في قوم يستعملهم فقال له بعض أصحابه عليك باهل العدل قال ومن هم قال الذين ان عدلوا فهو مارجوت وان قصروا قال الناس اجتهد عمر (ولما) قدم البريد من بشر بن مروان على عبد الملك بن مروان سأله عن بشر قال يا أمير المؤمنين هو الشديد في غير عنف اللين في غير ضعف فقال عبد الملك ذاك الاعسر الاجود الذي كان يأمن عنده البريء ويخاف لديه السقيم ويعاقب على قدر الذنب ويعرف موضع العفو الشديد في غير عنف اللين في غير ضعف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال الحكيم اعتبر الرجال بأفعالهم لا بعظم اجسامهم فان النسر مع عظمه لا يأكل الا ميتا وطير الماء مع ضعفه يتحامى ميت السمك ويأكل الحي منها (وفي) حكم الهند السلطان الحازم ربما أحب الرجل فأقصاه واطرحه مخافة شره كالملسوع يقطع اصبعه لئلا ينتشر السم في جسمه وربما أبغض الرجل فاكره نفسه على توليته وتقريبه لغناء يجده عنده كشكاره المرء على الدواء البشع لنفعه الا ان للاسلام شروطا فلا تستقيم هذه السيرة عليها الا ترى ان علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لما افضت الخلافة اليه كان معاوية واليا على الشام من قبل عمر ثم عثمان فاستشار في أمره فقال له بعضهم اقره على امرته وأرسل اليه بعهده فاذا دخل في بيعتك فاعزله فقال له رحمك الله أتأمرني أن أطلب العدل بالجور ثم عزله فكان سبب عصيانه وهكذا أشاروا عليه فقالوا يا أمير المؤمنين لو فضلت هؤلاء الاشراف ومن تخوف منهم وانما الناس أصحاب دنيا حتى اذا استوثق الامر عدت الى التسوية فقال أتأمروني أن أطلب العدل بالجور فيمن وليت عليه والله لو كان مالي لسويت بينهم ولم أفضل بعضهم على بعض فكيف والمال لهم واعطاء المال في غير حقه تبذير وسرف وهو يرفع ذكر صاحبه في الدنيا ويضعه عند الله في الآخرة وان يضع امرؤ ماله في غير حقه وعند غير أهله الاحرمه الله تعالى شكرهم ويصير لغيره ودهم فان بقي معه منهم من يظهر له الود والشكر فذلك ملق وخديعة لينال منه فان زلت به النعل يوما ما فاحتاج الى معونته وكافأته ما سلف من مبرته فشر خليل

والام خدين واياك أيها الوالى وحب المدح فان من أحب المدح عد كن مدح نفسه واذا علم ذلك منك جعل الناس سلما لقضاء حوائجهم منك فحينئذ يكون قضاء الحوائج انفسك لالهم وقال النبى عليه السلام احثوا فى وجوه المداحين التراب وسمع المقداد رجلا يمدح عثمان ابن عفان فأخذ كفا من تراب فالقاه فى وجهه وسمع النبى عليه السلام رجلا يمدح رجلا فقال قطعت ظهر أخيك لو سمعها ما أفلح بعدها ووصف اعرابى أميرا فقال كان اذا ولى لم يطابق بين جفونه وأرسل العيون على عيونه فهو غائب عنهم شاهد معهم فالمحسن راج والمسىء خائف وقال عبد الله بن الزبير يوما لا يبعدن ابن هند ان كانت فيه لخارج مانجدها فى أحد بعده أبدا والله ان كنا لنعرفه وما الليث الحرب على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا وان كنا لنخدعه وما ابن ليلة من الارض بأدهى منه والله لوددت أنا متعنا به ما دام فى هذا الحجر وأشار الى أبى قبيس لا يتخون له عقل ولا ينتقص له قوة وقال الصنابحى كتب عمر بن الخطاب الى ابى عبيدة كابا فى مثل اذن الفارة أما بعد فانه لا يقيم امر الله فى الناس الا حصيف العقدة بعيد الغرة لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق فى الحق على الجرمة ولا يخاف فى الله لومة لائم (وقال) مالك جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسأله ان يكتب له كابا فى أمر فقال اذهب الى منزلنا فاتنى بدواة وقرطاس فذهب فلم يجد فقال اطلب عندهم شيئا فذهب فلم يجد عندهم الا اذن مزود فكتب له فى تلك الاذن (ولما) ولى المأمون يحيى بن أكثم قضاء البصرة بعد ان استمحن عقله وعلمه وامتحنه بمسائل فوجده فوق ما يريد فتلقاه وجوه البصرة فرأوا شابا صبيا ما بقلت لحيته فتعجبوا ونظر بعضهم الى بعض يقلبون الاكف ويغمزون الحواجب فقال له بعضهم كم سن القاضى أصلحه الله قال مثل سن عتاب ابن أسيد لما ولاه النبى عليه السلام مكة فهابوه لحدة جوابه وعرفوا فضله وكان لعتاب بن اسيد احدى وعشرون سنة لما ولى مكة وكان عمر يقول لا يصلح ان يلى أمور الناس الا حصيف العقل وافر العلم قليل الغرة بعيد الهمة شديد فى غير عنف لين فى غير ضعف جواد فى غير سرف لا يخاف فى الله لومة لائم وقال أيضا ينبغى ان يكون فى الوالى من الشدة ما يكون ضرب الرقاب عنده فى الحق كقتل عصفور ويكون فيه من الرقة والحنو والرأفة والرحمة ما يجزع من قتل عصفور بغير حق (ويروى) ان الرشيد أحضر رجلا ليوليه القضاء فقال له انى لا أحسن القضاء ولا انا فقيه فقال له الرشيد فيك ثلاث خلال لك شرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة ولك حلم يمنعك من العجلة ومن لم يعجل قل خطؤه وأنت رجل تشاور فى أمرك ومن شاور كثر صوابه وأما الفقه فنضم اليك من تتفقه به فولى فما وجدوا فيه مطعنا وقال اياس بن معاوية استحضرنى عمر بن هبيرة فحضرت فسا كتنى فسكت فلما أطلت قال ايه قلت سل عما بدا لك قال أتقرأ القرآن قلت نعم قال فهل تفرض الفرائض قلت نعم قال فهل تعرف من أيام العرب شيأ قلت أنا بها أعلم قال فهل تعرف من أيام العجم شيأ قلت انا بها أعلم قال انى أريد أن أستعين بك قلت ان فى ثلاثا لا أصلح معهن للعمل قال ما هن قلت أنا دميم كما ترى وأنا حديد وأنا عى قال أما الدمامة فانى لا أريد ان أحاسن بك وأما الحى فانى أراك تعرب عن نفسك وأما سوء الخلق فيقوم منك السوط فولانى وأعطانى ألف درهم فهو أول ما تولاه وقال سليمان بن داود

عليهما

عليهما السلام ما ملاقاة لبوة سلمت أشبالها باصعب من لقاء جاهل راض عن نفسه

(الباب الثالث والخمسون في بيان الشروط والعهود التي تؤخذ على العمال)

اعلم أرشدك الله انه يجب أن يولى على الاعمال اهل الحزم والكفاية والصدق والامانة وتكون التولية للعناء لا للهوى وملاك الولايات وأساسها أن لا يولى الاعمال طالب لها ولا راغب فيها * روى البخاري في صحيحه عن أبي موسى الاشعري قال اتيت النبي صلى الله عليه وسلم ومعي رجل فلما سلمنا عليه قال صاحبي يا رسول الله استعملني فقال عليه السلام انا لا نستعمل على عملنا من أراده فقلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما عرفت الذي في نفسه (وقد روى) عن بزرجمهر وقد قيل له ما بال ملك آل ساسان صار أمره الى ما صار اليه قال لانهم قلدوا اكبار الاعمال صغار الرجال ولله در عمرو بن العاصي حيث قال موت ألف من العيلة أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة * وقال العلاء بن أيوب غضب المأمون على بعض أصحابه غضبا شديدا ثم قال له لا أماتك الله أو يبلغك دولة السفل وقال رجل من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لرجل قد آذاه ادركك امرة الصبيان وقال المستوغر الاكبر وكان قد عمر في الجاهلية ثلثمائة سنة

وما سقطت يوما من الدهر أمة * الى الذل الا أن يسود ذميمها
اذا سادنا بعد ذل لئيمنا * تصدى لنا ذل وقد أديمها
وما قادها للخير الا مجرب * عليم باقبال الامور كريمها
وما كل ذي اب يعاش بفضله * ولكن لتدبير الامور حكيمها

واعلموا ان معظم ما يدخل على الدول من الفساد من تقليد الاعمال أهل الحرص عليها لانه لا يخطبها الا لص في ثوب ناسك وذئب في مسلاخ عابد حريص على جمع الدنيا نابذ لدينه ومروءته دليل على الخيانة يتخذون عباد الله خولا وأموالهم دولا واذا اهتضمت حقوق المسلمين واكلت أموالهم فسدت نياتهم وقلت طاعاتهم فانتقضت الامور ودب الفساد الى الممالك وقد ذكرنا في أول الكتاب الآثار في كراهية الولايات (وقال المأمون) ما فتق على قط فتق في مملكتي الا وجدت سببه جور العمال (فان قيل) فما معنى قول يوسف عليه السلام للملك اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم (قلنا) يوسف كان نبيا من أنبياء الله تعالى واثقا من نفسه بالكفاية والامانة بين يدي من لا يتحقق بواطن أسراره ولا يعلم خصائصه وفضائله ويرى الامور والاعمال والولايات في أيدي من ليسوا أهلا لها ويجوز مثل هذا اليوم لمن حصل بين يدي جبار لا يعلم منزلته ولا ما عنده من الخصال والفضائل أن يذكر بعض ما يعلم من نفسه ليعلم قدره فيسلم بذلك من شره وعن هذا قال بعض أصحاب الشافعي اذا كان القضاء في يد من لا يصلح له وجب أن يخطبه من يصلح له وكان ذلك فرضا عليه وفقهاء الامصار على خلاف هذا الرأي ويحتمل أن يكون يوسف عليه السلام قد أوحي اليه بما يصير أمره اليه من الملك والعدل ونشر كلمة الاسلام فلهذا نبه على نفسه * ومن عجيب ما روي في هذا الباب ان لقمان الحكيم كان عبدا أسود حبشيا غليظ الشفتين مصفح القدمين لامرأة من بني الحسحاس وكان جليسا لداود عليه السلام فأتاه جبريل عليه السلام بالنبوة من عند الله الذي يصطفي لنبوته من يشاء فقال لقمان

يا جبريل ان امرني ربي فسمع وطاعة وان خيرني اخترت الحكمة فرضي الله تعالى قوله فأعطاه الحكمة وصرف عنه الرسالة الى داود عليه السلام فكان داود يقول طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة وأوقي داود البلية * وروى أنه جالس داود عليه السلام وداود يعمل الدروع فأقام حولا يبصر صنعة الدرع ولا يعلم ما يصلح له ولا يسأله عن ذلك فلما تم حول لبس داود الدرع وقال درع حصينة ليوم حرب فقال لقمان الصمت حكمة وقليل فاعله * وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا بعث عاملا اشترط عليه أن لا يركب البراذين ولا يلبس الرقيق ولا يأكل النقي ولا يتخذ حاجبا ولا يغلق بابا عن حوائج الناس وما يصلحهم ويقول له اني لا أستعملك على أبشارهم ولا أعراضهم ولا أعمالهم وانما استعملتك لتصلي بهم وتقضي بينهم بالعدل (وروى) عباية بن رفاعة قال بلغ عمر بن الخطاب ان سعد بن أبي وقاص اتخذ قصرا وجعل عليه بابا وقال انقطع الصويت فأرسل عمر محمد بن مسلمة وكان عمر اذا أحب أن يؤتى بالامر كما هو عليه بعثه فقال له ائت سعدا فأحرق عليه بابه فتقدم الكوفة فلما أتى الباب اخرج زنده واستورى نارا ثم احرق الباب فأتى سعدا الخبر ووصف له بصفته فعرفه فخرج اليه سعد فقال له محمد انه قد بلغ أمير المؤمنين انك قلت انقطع الصويت فخاف سعد بالله ما قال ذلك فقال له محمد نفعل الذي أمرنا به ونؤدي عنك ما تقول ثم ركب راحلته فلما كان ببطن البرية أصابه من الخمص والجوع ما الله به أعلم فأبصر غنما فأرسل غلامه بعمامته فقال اذهب فابتع منهم شاة فجاء الغلام بالشاة وهو يصلي فأراد ذبحها فاشار اليه أن كف فلما قضى صلاته قال انظر فان كانت علوكة مسيمة فاردد الشاة وخذ العمامة وان كانت حرة فاذبح الشاة فذهب فاذا هي مسيمة علوكة فرد الشاة وأخذ العمامة فاخذ بخطام ناقته فجعل لا يمر ببقلة الا خطفها حتى آواه الليل الى قوم فأتوه بخبز ولبن وقالوا لو كان عندنا شئ غير هذا أتيناك به فقال بسم الله كل حلال أذهب السغب خير من مأكل السوء حتى قدم المدينة فنزل باهله فابتدر من الماء ثم راح فلما أبصره عمر رضي الله عنه قال له لولا حسن الظن بك ما رأينا أنك أديت وذكروا أنه أسرع السير فقال قد فعلت وهو يعتذر ويحلف بالله ما قال فقال عمر هل أمر لك بشئ قال ما رأيت مكانا أن تأمر لي فقال عمر ان أرض العراق أرض رفيقة وان أهل المدينة يموتون حولي من الجوع فخشيت أن آمر لك بشئ يكون لك بارده ولي الحار * وروى زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل مولى له يدعى هنيا على الحمى فقال اهني اضمم جناحك عن المسلمين واتق دعوة المظلوم فان دعوة المظلوم مستجابة وأدخل رب الصريمة والغنيمة وايالك ونعم ابن عوف ونعم بن عفان فانهما ان تهلك ماشيتهما يرجعان الى زرع ونخل وان رب الصريمة والغنيمة ان تهلك ماشيتهما يأتيني بنيه فيقول يا أمير المؤمنين افتاركهم انا لا أبا لك فالماء والكلا أيسر علي من الذهب والورق وايم الله انهم ليرون اني قد ظلمتهم انها لبلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الاسلام والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبرا (ومر) يوما بفناء بيني بحجارة وجص فقال لمن هذا فذكروا له أنه لعامل من عماله على البصرة فقال أبت الدراهم أن لا تخرج اعناقها وقاسمه ماله (وكان) يقول لي على كل خائن أمينان الماء والطين * وكان أنوشروان يكتب على عهد العمال سس خيارا لناس بالمحبة

وامزج للعامة الرغبة بالرهبة وسس سفلة الناس بالاخافة (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام كما يصلح المهمز للفرس والرس للحمار كذلك يصلح القضيب اظهر الجهال * وفي الامثال من لم يصلح باللين أصلح بالتليين * وقال هلال بن سياف استعمل النبي صلى الله عليه وسلم المقداد على سرية فلما رجع قال له النبي صلى الله عليه وسلم كيف رأيت الامارة أبا مغيرة قال خرجت يارسول الله وما أرى ان لي فضلا على أحد من القوم فما رجعت الا وكأنهم عبيد لي قال وكذلك الامارة أبا مغيرة الامن وقاه الله شرها قال والذي بعثك بالحق لا أعمل على عمل أبدا (وقيل) لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يمنعك ان تفشي العمل في الافاضل من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال هم أجل من أن أدنسهم بالعمل * وقال ابرهيم النخعي كان عمر اذا قدم عليه الوفد سألهم عن عاملهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم هل يدخل عليه الضعيف وهل يعود المريض فان قالوا نعم حمد الله تعالى وان قالوا لا كتب اليه ان أقبل * ومثل السلطان اذا ولى العمال الظالمين مثل من يسترعي غنمه الذئاب ومثل من يربط الكلب العقور ببابه وان العامة لتشتم الحجاج بن يوسف والخاصة تلوم عبد الملك بن مروان لانه الذي استرعاه الرعية وقد قيل

ومن يربط الكلب العقور ببابه * فعقر جميع الناس من رابط الكلب

وكان العلاء بن أيوب لما ولى فارس من قبل المأمون يكتب عهد العمال فيقرؤه على من يحضره من أهل ذلك العمل و يقول أنهم حيوني عليه فاستوفوه منه ومن تظلم الي منه فعلي انصافه ونفقته جاثيا وراجعا ويأمر العمال ان يقرؤا عهده على أهل عمله في كل جمعة و يقول لهم هل استوفيتم

(الباب الرابع والخمسون في هدايا العمال والرشا على الشفاعات)

روى أبو داود في السنن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من شفع لاخيه شفاعة فاهدى له هدية عليها فقبلها فقد أتى بابا عظيما من أبواب الربا والسر فيه أنك اذا قدرت على قضاء حاجة من عند السلطان الظالم أو اليد القاهرة صار ذلك واجبا عليك * وروى البخاري في صحيحه ان النبي صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا يقال له ابن اللتبية فلما جاء قال يارسول الله هذا لكم وهذا لي قال فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال مابال الرجل نستعمله على عمل من أعمالنا فيقول هذا لكم وهذا لي أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فينظر هل يهدى له * قال مالك وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشاطر العمال فيأخذ نصف اموالهم وشاطر أبا هريرة وقال له من اين لك هذا المال فقال ابو هريرة دواب تناتجت وتجارات تداولت فقال اذا الشطر وانما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم * وروى مالك عن ابن عمر انه اشترى هو وعبيد الله أخوه ابلا فبعثا بها الى الحمى فرعت فقال عمر رعيتما في الحمى فشاطرهما وشاطر سعد بن ابي وقاص حين قدم من الكوفة كله ورأى أن ما أصاب العامل من غير رشوة وان كان حلالا فلا يستحق ذلك لان له بالامرة قوة على أن ينال من الحلال مالا يناله غيره فجعله كالمضارب للمسلمين ولما دفع ابو موسى الاشعري مالا من بيت المال لعبد الله وعبيد الله ابني عمر بن الخطاب بالبصرة

اشتريا منه بضاعة فربحت بالمدينة فأراد عمران يأخذ جميع الربح فراجعه عبيد الله فحكم بينهم بنصف الربح فأخذ اجميعا نصف الربح واخذ عمر النصف لبيت المال (وكتب) عمر بن عبد العزيز الى عماله أما بعد فانما هلك من كان قبلكم بمنعهم الحق حتى يشتري وبسطهم الباطل حتى يقتدى الملك بالدين يقوى والدين بالملك يبقى (وكان) عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمر اذا قدم عليه العمال ان يدخلوا نهارا ولا يدخلوا ليلا كى لا يحتجبوا شيأ من الاموال * وقال عتاب بن اسيد والله ما أصبت فى عملى الذى ولانى النبى صلى الله عليه وسلم الا ثوبين معقدين كسوتهما مولاى كيسان * وروى ان عليا رضى الله عنه استعمل أبا مسعود الانصارى على السواد فرجع الى داره وقد امتلأت فقال ما هؤلاء قالوا كذلك يصنعون بالرجل اذا استعمل قال كل هؤلاء يريدون أن يأكلوا فى أمانتى ويروى فى امارتى فرجع الى على وقال لا حاجة لى فى العمل وقد ذكرنا ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا عبد الرحمن بن سمرة ليستعمله فقال يا رسول الله اخترلى قال اقعد فى بيتك * وفى الامثال ان الهدية تعمى وتصم وقال بعض الحكماء الرشوة رشاء الحاجة وأنشد بعضهم

اذا أتت الهدية دار قوم * تطايرت الامانة من كواها

(ولبعضهم)

ان الهدية حلوة * كالسحر تجتلب القلوبا
تدنى البعيد من الهوى * حتى تصيره قريبا
وترد مضاغن العدا * وتبعد جفوته حبيبا

(ومما قلته فى الرشوة)

وأكرم من يدق الباب شخص * ثقيل الحمل مشغول اليدين
ينوء اذا مشى نفسا ونفخا * وينطح بابه بالركبتين
واكرم شافع يمشى عليها * ابو المنقوش فوق الصفحتين

(وقلت ايضا)

اذا كنت فى حاجة مرسلا * وأنت بانجازها مغرم
فأرسل بالكمه خلابة * به صمم أغطش ابكم
ودع عنك كل رسول سوى * رسول يقال له الدرهم

(وكتب) عبد الملك بن مروان الى قاضيه الحرث بن عامر وقد ارتشى بكرمه

اذا رشوة من باب بيت تقحمت * لتسكن فيه والامانة فيه
سعت هربا منه وولت كأنها * حليم تولى عن جواب سفيه

(الباب الخامس والخمسون فى معرفة حسن الخلق)

اعلموا ارشدكم الله تعالى ان هذا الباب مما غلط الخلق فيه وقلبوا القوس ركوة فعمدوا الى اخلاق العامة وخلائق الغوغاء والادنياء ومايجرى بينهم اذا تلاقوا وتعاشروا من الافراط فى مدح بعضهم بعضا وتعاطيهم الكذب والتصنع والملق والمراآة والمعاريض

عن الامور المكروهة التي يسوء اظهارها والانخراط في سلك المزاح والمهاترة فهذا وما اشبهه عندهم من حسن الخلق وهو عندنا نقيض ما نص الله عليه ورسوله من حسن الخلق فأول ذلك ان تعلم أنه لم تحتو الارض على بشر أحسن خلقا من محمد صلى الله عليه وسلم فكل من تخلق باخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قاربها أو بعضها كان أحسن الناس خلقا وكل خلق ليس بعده من اخلاقه صلى الله عليه وسلم فليس من حسن الخلق وهذا فصل الخطاب في هذا الباب لمن عقل وانما آوتي الناس في هذا الباب لانهم استحسنوا الاخلاق العامية واستحسنوا الاخلاق النبوية بجهلهم باخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم وها انا أتلو عليك من اخلاق الانبياء والمرسلين والاولياء والاصفياء والعلماء والصالحين ما نرجو ان ينفعنا الله واياك به قال الله تعالى لنبيه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم وانك لعلى خلق عظيم خص الله نبيه من كريم الطباع ومحاسن الاخلاق من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بعالم يؤته غيره ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق فقال وانك لعلى خلق عظيم وفي هذا قال الشيوخ ان الله سبحانه دعا الخلق الى حسن الخلق ودعا نبيه عليه السلام من حسن الخلق (قال عبيد الله بن عمير) قلت لعائشة أم المؤمنين صفي لي خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لي أما تقرأ القرآن كان خلقه القرآن وحسبك بهذا القول منقبة للرسول صلى الله عليه وسلم وتعريفا لك بحسن الخلق فاذا كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم القرآن فالقرآن يجمع كل فضيلة ويحث عليها وينهى عن كل نقيصة ورذيلة ويوضحها ويبينها ولذلك لما أنزل الله تعالى خذ العفو وأمر بالمعرف واعرض عن الجاهلين قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هذا يا جبريل قال ان الله تعالى يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك فهذا من حسن الخلق كما ترى فانظر اين اخلاق العامة من هذا الخط وان أحدهم يقطع من وصله ويحرم من اعطاه ويظلم من سامله ويغضب على من اتهمه وانما اقتصرت على هذه الكلمات لانها أصول الفضائل وينبوع المناقب لان في اخذ العفو صلة القاطع والصفح عن الظالم واعطاء المانع وفي الامر بالمعروف تقوى الله وصلة الرحم وصون اللسان وغض الطرف عن المحرمات وفي تقوى الله يدخل جميع آداب الشرع فرضها ونفلها وفي الاعراض عن الجاهلين الصفح والحلم وقوة النفس عن مماراة السفيه ومجاراة الوقوح فهذه الاصول الثلاث تتضمن محاسن الشرع نصا وتنبيها وضمنا واعتبارا (وروى) أنس قيل يا رسول الله اي المؤمنين افضل قال احسنهم خلقا (وروى) ابو داود في السنن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق اقتضى الحديث ان كل نبي مبعوث الى امة انما بعث ليعلم الخلق حسن الخلق وان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بعث ليتمم مكارم الاخلاق فاذن حسن الخلق امتثال الشرائع باسرها (وروى) البخاري عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشا ولا متفحشا قال وان من أحبكم الي احسنكم أخلاقا وكان النبي صلى الله عليه وسلم في بعض اسفاره وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية فجبذه اعرابي جبذة شديدة حتى أثرت حاشية الرداء في عنقه وقال يا محمد مر لي من مال الله الذي آتاك فلست تأمر لي بمالك ولا بمال أبيك فالتفت اليه النبي صلى الله

عليه وسلم وقال مر واله ولم يكلمه بشئ (وروى) معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له حسن خلقك للناس يامعاذ بن جبل * واعلموا أن الخلق الحسن أفضل مناقب العبد وبه يظهر جواهر الرجال والانسان مستور بخلقه مشهور بخلقه ألا ترى ان الله تعالى خص نبيه صلى الله عليه وسلم بما خصه به من الفضائل ثم لم يثن عليه بشئ من خصاله بمثل ما اثنى عليه بخلقه * وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى وانك لعلى خلق عظيم قال لا تخاصم ولا تخاصم من شدة معرفتك بالله تعالى وقيل لم يؤثر فيك جفاء الخلق بعد معرفتك بالحق وقال المحاسبي كظم الغيظ واظهار الطلاقة والبشر الا لمبتدع أو فاجر الا أن يكون فاجرا اذا انبسطت استحيا والعفو عن الزلين الا بادب أو اقامة حد وكف الاذى عن كل مسلم ومعاهد الا لتغيير منكر أو أخذ مظلمة لمظلوم فهذا حسن الخلق وقيل حسن الخلق ان لا تتغير ممن يقف فى الصف بجنبك (وقيل) للاحنف ممن تعلمت حسن الخلق قال من قيس بن عاصم المنقرى قال بينما هو ذات يوم جالس فى داره اذ جاءته خادم له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له فمات فدهشت الجارية فقال لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى * وكان ابن عمر اذا رأى واحدا من عبيده يحسن الصلاة يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة حرا آقله فكان يعتقهم فقيل له فى ذلك فقال من خدعنا فى الله انخدعنا له * وقال الفضيل لو ان امرأ أحسن الاحسان كله وكانت له دجاجة واساء اليها لم يكن من المحسنين (وكان المحاسبي) يقول فقدنا ثلاثة أشياء حسن الوجه مع الصيانة وحسن القول مع الامانة وحسن الاخاء مع الوفاء وقال الحسن بن على رضوان الله عليه عنوان الشرف حسن الخلق * وكان عبد الله بن محمد الرازى يقول حسن الخلق استصغار ما منك واستعظام ما اليك (وقال سهل) حسن الخلق ان لا تطمع فيما ليس لك وليس بهذه الصفة أحد الا الله تعالى * وقيل حسن الخلق تحمل الثقال الخلق * وقال شاه الكرمانى علامة حسن الخلق كف الاذى واحتمال المؤن وقيل حسن الخلق أن تكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا وقيل حسن الخلق قبول ما يرد عليك من جفاء الخلق وقضاء الحق بلا ضجر * ولا قلق وقيل الخلق الحسن احتمال المكروه بحسن المداراة (وقالت امرأة) لمالك بن دينار يا مرائى فقال يا هذه وجدت اسمى الذى أضله اهل البصرة * وفى الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان تسعوا الناس باموالكم ولكن سعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق (وروى) ان ابا عثمان اجتاز بسكة وقت الهاجرة فالقى عليه من فوق سطح طست رماد فتغير أصحابه وبسطوا السنتهم فى الملقى فقال ابو عثمان لا تقولوا شيأ من استحق ان يصب عليه النار فصولح على الرماد لم يجز ان يغضب * وقيل لابراهيم بن ادهم هل فرحت فى الدنيا قط قائم مرتين احداهما كنت قاعدا ذات يوم فجاء انسان فبال على والثانية كنت جالسا فجاء انسان فصفعنى (وكان أويس القرنى) اذا راه الصبيان رموه بالحجارة وكان يقول ان كان لابد فارمونى بالحجارة الصغار كى لا تدموا على ساقى فتمنعونى الصلاة (وروى) أن عليا رضى الله عنه دعا غلاما له فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام اليه فرآه مضطجعا فقال اما تسمع يا غلام قال نعم قال فما حملك على ترك جوابى قال امنت عقوبتك فتكاسلت قال امض فأنت حر لوجه الله وهذا كما ترى قوة الهيبة يفرغها الله على المصطفين من عباده واهل الصفوة

من أوليائه ألا ترى الى قوله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فجرده عن حقائق البشرية وألبسه من نعوت الربوبية حتى قواه على صحبتهم وصبره على تبليغ الرسالة اليهم مع الذى كان يقاسيه من أخلاقهم مع كونه مستغرقا باستيلاء الحق تعالى عليه يختص برحمته من يشاء * وقال النبى صلى الله عليه وسلم المؤمن الف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وانما سمى بالآدمى لانه تالف من الجواهر والالوان (وقال عليه السلام) لرجلين متباغضين آدم الله بينكما أى ألف بينكما ومنه سمى الادم المأكول لانه يؤلف الطعام ويحسنه ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم لرجل أراد أن يتزوج امرأة انظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما أى يؤلف بينكما وروى أن معروفا الكرخى نزل الدجلة يتوضأ ووضع مصحفه وملحفته فجاءت امرأة فاخذتهما فتبعها معروف وقال يا أختى أنا معروف لا بأس عليك أتملك ابن يقرأ قالت لا قال فزوج قالت لا قال فهات المصحف وخذ الثوب (وروى) أن أبا ذر كان على حوض يسقى ابله فاسرع بعض الناس اليه فانكسر الحوض فجلس ثم اضطجع فقيل له فى ذلك فقال ان النبى صلى الله عليه وسلم آمرنا اذا غضب الرجل أن يجلس فان ذهب عنه والا فليضطجع (وقال على بن ابى طالب) رضى الله عنه انا نصافح اكفارى قطعها * وقال ابو ذر انا لنكشر فى وجوه قوم وان قلوبنا لتلعنهم وقال الحرث بن قيس يعجبنى من القراء كل طليق مضحاك فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس عن عليك بعمله فلا اكثر الله فى المسلمين مثله * وقال عروة ابن الزبير مكتوب فى الحكمة يا بنى لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك طلقا ولتكن احب الى الناس ممن يعطيهم العطاء ومن يحجب صاحب السوء لا يسلم ومن يصحب صاحبا صالحا يغنم (وروى) ان ابراهيم بن ادهم خرج الى بعض البرارى فاستقبله جندى فقال له اين العمران فاشار الى المقبرة فضرب رأسه فاوضحه فلما بارزه قيل له هذا ابراهيم بن ادهم زاهد خراسان فجاء يعتذر اليه فقال انك لما ضربتنى سألت الله لك الجنة فقال لم فقال قد علمت انى اؤجر على ذلك فلم اردان يكون نصيبى منك الخير ونصيبك منى الشر (وحكى) ان ابا عثمان الحيرى دعاه انسان الى ضيافة فلما وافى باب الدار قال يا استاذ ليس لى وجه فى دخولك وقد ندمت فانصرف رحمك الله فرجع ابو عثمان فلما وافى منزله عاد اليه الرجل وقال يا استاذ ندمت واخذ يعتذر وقال احضر الساعة فقام ابو عثمان ومضى معه فلما وافى داره قال مثل ما قال فى الاولى واخذ يعتذر ثم كذلك فى الثالثة والرابعة وابو عثمان ينصرف ويحضر ثم قال يا استاذ انما اردت اختبارك والوقوف على اخلاقك وجعل يعتذر اليه ويعده فقال ابو عثمان لا تعدنى على خلق تجد مثله مع الكلاب فالكلب اذا دعى حضر واذا زجر انزجر (وروى) ان بعض الفقراء نزل على جعفر بن حنظلة وكان جعفر يخدمه والفقير يقول نعم الرجل انت لو لم تكن يهوديا فقال له جعفر عقيدتى لا تقدح فيما تحتاج اليه من الخدمة فسل لنفسك الشفاء ولى الهداية (وروى) ان ابا جعفر القمودى المتعبد لقيه بعض الاجناد ومعه كلب للصيد فقال له خذ هذا الكلب وقده خلفى فابى فضرب رأسه بالسوط حتى أوجعه فقال له بعض المارين ويحك هذا أبو جعفر القمودى العابد فنزل عن فرسه وجعل يقبل يديه ويعتذر اليه فقال أنت فى حل قال ابراهيم بن الحسن سمعت ابراهيم القمودى ليالى عديدة

فقال انما ادعو بعمار يض قد علم الله ذلك من نيتي اما قولي أبقاك الله وتولاك فاريد أن يبقيه الله لغرم الجزية ويتولاه بالعذاب وأما قولي أقر الله عينك فاريد أن تقر حركتها بستر يعرض لها فلا تتحرك جفونها وأما قولي يسرني والله ما يسرك فان العافية تسرني كما تسره وأما قولي جعل الله يومي قبل يومك فاريد أن يجعل الله تعالى اليوم الذي ادخل فيه الجنة برحمته قبل اليوم الذي يدخل فيه النار بكفره

(الباب السادس والخمسون في الظلم وشؤمه وسوء عاقبته)

قال الله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون وقال تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون وقال تعالى ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون فكل من لم يحكم بما جاء من عند الله ورسوله كملت فيه هذه الاوصاف الثلاثة الكفر والظلم والفسق وقال سبحانه وتعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون (وقال) أحمد بن خضرويه لواذن لي في الشفاعة ما بدأت الا بالظالمين لاني تثبت لتعزية الله تعالى في قوله ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون قال ولا أغتم سفرا لا يكون فيه من لا يؤذيني ويظلمني شوقا مني لتعزية الله تعالى للمظلومين وقال ميمون ابن مهران كفى بهذه الآية وعيدا للظالم وتعزية للمظلوم وقال كعب لابي هريرة في التوراة من يظلم يخرب بيته فقال أبو هريرة وذلك في كتاب الله تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا فالظلم ادعى شئ الى سلب النعم وحلول النقم (وروى) مسلم في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه قال يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي انكم تخطؤن بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيأ يا عبادي لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيأ يا عبادي لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فاعطيت كل انسان مسئلته ما نقص ذلك مما عندي الا كما ينقص المخيط اذا دخل في البحر يا عبادي انما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه يرويه أبو ادريس الخولاني عن أبي ذر ومسندا الى النبي صلى الله عليه وسلم وكان أبو ادريس اذا حدثه جثى على ركبته وروى عبد الله بن عمران النبي صلى الله عليه وسلم قال الظلم ظلمات يوم القيامة وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال اتقوا دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كانت لاخيه عنده مظلمة من عرض أو شئ فليتحلله منه قبل أن لا يكون درهم ولا دينار ان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن له حسنات أخذ من سيآت صاحبه فحمل عليه وروى سعيد بن زيد قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول من ظلم من الارض شبرا طوقه من سبع أرضين قال أبو جعفر الطحاوي معناه انه يقلب شجاعا أقرع فيطوقه كما قال النبي

صلى الله عليه وسلم فى مانع الزكاة يجىء ماله يوم القيامة شجاعا أقرع يتبعه ويقول أنا مالك أنا كنزك فكان هذا داخلا فى قوله تعالى سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وروى أبو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال مطل الغنى ظلم وروى أبو موسى الاشعرى قال قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته وقرأ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه اليم شديد وروى أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال انصر أخاك ظالما او مظلوما قالوا يا رسول الله كيف هذا انصره مظلوما فكيف انصره ظالما قال تأخذ فوق يده وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال صنفان من أهل النار لم أرهما ناس معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤسهن مثل اسنمة البخت لا يرين الجنة ولا يجدن ريحها وقال الله تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وفى الآية تاويلان أحدهما امرناهم بالطاعة ففسقوا أى خرجوا عن الطاعة والثانى على قراءة المدنى أى كثرنا عددهم واسبغنا النعم عليهم فعصوا وتباغوا ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النتاج (واعلموا) أن حشرات الارض وهوامها تلعن العصاة وقال مجاهد اذا أشعثت الارض تقول البهائم هذا من اجل عصاة بنى آدم فذلك قوله تعالى اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الحبل لتموت بذنب ابن آدم يعنى ان بذنوب الخلق يمتنع القطر فلا تنبت الارض فتهلك الدواب والحشرات وسمع ابو هريرة رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بلى والله ان الحبارى لتموت هزلا فى وكرها بظلم الظالم وقال ابن مسعود خطيئة بنى آدم قتلت الحبل (وروى) مسلم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من اقتطع حق امرء مسلم بيمينه فقد اوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال الرجل وان كان شيأ يسيرا يا رسول الله قال وان كان قضيبا من اراك وقال ابن عباس ما ظهر الغلول فى قوم قط الا افشا فيهم الموت ولا نقص قوم المكيال والميزان الا انقطع عنهم الرزق ولا حكم قوم بغير حق الا فشا فيهم الدم ولا خفر قوم بالعهد الا سلط عليهم العدو وقال بعض الحكماء اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك لا يحبنك رحب الذراعين بسفك الدماء فان له قاتلا لا يموت (وروى) ان بعض الملوك رقم على بساطه

لا تظلمن اذا ما كنت مقتدرا * فالظلم مصدره يفضى الى الندم
تنام عينك والمظلوم منتصب * يدعو عليك وعين الله لم تنم

انشدنا قاضى القضاة ابو عبد الله الدامغانى رحمه الله ببغداد

اذا ما هممت بظلم العباد * فكن ذاكرا هول يوم المعاد
فان المظالم يوم القصاص * لمن قد تزودها شر زاد

وقال محمون بن سعيد كان يزيد بن حاتم الحكيم يقول ما هبت شيأ قط هيبتى رجلا ظلمته وانا اعلم ان لا ناصر له الا الله فيقول لى حسبك الله الله بينى وبينك وقال بلال بن سعيد اتقوا الله فيمن لا ناصر له الا الله وقال أبو سليمان الدرانى لما دخل اخوة يوسف عليه السلام عرفهم ولم يعرفوه وكان على وجهه برقع فخلا بكبيرهم وكان ابن خالته فقال له بم اوصلك ابوك قال بأربع قال

قال وما هن قال يا بني لا تتبع هوى فتفارق ايمانك فان الايمان يدعو الى الجنة والهوى يدعو الى النار ولا تكثر منطقك بما لا يعنيك فتسقط من عينه ولا تسئ بربك الظن فلا يستجيب لك ولا تكن ظلاما فان الجنة لم تخلق للظالمين (وبكى) على ابن الفضيل يوما فقيل له ما يبكيك فقال ابكى على من ظلمني اذا وقف غدا بين يدي الله تعالى ولم يكن له حجة ولمحمود الوراق

انى وهبت لظالمي ظلمي * وتركت ذاك له على علمي
ورايته اسدى الى يدا * لما ابان بجهله حلمي
رجعت اساءته عليه واحسانى فآب مضاعف الجرم
وغدوت ذا اجر ومحمدة * وغدا بكسب الذم والاثم
مازال يظلمني وارحمه * حتى رثيت له من الظلم
وكأنما الاحسان كان له * وانا المسيء اليه في الحكم

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد ناصرا غيري (وقال) ابن مسعود لما كشف الله العذاب عن قوم يونس ترادوا المظالم حتى ان كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده الى صاحبه وقال ثور بن زيد الحجر في البنيان من غير حله عربون على شرايه وقال غيره لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على جور من الظلم لاوشك أن تخرب وقال الحكيم العدل حرمة والظلم ظلمة فالعدل يجر اليك الحوائج والجور يهجم عليك الجوائح فاحذر من لا جنة له الا النقمة ينزل الغير ولا سلاح له الا الابتهال الى مقلب القلوب قال مالك بن دينار قرأت في بعض الكتب يا معشر الظلمة لا تجالسوا أهل الذكر فانهم اذا ذكروني ذكرتهم برحمتي واذا ذكروني ذكرتكم بلعنتي وقال أبو امامة يحيء الظالم يوم القيمة حتى اذا كان على جسر جهنم لقيه المظلوم وعرف ما ظلمه به فما يبرح الذين ظلموا بالذين ظلموا حتى ينزعوا ما بايديهم من الحسنات فان لم يجدوا حسنات حمل عليهم من سيآتهم مثل ما ظلموا حتى يردوا الدرك الاسفل من النار ومن صحيح مسلم ان هشام بن حكيم مر بالشام على اناس وقد اقيموا في الشمس وصب على رؤسهم الزيت قال ما هذا قال يعذبون في الخراج قال أما اني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا وأخبرني رجل ممن كان يقرأ العلم بالاسكندرية قال كان ههنا شيخ يكون عينا للمكاسين يدور لهم فرأيته في النوم بعد وفاته فقلت له من أين تجيء فقال لي لا تسأل فاعدت عليه فقال لا تسأل فسألته فقال من الجحيم فقلت له فالى أين تذهب قال الى مثل الدار التي خرجت منها قلت فكيف لقيت قال وماذا لقيت كان لحمي قد جعل في هاون ودق حتى صار مثل المخ (وأخبرني) رجل من أهل العلم والدين قال رأيت فلانا البياع في النوم بعد وفاته فقلت ما فعل الله بك قال أنا محبوس عن الجنة قلت فبماذا قال كنت أبيع في الدكان فيزدحم الناس علي فآخذ دراهمهم فاضعها في في وكلما تفرغت وزنتها وأعطيت كل انسان حقه فاختلطت في في الفضلات فجاء اثنان فدفعت لاحدهما بفضة الآخر وكانت أنقص من فضته بحبة ثم حوسبت فبقي على حبة فقلت فادفع له الحبة وتخلص فجعل يقلب كفيه ويقول من أين ادفع له من أين أدفع له فكررها مرات

(ويروى) أن يونس عليه السلام لما نبذ بالعراء وأنبت الله عليه شجرة من يقطين كان يأوى الى ظلها فيبست فبكى عليها فأوحى الله تعالى اليه تبكى على شجرة فقدتها ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت ان اهلكهم * وقيل لابن السماك الاسدى أيام معاوية كيف تركت الناس قال بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهى * وقال بعض الحكماء أفقر الناس أكثرهم كسبا من حرام لانه استدان بالظلم ما لابد له من رده * وقال رجل كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز فذكر الحجاج فسبه ووقعت فيه فقال عمر ان الرجل ليظلم بالمظلمة فلا يزال المظلوم يشتم الظالم ويسبه حتى يستوفى حقه فيكون للظالم حق عليه * وقال عمرو بن دينار نادى رجل فى بنى اسرائيل من رآنى فلا يظلمن أحدا واذا رجل قد ذهب ذراعه من عضده وهو يبكى ويقول من رآنى فلا يظلمن أحدا فسئل عن حاله فقال بينما أنا أسير على شاطئ البحر فى بعض سواحل الشام اذ مررت بنبطي قد اصطاد تسعة أنوان فاخذت منه نونا وهو كاره بعد ان ضربت رأسه فعض النون ابهامى عضة يسيرة ثم أكلناه فوقعت الاكلة فى ابهامى فاتفقت الاطباء على قطعه فقطعته فوقعت فى كفى ثم ساعدى ثم عضدى فمن رآنى فلا يظلمن أحدا فخرجت أسيح فى البلاد وأريد قطع عضدى اذ رفعت لى شجرة فاويت الى ظلها فنعست فقيل لى فى المنام لاى شئ تقطع أعضاءك ردا الحق الى أهله فجئت الصياد فقلت يا عبد الله أنا مملوكك فاعتقنى فقال ما أعرفك فاخبرته فبكى وتضرع وقال أنت فى حل فلما قالها تناثر الدود من عضدى وسكن الوجع فقلت له بماذا دعوت على قال لما ضربت رأسى وأخذت السمكة نظرت الى السماء وبكيت فقلت يا رب أشهد أنك عدل تحب العدل وهذا منك عدل وانك الحق تحب الحق وخلقتنى وخلقته وجعلته قويا وجعلتنى ضعيفا فاسألك بامن خلقتنى وخلقته أن تجعله عبرة لخلقك (وقال معاوية) ان أولى الناس بالعفو أقدرهم على الانتقام وان أنقص الناس عقلا من ظلم من دونه * وقال بعض الحكماء الظلم على ثلاثة أوجه ظلم لا يغفره الله وظلم لا يتركه الله وظلم لا يعبأ الله به شيأ فاما الظلم الذى لا يغفره الله فهو الشرك بالله وأما الظلم الذى لا يتركه الله فظالم العباد بعضهم بعضا وأما الظلم الذى لا يعبأ الله به فظلم العبد ما بينه وبين الله تعالى * وقال ميمون بن مهران من ظلم رجلا مظلمة فحقه ان يخرج منها فاستغفر الله دبر كل صلاة رجوت أن يخرج من مظلمته (وقال يوسف بن اسباط) توفى رجل من الحواريين فوجدوا عليه وجدا شديدا وشكوا ذلك الى المسيح صلى الله عليه وسلم فوقف على قبره ودعا فاحياه الله تعالى وفى رجليه نعلان من نار فسأل عيسى عن ذلك فقال والله ما عصيت قط الا انى مررت بمظلوم فلم أنصره فتنعلت هاتين النعلين وأما أنا وصيك اذا فعلت باحد مكروها فادع الله تعالى له واستغفر له كما فعل موسى عليه السلام لما آذى هرون وأخذ بلحيته ورأسه ثم تبين له براءته وأن بنى اسرائيل غلبوه عليه وعلى عبادة العجل فقال رب اغفر لى ولاخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين (وروى) ان قوم لوط كانت فيهم عشرة خصال فاهلكهم الله بها كانوا يتغوطون فى الطرقات وتحت الاشجار المثمرة وفى المياه الجارية وفى شطوط الانهار وكانوا يخذفون الناس بالحصى فيعمونهم واذا اجتمعوا فى المجالس أظهروا المنكر باخراج الريح منهم واللطم على رقابهم وكانوا يرفعون ثيابهم قبل أن يتغوطوا ويأتون بالطامة الكبرى

وهى اللواطة قال الله تعالى أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر والنادى المجلس ويلعبون بالحمام ويرمون بالملاهق وضرب الدف وشرب الخمور وقص اللحية وتطويل الشارب والتصفيق ولبس الحمرة وتزيد عليهم هذه الامة باتيان النساء بعضهن بعضا وانما حملهم على اتيان الرجال انهم كانت لهم ثمار كثيرة فى منازلهم وحوائطهم فاصابهم قحط وقلة من الثمار فقالوا اباى شئ نمنع ثمارنا حتى لا يطرقها أحد من الناس فاصطلحوا على أن من وجدوه فيها نكسوه وغرموه أربعة دراهم ففعلوا وماسبقهم بها أحد من العالمين قال ابن عباس فكان بدء الفاحشة فيهم انهم هموا بذلك فجاءهم ابليس فى هيئة صبى أجمل شئ رآه الناس فنكسوه وتجرؤا على ذلك وقال أبو العتاهية

أما والله ان الظلم لؤم * ولكن المسئ هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم
سل الايام عن امم تقضت * فتخبرك المعالم والرسوم

(وروى) ان أنوشروان كان له معلم حسن التاديب فعلمه حتى فاق فى العلوم فضربه المعلم يوما من غير ذنب فاوجعه فقد أنوشروان عليه فلما ولى الملك قال له ما حملك على ما صنعت من ضربى يوم كذا وكذا ظلما قال لما رأيتك ترغب فى العلم رجوت لك الملك بعد أبيك فاحببت ان أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنوشروان زه

(الباب السابع والخمسون)
فى تحريم السعاية والنميمة وقبحهما وما يؤل اليه أمرهما من الافعال الرديئة والعواقب الذميمة

قال الله تعالى ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم فذكر الله تعالى فى القرآن أصناف أهل الكفر والالحاد والتثليث وأهل الدهر والظلم والفسوق وأشباههم ولم يسب الله سبحانه أحدا منهم الا النمام فى هذه الآية وحسبك بها خسة ورذيلة وسقوطا وضعة وهذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة فى أصح الاقوال والهماز المغتاب الذى يأكل لحوم الناس الطاعن فيهم وقال الحسن البصرى هو الذى يغمز باخيه فى المجلس وهو الهمزة اللمزة والعتل فى اللغة الغليظ وأصله من العتل وهو الدفع بالقوة والعنف وقال على رضى الله عنه والحسن البصرى العتل الفاحش السيئ الخلق وقال ابن عباس العتل الفاتك الشديد المنافق وقال عبيد بن عمير العتل الاكول الشروب القوى الشديد يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة وقال يمان هو الجافى القاسى اللئيم العسر وقال مقاتل العتل الضخم وقال الكلبى الشديد فى كفره عند العرب عتل وقيل العتل الشديد الخصومة بالباطل والزنيم هو الذى لا يعرف من أبوه قال حسان بن ثابت

وأنت زنيم نيط فى آل هاشم * كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

(وقال غيره)

زنيم ليس يعرف من أبوه * بغى الام ذو حسب لئيم

وقال أكثر النقلة هذا رجل انما ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة وعن هذا قال القدماء لا يكون

نماما الا وفى نسبه شئ * وسعى رجل الى بلال بن أبى بردة برجل وكان أميرا البصرة فقال له انصرف حتى اكشف عنك فكشف عنه فاذا هو غير رشدة يعنى ولد زنا وقال أبو موسى الاشعرى لا يبقى على الناس الا ولد بغى وقيل الزنيم الذى له زنمة فى عنقه يعرف بها كما تعرف الشاة قال ابن عباس لما وصفه الله تعالى بتلك الخال المذمومة لم يعرف حتى قيل زنيم فعرف لانه كانت له زنمة يعرف بها كما تعرف الشاة بزنمتها (ومن ذلك) قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معط بعثه النبى صلى الله عليه وسلم الى بنى المصطلق بعد الوقعة وكان بينه و بينهم عداوة فى الجاهلية فخرجوا يتلقونه تعظيما لامر النبى صلى الله عليه وسلم فنزع ورجع الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال منعونى صدقاتهم وأرادوا قتلى فغضب النبى صلى الله عليه وسلم عليهم ثم كشف أمرهم فوجد ما قاله كذبا فنزلت هذه الآية وسماه الله تعالى فاسقا (ومن ذلك) قول الله سبحانه سماعون للكذب أكالون للسحت فشرك الله تعالى بين السامع والقائل فى القبح وساوى بينهم فى الذم فكان فيه تنبيه على ان السامع نمام فى الحكم (وأما ما روى فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم) فروى مسلم فى الصحيح قال همام كنا مع حذيفة فقيل له ان رجلا يرفع الحديث الى عثمان بن عفان رضى الله عنه فقال حذيفة سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لا يدخل الجنة قتات و فى لفظ آخر نمام * وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الا أخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله قال من شراركم المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب * وروى أبو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل سفار ملعون كل قتات ملعون كل منان فالسفار المحرش بين الناس يلقى بينهم العداوة والقتات النمام والمنان الذى يعمل الخير ويمن به * وروى ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير اما احدهما فكان لا يستبرئ من البول واما الآخر فكان يمشى بالنميمة فاخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين فغرز فى كل قبر واحدة فقالوا يا رسول الله لم فعلت هذا قال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا وذلك لبركة يده صلى الله عليه وسلم * (واما السعاية) * الى السلطان والى كل ذى قدرة ومكنة فهى المهلكة والحالقة تجمع الى الخصال المذمومة الغيبة واؤم النميمة والتغرير بالنفوس والاموال والقدح فى المنازل والاحوال وتسلب العزيز عزه وتحط المكين عن مكانته والسيد عن مرتبته فكم من دم أراقه سعى ساع وكم حريم استبيح بنميمة باغ وكم من صفيين تقاطعا ومن متواصلين تباعدا ومن محبين تباغضا ومن الفين تهاجرا ومن زوجين افترقا فليتق الله ربه رجل ساعدته الايام وتراخت عنه الاقدار ان يصيخ لساع أو يسمع لنمام * وروى ابن قتيبة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع فالديوث الذى يجمع بين النساء والرجال سمى بذلك لانه يدث بينهم والقلاع الساعى الذى يقع فى الناس عند الامراء لانه يقصد الرجل المتمكن عند السلطان فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه (وقال كعب) أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى صلى الله عليه وسلم فخرج موسى يستسقى ببنى اسرائيل فلم يسقوا ثم خرج ثانية فلم يسقوا ثم خرج الثالثة فاوحى الله تعالى اليه انى لا استجيب لك ولا لمن معك فان فيكم نماما فقال يا رب من هو حتى

فخرجمن بيننا فاوحى الله تعالى اليه يا موسى انهاكم عن النميمة وآتيها فتابوا فارسل الله سبحانه عليهم الغيث * ولما لقى اسقف نجران عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له يا أمير المؤمنين احذر قاتل الثلاثة قال ومن قاتل الثلاثة قال الرجل يأتى الامام بالحديث الكذب فيقبله الامام فيكون قد قتل نفسه وصاحبه وامامه فقال عمر ما أراك أبعدت * وجدنا فى حكم القدماء أبغض الناس الى الله المثلث قال الاصمعى هو الرجل يسعى بالنميمة باخيه الى الامام فيهلك نفسه وأخاه وامامه (وذكرت السعاية) عند المامون فقال لولم يكن من عيبهم الا انهم أصدق ما يكونون أبغض ما يكون عند الله تعالى * وقال حكيم الفرس الصدق زين كل أحد الا السعاية فان الساعى اذم وآثم ما يكون اذا صدق (وروى) أن رجلا سعى بجار له عند الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد أما أنت فتخبرنا انك جار سوء ان شئت أرسلنا معك فان كنت صادقا أبغضناك وان كنت كاذبا عاقبناك وان شئت تاركناك قال تاركنى يا أمير المؤمنين قال قد تاركناك * ولله در الاسكندر حين وشى اليه واش برجل فقال له الاسكندر ان شئت قبلناك على صاحبك بشرط ان نقبله علينا وان شئت أقلناك قال أقلنى قال قد أقلناك كف عن الشر يكف عنك الشر (ومن العجب) الذى لا عجب بعده ان الرجل يشهد عندك فى باقة بقل فلا تقبله حتى تسأل الناس عنه هل هو من أهل الثقة والعدالة والامانة والصيانة ثم ينم عندك بحديث فيه الهلاك وفساد الاحوال فتقبله * وقال يحيى بن زيد قلت للحسن بن على رضى الله عنهما لما سقى السم أخبرنى من سقاك فدمعت عيناه وقال أنا فى آخر قدم من الدنيا وأول قدم من الآخرة تأمرنى ان أغمز * قال رجل للمهدى عندى نصيحة يا أمير المؤمنين قال لمن نصيحتك هذه ألنا ام لعامة المسلمين أم لنفسك قال لك يا أمير المؤمنين قال المهدى ليس الساعى باعظم عورة ولا أقبح حالا ممن قبل سعايته ولا تخلو من ان تكون حاسد نعمة فلا نشفى لك غيظا أو عدوا فلا تعاقب لك عدوك ثم أقبل على الناس وقال أيها الناس لا ينصح لنا ناصح الا بما فيه رضا وللمسلمين فيه صلاح (وروى) ان ساعيا سعى برجل الى الفضل بن سهل فوقع على ظهر كتابه نحن نرى قبول السعاية أشر من السعاية لان السعاية دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شئ كمن قبل وأجاز لان من فعل أشر ممن قال (ويروى) ان رجلا رفع الى المنصور نصيحة فوقع على ظهرها هذه نصيحة لم يرد بها وجه الله تعالى ولا جواب عندنا لمن آثرنا على الله تعالى (وروى) ان رجلا قال للمأمون يا أمير المؤمنين الله الله فى أصحاب الاخبار فانهم قوم ان أعطوا كذبوا وان حرموا كذبوا فان أعطوا مدحوا وهم كاذبون وان حرموا ذموا وهم كاذبون فقال المأمون لله درها من كلمة ما أقصدها وأبين فضلها وأمر ان تثبت فى أمور أصحاب الاخبار (وقال مروان بن زنباع) العبسى يا بنى عبس احفظوا عنى ثلاثا من نقل اليكم نقل عنكم واياكم والتزويج فى البيوتات السوء واستكثروا من الصديق ما استطعتم واستقلوا من العدو ما استطعتم فان استكثاره ممكن * وقال بعض الحكماء احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنمامون اذا سرق اللصوص المتاع سرقوا المودات * وقال حكيم العرب اياك والسعاة فانهم اعداء عقلك ولصوص عدلك فيفرقون بين قولك وفعلك (وفى المثل السائر) من اطاع الواشى ضيع الصديق وقد يقطع الشجر فينبت ويقطع اللحم بالسيف فيندمل

واللسان لا يشدصل جرحه وأحق الناس برعاية ما رسمته من هذه الخلال ونقلته من هذه الحكم واستودعته من هذه السير من آتاه الله سلطانا ومكن له في الارض قدما فذو القدرة اذا أطاع الواشي هلك العالم (وكان) بعض الحكماء يقول من أراد ان يسلم من الاثم ويبقى له الاخوان فيجعل نفسه بينه وبينهم قاضيا عدلا ويحكم بالعدل ولا يقبل أحدا في أحد ولا في نفسه الا بشهود وتعديل فانا قد أحببنا بقول أقوام وابغضنا بقول آخرين فاصبحنا نادمين * ومن لطيف حكمة الله تعالى في النميمة لما علم من شؤمها واستطار شرورها وعموم مضرتها في الورى حكم بفسق النمام حتى لا يقبل له قول فيستريح الخلق من شره (وقال) ابن عمر وفد الله الحاج ووفد الشيطان قوم يرسلهم السلطان الى الناس ويسالهم عن حالهم فيخبرونه ان الناس راضون وليسوا براضين واعلموا ان الله تعالى خلق الانسان على انحاء شتى لسنا نذكرها الآن لكثرتها وطول تتبعها فخلق الله الحواس الشريفة والاعضاء النافعة للنفيسة فمن أفضل ما ركب فيه اللسان الذي هو آلة النطق والبيان وبه فصل بينه وبين البهائم ثم فضله على سائر الحيوان وامتن عليه في أول سورة الرحمن فقال تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان وخلق فيه أعضاء تذال وتستهان وجعلها مجرى لفضول الطعام والشراب فمن يتتبع سقطات الكلام ويروي عثرات الانام التي هي كالعورات الواجب سترها ودفنها كان قد استعمل أشرف الآلات في أخس المستعملات فصار كمن لحس بلسانه سوأة أخيه وجعل آكرم جوارحه لاخس أجناس المستعرضين ورضي ان يقع من الناس موقع الذباب من الطير يتتبع ثقل الجسد ويتصامى صحيحه وقد كان له في نشر المحاسن شغل ولكن أهل كل ذي حال أولى بها وفي هذا سبق المثل ان لم تكن ملحا تصلح فلا تكن ذبابا تفسد ومن لم يقدر على جميع الفضائل فلتكن همته ترك الرذائل واذا تتبع الامام عورات الناس أفسدهم (وروى) ان النبي صلى الله عليه وسلم هم بالخروج يوما فسمع قوما من أصحابه يضحكون فامتنع من الخروج اليهم حذر ان لا يفسد قلبه عليهم ولو علم الذي يسمع أخبار الناس ما جنى على نفسه لعلم ان الصمم كان أهنأ لعيشه وأنعم لباله من سماع الاخبار يا واحد ماذا عمل نقلة الاخبار حملوا اليك الصدق أو الكذب فتكون في سماع الكذب ممن قال الله تعالى فيه سماعون للكذب أكالون للسحت ويكون في سماع الصدق حمالا للاثم حرج الصدق على الخلق معاديا لهم متتبعا لعثرات الخلق وخزانا لاسقطاتهم قد وعيت منهم ما يجب ستره وحفظت ما يجب نسيانه ثم لا تستطيع النصف من قائل لانك ان كنت ذا قدرة أهلكت الرعية ثم لا تستطيع ان تهلك جميع الرعية وان كنت سوقة لم يشف غيظك ثم أفسدت اخوانك وأبغضت من يجب ان تحبه وأحببت من يجب ان تبغضه ثم لا تزال تتحمل الخسائف وتزيد الاحقاد والضغائن وترصد لكل قائل يوما يشفي صدرك فيه فما أغنى العاقل عن هذه البلية ولله در عمرو بن العاص روي انه لاحاه رجل يوما فقال له الرجل اما والله ان عشت لاتفرغن لك فقال له عمرو بن العاص الآن وقعت في الشغل يا ابن أخي

* (الباب الثامن والخمسون في القصاص وحكمته) *

قال الله تعالى ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب يعني اذا علم القاتل والقاطع انه

يقتص منه احجم ولم يقدم على الفعل فيكون فى ذلك حياته وحياة الذى هم به (روى) ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اول ما يقضى بين الناس فى الدماء روى ابو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من كانت عنده لاخيه مظلمة فليتحلله منها فانه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل ان يؤخذ لاخيه من حسناته فان لم يكن له حسنات اخذ من سيآت اخيه فطرحت عليه وهذا حديث صحيح رواه البخارى فان قيل يعارضه قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر اخرى فكيف يؤخذ الظالم بذنب ركبه المظلوم قلنا معنى الآية لا يعاقب احد بذنب أحد ابتداء واما فى مسئلتنا فظلمة بقيت عنده وليس له وفاء بها فهو الذى اكتسب هذا الوزر وهو المعنى بقوله تعالى وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم وروى ابو سعيد الخدرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ليقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا اذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفسى بيده لاحدهم اهدى لمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال قبل موته من كانت له عندى مظلمة فليات حتى اقصه من نفسى فقام سوار بن غزية فقال يا رسول الله انك ضربتنى على بطنى ليلة العقبة فاوجعتنى فقال النبى صلى الله عليه وسلم دونك فاقتص فقال يا رسول الله انك ضربتنى وانا مكشوف البطن فكشف النبى صلى الله عليه وسلم بطنه فاذا هو كالقباطى يعنى ثياب مصر فاكب عليه يقبله فقال ياسوار ما حملك على هذا فقال يا رسول الله دنا القاء هؤلاء المشركين ولا ندرى فاردت ان يكون آخر العهد بك أن اقبل بطنك فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تاخر لعلمه ان الله تعالى لا يدع القصاص فى المظالم بين العباد لان الله تعالى اعدل من ان يدع مظلمة لاحد عند نبى ولا غيره وفى الحديث يقول الله تعالى يوم القيامة انا ظالم ان فاتنى ظلم ظالم ويروى ان داود عليه السلام يقدمه خصمه الى الله يوم القيامة فيقتضى له عليه فيدفعه الى اوريا سلما ثم يستوهبه الله تعالى من أوريا ثم يعوضه اوريا على ذلك الجنة وقال حبيب دخل عثمان ابن عفان رضى الله عنه فوجد غلامه يعلف ناقة له واذا فى علفها شئ فاخذ باذنه فعركها ثم ندم فقال لغلامه قم فاقتص منى فابى الغلام فلم يزل به حتى قام فاخذ باذنه ثم قال يعرك وهو يقول شد شد حتى عرف عثمان انه قد بلغ منه ثم قال واها القصاص الدنيا قبل قصاص الآخرة (روى) عون بن عبد الله ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا خادما له فلم يجبه أو كان نائما فقال النبى صلى الله عليه وسلم لولا القصاص لاوجعتك ضربا وروى ابن وهب فى موطئه عن ابن شهاب قال وقد أقاد النبى صلى الله عليه وسلم والخليفتان من أنفسهم ليستن بهم ولم يتعمدوا حينا وكانوا سلاطين ومن صحيح مسلم روى أبو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال ان المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فاذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار قال مالك وبلغنى ان أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما ولى الخلافة ضرب رجلا ثم ندم وقال مالى ولهذا الا رددتها عليهم فسمعته عائشة فارسلت الى

عمر فجاءه عمر فقال له انى قد ضربت رجلا وقد كنت معافى من هذا ان أضرب فقال عمر كذلك الامام فقال فما المخرج قال ان تاتى الرجل فتسأله ان يجعلك فى حل فاتياه فاستحلاه دلت الآثار على ان الامير والمامور فى القصاص سواء اذا جنى أحدهما على الآخر وان الامير اذا ظلم المامور زال تامره عليه فى ذلك المعنى وكان الامير فى ذلك المعنى كبعض المؤمر عليهم حتى يتحاكموا الى السلطان الاعظم وكان عمر يقول انما بعثت أمراء ليعلموا الناس دينهم ويقسموا بينهم فيئهم ويعدلوا فيهم ولم أبعثهم ليضربوا أبشارهم ويحلقوا أشعارهم فمن ظلمه أمير فلا امرة عليه دونى حتى آخذ له بحقه قال عمرو بن العاص الله الله يا أمير المؤمنين ان أدب رجل رجلا من رعيته انك لتقصه منه فقال عمر كيف لا اقصه منه وقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه (فاما القصاص بين البهائم) فاختلف الناس فى حشرها وفى جريان القصاص بينها فكان ابن عباس يقول حشرها موتها قال وحشر كل شئ الموت الا الجن والانس فانهما يوافيان يوم القيامة وقال معظم المفسرين انها تحشر ويقتص منها قال ابن حبيب تحشر البهائم وقال قتادة يحشر كل شئ حتى الذباب وقال أبو الحسن الاشعرى لا تقطع باعادة البهائم والجمانين ومن لم تبلغه الدعوة ويجوز ان يعادوا ويدخلوا الجنة ويجوز ان لا يعادوا والدليل على ثبوت الاعادة فى الجملة قوله تعالى واذا الوحوش حشرت وقال تعالى وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم أمثالكم الى ان قال ثم الى ربهم يحشرون (وروى) مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء وقال ابو ذر انتطحت شاتان عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال أتدرون فيما انتطحتا قلت لا أدرى قال لكن الله يدرى وسيقضى بينهما قال أبو ذر لقد تركنا النبى صلى الله عليه وسلم وما يقلب طائر جناحيه فى السماء الا ذكر لنا منه علما وقال أبو ذر ان الحجر ليستل عن نكبه اصبع الرجل وفى الحديث الصحيح فى مسلم والبخارى وغيرهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا ياتينى أحدكم على رقبته بعيره رغاء على رقبته بقرة لها خوار على رقبته شاة تيعر ثم بسط لها بقاع قرقر فتطؤه باظلافها وتنطحه بقرونها كلما مرت عليه أولاها عادت أخراها والحديث وارد فى مانع الزكاة وقال ابو الحسن لا يجوز المقاصة بين البهائم لانها غير مكلفة ولا يجرى عليها التسلم قال وما ورد فى ذلك من الاخبار نحو قوله صلى الله عليه وسلم يقتص للجماء من القرناء ويستل العود لخدش العود فعلى سبيل المثل والاخبار عن شدة التقصى فى الحساب وانه لابد ان يقتص للمظلوم من الظالم وابى ذلك الاستاذ ابو اسحق الاسفرايينى قال فى الجامع الجلى يجرى القصاص بينها قال ويحتمل انها كانت تعقل هذا القدر فى دار الدنيا فلهذا اجرى فيه القصاص وكلام الاستاذ له وجه فى الصحة لان البهيمة تعرف النفع والضر فتنفر من العصا وتقبل الى العلف وينزجر الكلب اذا زجر ويستأسد اذا اشلى والطير والوحش يفر من الجوارح استدفاعا لشرها ثم ان لم يجز عليها القتل فى الدنيا فانما رفع القتل عنها فى الاحكام فان قيل القصاص انتقام وهو جزاء على جناية وقعت من مخالفة الامر والبهائم ليست بمكلفة ولا لها عقول ولا جاءها رسول والعقول عندكم لا يجب بها شئ على العقلاء فضلا عن البهائم وفى هذا انفصال عن قول الاستاذ انها

كانت تعقل هذا القدر اذ لا يجب بالعقل شئ ويشهد له قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فالجواب انها ليست مكلفة لان من ضرورة التكليف ان يعلم الرسول والمرسل وذلك من خصائص العقلاء وهم الثقلان واذا لم تكن مكلفة كانت في المشيئة يفعل الله بها ما اراد كما سلط عليها في الدنيا الاستسخار والذبح فلا اعتراض عليه ولله تعالى ان يفعل في ملكه ما اراد من تنعيم وتعذيب واذا جاز ان يؤلم البهيمة ابتداء جاز ان يؤلمها بعد حياتها والآية محمولة على من يعلم الرسول والمرسل ثم ان لم يجر عليهم القلم في الدنيا فانما رفع القلم عنها في الاحكام ولكن فيما بينها تؤاخذ وقد روى البخاري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اقتلوا الوزغ فانه كان ينفخ على ابراهيم عليه السلام فهذه عجماء عوقبت على سوء صنيع جنسها وفيه دليل على ان لله تعالى ان يعذب ملكه لا بالمعصية وقد ضرب موسى عليه السلام الحجر الذي مر بثوبه وبنو اسرائيل ينظرون عورته رواه البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال فضربه بعصاه والحجر يفر وموسى يقول ثوبي حجر ثوبي حجر قال ابو هريرة فوالذي نفسي بيده انه لندب بالحجر ستة او سبعة وروى في تفسير قوله تعالى وقودها الناس والحجارة انها الحجارة التي تكسر الناس في الدنيا وروى ان المسيح عليه السلام مر بجبل فسمع انينه فسأله عن ذلك فقال سمعت الله يقول وقودها الناس والحجارة فلا ادري اكون من تلك الحجارة ام لا وقد تأول بعضهم قول ابن عباس حشرها موتها تحشر لضرب من القصاص بينها ثم تصير ترابا قلت وتأويل ابن عباس بعيد لان الحشر الجمع وليس في موتها جمعها بل فيه تفرقتها وتفرقة اجزائها ثم قد قال والى ربهم يحشرون وانما يكون الحشر الى الرب تعالى باعادة الحياة اليها وجمعها الى ربها

(الباب التاسع والخمسون في الفرج بعد الشدة)

قال الله تعالى وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وقال سبحانه امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء وقال تعالى ان مع العسر يسرا وقال الحسن لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم أبشروا فقد جاءكم اليسر لن يغلب عسر يسرين وقال ابن مسعود والذي نفسي بيده لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر ان يغلب عسر يسرين ومعنى هذا أنه عرف العسر ونكر اليسر ومن عادة العرب اذا ذكرت اسما معرفا ثم أعادته كذلك فهو هو فاذا نكرته ثم كررته كذلك فهما اثنان وقال بعضهم

ان يكن نائك الزمان يلوى * عظمت عندها الخطوب وجلت
وتلتها قوارع ناكيات * سمت دونها الحياة وملت
فاصطبروا انتظر بلوغ مداها * فالرزايا اذا توالت تولت
واذا أوهنت قواك وجلت * كشفت عنك جملة فتجلت

وقال ابن عباس أول ما اتخذ النساء النطق من قبل ام اسمعيل اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها ابراهيم وابنها اسمعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفا ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل فقالت يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ليس فيه أنيس ولا شئ فقالت ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها فقالت

له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل البيت بوجهه ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال رب اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضع اسمعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي هل ترى أحدا فلم تر أحدا ثم سعت سعي الانسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف فقال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف لكانت عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة فان ههنا بيت الله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله (ومنها قصة الثلاثة الذين خلفوا) وذلك ان كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية تخلفوا عن غزوة تبوك ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلام الثلاثة قال كعب فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لنا الارض بما رحبت فما هي التي أعرف وكنت أطوف في الاسواق وأشهد الصلاة مع المسلمين ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا حتى اذا طال ذلك علي من جفوة الناس تسورت جدار حائط ابي قتادة وهو ابن عمي واحب الناس الي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فلبثت خمسين ليلة حتى يوم نهى رسول الله عن كلامنا صليت صلاة الفجر وانا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا انا جالس على الحالة التي ذكر الله تعالى قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الارض بما رحبت وما كان من شيء أهم علي من ان أموت فلا يصلى على النبي او يموت النبي صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس في تلك المنزلة لا يكلمني أحد ولا يصلى علي فانزل الله توبتنا فسمعت صوت صارخ من اعلى الجبل يا كعب بن مالك ابشر فخررت ساجدا لله تعالى وعرفت ان قد جاء الفرج فجعلت توبتي على الصارخ بشراه ووالله ما املك غيرهما ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وهو يبرق وجهه من السرور فقال ابشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك فقلت يا رسول الله ان من توبتي ان أنخلع من مالي صدقة الى الله تعالى والى رسوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك (وروى) ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم لما شب ودرج في موضع ربي فيه فلما جن عليه الليل رأى كوكبا يقال انه رأى الزهرة فقال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل بعد طلوع الفجر قال لئن لم يهدني ربي لا كونن من القوم الضالين فلما أصبح ورأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بري مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله

وقد هدان يعني الى الاسلام ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيأ وسع ربي كل شيء علما
افلا تتذكرون قالوا يا ابراهيم أما تخاف من آلهتنا أن تصيبك بسوء ان أنت سببتها أو عبتها قال
وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين
أحق بالامن ان كنتم تعلمون وكان آزر يصنع أصناما يعبدها قومه ثم يعطيها ابراهيم يبيعها
فيكسرها ويذهب بها الى نهرلهم فيصبها فيه على رؤسها ويقول لها اشربي استهزاء بها واظهارا
لقومه فسادما هم عليه ففشا ذلك عندهم من غير أن يبلغ ذلك نمروذ فاول ما بدأ قومه ان نظر
نظرة في النجوم فقال اني سقيم يعني من الغيظ عليهم وعلى أصنامهم فظنوا انه سطعون وكانوا
يفرون من الطاعون اذا سمعوا به فتولوا عنه مدبرين فراغ الى آلهتهم فدخل عليها وهم قد
وضعوا لها طعاما وشرابا فقال الا تأكلون مالكم لا تنطقون فاقبل عليهم ضربا باليمين وكسرها
وقطع أيديها وأرجلها حتى جعلها جذاذا وأراق طعامها وشرابها وعمد الى الفأس فعلقه
بيد الههم العظيم ثم خرج عنها وتركها فلما رجع قومه من عيدهم دخلوا بيت أصنامهم فلما
رأوا ما صنع بها راعهم ذلك واعظموه وقالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين فقال
بعضهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم سمعناه يسبها ويستهزئ بها فقال نمروذ فأتوا به على
أعين الناس لعلهم يشهدون فلما أتى ابراهيم صلى الله عليه وسلم قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا
يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا
انكم أنتم الظالمون قالوا انا قد ظلمناه بما نسبنا اليه ثم قالوا وقد عرفوا انها لا تضر ولا تنفع
لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيأ ولا يضركم أف لكم
ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون فقال لنمروذ حين سمع ذلك منه صف لنا الهك الذي
تعبد وتدعو الى عبادته قال ابراهيم ان ربي الذي يحيي ويميت قال نمروذ وانا أحيي وأميت قال
كيف ذلك قال آخذ رجلين قد استوجبا القتل في حكمي فاقتل أحدهما فاكون قد أمته
واعفو عن الآخر فاكون قد أحييته فقال ابراهيم ان كنت صادقا فاحي الذي قتلت بزعمك
وأخرج روحا من جسد من غير ان تقتله ان كنت صادقا وان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت
بها من المغرب فبهت عند ذلك نمروذ ولم يرد الى ابراهيم شيأ وأمر به الى السجن فلبث فيه سبع
سنين وجعل يدعو أهل السجن الى الله تعالى والى الاسلام حتى ظهر أمره وفشا واتبعه
قوم كثير على دينه فلما ارادوا ان يحرقوا ابراهيم واجتمع أمرهم على ذلك بنوا حيزا طول
جداره ستون ذراعا ووضعوه الى سفح جبل منيف لابرام ولا برقا وبلطوا الجدار فلا يمشي
فيه أحد الا زلق عنه وأذن مؤذن نمروذ أيها الناس احتطبوا النار لابراهيم ولا يتخلفن عنها
ذكر ولا أنثى ولا حر ولا عبد ولا شريف ولا وضيع ومن تخلف عن ذلك ألقي في تلك النار
فعملوا في ذلك أربعين ليلة حتى ان المرأة منهم تنذر ذلك على نفسها ان رجع غائبها أو أفاق
عليلها حتى اذا كمل ذلك قذفوا فيه النار حتى انه كان يسمع وهج النار على المسافة البعيدة فلما
بلغ ذلك وضع ابراهيم في كفة المنجنيق قال وهب بن منبه فبلغني ان السماء والارض والجبال
وما فيها ضجوا الى الله تعالى ضجة واحدة قالوا يا ربنا ليس في أرضك أحد يعبدك غيره فأذن لنا
في نصرته فأوحى الله تعالى اليهم ان استغاث بشيء منكم فانصروه وأغيثوه وان دعاني فانا

وليه

وليسه وناصره فلما وضعوه فى كفة المنجنيق وقذفوه قال حسبى الله ونعم الوكيل اللهم انك تعلم ايمانى بك وعداوة قومى فيك فانصرنى عليهم ونجنى من النار فاوحى الله تعالى الى النار ان كونى بردا وسلاما على ابراهيم فاطاعت النار ربها ولولم يقل سلاما لمات من شدة البرد ولبث ابراهيم فى النار سبعة أيام وظن قومه انه قد احترق ثم قال نمروذ انظروا ماذا فعل ابراهيم فانى رأيت الليلة فى نومى ان جدار هذا الحيز قد تهدم وخرج ابراهيم يمشى قال وذاب النحاس الذى سد به باب الحيز واحترق الجدار فصار رمادا فاطلعوا على ابراهيم فرأوه صحيحا سليما وخرج الى الناس ينظرون اليه على تلك الحال فلما رآهم خرج يمشى حتى قعد الى أمه وهى فى الجمع وأقبلت ساورة وكانت أول من آمن به حتى جلست اليه فقالت يا ابراهيم انى آمنت بالذى جعل النار بردا وسلاما قالت لها أم ابراهيم احذرى القتل على نفسك فقالت اليك عنى فانى لا أخاف شيأ وقد آمنت بالله ابراهيم وحول ابراهيم جمع من الناس لا يحصى عددهم يأتمرون ليجددوا العذاب فارسل الله تعالى ريحا عاصفا فسفت رماد تلك النار فى وجوههم وعيونهم ففروا عنه وقام ابراهيم داعيا الى الله تعالى وذكر ابن عباس وقال مجاهد وقتادة وغيرهما ان نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام انطلق الى الحمام ومعه جنى يقال له صخر ولم يكن سليمان عليه السلام يدخل الخلاء بالخاتم فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه فالقاه فى البحر فالتقمته سمكة ونزع ملك سليمان منه وألقى على الشيطان شبه سليمان فجاء فجلس على كرسيه وسلط على جميع ملك سليمان غير نسائه فجعل يقضى بين الناس والناس ينكرون قضاياه حتى قالوا لقد فتن نبى الله سليمان ومكث على ذلك أربعين يوما ثم أقبل فى حالته تلك وهو جائع نائع حتى انتهى الى صيادين فى البحر فاستطعم أحدهم من صيده وقال له انا سليمان فقام اليه بعضهم فضربه بعصا فشج وجهه فجعل يغسل دمه على شاطئ البحر فلام الصيادون صاحبهم على ضربه اياه ثم اعطوا سليمان سمكتين مما قد تغير عندهم ونتن ولم يشغله ما كان فيه من الضرب عن أن يقوم الى شاطئ البحر فشق بطونهما وغسلهما فوجد خاتمه فى بطن أحدهما فاخذه فلبسه فرد الله عليه بهاءه وملكه وجاءت الطير فحامت عليه فعرف القوم انه سليمان فجاؤا يعتذرون اليه (وروى) وهب بن منبه ان الله تعالى وهب لابراهيم اسحق فلما كان ابن سبع سنين أوحى الله تعالى الى ابراهيم ان يذبحه وان يجعله قربانا فكتم ابراهيم ذلك عن اسحق وأمه وجميع الناس وأسره الى خليل له يقال له العازر وكان أول من آمن به من قومه يوم أحرق فقال له ان الله سبحانه رفع اسمك فى الملا الاعلى على جميع أهل البلاء حتى كنت أرفعهم بلية ليرفعك الله بقدر ذلك فى المنازل والفضائل وقد علمت أن الله تعالى لم يبتلك بذلك ليفتنك ولا ليضلك فلا يسرأن بالله ظنك وأعوذ بالله ان يكون ذلك حتما منى على الله تعالى أو خطأ بحكمه الذى حكم على عباده ولكن هذا حسن الظن بالله فان عزم ربك على ذلك فكن عند حسن علمك ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فتعزى ابراهيم عليه السلام بقوله واسنده رأيه وبصيرته وانطلق باسحق فلما صعد الجبل ومعه السكين والحبل وأداة القربان فقال له اسحق يا ابت أرى معك أداة القربان ولا أرى قربانا قال ابراهيم يا بنى القربان بعين ربك ينظر اليه وان شاء رحم أباك فلم يقطن اسحق فلما وافى رأس الجبل قال ابراهيم يا بنى ان الله تعالى أمرنى ان اذبحك وأجعلك

قربانا يرفعك اليه ويتقبلك فانظر ماذا ترى فتهال اسحق واستبشر فقال له والده لقد بجعتك يا بني بامر ما بجع به والد ولده وانى لارى من سرورك بذلك وشكرك لربك أمرا ارجو به العافية والفرج فقال يا أبت لم يكن شئ من الدنيا أحب الى من البر بك وبامي وقد حز صنيه ربي فاذا أردت ذبحي فاشدد وثاقي فانى اخاف حين يفارقني عقلي واجد الم الحديد ان يتحرك مني عضو فيؤذيك وأنا أكره أن أختم بذلك عملي فاذا فرغت من أمري فاقرئ أمي السلام وقل لها لا تجزعي فقد أكرم الله ابنك في جنانه فلما فرغ من وصيته عمد ابراهيم صلى الله عليه وسلم اليه فصبه بعمامته ما بين منكبيه الى الكعبين ثم كبه لوجهه وكره ان يستقبل وجهه كي لا تدركه له رحمة اذا هو تشطط فادخل يده من تحت حلقه فلما أراد أن يحز انقلب السكين فاوجس ابراهيم في نفسه ثم عاد الثانية فلما أراد ان يحز انقلب السكين ونودي يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم هذا فداء ابنك قد فداه الله لك به فنظر ابراهيم خلفه فاذا بكبش قد لوى قرنه الايمن على ساق شجرة فوجهه ابراهيم الى القبلة وقبلته يومئذ مكة فذبحه ابراهيم وقصبه اسحق فلما فرغا منه وضعاه قربانا فرفعه الله اليه وتقبله (قال أبو هريرة) ولما صار يوسف عليه السلام الى مصر واسترق بعد الحرية جزع جزعا شديدا وجعل يبكي الليل والنهار على أبويه واخوته ووطنه وما ابتلي به من الرق فاحيا ليله من الليالي يدعو ربه تعالى وكان من دعائه ان قال يا رب اخرجتني من أحب البلاد الي وفرقت بيني وبين اخوتي وأبوي ووطني فاجعل لي في ذلك خيرا وفرجا ومخرجا من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب وحبب الي البلاد التي انا فيها وحببها الى كل من يدخلها وحببني الى أهلها وحببهم الي ولا تمتني حتى تجمع بيني وبين أبوي واخوتي في يسر منك ونعمة وسرور تجمع لنا به خير الدنيا والآخرة انك سميع الدعاء فاتى يوسف في نومه فقيل له ان الله تعالى قد استجاب لك دعاءك وأعطاك منالك وورثك هذه البلاد وسلطانها وجمع اليك أبويك واخوتك وأهل بيتك فطب نفسا واعلم ان الله تعالى لن يخلف وعده وبدعاء يوسف صارت مصر محبوبة يحبها من دخلها فلا يكاد يخرج منها قال قتادة ما سكنها نبي قبله ولما جمع الله شمله وتكاملت النعمة عليه اشتاق الى لقاء ربه فقال رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تاويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد الى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الاموال ضيق على يزيد بن أبي مسلم فلما ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة ولى يزيد بن أبي مسلم افريقية فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبي مسلم فاتي به في شهر رمضان عند المغرب وفي يد ابن أبي مسلم عنقود عنب فقال له يزيد حين دنا منه محمد قال نعم قال اما والله لطالما سالت الله تعالى ان يمكنني منك بغير عهد ولا عقد فقال محمد وانا والله فطالما سالت الله ان يجيرني منك ويعيذني فقال يزيد فوالله ما أجارك ولا اعاذك وان سابقني ملك الموت الى قبض روحك لسبقته والله لا أكلت هذه الحبة حتى أقتلك فأقام المؤذن الصلاة فوضع يزيد العنقود وتقدم ليصلي وكان أهل افريقية قد اجمعوا على قتله فلما ركع ضربه رجل على رأسه بعمود فقتله وقيل لمحمد بن يزيد اذهب حيث شئت فسبحان من قتل الامير وأحيا الاسير سنة الله التي قد خلت في عباده طلوع الحياة من شفار

الموت وحضور الموت من معدن الحياة (وبروى) ان سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم فارسل الى قائد البحر وقال انفذ الآن مركبا الى افريقية يأتونى باخبارها فعمر القائد المركب وأرسله لحينه فلما أصبحوا اذا بالمركب فى موضعه لم يبرح فقال له الملك أليس قد فعلت ما أمرتك به قال نعم قد امتثلت أمرك وأنفذت المركب فرجع بعد ساعة وسيحدثك متقدم المركب فجاء ومعه رجل فقال الملك ما صنعك ان تذهب حيث أمرتك قال ذهبت بالمركب فبينا انا فى جوف الليل والبحارون يقذفون اذا أنا بصوت يقول يا الله يا الله يا غياث المستغيثين يكررها مرارا فلما استقر صوته فى اسماعنا نادينا مرارا لبيك لبيك وهو ينادى يا الله يا غياث المستغيثين ونحن نجيبه لبيك لبيك وقذفنا المركب نحو الصوت فالفيناه هذا الرجل غريقا فى آخر رمق من الحياة فاخذناه من البحر وسألناه عن حاله فقال كنا مقلعين من افريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام ومازلت أسبح حتى وجدت الموت فلم أشعر الا بالغوث من ناحيتكم فسبحان من أمهر سلطانا وأرق جبارا فى قصره لغريق فى البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الوحشة لا اله الا أنت سبحانك (وأخبرنى) رجل كان امام المسجد الجامع بالاسكندرية قال كنت بصقلية أيام فتن العدو فزحف الينا فى البحر ستون تقاربنا فلما تصافينا وأرست فى الساحل فرأينا أمرا مهولا وفينا الشيخ الصالح العابد ابن المستطارى فطما الناس اليه واستجمعوا حوله يتبركون به ويتنظرون الفرج على يديه قال فنظر الى السماء حينا وسجد وعفر خديه بالارض يقلبهما يمينا وشمالا قال فوالله ما ذهبنا حتى هبت ريح مزقتها كل ممزق فلم يجتمع منها اثنان (وأخبرنى) أبو القاسم بن فاتك رحمه الله قال كنت فى طريق الحجاز فعطش الناس فى مفازة تبوك ففقد الماء ولم يوجد الا عند صاحب لى جمال فجعل يبيعه بالدنانير بارفع الاثمان فجاء رجل كان موسوما بالصلاح عليه مقطعة يحمل ركوة ومعه شئ من دقيق فتشفع بى الى الجمال ليبيعه الماء بذلك الدقيق فكلمته فابى على ثم عاودته فابى قال فبسط الرجل النطع فى الارض ونثر عليه الدقيق ثم رمق السماء وقال الهى انا عبدك وهذا دقيقك ولا أملك غيره وقد أبى ان يقبله ثم ضرب يده فى النطع وقال وعزتك لا برحت حتى أشرب فوالله ما تفرقنا حتى نشأ السحاب فامطر للعين فشرب الماء ولم يبرح فكان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم رب اشعث اغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره (وأخبرنى) شيخ مسن ممن كان يصحب العلماء بالقيروان يقال له حريز قال أخبرنى عبد الكافى الديباجى قال رأيت بالقيروان آية عظيمة وذلك ان رجلا جاء بصبى له وقد أسكت فلا يتكلم فدخل به الى الفقيه أبى بكر بن عبد الرحمن وقال له ان ابنى هذا قد أسكت منذ أيام فلا يتكلم فادع الله ان يفرج ما نزل به قال فدعا الشيخ ساعة ثم مسح وجه الصبى فاستفاق الصبى فقال له قل لا اله الا الله فقال الصبى أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ثم التفت الى الرجل وقال اكفها على الى الموت ثم التفت الى جاريته فقال اكفى على هذا الى الموت وأنت حرة فلما كان يوم توفى الشيخ أبو بكر واجتمع الناس لجنازته وتكاثرت الامم قام الرجل فاستنصت الناس فسكتوا فقال يا أهل القيروان اسمعوا قصتى مع هذا الشيخ وذكر الحديث كما سقناه (وحدثنى) هذا الشيخ قال نزل عندنا بالقيروان قصة لم يسمع فى السالفين مثلها وذلك ان بعض الجزارين اضجع كبشا ليذبحه فتخبط بين يديه فافلت منه وذهب فقام الجزار يطلبه

وجعل يمشى الى أن دخل خربة فاذا فيها رجل مذبوح يتخبط فى دمه ففزع وخرج هاربا واذا صاحب الشرطة والرجالة عندهم خبر القتيل وجعلوا يطلبون خبر القاتل والمقتول فأصابوا بيده السكين وهو ملوث بالدم والرجل مقتول بالخربة فقبضوه وحملوه الى السلطان فقال له أنت قتلت الرجل قال نعم فقال فمازالوا يستنطقونه وهو يعترف اعترافا لا اشكال فيه فأمر به السلطان بقتل فاخرج للقتل واجتمع الامم ليبصروا قتله فلما هموا بقتله اندفع رجل من الخلقة المجتمعين فقال لهم لا تقتلوا انا قاتل القتيل فقبض وحمل الى السلطان فاعترف وقال انا قتلته فقال له السلطان قد كنت معافى من هذا فما حملك على الاعتراف قال رأيت هذا الرجل يقتل ظلما فكرهت ان القى الله تعالى بدم رجلين فأمر به السلطان فقتل ثم قال للرجل يا أيها الرجل ما دعاك الى الاعتراف بالقتل وأنت برىء قال الرجل فما حيلتى رجل مقتول بالخربة وأخذونى وأنا خارج من الخربة وبيدى السكين ملطخة بالدم فان أنكرت من يقبلنى وان اعتذرت من يعذرنى فخلى سبيله وانصرف مكرما (ولما وزر نخر الملك) نظام الدين لسنجار الملك وكان لنخر الملك ابن عم يقال له شهاب الملك وكان يخاف منه على منزلته فقال للملك سنجار لا حياة لى معك الا أن تقتل ابن عمى شهاب الملك فابى سنجار فمازال يراجعه الى ان أمر به فحبس فى بلد يقال لها بيهق وكان والى ذلك البلد يكرمه لجلالته وجلالة أهل بيته واخلى له دارا فى القلعة مشرفة ثم جعل نخر الملك يفسد قلب سنجار ويحمله على قتل شهاب الملك الى أن أرسل سنجار الى واليه بقتل شهاب الملك فاستعظم الوالى قتله وأخره أياما ثم لم يجد بدا من قتله فعزم على قتله فى يوم جمعة فبينا شهاب الملك يطلع من طاقات الدار اذا بفارس يركض فاوجس فى نفسه خيفة منه وقال هذا يريد أن يقتلنى فوصل الفارس وقال مات نخر الملك فخلى سبيل شهاب الملك ثم وزر لسنجار فسبحان الفعال لما يريد (أخبرنى) أبو الفضل المعبر بمصر قال كان بمصر مملوك بنى حمدان وكان الرئيس ناصر الدولة وكان يشكو وجع القولنج فأعيا الاطباء ولم يوجد له شفاء ثم ان السلطان دس على قتله فارصد له رجل معه خنجر فلما جاء فى بعض دهاليز القصر وثب عليه الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة فى أسفل خاصرته فأصاب طرف الخنجر المعى الذى هو القولنج فخرج ما فيه من الخلط ثم عافاه الله تعالى فصح وبرئ كاحسن ما كان (ولما كنت بالاسكندرية) نزلت سفن العدو بساحل مدينة برقا فأخذوا قوما من المسلمين وقتلوا بعضهم وأسروا بعضهم فأخذ رجل منهم وشد كافه من خلفه فلما ركبوا السفينة عمد اليه بعض الاعلاج فرفصه وألقاه فى البحر ثم طعنه برمح كان معه فلم يخطئ نصل الرمح حبل الكتاف فقطعه وانحلت يدا الرجل فسبح حتى لحق بالشاطئ سليما ووصل الى الاسكندرية فى عافية (وحدثنى) بعض الشاميين ان رجلا خبازا بينما هو يخبز فى تنوره بمدينة دمشق اذ عبر عليه رجل يبيع الشمش قال فاشترى منه وجعل يأكل بالخبز الحار فلما فرغ سقط مغشيا عليه فنظروا فاذا هو ميت فجاءوا يتربصون به ويحملون له الاطباء فيلسون دلائله ومواضع الحياة منه فقضوا بانه ميت فغسل وكفن وحمل الى الجبانة فبيناهم خارجون به من باب المدينة استقبلهم رجل طبيب يقال له البيرودى وكان طبيبا ماهرا حاذقا بالطب فسمع الناس يلهجون بقصته فقال لهم حطوه حتى أراه قال فحطوه وجعل يقلبه وينظر فى أمارات الحياة التى يعرفها ثم فتح فمه وسقفه شيأ أو قال حقنه فاندفع ماهنالك بسيل واذا الرجل قد فتح

عينيه وتكلم وعاد كما كان الى ذكائه (وكان رجل) يمشي ببغداد فبينما هو في الطريق اذا بدار قد وقعت عليه فخرت كالجبل العظيم واذا في الحائط طاقة فاخطأت رأسه فصارت الدار كوما وخرج الرجل من الطاقة سليما (وحدثني) أبو القاسم الحضرمي قال كنت باليمن في أرض الصليحي فوشي بي الى السلطان فأمر بقتلي فاخرجت وقدمت للقتل وتركني السياف ثم قال لي مد رقبتك فمددت عنقي لقضاء الله تعالى ثم قال لي السياف اشتد فقلت دونك ياهذا فبينما نحن كذلك اذ بصائح من داخل القصر لا تقتلوه لا تقتلوه فخلوا سبيلي (وجرت بقرطبة قصة غريبة) في أيام المنصور بن أبي عامر وذلك ان رجلا يعرف بقاسم بن محمد السنبسي شهد عليه بالزندقة فحبسه المنصور مدة مع جماعة من الادباء من وجوه قرطبة مرموقون بالانهماك والزندقة وكان ينادى عليهم في كل جمعة يوقفون اثر صلاة الجمعة بباب الجامع الاعظم من كانت عنده شهادة فيهم فليؤدها فثبت على قاسم عند القاضي سجل شهادات الشهود بانواع منكرة تتضمن الزندقة والكفر فطلعوا الى القصر وعقدوا مجلسا عظيما واستشير الفقهاء فيه فاوجبوا قتله فاستحضر قاسم فحضر وحضر أبوه وحضر ابنان صغيران لقاسم والبسوا ثياب الحداد وحمل أبوه معه نعشا وحالين وجعل أبوه والصبيان يبكون على باب القصر واحد اضرب عنقه سياف يعرف بابن الجندي ودفعت اليه اسياف من القصر فجعل يروزها ويلس شفارها وأبوه وابناه ينظران وحضر الفقيه أبو عمرو المكودي الاشبيلي على كره منه وكان يأبى الحضور فاستفتوه فقال ياهؤلاء ان الدماء لا تسفك الا بالحق الواضح دون الشبه احسبوا ان السنبسي فرويا بماذا تذبحونه فقال القاضي ابن الشرفي بما ثبت عندي وأمعنت النظر فيه قال الفقيه أوقفني عليه فاخذ السجل ونظر فيه فقال أخبرني بمن قتلته من هؤلاء الشهود قال بهذا وهذا حتى عد خمسة قال الفقيه فجميعهم تقتله قال نعم قال فلو شهد منهم اثنان خاصة كنت تقتله قال لا انما قوى بعضهم بعضا وزكى أكثرهم عندي فالتفت الفقيه الى الفقهاء المشاورين فقال ياهؤلاء بالدعائم يقتل المسلمون عندكم ويسفك دماؤهم فلست أرى قتله ولا اشير به فرجع الفقهاء الى قوله ولم يروا عليه شيأ بعدما افتوا بقتله منذ سنة أشهر فانفض الجمع ورشم السيف وطار البشير الى ابن أبي عامر فاخبره بالمجلس فقال ابن أبي عامر مضيتم تقتلون ابن السنبسي فدفنتم القاضي قد اجتهدنا للدين ولا قاتل لمؤجل فحبس أياما ثم أطلق فكان ابن ذكوان الفقيه يقول للقاضي في مثل هذا قال القائل اذا سئل بم عرفت الله قال بنقضه عزائمي ومعنى الدعائم على لسان الفقيه هم الشهود الذين لو انفرد منهم اثنان لم يثبت الحكم ولا قبلا فيه فاذا كثروا وقوى بعضهم بعضا فلا يثبت الحكم بهم (وفي نقيض هذا ما حدثني القاضي) أبو مروان الداني بطرطوشة وقد ولي قضاءها فتذاكرنا يوما فقال نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فاووا الى دار خراب هنالك ليستكنوا من الرياح والامطار واستوقدوا نارهم وسووا معيشتهم وقرب تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع فقال رجل منهم لاهل القافلة ياهؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ولا تدخلوا هذه البقعة فابوا الا دخولها وبات الرجل منتبذا خارجا عنهم لم يقرب ذلك المكان ثم أصبحوا في عافية وحملوا دوابهم فبينما هم كذلك اذ دخل الرجل الخربة ليستوقد بقية النار فخر عليه الحائط فمات مكانه (وبلغني) عن بعض الفقهاء ان جيشا من الجيوش كان

بصقلية ها هنا من مكان الى مكان فقعدوا ساعة لبعض شأنهم فاذا عقرب يدب فضربه بعض الاجناد بقرعة كانت معه ثم رفع المقرعة الى نحو عنقه فاذا بالعقرب قد تشبثت باهداب المقرعة وهو لا يشعر فلدغته فى عنقه فقضى مكانه (واخبرنى القاضى) أبو الوليد الباجى عن أبى ذر قال كنت أقرأ على الشيخ أبى حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزأ من الحديث فى حانوت رجل يبيع العطر فجاء رجل طواف بطبق يحمله فى يده وأعطاه عشرة دراهم وقال له ادفع الى أشياء سماها من العطر فاخذها فى طبقه ومشى فسقط الطبق من يده وتفرق جميع ما كان فيه فبكى الطواف وجزع حتى رحمناه فقال أبو حفص لصاحب الحانوت لعلك تجبر له بعض هذه الاسباب قال نعم فنزل وجمع ما تجمع منها وجبر له ما انتقص وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له لا تجزع فامر الدنيا أيسر من ذلك فقال الطواف أتظن أيها الشيخ ان جزعى لضياع ماضاع انما علم الله تعالى متى كنت فى القافلة القلانسية فضاع لى هميان فيه أربعمائة دينار أو أربعة آلاف دينار الشك من أبى ذر ومعها فصوص قيمتها مثل ذلك فما جزعت اضاعتها ولكن ولد لى فى هذه الليلة مولود فاحتجت فى البيت الى ما تحتاج اليه النفساء ولم يكن عندى غير هذه العشرة دراهم فاشفقت ان أشترى بها حوائج النفساء فابقى بغير رأس مال ولا اقدر على التكسب فقلت اشترى بها شيأ وأطوف صدر نهارى فعسى استفضل شيأ أسد به رمقى ويبقى رأس المال انصرف فيه فلما قدر الله تعالى بضياعه جزعت فقلت لا عندى مال أرجع به اليهم ولا ما اكتسب به وعلمت أنه لم يبق لى الا الفرار منهم وتركهم على هذه الحال يهلكون بعدى فهذا الذى أوجب جزعى قال الشيخ أبو ذر وكان رجل من الجند جالسا على باب داره يستوعب الحديث فقال للشيخ أبى حفص أنا أرغب اذا تممتم أمره أن تدخل معه عندى وقام فظننا انه يريد ان يعطيه شأ قال فدخلنا عليه فاذن لنا فقال الجندى للطواف عجبت من جزعك فأعاد عليه القصة فقال الجندى وكنت فى تلك القافلة قال نعم وكان بها من عظام التاس فلان وفلان فعلم الجندى صحة قوله فقال له وما علامة الهميان وفى أى موضع سقط منك فوصف المكان والعلامة فقال له الجندى لو رأيته كنت تعرفه قال نعم فاخرج الجندى هميانا ووضعه بين يديه فقال هذا هميانى وعلامة صحة قولى ان فيه من الاحجار ما صفته كذا وكذا ففتح الهميان فوجد الاحجار على ما ذكر فقال الجندى خذ مالك بارك الله لك فيه فقال الطواف هذه الاحجار قيمتها مثل الدنانير أو اكثر فخذ انت الدنانير فنفسى طيبة بذلك فقال الجندى لا آخذ على أمانتى شيأ فدخل الطواف وهو من الفقراء وخرج وهو من الاغنياء فبكى الجندى بكاء شديدا وانتحب فقال له أبو حفص علام تبكى وقد أدى الله أمانتك وقد بذل لك مالا كثيرا وان شئت عرضنا عليه ان يعيده عليك فقال ما أبكى لذلك وانما أبكى لانى اعلم انه قد حان أجلى فانه ما كان بقى أمل أؤمله ولا أمنية أتمناها الا ان يأتينى الله بصاحب هذا المال فأخذه فلما قضى الله تعالى ذلك بفضله ولم يبق لى أمل علمت انه قد حان أجلى قال الشيخ أبو ذر فما انقضى شهر حتى توفى رحمه الله وصلينا عليه (قال القاضى) وحدثنى أبو القاسم بن الحسين بالموصل قال لقد جرت ههنا فى هذا المسجد وهذه الدار والحانوت وأشار اليها قصة عجيبة كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر الى الكوفة فى تجارة الخز فبينما هو يحمل الخز فى خرجه على حماره وهو وجميع ماله نزلت القافلة فاراد انزاله عن الحمار فثقل عليه فامر انسانا

هنالك فأعانه على انزاله ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فاجابه وأكل معه ثم سأله عن أمره فاخبره انه رجل خرج من الكوفة لامر أزعجه دون زاد فقال له الرجل تكون معي وتعينني على سفري ويكون طعامك عندي فقال الرجل اني حريص على خدمتك ومحتاج الى طعامك فسار معه في طريقه فخدمه على أحسن حال قال فوصلا تكريت فنزلت الرفقة خارج المدينة ودخل الناس لقضاء حوائجهم فقال الرجل للخادم احفظ رحلنا حتى ادخل واشتري حاجتنا ثم دخل وقضى حوائجه فابطأ هنالك ثم خرج فلم يجد الرفقة ولا وجد صاحبه فظن انه لما رحلت الرفقة رحل معها فلم يزل يسعى حتى وصل الى الرفقة بعد الجهد فسألهم عن صاحبه فقالوا ما جاء معنا ولا رأيناه ولكنه ارتحل الاسباب على الحمار ودخل على أثرك وظننا انه أمرته بذلك فكر الرجل راجعا الى تكريت وسأل عنه فلم يجد له أثرا ولا سمع له خبرا فيئس منه وسار الى الموصل وسلوب المال فوافاها نهارا جائعا عريانا فتيمم مسجدا فاستحيا أن يدخل نهارا فيشمت العدو ويحزن الصديق فبقي حتى أمسى ثم دخل فدق باب الدار فقيل من هذا فقال فلان يعني نفسه فاظهروا سرورا عظيما وحاجة اليه وقالوا الحمد لله الذي جاءك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة والفاقة حملت جميع مالك وطال سفرك واحتاج أهلك وتد ولدت اليوم ولدا ووالله ما وجدنا ما نشتري به شيأ للنفساء ولقد كانت هذه الليلة طاوية على حالها فتحيل لنا في دقيق ودهن نسرج به فلا سراج عندنا فزاده ذلك غما وكره ان يخبرهم بحاله فيحزنهم فأخذ وعاء فلريت وبر ابا ندقيق وخرج الى هذا الحانوت وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحوه وقد أغلق دكانه واطفأ سراجه وتأهب للنوم فناداه فاجابه وعرفه وشكر الله على سلامته فقال التاجر لصاحب الحانوت اقدح زنادا انزن لك الدراهم في دقيق وزيت وعسل استحيت اليه الساعة وكره ان يخبره بتأخير الثمن فيمتنع منه فتدح البياع الزناد واستصبح فقال له التاجر زن لي من الدقيق كذا ومن الزيت كذا ومن العسل كذا ومن السمن كذا ومن الملح كذا وبينما هو كذلك اذ طاشت منه الشاشة الى قعر الحانوت فرأى فيه خرجه الذي هرب به صاحبه فلم يملك ان وثب عليه والتزمه وألقى بيديه أطواق صاحب الحانوت وجذبه الى نفسه وقال يا عدو الله أين مالي فقال له صاحب الحانوت مالك يا فلان فوالله ما علمتك تعديا ولا علمتني جنيت عليك ولا على سوادك فما هذا قال خرجي فزلي به خادم خدمني بجميع مالي وبحماري قال مالي علم غير اني رجلا ورد علي بعد العشاء واشترى مني عشاء واستضافني فأضفته وجعلت هذا الخرج في حانوتي وهذا الحمار في دار جارنا والرجل في المسجد بائت فقال له احمل معي الخرج وامض الى الرجل فرفع الخرج معه والتاه على عاتقه ومشى معه الى المسجد فاذا الرجل نائم في المسجد فركسه برجله فقام الرجل مذعورا فقال له مالك فقال له أين مالي يا خائن قال هو ذا على عنقك والله ما تغادر منه ذرة قال فأين الحمار قال هو عندي هذا الجاني معك فنهض الى داره فوجد متاعه سليما ستخرج الحمار من الموضع الذي كان فيه ووسع على أهله وأخبرهم بقصته فزاد أهله فرحا وتبركا بذلك المولود ولما وفى موسى عليه السلام أجره شعيب عليه السلام الاجل الذي أجله لرعي غنم شعيب التي رعاها وموسى هو راض عن مهر ابنته فخرج موسى عليه السلام زوجته وكرر اجماس مدين فلما وافى الوادي المقدس عند جانب الطور أجنهم الليل

بظلمته فاسوا باقتين فبينماهم كذلك اذ ضرب زوجته الطلق وكانت حاملا وليس عندهم ما تحتاج اليه النفساء من الغذاء والدواء وما يصلح به شأنهم فبقوا فى ضيق من الحال وقلة من الحيلة فخرج موسى عليه السلام يلتفت ويبصر يمينا وشمالا عسى فرج لما أمسوا فيه من الضرر اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها أضيء وما يكون ذرعا وأحرجه قلبا وآيسه عن رفق نودى من شاطئ الوادى الايمن يا موسى انى أنا ربك وهكذا الطائف الحق سبحانه مع من سلم لامره ورجا فضله وتكلم بالهدى والبشرى يفسح الله فيه أمله ويعطيه فوق ما سأله هذا موسى عليه السلام خرج يقتبس نارا نودى بالنبوة وعن هذا قال عماؤ باليس فى خصال الخيروان جلت ولا فى انواع الاعمال وان عظمت أعلى من حسن الظن بالله تعالى ونظمه بعض الشعراء فقال

ايها العبد كن لما لست ترجو * من نجاح أرجى لما أنت راج
ان موسى مضى ليقبس نارا * من ضياء رآه والليل داج
فاتى أهله وقد كلم الله وناجاه وهو خير مناج
وكذا الكرب كلما اشتد بالعبد دنت منه راحة الانفراج

(وروى) ان العدو نزل بساحة افريقية فى عدد كثير من المراكب ففنى ماؤهم وعطشوا فنفر المسلمون لهم فى خلق عظيم من تلك السواحل والحصون فمنعوهم النزول لاستقاء الماء وارسلوا الى المسلمين ان يحملوهم واستقاء الماء فابوا فتضاعف عطشهم حتى أشرفوا على الهلاك ففتحوا أناجيلهم وأخذوا فى الدعاء والاستسقاء الى الله تعالى والتضرع اليه فلم يك بأوشك من السماء أن ألقت بارواقها ثم أرخت ماء كثيرا فبسط القوم انطاعهم وجفانهم وآلاتهم فشربوا وملؤا أوانيهم فضج المسلمون عند ذلك وقالوا هؤلاء كفار واعداء الله ورسوله قد أخلصوا الى ربهم وأنابوا اليه وسألوه ماء يحيون به رمقهم فانما نحن أحق بالدعاء والتضرع الى الله سبحانه وأولى بالاجابة منهم ثم جد المسلمون فى الدعاء والصلاة والابتهال الى الله تعالى فى أن يريهم آية يقوى بها قلوب الضعفاء ويتزايد شكر أهل المعرفة والاولياء فبينما هم كذلك اذ أرسل الله عليهم ريحا فبددتهم ومزقتهم كل ممزق وكسرت مراكبهم ولم يجتمع منهم اثنان * ومن عجائب صنع الله تعالى فى هذا الباب ان رجلا من ديار بكر جاء الى بيت المقدس وزار قبر الخليل صلى الله عليه وسلم وأكل من ضيافته فطارت حبة عدس من ذلك الطعام فى خيشومه ورام خروجها بكل حيلة فاعجزته حتى تركته ومضى ثم رجع الى بلاده فبينما هو جالس اذ عطس فطارت العدسة فى الارض فاذا طائر قد التقطها لوقتها ورى الرجل فسبحان من جعل أنف هذا الرجل حرزا لقوت هذا الطائر على بعد الشقة والمسافة * وأما أنا فلما هممت بالرحيل من بلدى الى المشرق فى طلب العلم كنت لا أعرف التجارة ولا الى حرفة ارجع اليها فجزعت من الخروج وكنت أقول ان ذهبت نفقتى ماذا أفعل وكان أقوى الآمال فى نفسى ان أحفظ المسافير بالاجرة وأدرس العلم بالليل ثم استخرت الله تعالى فرحلت وكانت معى نفقة وافرة فى هميان على وسطى وكنت أسمع المسافرين يقولون من نام بالليل فى الفيافى وله نفقة على وسطه فليحلها فان اللصوص اذا كابرت الخلق يبتدرون أوساطهم فخرجت من بلاد السويدية الى انطاكية وهى اذ ذاك ثغر للروم

فسيرها

فسرينا الليلتنا وأصبحنا على باب انطاكية فأخذتني عيني وحللت الهميان ونمت ولم أستيقظ الا بحرة النهار فاستيقظت ومددت يدي الى الهميان فلم أجده فجعلت أنظر الى القافلة والتفت الى الناس وقد أسقط في يدي ولم يبق لي حيلة فاسترجعت ورفعت أمري الى الله سبحانه واذا رجل من أهل القافلة ملتفتا الي فوقع وجهي في وجهه فاذا هو يضحك لما رأى مابي فقال مالك أيها الفقيه قلت خير فراجعني فقلت خير فقام الي وقال خذهميانك عافاك الله فسألته كيف ظفر به فقال رأسك قد تدحرجت ذراعين أو ثلاثة والتفت فرأيت سوادا في الموضع الذي كنت فيه فأتيت فسرت اليه وأخذته فاذا هو الهميان رحمة الله عليه ورضوانه لديه

الباب الستون في بيان الخصلة التي هي ام الخصال وينبوع الفضائل ومن فقدها لم يكمل فيه خصلة وهي الشجاعة ويعبر عنها بالصبر ويعبر عنها بقوة النفس

قالت الحكماء أصل الخيرات كلها في ثبات القلب ومنه تستمد جميع الفضائل وهو الثبوت والقوة على مايوجبه العدل والعلم والجبن غريزة يجمعها سوء الظن بالله تعالى والشجاعة غريزة يجمعها حسن الظن بالله تعالى سئل الاحنف عن الشجاعة فقال صبر ساعة وسئل أبو جهل عن الشجاعة فقال تصبرون على حز السيوف فواق ناقة وهو مابين الحلبتين واعلم ان القادم لقتال طريدة من طرائد الموت فاستقبال الموت خير من استدباره وقد قال الاول رب حياة سببها التعرض للوفاة ووفاة سببها طلب الحياة ومن حرص على الموت في الجهاد وهبت له الحياة وقالوا الهزيمة شفرة من شفار الموت والفار يمكن من نفسه والمقاتل يدفع عن نفسه وقالوا ثمرة الشجاعة الامن من العدو واعلم ان من قتل في الحرب مدبرا أكثر ممن قتل مقبلا وقالوا تأخير الاجل حصن المحارب وقيل لبعضهم في أي جنة تحب ان تلقى عدوك قال بادبارد وليته وانقضاء مدته واعلم ان الشجاعة لمن كانت له الدولة واذا انقضت المدة لم تغن كثرة العدد وقال علي رضي الله عنه اذا انقضت المدة كانت الهلكة في الحيلة واعلم ان كل كريهة ترفع أو مكرمة تكتسب لا تحقق الا بالشجاعة ألا ترى انك اذا هممت ان تمنع شيأ من مالك خار طبعك ووهن قلبك وعجزت نفسك فشححت به واذا احققت عزمك وقويت نفسك وقهرت ذلك العجز أخرجت المال المضنون به وعلى قدر قوة القلب وضعفه تكون طيبة النفس باخراجه أو كراهية النفس لاخراجه مع اخراجه وعلى هذا النمط جميع الفضائل مهما لم يتارنها قوة نفس لم تحقق وكانت مخدوعة وروي ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال الشجاعة والجبن غرائز يضعها الله تعالى فيمن يشاء من عباده فالجبان يفر عن امه وأبيه والشجاع يقاتل عمن لا يؤب به الى رحله فبقوة القلب يصاب امتثال الاوامر والانتهاء عن الزواجر وبقوة القلب يصاب اكتساب الفضائل وبقوة القلب ينتهي عن اتباع الهوى والتضمخ بالرذائل قال الشاعر

جمع الشجاعة والخضوع لربه * ما أحسن المحراب في المحراب

وبقوة القلب يصبر الجليس على ايذاء الجليس وجفا الصاحب وبقوة القلب يكتم الاسرار ويدفع العار وبقوة القلب يقتحم الامور الصعاب وبقوة القلب يتحمل أثقال المكاره وبقوة القلب يصبر على اخلاق الرجال وبقوة القلب تنفذ كل عزيمة وروية وأوجبها الحزم والعدل وبقوة القلب يضحك الرجال في وجوه الرجال وقلوبهم مشحونة بالضغائن والاحقاد

كما قال أبو ذر انا النكشر في وجوه قوم وان قلوبنا لتلعنهم وقال علي رضي الله عنه انا لنصافح أكفا نرى قطعها وليس الصبر والشجاعة وقوة النفس أن يكون مصرا في المحال لجوجا في الباطل ولا ان تكون جلدا عند الضرب صبورا على التعب مصمما على التعزير والتهور فان هذه صفة الحمير والخنازير ولكن ان تكون صبورا على أداء الحقوق عليك صبورا على سماعها والقائها اليك غالبا الهوى مالكا الشهوات ملتزما للقضائل يجهدك عاملا في ذلك على الحقيقة التي لا يحيلك عنها حياة ولا موت حتى يكون عندك موتك على الخير الذي آثار به العلم وأوجبه العدل خيرا من البقاء على ما أوجب رفض العلم والعدل كما قال علي بن الحسين رضوان الله عليهما يا بني وما يبالي أبوك لو ان الخلق خالفوه اذا كان على الحق وهل الخير كله الا للحق الابعد الموت ومن هذا قالت حكماء الهند اذا لم يكن للملك من نفسه معين كان في جميع أموره ضعيفا مخذولا واعلم ان الجبن مقتلة والحرص محرمة والجبن ذل والجبان ضعف والجبان يعين على نفسه بفزعه أمه وأبيه وصاحبته وبنيه واعلم ان كل كريهة ما بين الحليتين والشجاع يحمي عمن لا يناسبه ويقي مال الجار والرفيق بمهجته والجبان يخاف ما لا يحس به والجبان حتفه من فرقه واعلم ان الشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه رجل اذا التقى الجمعان وتزاحف الزحفان واكتحلت الاحداق بالاحداق برز من الصف الى وسط المعترك يحمل ويكر وينادي هل من مبارز والثاني اذا التحم القوم واختلطوا ولم ير أحد من أين يأتيه الموت يكون رابط الجاش ساكن القلب حاضر اللب لم يخامره الدهش ولا خالطته الحيرة فينقلب بقلب المالك لامره القائم على نفسه والثالث اذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوي قلوب أصحابه ويرجي ضعيفهم ويعدهم بالكلام الجميل ويشجع نفوسهم فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كردس فرسه كشف عنه حتى يئس العدو منهم وهذا أحمدهم شجاعة وعن هذا قالوا المقاتل وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم (وقالوا) لكل واحد يومان لا بد منهما أحدهما لا يجعل عليه والثاني لا يفعل عنه فالجبان والفرار * وكان شيوخ الجند يحكون في بلادنا قالوا دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افترقوا فوجدوا في المعترك قطعة من بيضة الحديد قدر ثلثها بما حوته من الرأس فيقال انه لم يرقط ضربة أقوى منها * وكان شيوخ الجند في بلدنا طرطوشة يحكون انهم خرجوا في أيام سيف الملة في سرية الى بلاد العدو فبينما هم يسيرون اذ لقيتهم سرية للروم يريدون منا ما نريد منهم قال وعرف بعضهم بعضا وكان فينا صناديد الفرسان وفيهم صناديد الروم فتواقفنا ساعة ثم شددنا وشدوا فالتقينا وتجالدنا ساعة ثم منحنا الله تعالى أكتافهم فجعلناهم حصيدا كأنهم جزر على الاوضام وكان هناك بقر بهم قرية فيها شيء من الخمر فشربناه وسكرنا ثم اشتهينا شرائح اللحم فقمنا نقطع من لحومهم ونجعل على النار وأكلنا منها ففزع من كان أسرنا منهم وبلغ الحديث الى الروم فقضت النصارى تعجبا منا وقذف الرعب في قلوبهم (وروى) ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي عمرو بن معدي كرب فقال له يا عمرو أي السلاح أفضل في الحرب فقال عن أيها تسأل قال ما تقول في السهام قال منها ما يخطئ ويصيب قال فما تقول في الرمح قال أخولك ورعاثانك قال فما تقول في السيف قال ذاك الذلا أم لك قال فما

تقول فى الترس قال هو الدائرة وعليه تدور الدوائر وكان عمر وهذا من شجعان العرب رابط الها
نزل يوم القادسية على النهر فقال لاصحابه الى عابر على الجسر فان أسرعتم فقد ارجزوا الجزور
وجدعونى وسيفى بيدى أقاتل به تلقاء وجهى وقد عقرنى القوم وأنا قائم بينهم وان أبطأتم
وجدعونى قتيلا بينهم ثم انغمس فحمل على القوم فقال بعضهم لبعض يا بنى زيد على ماتدعون
صاحبكم والله ما أرى ان تدركوه حيا فحملوا فانتهوا اليه وقد صرع عن فرسه وقد أخذ برجل
فرس رجل من العجم فامسكها وان الفارس ليضرب فرسه فما يقدر الفرس ان يتحرك فلما
غشيناه رمى الرجل بنفسه وخلا فرسه فركبه عمرو وقال أنا أبو نور كدتم والله تنقدونى قالوا أين
فرسك قال رمى بنشابة فعار وشب فصرعنى (ويروى) ان عمرا حمل يوم القادسية على رستم وهو
الذى قدمه يزدجرد ملك الفرس على قتال المسلمين فاستقبل عمرو رستما على فيل فقطع عرقوبه
فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان عليه فيه أربعون ألف دينار فقتل رستما وانهزمت
العجم وروى ان قاتل رستم زنيم من فلان وأما الصربة التى حكيناها التى حارت لها البيضة
عما حوته من الرأس فلم يسمع مثلها فى جاهلية ولا اسلام فحملتها الروم وعلقتها فى كنيستهم
وكانوا اذا عيروا بانهزامهم يقولون لقينا قوما هذا ضربهم فيرحل أبطال الروم اليها يبروها
وانما كانت العرب تفخر فى هذا الباب بقول النمر بن تولب يصف ضربة سيف

أبقى الحوادث والايام من عمر * آثار سيف قديم أثره بادى
تظل تحفر عنه ان ضربت به * بعد الذراعين والقيدين والهادى

ويشد قول النابغة فى السيف أيضا

يقد السلوقى المضاعف نسجه * ويوقد بالصفاح نار الحباحب

وأين هذا من قد الحديد بما حواه من الرأس وأين القرياس الثرى وأين الحسام من المنجل ولولا
كراهة التطويل لذكرنا من أمثال هذا فيه العجب وقد قالوا السيف ظل الموت السيف لعاب
المنية والرمح رشاء المنية والسهام رسل لا تؤامر من أرسلها والرمح أخو لذوربما خانك والدرع
مشغلة للراجل ومتعبة للفارس واسم الحصن حصين والترس يجن وعليه تدور الدوائر

(الباب الحادى والستون فى ذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأسكالها)

من حزم الملك أن لا يحقر عدوه وان كان ذليلا ولا يغفل عنه وان كان حقيرا فكم من برغوث
اسهر فيلا ومنع الرقاد ملكا جليلا وقال الشاعر

فلا تحقرن عدوا رمالك * وان كان فى ساعديه قصر
فان السيوف تحز الرقاب * وتعجز عما تنال الابر

وفى الامثال لا تحقرن الذليل فربما شرق بالذباب العزيز ومثل العدو مثل النار ان تداركت
أولها سهل اطفاؤها وان تركت حتى استحكم ضرامها صعب مرامها وتضاعفت بليتها ومثله
أيضا مثل الجرح الردى ان تداركته سهل برؤه وان أغفلته حتى تغل عظمت بليته وأعيا
الاطباء برؤه (واعلموا) ان الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتبا ورتبوا فيها ترتيبا فلا يسع أهل
سائر الاقاليم جهلها اذ لكل أمة فى الغالب نوع من التدبير وصنف من الحيلة وضرب من
المكيدة وجنس من اللقاء والكر والفر وتعبية المواكب وحمل بعضهم على بعض ولكن نصف

منه أشياء تجرى مجرى المعاقد لا تكاد تختلف فى انها أزمة الحروب ونبدأ أولا بما ذكره الله تعالى فى القرآن * قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم فقوله تعالى ما استطعتم مشتمل على كل ما فى مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة وفسر النبى صلى الله عليه وسلم القوة فقرأ على المنبر ألا ان يرمون فقال الا ان القوة الرمى الا ان القوة الرمى الا ان القوة الرمى وكان بعض أصحابه اذا أراد الغزو لا يقص أظفاره ويتركها عدة ويراها قوة فأول ذلك ان يقدم بين يدى اللقاء عملا صالحا من صدقة وصيام ورد مظلمة وصلة رحم ودعاء مخلص وأمر بمعروف وتغيير منكر وأمثال ذلك فقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمر بذلك ويقول انما تقاتلون بأعمالكم وروى ان بريدا ورد عليه بفتح للمسلمين فقال له عمر أى وقت لقيتم العدو فقال عند الزوال فقال عمر انا لله واليه راجعون وقام الشمر للاعيان من غدوة الى الزوال لقد أحدثتم بعدى حدثا أو أحدثت بعدكم حدثا والشان كل الشان فى اجادة القواد وانتخاب الامراء وأصحاب الولاية فقد قالت حكماء العجم أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد فلا ينبغى ان يتقدم على الجيش الا الرجل ذو البسالة والنجدة والشجاعة والجرأة ثبت الجنان صارم القلب جريء رابط الجاش صادق البأس ممن قد توسط الحروب ومارس الرجال ومارسوه ونازل الاقران وقارع الابطال عارفا بمواضع الفرص خبيرا بمواقع القلب والميمنة والميسرة من الحروب وما الذى يجب شحنه بالحماة والابطال من ذلك بصيرا بسنوف العدو ومواقع الغرة منه ومواقع الشدة منه فانه اذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كان جمعهم كأنه مثله فان رأى اقتراع الكتائب وجهها والارد ردة الغنم للزريبة (واعلم) ان الحرب خدعة عند جميع العقلاء وآخر ما يجب ركوبه قرع الكتائب وحمل الجيوش بعضها على بعض فلنبدأ بتصريف الحيلة فى نيل الظفر (قال) نصر بن سيار كنت أمير خراسان من قبل مروان الجعدى آخر ملوك بنى أمية قال وكان عظماء الترك يقولون ينبغى للقائد العظيم الشيادة أن يكون فيه عشرة أخلاق من أخلاق البهائم شجاعة الديك وبحث الدجاجة وقلب الاسد وحملة الخنزير وروغان الثعلب وصبر الكلب على الجراح وحراسة الكركى وغارة الذئب وسمن غيرها دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء * وكان يقال أشد خلق الله تعالى عشرة الجبال والحديد يحت الجبال والنار تأكل الحديد والماء يطفئ النار والسحاب تحمل الماء والريح تصرف السحاب والانسان يتقى الريح لحاجته والسكر يصرع الانسان والنوم يذهب السكر والهم يمنع النوم فاشد خلق ربك الهم فاول ذلك ان يبث جواسيسه فى عسكر عدوه يستعلم اخباره مع الساعات ويستعلم رؤساءهم وقادتهم وذوى الشجاعة منهم ويدس اليهم ويعدهم وعدا جميلا ويوجه اليهم بضروب الخدعة ويقوى اطماعهم فى ان ينالوا ما عنده من الهبات الفاخرة والولايات السنية وان رأى وجها عاجلهم بالهدايا والتحف وسألهم اما الغدر بصاحبهم واما اعتزاله وقت اللقاء وينشئ على ألسنتهم كتبا مداسة اليه ويبثها فى عسكره ويكتب على السهام اخبارا مزورة ويرمى بها فى جيوشهم ويضرب بينهم بما فى الميسور من ذلك فان جميع ما ذكرنا تنفق فيه الاموال والحيل واللقاء تنفق فيه الارواح والرؤس ووجوه الخداع فيه

لا يحصى والحاذر فيها أبصر من الغائب ولله در المهلب لما كتب اليه الحجاج يستحثه في حرب الازارقة رد الجواب فقال ان من البلاء ان يكون ارأى عندمن يملكه لا عند من يبصره وقال المختار لابن أنس حين ولاه اجزيرة وأمره بقتال عبد الله بن زياد امس الى عدو لك يراك غير مستبد ويحزم غير متكل ولا تركن الى الدولة فربما انقلبت واستشر من لم يطمع في عملك ولا تسر بقليل واستحر الله تعالى قبل اقدامك توفق * وأوصت أم الديال العبسية ابنها القتال وهو من أشد العرب يابني لا تنشب في حرب ان وثقت شدتك حتى تعرف وجه المهرب منها فان النفس أقوى شئ اذا وجدت سبيل الحيلة وأضعف شئ اذا يئست منها واحمد الشدة ما كانت الحيلة مدبرة لها اذا لم يكن النصر من الله تعالى فابذلها راختلس من المحارب خلسة الذئب وطر منه طيران الغراب فان الحذر زمام الشجاعة والتهور عدو الشدة * وقال أبو السرايا وكان أحد القتال لابنه يابني كن بحيلتك اوثق منك بشدتك وبحذرك اوثق منك بشجاعتك فان الحرب حرب المتهور وغنيمة الحذر واعلم أن الدول اذا زالت صارت حيلها وبالا عليها واذا أذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الحيلة * وقال الحكماء اذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة واذا انقضت مدة الدول أدبرت سدة العقول عن سدة الحذر ويغلب الضعيف باقبال دولته كما يغلب القوي بضاء مدته * وقالوا سعود الدول ونحوسها مقرونة بسعود الملك ونحوسه وقالوا أجهى زنى على كل امرئ دولته فاذا انتقضت بدت عورته وقالوا رب حيلة أهلكت المحتال من الحزم المألوف عند سواس الحروب أن تكون حماة الرجال وكماة الابطال في القلب فانه مهما انكسر الجناحان فالعيون ناظرة الى القلب فاذا كانت رايته تخفق وطبوله تضرب كانت حصنا للجناحين يأوي اليه كل منهزم واذا انكسر القلب غرق الجناحان مثال ذلك الطائر اذا انكسر احدى جناحيه يرجى عوده ولو بعد حين وان كسر الرأس ذهب الجناحان ولا تحصى كثرة اذا كسر جناحي العسكر وثبات القلب ثم يرجع الفارون الى القلب ويكون الظفر لهم وقل عسكر انكسر قلبه فافلح او تراجع الا أن يكون مكيدة من صاحب الجيش فيخلي القلب قصدا وتعمدا ولا يعادر به كبير أمر حتى اذا توسطه العدو اشتعل بنهبه وأطبقت عليه الجناحان ومن أعظم المكايد في الحرب الكمناء ولا يحصى كثرة كم من عسكر استبيحت بيضته وقد عرمه بالكمناء وذلك ان الفارس لا يزال على حيطة في الدفاع وحمى الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه منادا مشهورا أو يسمع ضرب الطبول فيفتذ همته خلاص نفسه وتكن همته وراء ذلك وعليه مدار الحروب في اصطناع الشجعان واختيار الابطال فاصطنع ذوي البسالة والاقدام والجراءة ولا عليك أن لا يكثروا وبعيد عليك ان يكثروا ولا تنس بيت الشاعر

والناس ألف منهم كواحد * وواحد كالالف ان أمر عنى

بل قد جرب ذلك فوجد الواحد منهم خيرا من عشرة آلاف وسأحكي لك من ذلك ما تقضي منه العجب فهم في الجيش وان قلوا كاد نفخة في اللبن * من ذلك لما التقى المستعين بن هرد مع الطاغية ابن ردمير النصراني على مدينة وشقة في ثغور بلاد الاندلس وكان العسكران كالمتكافئين كل واحد منهما يراهق عشرين ألف مقاتل بين خيل ورجل حدثني رجل ممن حضر الوقعة

بن الاجناد قال لما التقا قال الطاغية بن ردمير لمن يثق به عقله وممارسته للحروب من رجاله استعلم من فى عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفونا ومن غاب منهم ومن حضر فذهب ثم رجع فقال فيهم فلان وفلان حتى عد سبعة رجال قال انظر الآن من فى عسكرى من رجال المعروفين بالشجاعة ومن غاب منهم فعدوهم فوجدوهم ثمانية رجال لا يزيدون فقام الطاغية ضاحكا مسرورا وهو يقول يا بيا ضلك من يوم ثم ناشب الحرب بينهم فلم تزل المدابرة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره ولا ترحزح عن مقامه حتى فنى أكثر العسكرين ولم يعز واحد منهم فلما كان وقت العصر نظروا الينا ساعة ثم حملوا علينا حملة وداخلونا مداخلة ففرقوا بيننا وصرنا شطرين وحالوا بيننا وبين أصحابنا وصاروا بيننا فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ولم تقم الحرب الا ساعة ونحن فى خسارة معهم فأشار مقدموا العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه وانكسر عسكر المسلمين وتفرق جمعهم وملك العدو مدينة وشقة فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوى على أربعين ألف مقاتل ولا يحضره من الشجعان المعدودين الا خمسة عشر رجلا وليعتبر بضمان لعلج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد فى ابطاله رجل واحد (وسمعت) أستاذنا القاضى أبا الوليد الباجى رحمه الله يحكى قال بينما المنصور بن ابى عامر فى بعض غزواته اذ وقف على نشز من الارض من تنع فرأى جيوش المسلمين بين يديه ومن خلفه وعن يمينه ويساره قد ملؤا السهل والجبل فالتفت الى مقدم العسكر وهو رجل يعرف بابن المصحفى فقال كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير قال ابن المصحفى أرى جمعا كثيرا وجيشا واسعا فقال له المنصور لا يعجزنا أن يكون فى هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبسالة فسكت ابن المصحفى فقال المنصور ما سكوتك أليس فى هذا الجيوش ألف مقاتل قال لا قال فتعجب المنصور ثم انعطف عليه فقال أفيهم خمسمائة رجل من الابطال المعدودين قال لا فحنق المنصور ثم انعطف عليه فقال أفيهم مائة رجل من الابطال قال لا قال أفيهم خمسون من الابطال قال لا فسبه المنصور واستخف به وأمر به فاخرج على أقبح صفة فلما توسطوا بلاد المشركين اجتمعت الروم وتصاف الجمعان فبرز علج من الروم بين الصفين شاك فى سلاحه يكر ويفر وهو ينادى هل من مبارز فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج ففرح المشركون وصاحوا واضطربت لها المسلمون ثم جعل العلج يمرح بين الصفين وينادى هل من مبارز اثنين لواحد فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج وجعل يكر ويحمل وينادى هل من مبارز ثلاثة لواحد فبرز اليه رجل فقتله العلج فصاح المشركون وذل المسلمون وكادت تكون كسرة فقيل للمنصور مالها غير ابن المصحفى فبعث اليه فحضر فقال له المنصور ألا ترى ما يصنع هذا العلج الكلب منذ اليوم قال يعنى جميع ما جرى قال فما الحيلة فيه قال وما الذى تريد قال ان تكفى المسلمين شره قال نعم الآن ثم قصد الى رجال يعرفهم فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد نشزت أرراكها هازلا وهو يحمل قربة ماء بين يديه على الفرس والرجل فى نفسه وحليته غير متصنع فقال له ابن المصحفى ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم قال قد رأيته فما ذا ترى فيه قال أريد رأسه الآن قال نعم فحمل القربة الى رحله وليس لامة حربه وبرز اليه فتجاولا ساعة فلم ير الناس الا المسلم خارجا اليهم يركض ولا يدرون ما هنالك واذا الرجل يحمل رأس العلج فألقى

الرأس بين يدى المنصور فقال له ابن المحفى عن هؤلاء الرجال أخبرتك انه ليس فى عسكرك منهم ألف ولا خمسمائة ولا مائة ولا خمسون ولا عشرون ولا عشرة فرد ابن المحفى الى منزلته وأكرمه (واعلم) أن أول الحرب شكوى وأوسطها نجوى وآخرها بلوى الحرب شعشاء عابسة شوهاء كالحة حرور فى حياض الموت شموس فى الوطيس تتغذى بالنفوس الحرب أولها الكلام وآخرها الحمام الحرب مرة المذاق اذا قلصت عن ساق من صبر فيها عرف ومن ضعف عنها تلف جسم الحرب الشجاعة وقلبها التدبير وعينها الحذر وجناحها الطاعة ولسانها المكيدة وقائدها الرفق وسائقها النصر * وقال الرسول صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة وقالوا الحرب غشوم سميت بذلك لانها تتخطى الى غير الجانى قال الشاعر

لم أكن من جناتها علم الله وانى بحرها اليوم صالى

وقال آخر رأيت الحرب يجنيها الناس * ويصلى حرها قوم براء

وقال آخر الحرب أول ما تكون فتية * تسعى ببزتها لكل جهول

حتى اذا اضطرمت وشب ضرامها * عادت عجوزا غير ذات خليل

شمطاء ينكر لونها وتغيرت * مكروهة للشم والتقبيل

(قال بعض الحكماء) قد جمع الله تعالى آداب الحرب فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين * واستوصى قوم اكثم بن صيفى فى حرب أرادوها فقال أقلوا الخلاف على أمرائكم واعلموا ان كثرة الصياح تنشل ولا جماعة لمن اختلف وتثبتوا فان أحزم الفريقين الركين (وقال) عتبة بن ربيعة يوم بدر لاصحابه الا ترون أصحاب محمد جثيا على الركب كأنهم خرس يتلمظون تلمظ الحيات (ورأيت) غير واحد ممن ألف فى الحروب يكره رفع الصوت بالتكبير ويقول يذكر الله فى نفسه * واعلم أرشدك الله تعالى ان الله تعالى قد أوضح لنا فى كتابه علة النصر وعلة الهزيمة والفرار فقال يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم يعنى ان تنصروا رسوله ودينه وأما الفرار فعلته المعاصى قال الله تعالى ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا أى بشؤم ذنوبهم وتركهم المركز الذى رسمه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه صلى الله عليه وسلم رتب الرماة يوم أحد على تلة الجبل ليمنعوا قريشا أن يخرجوا عليهم كمينا من ذلك الموضع ثم التقى المسلمون فانهزم الكفار فقال الرماة لا تفوتنا الغنائم فأقبلوا على الغنائم وتركوا المركز الاول فخرجت خيل المشركين من هنالك وأقبلوا على المسلمين فكانت مقتلة أحد * وليخف قائد الجيش العلامة التى هو مشهور بها فان عدوه قد يستعلم حليته والوان خيله ورايته ولا يلزم خيمته ليلا ونهارا وليبدل زيه ويغير خيمته ويعمى مكانه كى لا يلتمس عدوه غرته واذا سكنت الحرب فلا يمش فى النفر اليسير من قومه خارج عسكره فان عيون عدوه قد انكبت عليه وعلى هذا الوجه كسر المسلمون جيوش افريقية عند فتحها وذلك ان الحرب سكنت فى وسط النهار فخرج مقدم العدو يمشى خارج العسكر يتميز عساكر المسلمين فجاء الخبر الى عبد الله بن ابى السرح وهو نائم فى قبته فخرج فيمن وثق به من رجاله وحمل على العدو فقتل الملك وكان الفتح * ولما عبر

طارق مولى موسى بن نصير الى بلاد الاندلس ليفتحها وموسى اذذاك بافريقية فخرجوا
في الجزيرة الخضراء وتحصنوا في الجبل الذي يسمى اليوم جبل طارق وهم في ألف وتسعمائة
رجل فطمعت الروم فيهم فاقتتلوا ثلاثة أيام وكان على الروم تدمير استخلفه لذريق ملك الروم
وكان قد كتب الى لذريق يعلمه ان قوما لا ندري أمن الارض أم من السماء قد وصلوا الى بلادنا
وقد لقيتهم فانهض الي بنفسك فأتاه لذريق في تسعين ألف عنان والقيهم طارق وعلى خيله مغيث
الرومي مولى للوليد بن عبد الملك فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال فرأى طارق ما الناس فيه من
الشدة فقام فحضهم على الصبر ورغبهم في الشهادة وبسط في آمالهم ثم قال أين المفر البحر من
ورائكم والعدو أمامكم فليس الا الصبر منكم والنصر من ربكم وأنا فاعل شيأ فافعلوا كفعلي
فوالله لأقصدن طاغيتهم فاما أن أقتله واما أن أقتل دونه فاستوثق طارق من خيله وعرف
راية لذريق وعلامته وخيمته ثم حمل مع أصحابه عليه حملة رجل واحد فقتل الله تعالى لذريق
بعد قتل ذريع في العدو وحمى الله تعالى المسلمين فلم يقتل منهم كثير وانهزم الروم فاقام
المسلمون يقتلونهم ثلاثة أيام واستلب طارق رأس لذريق وبعث بها الى موسى وبعث بها موسى
الى الوليد بن عبد الملك وسار مغيث الى قرطبة وسار طارق الى طليطلة ولم يكن همه غير
المائدة التي تذكر أهل الكتاب انها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام فدفع اليه ابن أخت
لذريق المائدة والتاج فقومت المائدة بمائتي ألف لما فيها من الجواهر التي لم ير مثلها * وبهذه
الحيلة قهر البارسلان ملك الترك ملك الروم وقتل رجاله وأباد جمعه وكانت الروم قد جمعت
جيوشا يقل أن يجمع لمن بعدهم مثلها وكان مبلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل كتائب متواصلة
وعساكر مترادفة وكراديس يتلو بعضها بعضا لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد وقد استعدوا
من الكراع والسلاح والمجانيق والآلات المعدة لفتح الحصون في الحرب بما لا يحصى وكانوا قد
قسموا بلاد المسلمين الشام ومصر والعراق وخراسان وديار بكر ولم يشكوا ان الدولة قد دارت
لهم وأن نجوم السعود قد خدمتهم ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم الى بلاد المسلمين
واضطربت لها ممالك الاسلام فاستشد للقائهم البارسلان التركي وهو الذي يسمى الملك
العادل وجمع جموعه بمدينة اصبهان واستعد بما قدر عليه ثم خرج يؤمهم فلم يزل العساكر
يتدانيان الى أن عادت طلائع المسلمين الى المسلمين وقالوا للبارسلان غدا يتراءى الجمعان فبات
المسلمون ليلة الجمعة والروم في عدد لا يحصيهم الا الذي خلقهم وما المسلمون فيهم الا اكلة جائع
فبقي المسلمون واجمين لمادهاهم فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم الى بعض فهال
المسلمين ما رأوا من كثرة العدو وقوتهم وآلاتهم فأمر البارسلان أن يعد المسلمون فبلغوا
اثني عشر ألف تركي واذا هم منهم كالرقمة في ذراع الحمار فجمع ذوي الرأي من أهل الحرب
والتدبير والشفقة على المسلمين والنظر في العواقب واستشارهم في استخلاص صواب الرأي
فتشاوروا برهة ثم أجمع رأيهم على اللقاء فتوادع القوم وتحالفوا وناصحوا الاسلام وأهله ثم
تأهبوا أهبة اللقاء وقالوا للبارسلان سمي الله وتحمل على القوم فقال البارسلان يا معشر
أهل الاسلام أمهلوا فان هذا يوم الجمعة والمسلمون يخطبون على المنابر ويدعون لنا في شرق
البلاد وغربها فاذا زالت الشمس وقامت الاقياء وعلمنا ان المسلمين قد صلوا ودعوا لنا وصلينا

نحن

نحن عملنا أمرنا فصبروا الى أن زالت الشمس ثم صلوا ودعوا الله تعالى أن ينصر دينه وأن يربط على قلوبهم بالصبر وأن يوهن عدوهم وأن يلقى فى قلوبهم الرعب وكان البارسلان قد استوثق من خيمة ملك الروم وعلامته وفرسه وزيه ثم قال لرجاله لا يتخلف أحدكم أن يفعل كفعلى ويضرب بسيفه ويرمى بسهمه حيث أضرب بسيفى وأرمى بسهمى ثم حمل جميعهم حملة رجل واحد الى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونه فخلصوا اليه وقتل من حوله وأسر ملك الروم وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك فسمعت الروم ان ملكهم قد قتل فتبددوا وتمزقوا كل ممزق وعمل السيف فيهم أياما وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم واستحضر ملك الروم بين يدى البارسلان يجبل فى عنقه فقال له البارسلان ما كنت تصنع بى لو أخذتنى قال فهل تشك أنى كنت أقتلك فقال له البارسلان أنت أقل فى عينى من أن أقتلك اذهبوا به وبيعوه فمن يزيد فكان يقاد بالحبل فى عنقه وينادى عليه من يشترى ملك الروم وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام ومنازل المسلمين وينادى عليه بالدراهم والفلوس فلم يدفع فيه أحد شيأ حتى باعوه من انسان بكلب فأخذ الذى كان تولى ذلك من أمره الكلب والملك وحملهما الى البارسلان وقال قد طفت بجميع العسكر ونادیت علیه فلم يبذل فيه أحد شيأ الا رجل واحد دفع لى فيه كلبا قال قد أنصف لان الكلب خير منه فاقبض الكلب وادفع اليه هذا الكلب ثم انه أمر بعد ذلك باطلاقه فذهب الى قسطنطينية فعزلته الروم وكحلته بالنار فانظر ماذا يأتى على الملوك اذا عرفوا فى الحروب من الحيلة والقصد فى المكيدة (واعلم) أن القدماء قالوا الكثرة للرعب والقلة للنصر وقد قال تعالى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين فالكثرة أبدا يصحبها الاعجاب ومع الاعجاب الهلاك وخير الاصحاب أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يغلب جيش يبلغ اثنى عشر ألفا من قلة اذا اجتمعت كلمتهم * فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلادنا وهو أرجى تدبير نفعله فى لقاء عدونا أن نقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة فيصفوا صفوفهم ويركزوا مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم فى الارض وصدورهم شارعة الى عدوهم وهم جاثمون فى الارض وكل رجل منهم قد ألقم الارض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه وخلفهم الرماة المختارون التى تمرق سهامهم من الدروع والخيل خلف الرماة فاذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيأتها ولا يقوم رجل منهم على قدميه فاذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم فأخذوا يمنة ويسرة فيضرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله * واقد حدثنى من حضر مثل هذه الوقعة فى بلدى طرطوشة قال صافت الروم على هذا الترتيب فحملوا علينا فبينا رجل منا كان فى آخر الصف فقام على قدميه فحمل عليه علج من العدو فاصاب غرته فقتله * ولما برز المقتدر بالله ابن هود ملك الاندلس من سرقسطة فى ثغور بلاد الاندلس للقاء الطاغية ردميل عظيم الروم وكان كل واحد منهم قد احتشد بما فى ميسوره فالتقى المسلمون والكفار ثم تنازلوا للقتال وتصافحوا ودام القتال بينهم صدرا كبيرا من النهار وكان المسلمون فى خسران فأفزع المقتدر ذلك وفرق المسلمون من شر ذلك اليوم فدعا المقتدر رجلا من المسلمين لم يكن فى الثغور أعرف

بالحرب منه يسمى سعد اره فقال له المقتدر كيف ترى فى هذا اليوم فقال سعد اره هذا يوم أسود ولكن قد بقيت لى حيلة فذهب سعد اره زيه زى الروم وكلامه كلامهم لجاورتهم وكثرة مخالطتهم فانغمس فى عسكر الكفار ثم صعد الى الطاغية رد ميل فألفاه شاكا فى السلاح مكشفا فى الحديد لا يظهر منه الا عيناه فجعل يتخيله ويترصد غرته الى ان أمكنته الفرصة فحمل عليه فطعنه فى عينه فخر صريعا للذين والقم ثم جعل ينادى بلسان الروم قتل السلطان يا معشر الروم فشاع قتله فى العسكر فتخاذلوا وولوا منهزمين وكان الفتح باذن الله تعالى * ولما استضعف الروم صقلية وضربوا عليهم الخراج فكانوا يحملون اليهم الخراج ويحملون الاموال الى العرب بافريقية ويستنجدون بهم على الروم فقال لهم ملك الروم انما مثلى ومثلكم يا اهل صقلية مثل رجل له زوجتان عجوز وصبية فكان اذا بات عند الصبية تلقط الشيب من لحيته لتصبيه فيزهد فى العجوز واذا بات عند العجوز تلقط الشعر الاسود من لحيته لتشيخه فتزهد الصبية فيه فيوشك ان دام هذا به ان يصبح أطلس كذلك حالكم معى ومع العرب اذا أديتم المال لى ولهم يوشك أن تنفد أموالكم فتبقوا فقراء ضعفاء فأتسلمكم واتسلم البلاد * ويروى انه لما هم بحصار صقلية أمر أن يبسط بساط فى الارض ثم جعل فى وسطه دينارا ثم قال لوجوه رجاله من أخذ منكم هذا الدينار ولم يطأ البساط علمنا انه يصلح للملك فوقفوا حوله ولم يصل أحد اليه فلما أعياهم ذلك طووا ناحية من البساط من عنده وأمر كل واحد أن يطوى مما يليه حتى طوى البساط فقبضوا أيديهم فطفقوا الدينار فحينئذ قال لهم اذا أردتم مدينة صقلية خذوا ما حولها من الحصون والمدن الصغار والاضياع والقرى حتى اذا ضعفت أخذتموها * وكان بسرقسطة فارس يقال له ابن قصون وكان يناسبق فيقع خال والدتى وكان أشجع العرب والعجم وكان المستعين أبو المقتدر يرى له ذلك ويعظمه وكان يجرى عليه فى كل عطية خمسمائة دينار وكانت النصرانية باسرها قد عرفت مكانه وهابت لقاءه فيحكى أن الرومى اذا سقى فرسه فلم يشرب يقول له اشرب هل ابن قصون رأيت فى الماء فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلته من السلطان فأوغروا به صدر المستعين فنعه أياما ثم ان المستعين أنشأ غزوة الى بلاد الروم فتواقفت المسلمون والمشركون صفوفا ثم برز علج الى وسط الميدان ينادى هل من مبارز فخرج اليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومى وصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل الرومى يكر بين الصفين وينادى هل من اثنين لواحد فخرج اليه فارس من المسلمين فقتله الرومى فصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل يجول بين الصفين وينادى ويقول ثلاثة لواحد فلم يستجر أحد من المسلمين ان يخرج اليه وبقى الناس فى حيرة فقيل للسلطان مالها الا أبو الوليد بن قصون فدعاه وتلطف به وقال له أما ترى ما يصنع هذا العلج فقال هو بعينى قال فما الحيلة فيه فقال ابو الوليد فماذا تريد فقال اكف المسلمين شره فقال الساعة يكون ذلك ان شاء الله تعالى فلبس قميص كان واستوى على سرجه بلا سلاح وأخذ بيده سوطا طويل الطرف وفى طرفه عقدة معقودة ثم برز اليه فعجب منه النصرانى ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن قصون واذا ابن قصون متعلق برقبة الفرس ونزل الى الارض لا شئ منه فى السرج ثم طفر على سرجه وحمل عليه وضربه بالسوط فى عنقه فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه من سرجه وجاء به يجره فألقاه بين يدى

المستعين فعلم المستعين انه كان قد أخطأ في صنعه معه فأكرمه ورده الى أحسن أحواله أيها الاجناد أقلوا الخلاف على الامراء فلا ظفر مع اختلاف ولا جماعة لمن اختلف عليه قال الله تعالى ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وأول الظفر الاجتماع وأول الخذلان الافتراق وعماد الجماعة السمع والطاعة وانما اتى علي بن ابي طالب رضي الله عنه يوم صفين من العصيان وكان قد ظهر أهل العراق على أهل الشام وتضعضعت صفوف معاوية فأحس بالشر وانه مغلوب فقال لعمرو بن العاص اذهب فخذ لنا الامان من ابن عمك يعني عليا فأداروا عمرو الحيلة فأمرهم أن يرفعوا المصاحف في أطراف الرماح وينادون ندعوكم الى كتاب الله تعالى فلما رأى ذلك اصحاب علي كفوا عن الحرب فقال لهم علي رضي الله عنه اي قوم هذه مكيدة منهم ولم يبق في القوم دفاع فعصوه وتركوا القتال وكان ذلك سبب الحكمين واعلموا ان من أحزم مكايد الحرب ذكاء العيون واستطلاع الاخبار وافشاء الغلبة واظهار السرور واباتة الحذر والاحتراس من العدو وأن لا تخرج هاربا الى قتال ولا تضيق أمانا على مستأمن وقال بعض المصنفين كثرة التكبير عند اللقاء فشل غضوا الاصوات وتجلببوا السكينة وأكلوا الوثام واحتقوا الجبن وادرعوا الليل فانه أخفى للويل الليل يكنيك الجبان ويسقف الشجاع الليل المدد الاعظم الحازم يحذر عدوه على كل حال المواثبة ان قرب والغارة ان بعد والكمين ان انكشف والاستطراد اذا ولى الجهل قوة الجرءة من اعتز بقوته فقد وهن ليس من القوة التورط في الهوة لكن أشد ما كنت حذرا ما كنت عند نفسك أكثر قوة وعددا من استضعف عدوه اغتر ومن اغتر ظفر به عدوه أشعروا قلوبكم في الحرب الجرءة فانها سبب الظفر واذكروا الضغائن فانها تبعث على الاقدام والتزموا الطاعة فانها حصن المحارب اذا وقع اللقاء برز القضاء اذا التقى السيف السيف زال الخيار رب مكيدة أبلغ من نجدة رب كلمة هزمت عسكرا الصبر سبب النصر الظفر مع الصبر اجعل قتال عدوك آخر حيلك النصر مع التدبير لا ظفر مع بغي ولا تغتر بالاقوياء لفضل قوتهم على الضعفاء لا تجبنوا عند اللقاء لا تميلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ولا تغلوا عند الغنائم نزهوا الجهاد عن عرض الدنيا

(الباب الثاني والستون في القضاء والقدر والتوكل والطلب)

اعلم وفقك الله تعالى ان مذاهب الخلق في القضاء والقدر وخلق الافعال وارادة الكائنات منتشرة ولا يخرج عن علمه وقضائه وقدره وحكمه حادث فمن خالفنا في القضاء والقدر وافقنا في العلم وقد تباين الخلق فيه وتشتتت مذاهبهم وتقاطعوا فيه وتدابروا وكل حزب بما لديهم فرحون ولم نضع هذه الترجمة لاستيفاء ما قالوا والاحتجاج لكل فريق لان ذلك يستدعي مجلدات واسفارا وانما نذكر في هذا الكتاب أحكاما ظاهرة قريبة من العقول لتقرب الفائدة على الناظر فيه فاعلم أولا ان كل ما يجري في العالم من حركة وسكون وخير وشر ونفع وضر وايمان وكفر وطاعة ومعصية بقضاء وقدر وكذلك لا يطير طائر بجناحيه ولا يدب حيوان على بطنه ورجليه ولا تطير به وضة ولا تسقط ورقة الا بقضائه وقدره وارادته ومشيئته كما لا يجري شيء من ذلك الا وقد سبق علمه به ثم اعلم ان القدر والطلب لا يتنافيان والتوكل والكسب لا يتضادان وذلك أن تعلم ان كل ما قضى الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة كما ان ما علم الله تعالى انه يكون

فهو كائن ومن خالفنا فى القضاء والقدر وافقنا فى العلم فرب أمر قدر الله تعالى وصوله اليك بغير طلب فهو واصل ورب أمر قدر وصوله اليك بعد الطلب فلا يصل الا بالطلب والطلب ايضا من القدر ولا فرق بين الامر المطلوب وبين الطلب فى انهما مقدوران فمن ههنا قلنا انهما لا يتنافيان وكذلك التوكل مع الكسب لان التوكل محله القلب والكسب محله الجوارح ولا يتضادان شيآن فى محلين بعد ما يتحقق العبد أن المقدور من قبل الله تعالى فان تعسر شئ فبتقديره وان اتفق فبتيسيره قال أنس جاء رجل على ناقته فقال يا رسول الله أدعها وأتوكل فقال اعقلها وتوكل والتوكل والاعتصام بالقدر يستمدان من العقل والطلب والكسب يستمدان من الامر فالتوكل على الله تعالى هو الثقة بما ضمنه والقطع بكون ما حكم به فمن رام أمرا من الامور ليس الطريق فى تحصيله أن يغلق بابه عليه ويفوض أمره الى ربه وينتظر حصول ذلك الامر بل الطريق ان يشرع فى طلبه على الوجه الذى شرعه الله فيه وقد ظاهر النبى صلى الله عليه وسلم بين درعين واتخذ خندقا حول المدينة يستظهر به ويحترس من العدو وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد وكان يلبس لأمة الحرب ويعبى الجيوش ويأمرهم وينهاهم عما فيه مصالحهم واسترقى وأمر بالاسترقاء وتداوى وأمر بالمداواة وقال أنزل الداء الذى أنزل الدواء (فان قيل) قد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من استرقى أو اكتوى فقد برئ من التوكل (قلنا) أليس قد قال اعقلها وتوكل وظاهر بين درعين وسائر ما ذكرناه آنفا (فان قيل) فما الجمع بين ذلك (قلنا) معناه من استرقى واكتوى متكلا على الرقية والكى وان البرء من قبلهما خاصة فهذا يخرجه من التوكل وانما يفعله كافر يضيف الحوادث الى غير الله تعالى فاما من باشر الاسباب والادوية وتعاطى تدبير الامور بنفسه وآمن انه وماله على ما جرت به سيرة الله تعالى فى أرضه وعادته فى خلقه غير معتمد على شئ من ذلك بل هو واثق القلب أن ما حصل فبتقديره وما تعسر فبتقديره معتمدا فى ذلك على المسبب لا على الاسباب فهذا هو المتوكل لكن شرطه ان يمشى فى ذلك كله مع الاثر ولا يسلك طريقا فيه معصية فليس يستدرج ما عند الله بمعاصيه وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه من ابتغى أمرا بمعصية الله كان أبعد لما رجا وأقرب لما اتقى ومن ظن ان الطلب والاكتساب يناقض التوكل فقعد فى بيته وأغلق بابه متكلا على الله تعالى فى زعمه كان عن العقل خارجا وفى تيه الجهل والجا ويقال له قبحت يا هذا اذ جعت وحضر الطعام فهو الى الطعام أحوج منه الى المعرفة وينبغى لاهله أن يداووه ألا ترى أن الله تعالى قال لمريم وهزى اليك بجذع النخلة فهلا أمرها بالسكون ثم حمل الرطب الى فيها وهكذا القول فيمن له دابة أو بستان يؤمر بسقى البستان وحفره واصلاح شأنه ويؤمر بأن يعلف الدابة ويسقيها وأنشدوا

ألم تر أن الله قال لمريم * اليك فهزى الجذع تساقط الرطب
ولو شاء أجنى الجذع من غير هزها * اليها ولكن كل شئ له سبب

وهكذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا فلم يحمل أرزاقها اليها فى أوكارها بل ألهمها طلبه بالغدو والرواح وقد كان جهيل رئيس القندهار ممن يرى من تصديق القدر وتكذيب الطلب دون أهل زمانه من

الملوك ما عجزه عن الطلب والتدبير فاخرجه اخوته من سلطانه وقهروه على مملكته فقال له بعض الحكماء ان ترك الطلب يضعف الهمة ويذل النفس وصاحبه سائر الى أخلاق ذوات الاجرة من الحيوان كالضب وسائر الحشرات تنشأ في أجحرتها وفيه يكون موتها ثم جمعوا بين القدر والطلب وقالوا انهما كالعدلين على ظهر الدابة ان حمل في واحد منهما أرجح مما حمل في الآخر سقط وتعب ظهره وثقل عليه سفره وان عادل بينهما سلم ظهره ونجح سفره وقد ضربوا فيه مثلا عجيبا فقالوا ان أعمى ومقعدا كانا في قرية بفقر وضر لا فائد للاعمى ولا حامل للمقعد وكان في القرية رجل يطعمهما كل يوم احتسابا لقوتهما من الطعام والشراب فلم يزالا في عافية الى أن هلك المحتسب فاقاما بعده أياما فاشتد جوعهما وبلغ الضر منهما مجهده فاجمعوا رأيهما على ان يحمل الاعمى المقعد فيدله المقعد على الطريق ببصره ويستقل المقعد بحمل الاعمى فيدوران في القرية يستطعمان أهلها فقضيا أمرهما ولو لم يفعلا هلكا فكذلك القدر سببه الطلب والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه فأخذ جهيل في الطلب فظفر باعدائه ورجع الى ملكه فكان جهيل يقول لا تدع الطلب اتكالا على القدر ولا تجهد نفسك في الطلب معتمدا عليه مستهينا بالقدر فانك اذا أجهدت نفسك بالطلب بوجوه التدبير المحمودة مصدقا بالقدر نلت ما تحاول ولم تلتو عليك الامور وان عملت بذلك فالتوى عليك أمر من مطلوبك فذلك من اعانة القدر وانك قد أتيت ذنبا فتنقد جوار ربك واستكشف ظاهرك وباطنك وتب الى الله تعالى من كل ذنب أتيته بجارحة من جوارحك واخرج من كل مظلمة ظلمتها فاذا فعلت ذلك قابلك الحظ وساعدك القدر ان شاء الله تعالى * واعلم ان هذا الاصل الذي قررناه يخرج عليه كل ما ورد في القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم من الامر بالتوكل على الله والتسليم اليه والتفويض له من ذلك ان سليمان الخواص تلا يوما قوله تعالى وتوكل على الحي الذي لا يموت فقال ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية ان يلجأ الى أحد غير الله قلنا معناه لا يلجأ الى الاسباب اعتمادا عليها ولكن يلجأ اليها واثقا بأن الله تعالى يفعل ما يشاء كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعقل الناقة ولبس درعين الا ترى ان من يطلب الزرع والولد ثم قعد في بيته لم يطأ زوجته ولا بذر أرضه معتمدا في ذلك على الله تعالى واثقا به ان تلد امرأته من غير وقاع وتنبت أرضه الزرع من غير بذر كان عن المعقول خارجا ولامر الله تاركا وللائمة والحكماء في القدر ألفاظ بارعة على السبر والامتحان * منها ما روي ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه سئل عن القدر فاعرض عن السائل فأبى الا الجواب فقال علي أخبرني أخلقك الله كما تشاء أو كما يشاء فامسك الرجل فقال علي للحاضرين أتروه يقول كما أشاء اذا والله أضرب عنقه فقال الرجل كما يشاء فقال علي أيحييك كما تشاء أو كما يشاء قال كما يشاء قال أيميتك كما تشاء أو كما يشاء قال كما يشاء قال أفيشركك كما تشاء أو كما يشاء قال كما يشاء قال أفيدخلك حيث يشاء أو حيث تشاء قال حيث يشاء قال قم فليس لك من الامر شيء وروي ان رجلا قدريا ومجوسيا تناظرا فقال القدري للمجوسي مالك لا تسلم فقال المجوسي لو أراد الله تعالى لاسلمت فقال القدري قد أراد الله تعالى ان تسلم ولكن الشيطان يمنعك قال المجوسي فانا مع اقواهما وروي في الاسرائيليات ان نبيا من أنبياء الله تعالى مر بفخ منصوب واذا طائر قريب منه فقال الطائر

يا نبي الله هل رأيت أقل عقلا من هذا نصب هذا الفخ ليصيدني فيه وأنا انظر اليه قال فذهب عنه ثم رجع فاذا الطائر في الفخ فقال له عجبا لك أو أنت القائل آنفا كذا وكذا فقال يا نبي الله اذا جاء الحين لم يبق اذن ولا عين وقال رجل من الخوارج لعلي رضي الله عنه أرأيت من جنبني سبل الهدى وسلك بي سبل الردى أاحسن الى أم أساء فقال له على ان كنت استوجبت عليه حقا فقد أساء وان كنت لم تستوجب عليه شيأ فهو يفعل ما يشاء (وقال) ميمون بن مهران لغيلان القدري سل فاقوى ما تكونون اذا سألتم فقال غيلان أشاء الله أن يعصى فقال ميمون أيعصى كارها فانقطع غيلان وروى ان رجلا قال لبزرجمهر تعال نتناظر في القدر فقال وما تصنع بالمناظرة في القدر رأيت ظاهرا استدللت به على الباطن ورأيت أحمق مرزوقا وعاقلا محروما فعلمت ان التدبير ليس الى العباد وقال بعضهم

يخيب الفتى من حيث يرزق صاحبه * ويعطى المنى من حيث يحرم طالبه

ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الاندلس على سليمان بن عبد الملك فقال له يزيد بن المهلب أنت أدهى الناس وأعلمهم فكيف طرحت نفسك في يدي سليمان فقال موسى ان الهدهد يهندس الماء في الارض الفيافي ويبصر القريب منه والبعيد على بعده في التخوم ثم ينصب له الصبي الفخ بالدودة والحبة فلا يبصره حتى يقع فيه وفي الاسرائيليات ان الهدهد كانت رائدة سليمان ابن داود عليهما السلام الى الماء فتتقدم معسكره ثم تنظر الارض فتقول الماء ههنا على ألف قامة أو أقل أو أكثر فتسادر الجن تحفره فلا يلحق سليمان الاوقد استعد الماء واعلموا أن الهارب مما هو مقضى مقدر كالمنقلب في كف الطالب وأنشد بعضهم

واذا خشيت من الامور مقدرا * وفررت منه فنحوه تتوجه

ولبشار طبعت على ما في غير مخير * هواى ولو خيرت كنت المهذبا

أريد فلا أعطى وأعطى فلم أرد * وقصر عامى أن ينال المغيبا

وأصرف عن قصدي وعلى مقصر * وأمسى وما أعطيت الا التعجبا

ولما وقع الطاعون بالكوفة فر ابن أبي ليلى على حماره يطلب النجاة فسمع منشدا ينشد

لن يسبق الله على حمار * ولا على ذي منعة طيار

أو يأتي الملتف على مقدار * قد يصبح الله امام الساري

فكر راجعا الى الكوفة وقال اذا كان الله امام الساري فلات حين مهرب وأنشد بعضهم

أقام على المسير وقد أنيخت * مطاياه وغرد حاد ياها

وظل أخاف عادية الليالي * على نفسي وأن ألقى رداها

ومن كتبت منيته بأرض * فليس يموت في أرض سواها

ولما قتل كسرى بزرجمهر وجدوا في منطقته كتابا فيه اذا كان القدر حقا فالحرص باطل واذا كان الغدر في الناس طبعا فالثقة بكل أحد عجز واذا كان الموت بكل أحد نازلا فالطمأنينة الى الدنيا حمق وقال ابن عباس وجعفر بن محمد والحسن البصري في قوله تعالى وكان تحته كنز لهما انما كان الكنز لوحا من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح

وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وقال يحيى بن معاذ عجبت من ثلاث رجل يريد تناول رزقه بتدبيره وهو يرى تناقض تدبيره ورجل شغلهم غده وعالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط ومن عجيب ما نزل بالاسكندرية ان رجلا من خدمة السلطان غاب عن خدمته أياما فقبضه الشرط وحملوه الى دار السلطان فانساب منهم في بعض الطريق وتراءى في بئر والمدينة مسربة تحت الارض باسراب يمشي الماشي فيها قائما يخترقها ويدورها لان في دورها آبارا على تلك السروب فما زال الرجل يمشي الى ان لاح له بئر مضيئة فطلع فيها واذا البئر في دار السلطان فطلع الرجل في دار السلطان فاديه السلطان فكان فيه المثل السائر الفار من القضاء الغالب كالمتفلت في يد الطالب وقال ابن مسعود ان الرجل ليشرف على الامر من الامارة والتجارة أو غيرها ذكره الله تعالى فوق سماواته فيقول للملك اصرف عن عبدي هذا الامر فاني ان أيسرته له أدخلته به جهنم فيظل يتقيظ على جمرانه فيقول سبقني فلان وحسدني فلان وما صرفه عنه الا الله تعالى وأنشدوا

قالوا تقيم وقد احا * ط بك العدو ولا تفر
فاجبتهم والشيخ ما * لم ينتفع بالعلم غر
لا نلت خيرا ما بقيـ * ـت ولا عداني الدهر شر
ان كنت أعلم ان غيـ * ـر الله ينفع أو يضر

استأذن العقل على الجد فقال اذهب لا حاجة لي بك فقال العقل ولم فقال انك تحتاج الي ولا أحتاج اليك (وأوصى) حكيم ابنه فقال يا بني رزقك الله جدا يخدمك به ذوو العقول ولا رزقك عقلا تخدم به ذوي الجدود وكان يقال افراط العقل مضر بالجد وروى ان رجلا خير في أمر فابى أن يختار وقال أنا بجدي أوثق مني بعقلي فافرغوا وفي الامثال اسع بجد لا بكد اسع بجد أودع جدك لا كدك الجد لا الجد أغنى من الكد واعلم ان زمام الامور التوفيق ولم ينزل من السماء الى الارض أقل من التوفيق وهو مقرون بالاجتهاد قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقد كنت جمعت فيه كتابا من جملة كتابي في الاسرار هل التوفيق مكتسب أو موهبة بلا سبب فلا مزيد عليه * ومن لطيف ما وقفت عليه في مجاري القضاء والقدر وان المهارب من المقدور كالمتفلت في يد الطالب ما نزل في مدينة الاسكندرية في قضية الرجل الذي تقدم ذكره

الباب الثالث والستون وهو جامع من أخبار ملوك العجم وحكاياتهم وهو يشتمل على خمسة فصول

(الاول) يشتمل على أخبار رفعت الينا بعد الفراغ من الكتاب فالحقناها (والثاني) يشتمل على حكم لحكيم الفرس خاصة (والثالث) يشتمل على حكم لحكيم الهند خاصة (والرابع) يشتمل على حكم لحكيم العرب خاصة (والخامس) يشتمل على حكم مجموعة منتخبة رسمنا ذلك لتستطرفي عقول القوم واغراضهم ومنتهى مرامهم من كتاب جاويدان خرد الفارسي قال ثلاثة لا يصلح فسادهن بشيء من الحيل العداوة بين الاقارب وتحاسد الاكفاء والركاكة في العقول وثلاثة لا يستقيم صلاحهن بنوع من المكر والحيل العبادة في العلماء والقنوع في

المتبصرين والسخاء في ذوي الاخطار وثلاث لا يشبع منهن الحياة والعافية والمال وقال ابن لقمان لابيه يا أبت ما الداء العياء قال رعونة مولودة قال فما الجرح الدوى قال المرأة السوء قال فما الحمل الثقيل قال الغضب ولما قرأ هذه الحكاية أبو عباد الكاتب وكان ظريفا في أخباره قال والله الغضب أخف على من ريشة وكان أسرع الناس غضبا فقيل له انما عنى لقمان ان احتمال الغضب ثقيل فقال لا والله لا يقوى على احتمال الغضب الا الجمل وغضب يوما على بعض أصحابه فرماه بدواة فشجه فجعل الدم يسيل فقال أبو عباد صدق الله العظيم حيث قال والذين اذا ما غضبوا هم يغفرون فاستدعاه المأمون وقال ويحك لا تحسن ان تقرأ آية من كتاب الله تعالى قال بلى والله يا أمير المؤمنين انى لاقرأ من سورة واحدة ألف آية فضحك المأمون وأمر باخراجه * وقيل لانوشروان ما العقل قال التصدق في كل الامور وقيل فما المروءة قال ترك الريبة قيل فما السخاء قال ان تنصف من نفسك قيل فما الحمق قال الاغراق في الذم والحمد وقيل لبعض الحكماء ما الحزم قال سوء الظن وقال بعضهم في قوله الحزم سوء الظن قال انما أراد سوء الظن بنفسه لا بغيره قيل فما الصواب قال المشورة قيل فما الذي يجمع القلوب على المودة قال كف بذول وبشر جميل قيل فما الاحتياط قال الاقتصاد في الحب والبغض وقال معاوية لزياد حين ولاه العراق يا زياد ليكن حبك وبغضك قصدا فان الغيرة كامنة واجعل للرجوع والنزوع بقية من قلبك واحذر صولة الانهماك فانها توقدى الى المهالك وهو مثل قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما ومن ذلك قول الاول

وأحبب حبيبك حبا رويدا * فليس يعدوك أن تصرما

وقال آخر ولا تيأسن الدهر من حب كاشح * ولا تأمنن الدهر صرم حبيب

وسئل بزرجمهر عن العقل فقال ترك ما لا يعنى قيل فما الحزم قال انتهاز الفرصة قيل فما الحلم قال العفو عند المقدرة قيل فما الشدة قال ملك الغضب قيل فما الخرق قال حب مغرق وبغض مفرط وقيل لبعض الملوك وبلغ في المنزلة والقدر ما لم يبلغه أحد من ملوك زمانه ما الذي بلغ بك هذه المنزلة قال عفوي عند قدرتي ولين بعد شدتي وبذلي الانصاف ولومي لنفسي وايثاقي في الحب والبغض مكانا لموضع الاستبدال وقال الاسكندر لبعض الحكماء وأراد سفرا أرشدني لاحزم أمري قال لا تملكن قلبك محبة الشئ ولا يستولين عليك بغضه واجعلهما قصدا فان القلب كاسمه يتقلب وله خاصية في القلب تنزع وترجع واجعل وزيرك التثبت وسميرك التيقظ ولا تقدم الابعد المشورة فانها نعم الدليل واذا فعلت ذلك ملكت قلوب رعيتك ملك استعباد قال الشاعر

وما سمي الانسان الا لانسه * ولا القلب الا انه يتقلب

وقيل لبعض الحكماء ما الدليل الناصح قال غريزة العقل مع الطبع قيل فما القائد المشفق قال حسن المنطق قيل فما الغناء المعي قال تطبيعك من لا طبع له وقال الفضل بن مروان سألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم قال بذل عرفه وبرد سيفه فاجتمعت عليه القلوب ورغبة ورهبة لا ينقص جنده ولا يحرج رعيته سهل النوال حزن النكال الرجاء والخوف

معقودان فى يده قلت فكيف حكمه قال يرد الظلم ويردع الظالم ويعطى كل ذى حق حقه
فالرعية اثنان راض ومغتبط قلت فكيف هيبتهم له قال يتصور فى القلوب فتغضى له العيون
قال فنظر رسول ملك الحبشة الى اصغائى اليه واقبال عينى عليه وكانت الرسل تنزل عندى
فقال لترجمانه ما الذى يقول الرومى قال يصف له ملكهم ويذكر سيرته فكلم الترجمان بشئ
فقال لى الترجمان يقول ان ملكهم ذو أناة عند القدرة وذو حلم عند الغضب وذو سطوة عند
المغالبة وذو عقوبة عند الاجترام قد كسا رعيته جميع نعمته وقصرهم تعنيف عقوبته
فهم يتراءونه ترائى الهلال حيالا ويخافونه مخافة الموت نكالا وقد وسعهم عدله ورد عنهم
سطوته عقله فلا تتهنه مزحة ولا تؤيسه غفلة اذا أعطى أوسع واذا عاقب أوجع فالناس
اثنان راج وخائف فلا الراجى خائب الامل ولا الخائف بعيد الاجل قلت فكيف رهبتهم له
قال لا ترفع اليه العيون أجفانها ولا تتبعه الابصار انسانها كان رعيته قطا فرقت عليها
صقورا تصوائد قال فحدثت المامون بهذين الحديثين فقال لى كم قيمتهما عندك قلت ألف درهم
قال يا فضل ان قيمتهما أكثر من الخلافة أما علمت حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى
الله عنه قال قيمة كل امرئ ما يحسن أفتعرف أحدا من الخطباء البلغاء يحسن أن يصف أحدا
من خلفاء الله الراشدين المهديين بمثل هذه الصفة قلت لا قال فقد أمرت لهما بعشرين ألف
دينار معجلة لهما واجعل العدة مادة بينى وبينهما على العود فلولا حقوق الاسلام وأهله لرأيت
اعطاءهما ما فى بيت المال الخاصة والعامة دون ما يستحقانه وقال الفضل بن سهل كان عندى
رسول ملك الروم وكان يحدثنى عن أخت للملك يقال لها خاتون قال اصابتنا سنة احتدم
شواظها علينا بحرارة المصائب وصنوف الآفات ففزع الناس الى الملك فلم يدر ما يجيبهم به
فقالت له خاتون أيها الملك ان الحزم علق لا يخلق جديده ولا يهتن عزيزه وهو دليل الملك على
استصلاح رعيته وزاجر له عن استفسادها وقد فزعت رعيتك اليك لفضل العجز عن الالتجاء
الى من لا تزيده الاسامة الى خلقه عزا ولا ينقصه العود بالاحسان اليهم ملكا وما أحد أولى
بحفظ الوصية من الموصى ولا بركوب الدلالة من الدال ولا بحسن الرعاية من الراعى ولم تزل فى
نعمه لم تغيرها نقمه وفى رضائم يكدره سخط الى أن جرى القدر بما عمى منه البصر وذهل عنه
الحذر فسلب الموهوب والسالب هو الواهب فعد اليه بشكر النعم وعذبه من فظيع
النقم فتى تنسه نفسك ولا تجعلن الحياء من التذلل للعز المذل شركا بينك وبين رعيتك
فتستحق مذموم العاقبة ولكن مرهم ونفسك بصرف القلوب الى الاقرار له بكنه القدرة
وتذليل الالسن فى الدعاء بمحض الشكر فان الملك ربما عاقب عبده ليرجعه عن شئ فعل الى
صالح عمل وليبعثه على دؤوب شكر يحوز به فضل أجر فامرها الملك ان تقوم فيهم فتنذرهم
بهذا الكلام ففعلت فرجع القوم عن بابه وقد علم الله تعالى منهم الوعظ فى الامر والنهى
فحال عليهم الحول وما بينهم مفتقد نعمة كان سلبها وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع
فاعترف الملك لها بالفضل فقلدها الملك بعده وجمع الرعية على الطاعة لها فى المحبوب والمكروه
فهذا فعل الله بأعدائه وضرائر نعمته لما شكروه أعاد لهم من نعمه ما كان قد استرجع وزادهم
من فضله ما تمنوه فكيف بمن يوحدونه ويؤمنون به لو صدقت نياتنا وصحت ضمائرنا وقال

الواقدى توفى رسول بعض الملوك بدمشق فى خلافة هشام فوجد فى جيبه لوح من ذهب مكتوب فيه اذا ذهب الوفاء نزل البلاء واذا مات الاعتصام عاش الانتقام واذا ظهرت الخيانات امتحقت البركات وقال الوضاحى وجه أنوشروان رسولا له الى ملك قد أجمع على محاربته وأمره ان يتعرف سيرته فى نفسه ورعيته فرجع اليه فقال وجدت عنده الهزل أقوى من الجد والكذب أكثر من الصدق والجور أرفع من العدل فقال أنوشروان رزقت الظفر به سرا اليه وليكن عملك فى محاربته بما هو عنده أضعف وأقل وأوضع فانك منصور وهو مخذول فسار اليه فقتله واستولى على مملكته وقال بزرجمهر المزح آفة الجد والكذب عدو الصدق والجور مفسدة الملك فاذا استعمل الملك الهزل ذهبت هيبته واذا استصحب الكذب استخف به واذا بسط الجور فسد سلطانه وكان نقش خاتم رستم وهو أحد ملوك الفرس الهزل مبغضه والكذب منقصه والجور مفسده وقيل لبعض أصحاب اسفنديار رجل من الترك فأصيب فى عنقه لوح ذهب مكتوب فيه آفة الشدة التهيب وآفة المنطق الحياء وآفة كل شئ الكذب وقيل لبعض الحكماء ما قيمة الصدق قال الخلد فى الدنيا قيل فما قيمة الكذب قال موت عاجل قيل فما قيمة العدل قال ملك الابد قيل فما قيمة الجور قال ذل الحياة قال وسأل ملك الهند الاسكندر وقد دخل بلاده ما علامة الملك ودولته قال له الجد فى كل الامور قال فما علامة زواله قال الهزل فيه قال فما سرور الدنيا قال الرضا بما رزقت قال فما غمها قال الحرص على ما لعلك لا تناله وقال بزرجمهر ثلاث هن سرور الدنيا وثلاث هن غمها فاما السرور فالرضا بالقسم والرضا بالطاعة فى النعم ونفى الاهتمام بالرزق الغد وأما الغم فحرص مسرف وسؤال مجحف وتعنى ما يلهف ومر بعض الملوك بغلام يسوق حمارا غير مشبعث وقد عنف عليه فى السوق فقال يا غلام ارفق به فقال الغلام يا أيها الملك فى الرفق به مضرة عليه قال وما مضرته قال تطول طريقه ويشتد جوعه وفى العنف احسان اليه قال وما الاحسان اليه قال يخف حمله ويطول أكله فاعجب الملك بكلامه وقال له قد أمرت لك بألف درهم قال رزق مقدور وواهب مأجور قال وقد أمرت باثبات اسمك فى حشمى قال كفيت مؤنته ورزقت بها معونته قال لولا انك حديث السن لاستوزرتك قال ان يعدم الفضل من رزق العقل قال فهل تصلح لذلك قال انما يكون الحمد والذم بعد التجربة ولا يعرف الانسان نفسه حتى يبلوها قال فاستوزره فوجده ذا رأى صليب وفهم رحيب ومشورة تقع مواقع التوفيق قال وكتب الاسكندر الى ارسطاطاليس وقد نفذ فى الشرق والغرب وبلغ منهما ما لم يبلغه أحد قبله اكتب الى لفظا موجزا ينفع ويردع فكتب اليه اذا استولت بك السلامة فجدد ذكر العطب واذا هنتك العافية فحدث نفسك بالبلاء واذا طمأنتك الامن فاستشعر الخوف واذا بلغت نهاية الامل فاذكر الموت فان أحببت نفسك فلا تجعلن لها فى الاساءة اليها نصيبا قال ووعظ بعض الحكماء ملكا فقال له أيها الملك ان الدنيا دار عمل والآخرة دار ثواب ومن لا يقدم لا يجد فهن نفسك حلاوة عيشها بترك الاساءة اليها واعلم ان زمام العافية بيد البلاء وأمن السلامة تحت جناح العطب وباب الامن مستور بالخوف فلا تكونن فى حال من هذه الثلاثة غير متوقع لاضدادها ولا تجعل نفسك عرضا لسهام المهالك فان الدهر عدو ابن آدم فاحترز من عدوك بغاية

الاستعداد واذا فكرت فى نفسك وعدوها استغنيت عن الوعظ (قال) وكتب الاسكندر على باب الاسكندرية أجل قريب فى يد غيرك وسوق حثيث من الليل والنهار واذا انتهت المدة حيل بينك وبين العدة فاحتل قبل المنع وأكرم أجلك يحسن صحبه السابقين واذا آنست السلامة فاستوحش بالعطب فانه الغاية واذا فرحت للعافية فاحزن للبلاء فاليه تكون الرجعة واذا بسطك الامل فاقبض نفسك عنه بذكر الاجل فهو الموعد واليه المورد (وقال) ابن الاعرابى حدثنى من رأى بين اصبهان وفارس حجرا مكتوبا عليه العافية مقرونة بالبلاء والسلامة مقرونة بالعطب والامن مقرون بالخوف ولما شرب انوشروان عنق بزرجمهر لما رغب عن دين المجوسية وانتقل الى دين المسيح عليه السلام وجد فى منطقته كتابا فيه ثلاث كلمات اذا كان القدر حقا فالحرص باطل واذا كان الغدر فى الناس طباعا فالثقة بكل أحد عجز واذا كان الموت بكل أحد نازلا فالطمأنينة الى الدنيا حمق ولما تاب الله تعالى على النبى سليمان عليه السلام ورد عليه ملكه كتب على كرسيه اذا صحت العافية نزل البلاء واذا تمت السلامة نجم العطب واذا تم الامن علن الخوف (وحفر) حفير بفارس فوجد فيه لوح رخام فيه أربعة أسطر محفورة أولها أيها المعافى أبشر بالبلاء والثانى ايها السالم توقع العطب والثالث أيها الآمن خذ اهبة الخوف والرابع أيها الموسر ان يعدعنك العسر ولما نزل أبو مسلم مدينة سمرقند أتاه اسبهندها فقال أيها الملك ان بالقندهار حجرا مدفونا فيه ثلاثة أسطر وجدت فى الكتب ان سليمان بن داود عليهما السلام بعث به ودفن فى هذا الموضع ووجدانك أنت الذى تستخرجه وتعمل بما فيه فأمر به فاخرج فاذا أول سطر منه الحزم انتهاز الفرصة وترك الوناء فيما يخاف عليه الفوت والسطر الثانى الرياسة لا تتم الا بحسن السياسة والسطر الثالث لم يقتل الآباء من ترك الابناء ولم يصب من لم يخب فكان ابو مسلم يقول علم جليل به تتم هذه الدولة ان لم ينزل القدر بما يحول بيننا وبين الحذر فلم يزل يستعمل هذا الكلام الى ان قدم العراق فاعماه القدر عن الاستعانة بالحذر فقتله أبو جعفر المنصور ولما جاج أبو مسلم قيل له ان بالحيرة نصرانيا قد أتت عليه مائتا سنة وعنده علم من العلم الاول فوجه اليه فاتى به فلما نظر الشيخ الى أبى مسلم قال قدمت بالكفاية ولم تأل فى العناية وقد بلغت النهاية أحرقت نفسك لمن سيسكت حسك وكان قد عاينت رمسك فبكى أبو مسلم فقال لا تبك فانك لم تؤت من حزم وثيق ولا من رأى رتيق ولا تدبير نافع ولا من سيف قاطع ولكن ما استجمع أحد لامله الا أسرع فى تقريب أجله قال فمتى تراه يكون قال اذا تواطأ الخليفتان على أمر كان والتقدير فى يدى من يبطل معه التدبير وان رجعت الى خراسان سلمت وهيهات فاراد الرجوع فكتب اليه السلطان بالمضى ووجه اليه من بحثه فلولا ان البصر يعمى اذا نزل القدر لكانت هذه دلالة تقع موقع العيان وتبعث على التيقظ فى الحذر والاحتيال فى الهرب على ان لكل نفس غاية ولكل أمر نهاية (وقيل) بلغ ابينوس وهو حكيم الطب وفيلسوفه وقد نهكته العلة الاتتعالج فقال اذا كان الداء من السماء بطل الدواء واذا قدر الرب بطل حذر المربوب ونعم الدواء الاجل وبئس الداء الامل وقال بعض الغزاة قصصنا حصنا من بلاد الروم فرأينا فيه صورة الاسد من حجر مكتوب عليه الحيلة خير من الشدة والتأنى أفضل من العجلة والجهل فى الحرب احزم من العقل

والتفكر فى العاقبة مادة الجزع (وقال) أحمد بن سهل وجه ملك الروم الى هارون الرشيد بثلاثة أسياف مع هدايا كثيرة وعلى سيف منها مكتوب أيها المقاتل احمل تغنم ولا تفكر فى العاقبة فتهزم وعلى الثانى منها مكتوب اذا لم تصل ضربة سيفك فصلها بالقاء خوفك وعلى الثالث مكتوب التأنى فيما لا يخاف عليه الفوات أفضل من العجلة الى ادراك الامل وقال الحسن ابن سهل قرأت فى كتاب جاويدان خرد ثلاث تبطل مع ثلاث الشدة مع الحيلة والعجلة مع التأنى والاسراف مع القصد (وقال) الخضر بن على رأيت بعدن حجرا عليه مكتوب بالحميرية أيها الشديد احذر الحيلة أيها العجول احذر التأنى أيها المحارب تايس من الفكر فى العاقبة أيها الطالب موجود الا تقطع أملك من بلوغه (وكتب) قيصر الى كسرى أخبرنى بأربعة أشياء لم أجد من يعرفها واخالها عندك أخبرنى ما عدو الشدة وصديق الظفر ومدرك الامل ومفتاح الفقر فكتب اليه الحيلة عدو الشدة والصبر صديق الظفر والتأنى مدرك الامل والجود مفتاح الفقر (وقال) بعض الملوك لحكيم وأراد سفرا أوصنى على أشياء من حكمتك اعمل بها فى سفرى فقال اجعل تأنيك زمام عجلتك وحيلتك رسول شدتك وعفوك ملك قدرتك وأغاضا من لك قلوب رعيتك ان لم تحرجهم بالشدة أو تبطرهم بالاحسان اليهم وقال الخضر بن على قرأت فى كتاب جاويدان خرد وهو أجل كتاب للفرس الحيلة أنفع من أقوى الشدة وأقل التأنى أجل من أكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم واذا استبد الانسان برأيه عميت عليه المراشد وكان التجتكان أبو بزرجمهر شامل القدر وضيع الحال مفهه المنطق فلما أتت لابرزجمهر خمس عشرة سنة وحضر فى مجلس الملك وقد جلست الوزراء على كراسيها والمرازبة فى مجالسها وقف بجمال الملك ثم قال الحمد لله المأمول نعمه المرهوب نقمه الدال عليه بالرغبة اليه المؤيد الملك بسعوده فى الفلك حتى رفع شانه وعظم سلطانه وأنار به البلاد وأعاش به العباد وقسم له فى التقدير وجوه التدبير فرعى رعيته بفضل نعمته وحماها المؤيدات وأوردها المعشبات وذادها عن الآكلين وآلفها بالرفق واللين انعاما من الله تعالى عليه وتنبيها لما فى يديه واسأله ان يبارك له فيما آتاه ويخيره فيما استرعاه ويرفع قدره فى السماء وينشر ذكره تحت الماء حتى لا يبقى له بينهما مناوى ولا يجد له فيهما مدانى واستوهب له حياة لا تنغيص فيها وقدرة لا شاذ عنها وملكا لا بؤس فيه وعافية تديم له البقاء وتكثر له النماء وعزا يؤمنه من انقلاب رعيه او هجوم بليه فانه مولى الخير ودافع الشر فأمر الملك فحشى فمه بثمين الجواهر ورفيعه ولم يدفع حداثة سنه مع نبيل كلامه ان استوزره وقلده خيره وشره فكان أول داخل وآخر خارج (وقال) عمر بن عبد العزيز ما لله على العاقل نعمة بعد الاسلام أفضل من مباينة هذه السفلة بالفهم والعقل ولو لم يكن هذا ما عرف الله تعالى الا بالجهل ألا ترى ان الله تعالى خاطب أولى النهى وذوى الالباب وذوى البصائر ويجب على العلية ان يحمدوا الله تعالى على مباينتهم هذه السفلة بالعقول والافهام كما يحمدونه على جميع النعم (وقيل) لمروان بن محمد وهو آخر ملوك بنى أمية ما الذى أصارك الى هذا قال الاستبداد برأيى لما كثرت على كتب نصر بن سيار ان أمده بالاموال والرجال قلت فى نفسى هذا رجل يريد الاستكثار من الاموال والجند بما يظهر لى من فساد الدولة قبله وهيبات

أن ينتقض على خراسان فانتقضت دولته من خراسان وقال الواقدى قال الفضل بن سهل لما دعى للمأمون فى كور خراسان بالخلافة جاءتنا هدايا الملوك سرورا بمكانه من الخلافة ووجه ملك كابلستان شيخا يقال له ذوبان وكتب يذكر انه قد وجه بهدية ليس فى الارض اسنى منها ولا ارفع ولا انبل ولا اخرمنها فعجب المأمون وقال سل الشيخ مامعه فسألته فقال ما معى شئ أكثر من علمى قلت وأى شئ علمك قال رأى ينفع وتدبير يقطع ودلالة تجمع قال فسر المأمون بذلك فأمر بانزاله واكرامه وكتمان أمره فلما اجمع على التوجه الى العراق لقتال أخيه قال لذوبان ماترى فى التوجه الى العراق قال رأى وثيق وحزم مصيب وملك قريب فالسير ماض فاقض ما أنت قاض قال له فمن نوجه قال الفتى الاعور الطاهر الاطهر يسير ولا يعثر قوى مرهوب مقاتل غير مغلوب قال فكم نوجه من الجند قال أربعة آلاف صوارم الاسياف لا ينتقصون العدد ولا يحتاجون الى المدد فسر المأمون بذلك ووجه بطاهر ابن الحسين قال وفى أى وقت يخرج قال مع طلوع الفجر يجمع لك الامر ويصير الى النصر نصر سريع وقتل ذريع وتفريق تلك الجموع والنصرة لاعليه ثم يرجع الامر اليك واليه فظفر طاهر وكان له النصر وقتل على ابن عيسى وزير الامين واستولى على عسكره وحاز أمواله فأمر الملك لذوبان بمائة ألف درهم فلم يقبلها وقال أيها الملك ان ملكى لم يوجهنى اليك لانقصك مالك فلا تجعل ردى لنعمتك تسخطا وساقبل ما يفى هذا المال ويزيد عليه قال المأمون وماهو قال كتاب يوجد بالعراق فيه مكارم الاخلاق وعلوم الآفاق من كتب عظيم الفرس فيه شفاء النفس من صنوف الآداب بما ليس فى كتاب عند عاقل لبيب ولا فطن أريب يوجد تحت ايوان بالمدائن فيقاس بالذرعان فى وسط الايوان لازيادة ولا نقصان فاحفر المدر واقلع الحجر فاذا وصلت الى الساجه فاقلعها تجد الحاجة ولا تلزم لغيرها فيلزمك غب ضرها فأرسل المأمون الى ايوان كسرى فحفروا فى وسطه فوجدوا صندوقا صغيرا من زجاج عليه قفل منه فحمل الى المأمون فقال لذوبان هذا بغيتك قال نعم أيها الملك قال خذها وانصرف فتكلم بلسانه ونفخ فى القفل ففتح فاخرج منه خرقة ديباج فنشرها فسقط منها أوراق فعدها مائة ورقة ولم يكن فى الصندوق شئ غيرها فأخذ الاوراق وانصرف الى منزله قال الفضل بن سهل فجئته فسألته فقال هذا كتاب جاويدان خرد تأليف كيومرث وزير ملك ايران شهر فطلبت منه شيأ فدفع الى ورقات منه وترجمها الى الخضر بن على ثم اخبرت المأمون فقال احمل الى الورقات فحملتها اليه فقرأها فقال والله هذا الكلام لا ماض فيه من لى بالمتنا

(فصل) من نوادر برزجمهر حكيم الفرس نصحى النصحاء ووعظى الوعظاء شفقة ونصيحة وتأديبا فلم يعظنى احد مثل شيبى ولا نصحنى مثل فكرى ولقد استضأت بنور الشمس وضوء القمر فلم أستضئ بشئ أضوأ من نور قلبى وكنت عند الاحرار والعبيد فلم يملكنى أحد ولا قهرنى غير هواى وعادانى الاعداء فلم أر أعدى لى من نفسى اذا جهلت واسترزت نفسى بنفسى من الخلق كلهم حذرا عليها وشفقة فوجدتها أشر الانفس لنفسها ورأيت انه لا يأتيها الفساد الا من قبلها وزحمنى المضايق فلم يزحمنى مثل الخلق السوء ووقعت من أبعد البعد

وأطول الطول فلم أقع فى شئ أضر على من لسانى ومشيت على البحر ووطئت على الرمضاء فلم ارنارا أحر من غضبى اذا تمكن منى وطالبنى الطلاب فلم يدركنى مدرك مثل انسانى ونظرت ما الداء القاتل ومن أين نالنى فوجدته من معصية ربى سبحانه والتمست الراحة لنفسى فلم أجد شيأ أروح لها من تركها مالا يعنيها وركبت البحار ورأيت الاهوال فلم أر هولا مثل الوقوف على سلطان جائر وتوحشت فى البرية والجبال فلم ار مثل القرين السوء وعالجت السباع والضباع والذئاب وعاشرتها وعاشرتنى وغلبتها فغلبنى صاحب الخلق السوء وأكلت الطيب وشربت المسكر وعانقت الحسان فلم أجد شيأ ألذ من العافية والامن وتوسطت الشياطين والجبال والسباع فلم أجزع الا من الانسان السوء واكلت الصبر وشربت المر فلم أر شيأ أمر من الفقر وشهدت الحروب وتعبية الجيوش وباشرت السيوف وصارعت الاقران فلم أر قرنا أغلب من المرأة السوء وعالجت الحديد ونقلت الصخر فلم أر حملا أثقل من الدين وتطرت فيما يذل العزيز ويكسر القوى ويضع الشريف فلم أر أذل من ذى فاقة وحاجة ورشقت بالنشاب وربحت بالتجارة فلم ار أنفذ من الكلام السوء يخرج من فم مطالب بحق وعمرت السجن وشددت فى الوثاق وضربت بعمد الحديد فلم يهدمنى مثل ما هدمنى الغم والهم والحزن واصطنعت الاخوان وانتخبت الاقوام للعدة والشدة والنائبة فلم أر شيأ أخير من التكرم عندهم وطلبت الغنى من وجوهه فلم أر أغنى من القنوع وتصدقت بالذخائر فلم أر صدقة انفع من رد ذى ضلالة الى هدى ورأيت الوحدة والغربة والمذلة فلم ار أذل من مقاساة الجار السوء وشيدت البنيان لاعز به واذكر فلم أر شرفا أرفع من اصطناع المعروف ولبست الكساء الفاخرة فلم البس شيأ مثل الصلاح وطلبت أحسن الاشياء عند الناس فلم أجد شيأ أحسن من حسن الخلق وسررت بعطايا الملوك وجوائزهم فلم اسر بشئ اكثر من الخلاص منهم

(فصل) ومن حكم شاباق السندى من كتابه الذى سماه منتخل الجواهر للملك بن قايص الهندى يا أيها الملك اتق عثرات الزمان وتحرش تسلط الايام ولوم عليه الدهر واعلم أن للاعمال جزاء فاتق العواقب وللايام عثرات فكن على حذر وللاقدار غيبات فاستعدها وللزمان منقلب فاحذر دولته لئيم الكرة تخف سطوته سريع الغرة فلا تامن دولته واعلم ان من لم يدا ونفسه من سقام الآثام فى ايام حياته فما أبعده من الشفاء فى دار لا دواء لها ومن اذل حواسه واستعبدها فيما يقدم من خير لنفسه بان فضله وظهر نيله ومن لم يضبط نفسه وهى واحدة لم يضبط حواسه وهى خمس واذا لم يضبط حواسه مع قلتها وذلتها صعب عليه ضبط الاعوان مع كثرتهم وخشونة جانبهم فكانت عامة الرعية فى قواصى البلاد واطراف المملكة أبعد من الضبط فليبدا الملك بسلطانه على نفسه فليس من عدو احق ان يبداه بالقهر من نفسه ثم يشرع فى قهر حواسه الخمس لان قوة الواحدة منهن دون صواحبها قد تأبى على النفس القوية الحذرة فكيف اذا اجتمعت خمس أنفس على واحدة واعلم ان لكل واحدة منهن شرة ليست للاخرى فميزها تسلم من شرها وانما يهلك الحيوان بالشهوات ألا ترى أن الفراش يكره الشمس فيسكن من حرها ويحبه ضياء النار فيدنو منها فتحرقه والظبى على نفار قلبه وشدة حرصه ينصت للسماع الموتق الملهى فيمكن القانص من نفسه وذباب الورد

المتبع لطيب الاراييج يطلب ما يقطر من اذن الفيل لطيب رائحته فانه فى طيب رائحة المسك فيلهيه طيب الرائحة عن الاحتراس من تحريك الفيل اذنه فيتوجع فى أصل اذنه فتقع عليه ضربة الاذن فتقتله والسمك فى البحر تحمله لذة الطعم ان يبتلعه فتحصل الصفارة فى جوفه فيكون فيه حتفه (وذكر الحكيم) ان خصال الملوك معروفة قتلت بالافراط فيها ملوكا معروفين فالصيد مات فيه قيذفه الملك والافراط فى القمار مات منه سيب الملك والافراط فى الكرمات فيه حزق الملك وشدة الحرص مات منه مهريق الملك والغضب أخرسنى الملك والطمع واكل والفرح واطبات والانقة بوليس والتوانى زميربهر واخلق بخصال أهلكت ملوكا ان يجتنبها الملوك * واعلم ان الرعية تسقطى الى الملك العادل استقطاء أهل الجدب الى الغيث وينتعشون بطلعته عليهم كانتعاش النبات بما يناله من القطر يل الرعية بالملك العادل أتم انتعاما منها بالغيث لان لمنفعة الغيث وقتا معلوما وعدل الملك على الدوام لا يتعين له وقت ويحسن بالملك ان يشبه تصاريف تدبيره بطباع ثمانية أشياء وهى الغيث والشمس والقمر والريح والنار والارض والماء والموت فاما شبهه الغيث فتواتره فى أربعة أشهر من السنة ومنفعته بجميع السنة كذلك ينبغى للملك ان يعطى جنده وأعوانه فى الاربعة أشهر تقديرا لتمة السنة فيجعل رفيعهم ووضيعهم فى الحق الذى يستوجبونه بمنزلة كما يسوى المطر بين كل أكمة مشرفة وغائط مستقل ويغمر كلا من مائه بقدر حبه ثم يستحبى الملك فى الثمانية الاشهر حقوقه من غلاتهم وخراجهم كما تسخن الشمس بحرها وشدة فعلها مداواة الغيث والامطار فى الاربعة الاشهر وأما شبهه الريح فان الريح لطيفة المداخل تسرح فى جميع المنافذ حتى لا يفوتها مكان كذلك الملك ينبغى أن يتوجع قلوب الناس بجواسيسه وعيونه لا يختفون عنه بشئ حتى يعرف ما يأتمرون به فى بيوتهم وأسواقهم وكالقمر اذا استهل أيامه وأضاء واعتدل نوره على الخلق وسر الناس بضوئه ينبغى أن يكون الملك بهجته وزينته واشراقه فى مجلسه وايناسه رعيته ببشره فلا يخص شريفا دون وضيع بعدله وكالارض فى كتمان السر والاحتمال والصبر والامانة وكالنار على أهل الدعارة والفساد وكعاقبة الموت فى الثواب والعقاب يكون ثوابه لا يقصر عن اقامة حد ولا يتجاوزه وكالماء فى لينه لمن لا ينه وهدمه واقلاعه عظيم الشجر لمن حاربه * واعلم أنه قد يكتنف السلطان من شرار الناس والاعوان على الحاجة اليهم من يستبشع ويستكره كالحيات تكتنف بالصندل فيقتلها الصندل بطيب رائحته وبرده ويبسه وينتفع الصندل بها اذ لا يقرب منه من يريد أن يقطعه * لكن فيك مع تلطفك تشديد البلاء فلا يجرأ عليك فان القمر يستنار بضوئه ويظهر له لكن الشمس يستظل من حرها ويسكن لها وقد قالت العرب فى مثل هذا لا تكن حلوا فتستر ولا مرا فتلفظ اجعل لكل طبقة من أعدائك اشباههم من أعوانك يسوسونهم فانهم كالماء فى الاذن لا حيلة فى اخراجه الا بأرفق من الماء الذى هو من جنسه * اذا عاديت رجلا فلا تعاد جنسه واستبق من دونه أحدا فعسى تنتفع به فان السيف القاتل من جنس الدرع الواقى ولا تطمعن فى الكذوب والمطبوع على الشر أن تعطفهما بالاحسان فانهما كالقرد كلما من باطعام الحلاوة والدسم ازداد وجهه تجاها * قد يرد الواحد كيد الجميع اذا كان عاقلا كما يرد الظل حر شعاع الشمس اذا كان وافيا غاية

ارمى الناس ان يقتل بسهمه واحدا لكن رمية عاقل ذهن تقتل الجيش باسره والملك الشريف العاقل لا يتقدفيه قدح أهل البغى من انقطع اليه ولزمه كان كالجوهر المضىء بنوره لا تطفئه عصوف الرياح من كان قابلا لما يورد عليه فى اصغائه الى كل قول يسمعه كان كالسراج يميل به كل ريح لينة ثم لا يلبث ان عصفت الرياح أن يطفأ * تدبير الملك الحازم فى سلطانه كتعاهد صاحب البستان ببستانه يخرج ناحل عيدان وثول شجره فيحيط به على غره وزرعه ليقيه من الشر والفساد كما ينتخب الملك أهل الشكيمة والشوكة فيجعلهم فى أقاصيه وحدوده ردأ للمملكة * وليكن الملك احذر ما يكون آمن ما يكون (قلت) وقد صدق الشاعر

أأمنتم ريب المنون فنمتم * ريب خوف مكمر فى أمان

قال ألا ترى ان بهرشان الملك أبصر المرأة على فراشه رجلا فلما رام فراشه وثب عليه فقتله وباسراج الملك قتله بخلخال مسموم ودروف الملك قتلته امرأته بهدية خبأتها فى مقاصها واعلم ان العدو قد علم منك مواضع الحذر وحالات الامن وانما ترصدك فى حالات الامن والمواضع التى تظن العدو لا يكمن فيها فكن أحذر ما يكون فيها وسائر حكم هذا الباب قد قدمتها فى تراجم كتابنا

* (فصل) * قال غيره لا ينبغى للملك ان يكون له أيام معلومة يظهر فيها فان فى ذلك خصالا مذمومة منها انه قد يعوق عن ذلك اليوم مهم أو بعض كل أو لذة مغتنمة فيلزمه الخروج على كره ومنها انه اذا تخلف عن الظهور فى ذلك اليوم لامر ما تطاولت الاعناق مر الرعية وكثر كلامها وقالوا مرض أو مات أو اصابته آفة فيكسب العدو جرأة وسرورا ويكسب الولى حزنا وحبسا ومنها انه قد يواعد عدوه ليوم يلتقيان فيه فلا يتم له ذلك * ولا ينبغى ان يكون الملك كثير التصرف عند فساد الزمان وخبث الرعية وعن هذا قالت الحكماء اذا كان الجمل كثير القفز كان نصيب الذئب

* (فصل) * من نوادر كلام العرب من حكم اكثم بن صيفى وهذا رجل كان له عقل وعلم ومعرفة وتجربة وقد علق الناس عنه حكما لطيفة والفوا فيها تصانيف فمن حكمه قال من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء أفضل من السؤال ركوب الاهوال من حسد الناس بدا بغصة نفسه العديم من احتاج الى اللئيم من لم يعتبر فقد خسر ما كل عثرة تقال ولا كل فرصة تنال لا وفاء لمن ليس له حياء قد يشهر السلاح فى بعض المزاح من وفى بالعهد فاز بالحمد الموت يدنو والمرء يلهو طول الغضب يورث الوصب رب عتق شر من رق من اصطنع قوما احتاج اليهم يوما ما الكذب يهت والحلف مقت من لم يكف اذاه اتقى ما ساءه الحر يتقاضى الملك من نفسه واللئيم يستحسن تسويفه وحبسه ليس بانسان من ليس له اخوان أنت مزر بنفسك ان صحبت من هو دونك عليك بالجماعة فان الذئب لم ياكل له مواصلة فى الاسفار بعد والاختيار أفسد كل حسب من ليس له أدب أفضل الفعال صيانة العرض بالمال ليس من حادث الجهول بذى معقول ليس للمخلف مثل الرد من جالس الجهال فليستعد لقيل وقال ما جلا عنك النسيان مثل البيان ولا نفى عنك البهتان مثل البرهان لم ينج من الموت غنى لماله ولا فقير لاقلاله اذا أردت طرد الحر فسمه الهوان كثرة العلل آية البخل

كفر النعمة لؤم ومصيبة الاحمق شؤم ان من الكرم ليم اللئيم اياك والخديعة فانها خلق لئيم امحض أخلاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة رب سباب قدها به العتاب الصدود آفة المقت سبب الحرمان التواني من سأل فوق قدره استحق الحرمان ليس كل طالب يصيب ولا كل غائب يؤوب ان من الفساد اضاعة الزاد من سلم ساد ومن تفهم ازداد لا ترغب فيمن يزهد فيك رب بعيد أقرب من قريب المزاح يورث الضغائن سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار غنك خير من سعي غيرك من أجد المسير ادرك المقيل استر عورة أخيك لما يعلم فيك لا تكثر من المزاح فتذهب هيبتك ولا من الضحك فيستخف بك مر أكثر من شيء عرف به كن بالحلم ناصرا الحنة تهدم الصنيعة نعم الشيء الهدية بيد الحاجة ربما نصح غير الناصح وربما غش المنصح الكلام فيما ينفعك خير من السكوت والسكوت عما يضرك خير من الكلام لا يغرنك من جاهل قرابة ولا جوار ولا الف فان أقرب ما تكون من النار قربا أقرب ما تكون منها تلهبا ارفض أهل الدناءة تلزمك المهابة دع مجالسة أهل الريب على كل حال فانك ان تسلم دينك لم تسلم من سوء المقال الكرم شكر البلاء واللؤم كفر النعمة أكرم الصنائع سلامة الصدور لن تسلم من الناس حتى يسلموا منك من عدم الايمان لم تزده الرواية فقها الحزن مفسدة للعقل ومقطعة للحيلة كثرة النوم اماتة للقلب شدة الحذر تدل على ضعف اليقين محادثة الحمق والنساء توريث الخلق الدليل على الحمق اعجاب المرء بعقله من لم يسمع الحديث فارفع عنه مؤنته من حدث من لا يفقه كن قدم مائدة لاهل القبور من قطع عليك الحديث فلا تحدثه فليس بصاحب أدب من عرف بالصدق جاز كذبه ومن عرف بالكذب لم يقبل صدقه من وصل من يحسده قوى عدوه وقصر بنفسه اغتفرزلة صديقك من غضب من غير شيء رضي من لا شيء من غضب على من لا يقدر عليه طال حزنه الرجل عبد هواه لولا جهل الجاهل ما عرف عقل العاقل من خاف ربه كف ظلمه كل الفقر هلاكه شح الغني فضيحته من لم يتورع في كلامه اظهر فجوره كل شيء لا يوافق الاحمق فاعلم انه صواب اذا غايتك امرأتك فجاهدها عاتبها عدوك من لم يعرف الخير من الشر فالحقه بالبهائم من طلب ما عند البخيل مات جوعا جار الرجل الجواد كجار ور البحر لا يخاف العطش وجار البخيل في المفازة هالك اذا لم تنتفع بمصادقة الاحياء فأت أهل القبور من عادى من فوقه ابغضه من تحته الرزق مقسوم والحريص محروم من كثر كلامه على المائدة غثى بطنه وابغضه أصحابه العلم زين ومنفعة والجهل شين ومضرة الجاهل يستطعم الشر والعاقل يمنع نفسه من الشر من لم يرتح للثناء فليس له نصيب في المروءة اذا كان لك جار أو صديق لا تنتفع به فصور مثله في الحائط فانه أزين للحائط وأخف للمؤنة العاقل يرغب في الادب والجاهل يهرب منه العاقل اذا فاته الادب لزم الصمت لا تستنطق من تكذبه العاقل يتهم رأيه في نفسه والجاهل يقيم على جهله من لم يملكه عقله لم يملك نفسه من أظهر محاسنه ودفن مساويه كمل عقله من غلب هواه عقله افتضح من استشاره عدوه في صديقه أمره بتطيعته مصادقة الكرام غنيمة ومصادقة اللئام ندامة لا تدخل على صديقك التهمة فيرجع لك عن النصيحة اذا انقطع رجاؤك عن صديقك فالحقه بعدوك من طلب

مرضاة الاخوان بغير شئ فليصادق أهل القبور العاقل ليس في مصادقته مخادعة رأس مال الاحمق الخديعة وفائدتها الغضب والحليم رأس ماله الصمت وفائدته الحلم اذا جهل عليك الاحمق فالبس له سلاح الرفق واللطف صديق كل امرئ عقله وعدو كل امرئ حمقه من أنزل نفسه عاقلا انزله الناس جاهلا من قنع بكذب الثناء أظهر للناس رقاعته السكوت عن الاحمق جوابه السكوت يزين الاحمق والكلام يشينه من استطال عليك بلبسه وتحلى بفضله فلا أكثر الله في الناس مثله الجواد محبب والبخيل مبغض اذا حملت البخيل مؤنة أبدى لك الحرمان والعداوة البخيل يمنع ماعنده ويبخل على الجواد بجوده من طلب من البخيل حاجة فهو شر منه من بذل لبخيل صلته ورفع عنه مؤنته دامت له مودته ضيف البخيل آمن من التخمة من طلب من لئيم حاجة كمن طلب السمك في المفازة عدة الكريم نقد وعدة اللئيم تسويف الكريم يواسي اخوانه في دولته واللئيم يقطعهم لا تخضع للئيم فانه لا يعطيك انما الصديق الذي يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند البلية ويحفظك عند المغيب ويشفعك عند الرياء اذا صادقت الوزير فلا تخش الامير من لم ينصحك في الصداقة فعاده من غشك في العداوة فلا تأمنه من كان الناس عنده سواء لم يكن له أصدقاء من صادق الاخوان بالمكر كافؤه بالغدر من لم يواس الاخوان في دولته خذل عند مأمنه اياك أن تبغي مودة من يحسدك فانه لا يقبل اخاءك من حسدك على عملك لم يسقم حسدك الحاسد يفرح بزلتك ويعيب صوابك اذا رأيت من يحسدك ويسرك ان تسلم منه فهم عليه أمورك من صبر على مودة الكاذب فهو مثله وكل شئ شئ ومودة الكاذب لا شئ من بدأ بجهله فكافئه بحلمك تغنمه أول المروءة طلاقة الوجه والثانية التودد والثالثة الفصاحة الفاجر لا يبالي ما قال والورع يتعاهد كلامه من شغل مشغولا فقد أظهر ثقله من صبر على شغل سوء فقد تطرا لى سخنة عينه من لم يغلب الحزن بالصبر طال غمه من استطال على الناس بغير سلطان فليصبر على الذل والهوان لا تحقر الفقير السري ولا ترغب في الغني الدني من تشبه بالسراة وغلبت عليه الدناءة فلا تكرمه من أغضبته أنكرته من أغنيته أعطفته من تعرض لصاحب الدولة انقلب بهزيمة من صانع عماله لم يحتشم من طلب حاجته من صاحب الكتاب ملوه ومن عاداهم أنكروه من شمخ عليك بأنفه وطمح ببصره ولم يدخل عليك فضله فليهن عليك سلبه السفيه يقطع مودة لم تزل ويكتسب عداوة لم تكن حمل المروءة ثقيل من سالم الناس غنم خذلان الجار لؤم ورجال البلاء قليل احفظ اخوانك تذل اعداءك ما أجمل الصبر على ما لا بد لك منه المحروم من طال نصبه وكان لغيره نشبه لا قوي أقوى ممن قوي على نفسه ولا عاجز أعجز ممن عجز عنها الخير في أهله غريب ما أضعف قوة من يغالب من لا يغالب

* (الباب الرابع والستون مشتمل على حكم منثورة) *

اعلم أيها المريد ان الله تعالى يمتحن أنبياءه وأصفياءه باعدائه ويضطر أولياءه واحباءه الى أعدائه رفعة وتقريبا لاحبائه وتمحيصا لهفوات أوليائه وذخرا لهم عنده وزلفى لديه تعظيما لاقدارهم وتشريفا لمنازلهم وترفيعا لدرجاتهم قال الله سبحانه وتعالى تعزية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لعظيم ما كان يلقاه من سطوات أعدائه وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن

يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وقال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين يا محمد لا تستوحش منا ولا تتهمنا في سيرتنا فمن نحبه ويحبنا فالبلاء على وجهين أحدهما الذنب والآخر رفع درجة وتوفير أجر ولذلك كان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالامثل فالبلاء بلاء رحمة لتضعيف درجة وتمحيص سيئة وبلوغ فضيلة وعلو منزلة وبلاء عقوبة لانتهاك حرمة واقتراف معصية لن تخلوا لمكاره أن تكون لحادث رحمة فلا رغبة عما أنعم الله به منها أو لسيئة عن اضاعة فلا غنى عن زاجر عنها فلأي ذلك كان حلوا بها عظمت به المنة ووجبت لله به النعمة (وكان جعفر بن محمد) رضي الله عنه اذا وقع في شئ يكرهه يقول اللهم اجعله أدبا ولا تجعله غضبا * وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم لو كان المؤمن في رأس جبل لقيض الله له من يؤذيه يا من ضاق صدره وحرج قلبه وساء خلقه من عدو أقلقه وحاسد حسده طب نفسا وقر عينا وانعم عيشا بشهادة الرسول لك بالايمان وعدوك بالنفاق يخ يخ ان عقلتها أمالك في الانبياء اسوة أمالك في الصالحين قدوة فلم تلق الله عز وجل من الحسنات الا بما افترضه اختيارا لان الله تعالى فقرا من الحسنات ثقلا من السيئات قال الشاعر

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت * ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

قال بعض الحكماء الذي رأينا مما نحب فيما نكره اكثر مما رأينا مما نحب فيما نحب * وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما أهمني ذنب امهلت بعده حتى أصلي ركعتين * السجون قبور الاحياء وشماتة الاعداء ومجربة الاصدقاء وأسعد الناس من كان القضاء له مساعدا وكان لمساعدته أهلا غلب على الكريم من بدر اليه الشماتة لؤم عوام الناس عدة لخواصهم مجي القدر يسبق الحذر من مخرمن شئ حاق به من عير بشئ ابتلي به الخلق نهب المصائب مذاكرة الرجال تلقيح لالبابها أقل ما في طلب الحيلة الخروج من الاستكانة جاني العقوبة على نفسه أعظم جرما عليها من المعاقب له عليها قرابة بغير منفعة بلية عظيمة النعمة متعة كفاك أدبا لنفسك ما كرهته من غيرك الحمية شؤبوب الجهل الا لفة قوام السفه قل أنف لم يعقب ذلا الغادر كين لا يؤمن من ازدحام الكلام مضلة الصواب عجلوا القرى قبل سوء الظن والحاق السبة أعجب ما في هذا الانسان قلبه وله مواد من الحكمة واضداد من خلافها فان سنح له الرجاء اذله المطمع وان هاج به الطمع أهلكه الحرص وان ملكه اليأس قتله الاسف وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ وان استعد بالرضا نسي التحفظ وان ناله الخوف شغله الحذر وان اتسع له الامن استلبته الغرة وان حدثت له نعمة أخذته العزة وان امتحن بمصيبة فضحه الجزع وان أفاد مالا أطغاه الغنى وان عضته فاقة أشغله البلا وان اجهده الجوع قعد به الضعف وان أفرط في الشبع كظته البطنة فكل تقصير به مضر وكل افراط له مفسد أفضل القول بديهة امرئ وردت في مقام خوف أشد الناس غما الذي يرى غيره في الموضع الذي هو فيه أولا ما أخذ الله طاقة أحد الا رفع عنه طاعته من العجب ان لا ترضى عمن ابتغى رضاك وأعجب من ذلك ان تسخط عليه زئير الاسد يشبه صولته علامة العلم العمل بالاعراض عند المنادهة لا تعادوا حتى تروا لا تفخروا حتى تفعلوا لا تأنفوا حتى تظلموا أوجه الشفعاء براءة الساحة من لزم الصحة والاستقامة لزمته الغبطة والسلامة قصص الاولين مواعظ الآخرين البحث

قوله بالاعراض عند المنادهة هكذا في النسخة التي بأيدينا ولم يظهر معناه فليحرر

يونع الحق كما يورى النار القدح ليس مع الحسد سرور ولا مع الحرص راحة ولا مع السخط غناء (قال جعفر بن محمد الصادق) عجبت لمن بلى بار بع كيف يغفل عن أربع لمن ابتلى بالضر كيف يذهب عنه أن يقول مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين والله تعالى يقول فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وعجبت لمن بلى بالغم كيف يذهب عنه ان يقول لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين والله تعالى يقول فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين وعجبت لمن خاف شيأ كيف يذهب عنه ان يقول حسبى الله ونعم الوكيل والله تعالى يقول فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء وعجبت لمن مكر به كيف يذهب عنه أن يقول وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد والله تعالى يقول فوقاه الله سيآت ما مكروا وعجبت لمن أنعم عليه بنعمة خاف زوالها كيف يذهب عنه أن يقول ولولا اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة الا بالله كذا سنة الله سبحانه فيمن صدق فى التجائه اليه ولم يتوكل فى مهماته الا عليه * اليمين مأثمة أو مندمة ألد الموارد منجاة من متالفة أو قدوم غائب بعد أن جاءت بالياس منه الركائب وأشر المصادر ظفر على قنوط الطبيعة مخالفة للمروءة فاصبر لحق وجب عليك وان خالف هواك بهاء المجلس الشريف بالرجل الفاضل اليقين راحة وروح العمل الباقى بالرجل المدبر كبهاء الياقوت واللؤلؤ فى تيجان الملوك ما أنور الهدى ما أظلم العمى ما أكرم التقى ما أخدع الهوى ما أسرع البلا ما أجلد الصبا الجود أن يهضم الروح حظ الجسد والاسراف ان يهضم الجسد حظ الروح والعدل ان يعطى كل واحد منهما حظه والشح أن تكف حظوظهما عنهما عدو يحاف الله فيما تكره خير من صديق لا يخافه فيما تحب من العجب أن تطلب فى صحة كل علم ما يقعدنا ونكل العلم الى الله تعالى من غير بحث عن صحته لا يرعك الباطل مما ترى به ولكن احذر ان يصدع عليك بالحق فيشهد عليك عيناك ووجهك من بطل رشاؤه بطل متعه الراغب فقير بقدر رغبته الحق يعطى ويمنع تجاوز عن ذنوب الناس لتحج عليهم واجتنب الذنوب لتقل حجتهم عليك الفراغ الناضل عن الحمام مفسدة الحمية احدى العلتين الفرق ينسى الحجة حاجى العلية فى كلامك وسو بينهم وبين السفلة فى أحكامك موت فى عز خير من حياة فى ذل الاكفاء من كل غط متباغضون ماضاع امرؤ عرف قدر نفسه الدعة الهنية تكون بعد انقضاء العمل ان يفارق الخير صاحبه حتى يفارقه خير الناس من تواضع عن رفعة وعفا عن قدرة الحاسد يظهر وده فى كلامه ويغضه فى افعاله قاسم الصديق ومعنى العدو الرياء يفسد العلانية والعجب يفسد عمل السريرة اذا كثرت القدرة قلت النهوة من عرف قدره كفاك نفسه كفى بالظفر شفيعا للمذنب الى الحليم لسان الجاهل دليل حتفه لا ظفر مع بغى ولا صحة مع نهم ولا ثناء مع كبر ولا صداقة مع شب من لم يعرف قدره فاكفه نفسك أسوق مارد ما خالف شهادة العقل قطع ظهرى وافسد الدين رجلان جاهل ناسك وعالم فاجر هذا يدعو الناس الى جهله بنسكه وهذا ينفر الناس عن علمه بفسقه من قوى هواه ضعف حزمه من ظهر غيظه قل كيده كفى بالظلم طاردا للمنفعة وداعيا للنقمة من قبل صلتك فقد باعك مروءته الهدية تفقأ عين الحكيم عفو الرأى خير من استكراه الفكر من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ومن حمد الله فقد فخر ما اكتسب بمثل الكبر من استغنى بالله افتقر الناس اليه التقصير يخذل

عن الصواب الافراط يقعمك في الخطا ثلاث خصال ما اجتمعن الا في كريم حسن الحضر واحتمال الزلة وقلة الملالة كفى مخبرا عما بقي ما مضى وكفى عبرا لذوي الالباب ما جروا التهاون بالمطلوب أول اسباب حرمانه الشبه ظلمة لن يضيع امرؤ صواب القول حتى يضيع صواب العمل خير الامور ما سر عاجله وحسنت عاقبته لا شرف مع سوء أدب ولا بؤس مع شح ولا اجتناب محرم مع حرص ولا محبة مع زهو بالة الفكر يستخرج الرأي المصيب وبحسن التأني تدرك المطالب وبالنصفة يكثر المتواصلون الفاحشة عار الابد وعقوبة عقد الشماتة تعقب الندامة من سخر ابتلي قال الله تعالى ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون اذا فقد المتفضلون هلك المتجملون رب صيانة غرست من لحظة وحرب جنيت من لفظة ما شاهد على غائب يادل من طرف على قلب شر المال مالا ينفق منه أفضل المال ما صين به العرض وبالافضال تشرف الاقدار الذي يكون سببا لفساد نفسه أذل ممن يفسده عدوه أو دهره لا تعدن وديعة مالا الشهوة رق الهر يصرعلى الانسان اللسان وعلى المودة العينان لا شرف أعلى من الاسلام ولا كرم أغلى من التقوى ولا شفيع أغنى من التوبة أولى الناس بامر من حافظ عليه الخير موضوع لمن أراده موفور لمن عمل لله الرغبة مفتاح الطلب ومطية الحسرة الحرص داع الى الحرمان التنفل بالحسنة ينفي السيئة المكافأة بالسيئة دخول فيها البغي سائق الى الحين اصلاح الرعية انفع من كثرة الجنود حق المذموم التأنيب وحق المرحوم المعونة من الجهل والجفاء اظهار الفرح عند المحزون المحزون يحقد على الفرح ويشكر للمكتئب من ظل السلامة تدب أفاعي الآفات أعظم الناس قدرا من لم يجعل الدنيا لنفسه قدرا ما أحدث محدث بدعة الا ترك بها سنة عزائم الامور خيارها ومحدثاتها شرارها الملك يكتسب من انفاقه والعامة تنفق من تكسبها من أفنى عمره في جمع المال مخافة العدم فقد أسلم نفسه للعدم (قال الشاعر) ومن ينفق الساعات في جمع ماله * مخافة فقر فالذي فعل الفقر

من لم يقدر على جمع الفضائل فلتكن فضائله ترك الرذائل اذا لم تكن ملحا تصلح فلا تكن ذبابا تفسد استصلاح بعض العدو وأفضل من اهلاكه من سعادة المرء ان يطول عمره ويرى في عدوه ما يسره خير الكتب ما اذا أعدت فارته النظر فيه زاد حسنه أو وقف على خيره أثقل الاحمال من اتسعت مروءته وقلت مقدرته استحى من الله بقدر قربه من عقلك وأطعه بقدر حاجتك اليه وخفه بقدر قدرته عليك واعصه بقدر صبرك على النار واعمل للدنيا بقدر بقائك فيها واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها الملك ينفق ليكتسب والعامة تكتسب لتنفق الطاعة بقدر الفاقة يفحش زوال النعم اذا زال معها التجمل أولى الامور بك اوجبها عليك الدنيا العافية والشباب الصحة اذا أقبل الامر أسر به واذا أدبر صرح اذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية واذا جار لم يملك منهم الا الرياء والتصنع الصدقة من سعة وابدأ بمن تعول اذا أضرت النوافل بالفرائض تركت النوافل وقدمت الفرائض قدر الرجل على قدر همته وصدقته على قدر مروءته وشجاعته على قدر أنفته وعفته على قدر غيرته من أطاع الواشي ضيع الصديق ومن جعل لنفسه حظا من حسن الظن روح قلبه شر مالك مالزمك اثم مكتسبه وحرمت منفعة انفاقه رب مغبوط بليلة قامت بواكيه في آخرها لا ترج خير من لا يرجو خيرك ولا تأمن جانب

من لا يأمن جانبك تاركا الطلب ضجرا ارجى للعودة من تاركه خورا ثمرات الشهوات المخازى الخصومة غرض القلب أعم الاشياء نفعا فقد الاشرار من أستكفى الكفاة كفى الاعداء خير مالك ما اغنالك وخير منه ما وقالك صولة الكريم سليمة ذنب أسد خير من رأس كلب بجبهة العير يفدى سافر الفرس من استبد برأيه خفقت وطأته على اعدائه اغنالك من دنياك ما أصلحت به مثواك من أمن الزمان خانه ومن تعزز عليه اهانه كما يجب ان تكون المرآة أضوأ من الناظر فيها فكذلك يجب ان يكون المؤدب أفضل ممن يؤدب من ترك العمل بما ينبغى عومل بما لا ينبغى ليس فى الشراسوة ولا فى الخطا قدوة ان تكون لله ناصحا حتى تحب عدوك اذا أطاع الله فى عداوتك على عداوته وتقلع عما عاد الله عليه وتبغض وليك اذا عصى الله فى موالاتك وتنزع عما والاه عليه لا تكن على الاساءة أقوى منك على الاحسان الشقى من جمع لغيره وضيق على نفسه شر أخلاق الكريم أن يمنع خيره من كانت الآخرة رأس ماله كانت الدنيا ربحه ومن كانت الدنيا رأس ماله كانت الآخرة خسارته أفضل العلم وقوف الرجل عند غلبه أفضل المال ما قضيت به الحقوق البدع نفاخ مخبوءة قد علقت عليها ألفاظ ظاهرة رجاء العامة أمنية على ضلالة ورجاء الخاصة يقين على ثقة القليل من الملك كالكثير من غيره عطاء الملوك زينة وسؤاله شرف وفى الامثال جاور بحرا أو ملكا اذا كذب السفير بطل التدبير اخيث الازمنة زمن لا يتميز فيه الصواب لا تعطوا فى الفضول ما خفتم العجز عن الحقوق الآذان اقماع تؤدى والقلوب قوابل تحى من أحب أن يسمى داهيا لم يظهر دهاءه لا دليل اهدى من التوفيق الجلاء البلاء من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن الحفظ قيد العلم المدارسة اذكاء للفهم المقايسة احياء الفطن استدم النعمة بالشكر والقدرة بالعفو والطاعة بالتألف والنصر بالتواصل لله والرحمة للخلق استقلال الكثير تعرض للتغيير ثلاثة اشياء تدل على عقول أربابها الكتاب يدل على عقل كاتبه والرسول يدل على عقل مرسله والهدية تدل على عقل مهديها لم يحكم على العقول حاكم كالعبر ولم يحكمها محكم كالتجربة من عاب سفلة فقد رفعه ومن عاب سيدا فقد وضع نفسه أحق الناس أن يؤمن على الدنيا أهل الآخرة صح من صحت سرائره وسقم من سقمت ظواهره بالكلام يعرف فضل العقل كما بالرسول يعرف قدر المرسل ملاك أموركم الدين وعصمتكم التقوى وزينتكم الادب وحصن أعراضكم الحلم اذا أعطيت ما لا ترضى فارض بما أعطيت كلما ازداد الخير كثرة كان الخارج منه اشد حسرة وبقدر السمو فى الرفعة تكون وجبة الوقعة الابقاء على العمل أشد من العمل من التوقى ترك الافراط فى التوقى وتوريث الحرمة والذمام سنة فى المروءة كما ان وراثة التركة فريضة فى الديانة لا تمدن امرا بأكثر من قدره فتكون مهينا لنفسك كذابا على غيرك لا تفرحن بسقطة عدوك فانك لا تدرى متى يحدثها الزمان بك من الجفاء الكلام فى الامر الجسيم من غير مشاورة أكثر الناس مخادعة لنفسه فى أمر جسده عند الحمية وفى أمر مروءته عند الشهوة وفى أمر دينه عند الشبهة المصائب بغتات العاقل المدبر أربى من الاحمق المقبل أشرف الصنائع ما لم يكن مكافأة لماض ولا رجاء لباق أرض النظير ثم كافئه وآنس الملهى ثم استمع منه لم تكن غواية ولا هداية الا واليها ما سابق وعنها ما ناكص احسانك الى الحر يحرضه على

المكافأة واحسانك الى الخسيس يعنه على معاودة المسئلة ليس يحسن الاديب بأن يكون فاعلا للخير انما يحسن بأن يكون تاركا للشر من صنع معك خيرا فاضعفه له والا فلا تعجزان تكون مثله الاشرار يتبعون مساوى الناس و يغفلون عن محاسنهم كما تسع الذباب المواضع النغلة من الجسد ويدع صحيحه الظرف فطنة مازجتها عبادة مع حذر وتوق فاذا خلت الفطنة من التوقى فصاحبها لا يستمتع به أهل المروأة واذا خلت الفطنة من العبادة وقارنتها فصاحة فصاحبها غير طيب الظرف الالفاظ التى يرتفع عنها أهل الجلالة من المخلصين فى باطن الدنيا والمترفين فى ظاهر الحال (وسمعت القاضى) أبا العباس الجرجانى رحمه الله بالبصرة يقول أول من نطق بهذه الكلمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وذلك انه أتى بسارق فقال له أسرقت قل لا فقال الرجل لا فقال عمر انك لظريف جهد البلاء الاقلال والعيال ينبغى للعالم ان يتطامن للجاهل بقدر ما رفعه الله عليه العقل أفقر الى الحكمة والادب من الجسد الى الطعام والشراب أعظم الناس غما من زالت نعمته وبعثت شهوته وضاقت مقدرته قلة العيال احد اليسارين معالجة الموجود خير من انتظار المفقود من عدم الحياء عند الفضيحة والصبر عند النصيحة سهلت عليه المعاصى كلها العالم مثل السراج من مر به اقتبس منه من تقدم بحسن النية نصره التوفيق لن تكون لله ناصحا حتى تحب أن يكون عدوك مطيعا من اذى الناس بلا سلطان كان مصيره الى الهوان ما دخل بما ليس فيك مخاطب لغيرك بجوابه وثوابه ساقطان عندك المكر والخديعة فى النار الاحداث تأتى من على ما منه يؤتى الحذر المأكول للبدن والموهوب للمعاد والمحفوظ للعدو ومن غضب على من لا يقدر على نحمه عذب نفسه واشتد غيظه اطلب ما يعنيك واترك ما لا يعنيك فان فى ترك ما لا يعنيك دركا ما يعنيك من انكا الاشياء لعدوك انك تريه انك لا تعاديه كل آت قريب الاستغناء عن الشئ خير من الاستغناء به ومن خير خبران تسمع بالمطر لا تخرج يمازول ولا غنى فيما لا يبقى شر العيوب ما كان معينا على العيوب شر الذنوب ما كان علة للذنوب أبلغ الرسل الكتب حاول الامور بالنصفة وأنا زعيم لك بالظفر من أراد جمالا لا تهدمه الايام فليصحب المروأة والصيانة فهما ذورة الشرف رب امر له ما بعده من سبق اليك كان له صفوه من شروط المروأة التغابن للضعيف المروأة ترك الريبة يكاد استقضاء القوى على الضعيف أن يكون ظلما يكاد استيفاء الغنى من الضعيف ان يكون جورا القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق أوله حكم وآخره علم المحادثة على الطعام تزيد فى الشهوة وتذهب الحشمة وتزيل الانقباض لن تنال ما تحب حتى تصبر على كثير مما تكره ولن تنجو مما تكره حتى تصبر عن كثير مما تحب ذهاب البصر خير من كثير من النظر لا تعد العزم عزما اذا ساق غما مع الرأى الاول الوهم النظرة بعد النظرة تعقب لما قبلها وتزيد لما بعدها ليس مدح الرجل بما فيه تزكية انعم الناس ممن كفى أمر دنياه ولم يهمه دينه الغريب من فقد اخوانه وتطراءه وان كان فى وطنه الغريب من لا صديق له الغريب الفقير الغريب الاحمق الغريب من لا ناصر له شيآن لا يستحى العاقل منهما المرض وذو القرابة الفقير من كانت الدنيا سبب صلته فانها سبب قطيعته فاحذران تجعلها وسيطا بينك وبين أحد علامة الاشرار أن من خالطهم لا يسلم منهم

ومن تركهم لا يصرفوا شرهم عنه وأما الاخيار فمن خالطهم ربح عليهم ومن غالطهم ترك رشده
البر ثلاثة الصدق في الغضب والجود في العسر والعفو عند القدرة من عتب على الزمان
طالت معتبته ستساق الى كل ما أنت لاق اذا صحب الارتياد الرشاد وجد المراد ما أعتق
من الذم من ملكه الجهل ولا ظفر بالعز من احتمل ما في المعصية من الذل ولا خرج من الدناءة
من صرف جميع عقله الى الدنيا اخو الظلام مريب المسئلة آخر المكسبة ما عدم من أهل
الحجى من كان من أهل الهوى ولا كان من أهل التقى من حاد عن سبيل الهدى من ذم أدنى
الاحسان لامتناع اقصاه لم يحمد شيأ منه من دواعي الهلكة اضاعة المعرفة واعجب لمن يبني
داره وجسمه يهدم ولمن يبرم أمور الدنيا وامور في نفسه تختل (قال علي رضي الله عنه) من
لم يكن معنا كان علينا والساكت اخو الراضي الكاتم للعلم كمن لا علم له أو هو غير واثق فيه
بالصواب المرء مخبوء تحت لسانه قيمة كل امرئ ما يحسن العلم يعافى المصيبة من الثواب
ينسي المصيبة شر من المصيبة سوء الخلق منها الحكمة ربيع القلوب الخصومة تكشف
العورة وتورث المعرة بلاء المؤمن من عافيته كالنار حر يقها من نورها قد يكون اليأس
ادراكا اذا كان الطمع هلاكا من لم يرفع نفسه عن قدر الجاهل رفع الجاهل قدره عليه الذلة
مع القلة تجوع الحرة ولا تأكل بثديها موت عاجل خير من ضنى آجل الغضب عند
المناظرة منساة للحجة الاختصار أثبت للمتكلم وأفهم للسامع الكلب في الحاضرة ينبح الضيف
ويدفع الزائر ويرد السائل والكلب في البادية يعين الصاحب وينذر بالضيف ويدفع
السارق لا تغتر بقول الجاهل لك ان في يدك لؤلؤة وأنت تعلم انها بعرة مثل الصلاة مع سائر
العبادات مثل السفينة مع جميع من فيها ان سلمت سلم الكل وان أصيبت أصيب الكل الحب
والبغض فتنة طلب المطمع حزم وطلب المؤيس عجز قد ينظر المنطق من يعنيه اذا فسد
الزمان كسدت الفضائل وضرت ونفقت الرذائل ونفعت وصار خوف الموسر أكثر من
خوف المعسر لقاء أهل الخير عمارة القلوب لا يصيد الكثير من لا يصيد لنفسه الواحدة بالعمل
يحسن المنطق وبالقوة يتم العمل الفكرة مرآة من أعظم الناس من قل ماله وكثر مجده
الادب مع العقل كالشجرة المثمرة والعقل بلا أدب كالرجل العقيم الماء ألين من القول
والقلب أقسى من الحجر وقد يثلم الماء الحجر اذا كثر انحداره عليه اشد الاشياء اخفاء الفاقة
أولى الناس بالرحمة عالم يجري عليه حكم جاهل لم يغب من شهد رأيه ولم يفن من بقي أثره ولم يمت
من خلد علمه وقد سبق المثل ليس بهالك من ترك مثل مالك كما انه قبيح اذا ركبنا الخيل أن
تجري بنا حيث أرادت دون أن ندبرها كذلك قبيح أن يجري البدن والنفس بالعقل حيث
أرادت من الشهوات أشق الامور معرفة المرء بنفسه عاتب الجشع عليه محجوج ليس شئ
من البر الا ودونه عقبة من الصبر ضرب الانسان عار باق ووتر مطلوب (قيل للحكيم) هل للغضب
مادة تحسمه قال نعم أن يعلم الانسان انه ليس يجب أن يكون مطاعا أبدا ولا يجب أن يخدم أبدا
ولا يجب أن يحفل خطؤه أبدا ولا يجب أن يصبر عليه أبدا بل قد يطيع ويخدم ويحمل الخطا
ويصبر على النوائب فاذا عقل ذلك لم يغضب وان غضب فقليل السعيد من وعظ بغيره والشقي
من وعظ بنفسه لا تنفع كثرة العلم لمن لا يعمل كما لا يغني ضوء الشمس عمن لا يبصر رضي بالذل

من كشف ضره بترك التورع وأزرى بنفسه من استشعر الطمع البدع فخوخ يستترها زخرفة الكلام وخدع المال الناس فى الدنيا بالاخوان وفى الآخرة بالاعمال صديق الرجل عقله وعدوه حمقه من اجتمعت اليه النعمة أديمت له الرغبة يحفظ الاحمق من كل شئ الا من نفسه لاجود الاعمال ولاصداقة الابوفاء ولافقه الابورع العليل الذى يشتهى أرجى من الصحيح الذى لايشتهى قلوب الرجار وحشية فمن تألفها أقبلت عليه اجعلوا بينكم وبين الحرام سترة من الحلال لقاء الرجل احلاه ملاقاتهم من لم يصلح على تدبير الله لم يصلح على تدبير نفسه والاحلام فرح وهم كاذب والعامل بها كالمعتمد على الظل الزائل الدنيا دول فما كان منها لك أتاك وما كان عليك لم تقو على دفعه العافية خير من الواقية الكريم لا يستحى من اعطاء القليل العفاف زينة الفقير الكرم حسن القطنة واللؤم سوء التغافل اختلاف كلام المرء دليل على ميل الهوى به من حق النعمة أن يرى أثرها من كان شبعه فى الطعام لم يزل جائعا ومن كان غناه فى المال لم يزل فقيرا ومن كان قصده بحوائجه الخلق لم يزل محروما ومن استعان فى أمره بغير الله لم يزل مخذولا من خاف من فوقه خافه من تحته ومن لم يخف من فوقه لم يخفه من دونه ما قصدته وما تعمل به لغيرك نوره وعليك بوره واعجبا لمن يختار الذلة فى طلب ما يغنى على العز فى طلب ما يبقى من حذرك كمن بشرك التضييع جناح الطالب اذا أقبلت الدنيا عليك فانفق منها فانها لاتفنى واذا أدبرت عنك فانفق منها فانها لاتبقى قال الشاعر

فانفق اذا أيسرت غير مقتر * وانفق على ما خلت حين تعسر
فلا الجود يفنى المال والحظ مقبل * ولا البخل يبقى المال والحظ مدبر

(ولغيره)

لاتبخلن بدنيا وهى مقبلة * فلن يضرك بها التبذير والسرف
وان تولت فاحرى ان تجود بها * فالشكر منها اذا ما أدبرت خلف

الغريب فى كل مكان مظلوم من سلك الحذار أمن العثار لم يحر راكب القصد عجبا للئيم يستعجل الفقر الذى منه هرب ويفوته الكرم الذى أتاه يطلبه فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء ويحاسب فى الآخرة حساب الاغنياء من يطل ذيله يكثر ويله (وقال على رضى الله عنه) ما يظل فعل الله ينطق به غنك خير من سمين غيرك ان احببت ان لايفوتك ما تشتهى فاشتهه ما يمكنك من قصد اسهل ومن أسرف أوعر القصد اخو الحمام شر السير الحقيقة بوئ لنفسك فى المجالس مجلسا لايقصر بك ولاتقام عنه اقطع الشر من صدر غيرك يقطعه من صدرك وازجر المسئ بأثابة المحسن لكى يرغب فى الاحسان ان يهلك من مالك ما وعظك الخلاف يهدم الرأى خير الناس لغيره خيرهم لنفسه احسان الله مكفور عند من أصبح مصرا على ذنب مستور يصير الخلق خلقا بالاجتهاد والاعتياد الحجر العصب فى البنيان رهن على الخراب ربما شرق شارب الماء قبل ريه رب راى انفع من مال وحزم أوقى من رجال من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام من ذم الزمان لم يحمد الاخوان بتقلب الاحوال تعلم جواهر الرجال من عرف الزمان لم يحتج الى ترجمان من عرف الايام لم يغفل عن الاستعداد رسولك ترجمان عقلك الطاعة عنيمة الاكياس عند تفريط العاجز كلما اشتد الظلام حسن ضوء السراج

الثناء با كثر من الاستحقاق ملق والتقصير عن الاستحقاق عمى أو حسد أولى الناس بالرحمة من احتاج اليها فحرمها من لم يدر قدر البلية لم يرحم أهلها كفاك أدبا لنفسك ما كرهته لغيرها مجالسة الاحمق غرور والقيام عنه ظفر لا تسأل عما لم يكن فان فى الذى كان شغل البخل جامع لمساوى العيوب وهو زمام يقادبه الى كل سوء اذا صح القلب وصح العمل كان التوفيق احرازا لمواقب بالاجتهاد والاجتهاد ربح بضاعة التوفيق خير قائد كمال العمل التوفيق من ترفق فى استتمام الحظ من البغية أدرك وبلغ مقاربة الناس فى اخلاقهم امن من غوائلهم لا تنظر الى أحد بالموضع الذى رتبه فيه زمانه ولكن انظر اليه بقيمته فى الحقيقة فانها مكانه الطبيعى أبعد الناس سفرا من سافر فى طلب أخ صالح ليست البركة من الكثرة لكن الكثرة من البركة (وقال داود عليه السلام) ان كان ما ترى من الجهل يغيظ اذن يكثر الجهل ويطول غمك (قيل لبزرجمهر) مالكم لا تعاتبون الجهله قال لانا ما نريد من العميان ان يبصروا العشق مرض نفس فارغة لا همة لها اجالة الفكرة واستخراج الفطنة تتبع الاساءة بالندم وتتبع الندم بالاقلاع الامن بالبراءة وكثرة الصديق بالتواضع وأعم الاشياء نفعا فقد الاشرار من بذر عداوة حصد ندامة السمنة للنساء خلة وللرجال غفلة (قال المسيح) عليه السلام ما حلم من لم يصبر عند الجهل وما قوة من لم يرد الغضب وما عبادة من لم يتواضع للرب سبحانه عبادة النوكى المجىء فى غير وقت والجلوس فوق القدر اذا وقعت الضرورة ارتفعت المشورة (قيل لحكيم) أخرج الهم من قلبك قال ليس باذنى دخل من اغتر بحاله قصر فى احتياله اياكم وطلب الامور من غير وجهها فيعنيكم طلبها ولا تدركوا حظا منها هيبة الرجال توقر الحصر (قيل للحكيم) لاى شئ تزوجت امرأة دميمة وأنت وسيم قال اخترت من الشر اقله (وقيل لحكيم) ما تقول فى الرواح قال لذة شهر وهم دهر فتنة عالم الى ابليس خير من غواية ألف جاهل تمنى المعاتب ولا تمنى المعاذير الموالاة فى الاسلام بمنزلة الحلف فى الجاهلية سب الجاهل للحكماء تشريف لهم عند أهل الفضل لان الجاهل منسوب الى فعله وكما ان الحكيم يتألم بحديث الجاهل كذلك الجاهل يتألم بسماع الحكمة اغنى الناس عن الحقد من عظم قدره عن المحاذاة الكبير الهمة من الرجال من كان عنف الناصح عنده الطف موقعا من ملق الكاشح ان كانت الجدود هى الحظوظ فما بال الحرص وان كانت الامور ليست بدائمة فما بال السرور وان كانت الدار غدارة فما بال الطمأنينة (وقال الشعبى) ما رأيت الله سبحانه وتعالى أعطى عباده أجل من الحلم (وقال عمر بن الخطاب) رضى الله عنه خمس من لم تكن فيه فلا ترجه لشئ من أمر الدنيا والآخرة من لم تعرف الوثيقة فى أرومته والدماثة فى خلقه والكرم فى طبعه والنبل فى نفسه والتحاقر عند ربه (قال أبو عبد الله بن حمدون) كنت مع المتوكل لما خرج الى دمشق فركب يوما الى رصافة هشام بن عبد الملك فنظر الى قصورها ثم خرج فرأى ديرا قديما هنالك حسن البناء بين مزارع وانهار وأشجار قد تعلل فيها هو يطوف اذ بصر برقعة قد الصقت فى صدره فامر بقلعها فاذا فيها هذه الابيات

أيا منزلا بالدير أصبح خاليا * تلاعب فيه شمأل ودبور
كأنك لم يسكنك بيض أوانس * ولم يتحترق فى فنائك سور

وأبناء أملاك غوانم سادة * صغيرهم عند الاله كبير
اذا لبسوا ادراعهم فعوابس * وان لبسوا تيجانهم فبدور
على انهم يوم اللقاء ضراغم * وانهم يوم النوال بحور
ليالى هشلم بالرصافة قاطن * وفيك ابنه يادير وهو أمير
اذا العيش غض والخلافة لذة * وأنت طريب والزمان غرير
وروضك مرتاد ونورك مزهر * وعيش بنى مروان فيك نضير
بلى فسقاك الغيث صوب سحائب * عليك لها بعد الرواح بكور
تذكرت قومى فيك فبكيتهم * بشجو ومثلى بالبكاء جدير
فعزيت نفسى وهى نفس اذا جرى * لها ذكر قومى انه لزفير
لعمرك ما ناجار يوما عليهم * لهم بالذى تهوى النفوس بدور
فهم فرح محزون وينعم بائس * ويطلق من ضيق الوثاق أسير
رويدك ان الدهر يتبعه غد * وان صروف الدائرات تدور

فلما قرأها المتوكل ارتاع وتطير وقال أعوذ بالله من شر اقداره ثم دعا صاحب الدير فسأله عمن كتبها فقال لا علم لى به وأما الكتب وصفاتها فتجل عن الوصف وانشد أحسن ابن الجهم فى قوله

سمير اذا جالسته كان مسليا * فؤادك عما فيه من ألم الوجد
يفيدك علما أو يريدك حكمة * وغير حسود أو مصر على الحقد
ويحفظ ما استودعته غير غافل * ولا خائن عهدا على قدم العهد
زمان ربيع فى الزمان بأسره * يبيحك روضا غير ذاو ولا جعد
ينور احيانا بورد بدائع * أخص وأولى بالنفوس من الورد

وأنشد بعض العجم

اذا ما خلا الناس فى دورهم * بخمر سلاف وخود كعاب
وأنسهم فى ظلام الليال * لعير النداى وريح السحاب
خلوت وصحبى كتب العلوم * وبيت العروس بيت الكتاب
ودرس العلوم شراب العقول * فدوروا على ّ بذاك الشراب
وما يجمع المرء فى دهره * سوى العلم يجمعه للتراب

ومن مليح ما ينشد فى الكتب

اذا ما خلوت من المؤنسين * جعلت المؤانس لى دفترى
فلم أخل من شاعر محسن * ومن علم صالح منذر
ومن حكم بين أثنائها * فوائد للناظر المفكر
وان ضاق صدرى بأسراره * وأودعته السر لم يظهر
وان صرح الشعر باسم الحبيب * لم أحتشمه ولم أحصر
وان عدت من ضجر بالهبا * وسب الخليقة لم أحذر

ونادمت فيه كرم المغيب * لندمائه طيب المخبر
فلست أرى مؤنسا ماحييت * عليه ندمنا الى المحشر

وأنشد ابن حزم لبعض الادباء

ان صحبنا الملوك تاهوا علينا * واستبدوا بالرأى دون الجليس
أو صحبنا التجار عدنا الى الفقـ * ـر وصرنا الى حساب الفلوس
فلزمنا البيوت تخذ الحبر وغلا به وحوة الطروس
لو تركنا وذاك كنا ظفرنا * من أمانينا بعلق نفيس
غير ان الزمان أعمى بنيه * حسدونا على حياة النفوس

وأنشد غيره

أنست الى التفرد طول عمرى * فعالى فى البرية من أنيس
جعلت محادثى وندىم نفسى * وانسى دفترى بدل العروس
فما استغنيت عن فرسى برجلى * اذا سافرت أو نعل كبوس
ولى عرس جديد كل يوم * يطرح الهم فى أمر العروس
فبطنى سفرتى والخرج جسمى * وهمياتى فى أبدا وكيسى
ويبقى حيث يدركنى مسائى * وأهلى كل ذى عقل نفيس

ولئن كان الناطقون قد وصفوا الجود وقالوا فابلغوا فلقد قصروا وأجل ممدوح من استقصر فى مدحه المنتهى واستنزر فى تفريطه المحتفل وكيف لا والكتاب نعم الانيس فى ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل وعالم ملى علما وظرف حشى ظرفا واناء ملى مزاجا وحبذا بستان يحمل فى ردن وروضة تنقلب فى حجر هل سمعت بشجرة تؤتى كلها كل ساعة بألوان مختلفة وطعوم متباينة هل سمعت بشجرة لا تذوى وزهر لا يتوى وغمر لا يفنى ومن لك بمجلس يفيدك الشئ وخلافه والجنس وضده ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحيا ان غضبت عليه لم يغضب وان سخطت عليه لم يجب اكتم من الارض وانم من الريح والهى من الهوى واخدع من المنى وامتع من الضحى وانطق من سحبان وائل واعيى من باقل هل سمعت بعالم واحد تحلى بحال كثيره وجمع أوصافا غزيره عربى فارسى هندى سندى رومى يونانى ان وعظ أسمع وان الهى أمتع وان ابكى أدمع وان ضرب أوجع يفيدك ولا يستفيد منك ويزيدك ويستزيدك ان جد فيسر وان مزح فنزهة قبر الاسرار وحرز الودائع قيد العلوم وينبوع الحكم ومعدن المكارم ومؤنس لا ينام يفيدك علم الاولين ويخبرك عن كثير من أنباء الآخرين هل سمعت فى الاولين أو بلغك عن أحد من السالفين جمع هذه الاوصاف مع قلة مؤنته وخفة محمله لا يرزأك شيأ من دنياك نعم الذخر والعدة والمستغل والحرفة جليس لا يضربك ورفيق لا يملك يطيعك بالليل طاعته بالنهار ويطيعك فى السفر طاعته فى الحضر ان أدمت النظر اليه أطال امتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بنانك وفخم الفاظك ان الفتة خلد على الايام ذكرك وان درسته رفع فى الخلق قدرك وان حملته قوته عند هسم باسمك يقعد العبد فى مقاعد السادة ويجلس السوقة

في مجالس الملوك ما كرم به من صاحب واعز به من مرافق وقد قال فيه الاول

لنا جلساء ما نمل حديثهم * الباء مأمونون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى * ورأيا وتاديبا وعقلا مسددا
بلا فتنة نخشى ولا سوء عشرة * ولا نتقى منهم لسانا ولا يدا
فان قلت أموات فما أنت كاذب * وان قلت احياء فلست مفندا

فهذا ما أردنا أن نعلق في هذا الكتاب فاكتبوا ان شئتم انقاسه ان كانت الانفاس مما يكتب

(قال المتوسل الى الله سبحانه بخير من وطئ البساط طه محمود قطرية المنسوب نشأة الى دمياط المصحح بدار الطبع أدام الله جمال سلوكه بدوام السماء ذات الرجع والارض ذات الصدع)

الهنا ياذا الحنان ويا نافذ الحكم وغالب الامر وقوى السلطان بسلطان مجدك اعتزت كلمة أوليائك ونفذ أمرك في اهل أرضك وسمائك سبحانك وبحمدك أدلت الكون على ما رضيت ان يكون العباد وليت الامرة من تحقق بعزيد الصلاحية والقيام بحق السداد وانطت اقام الدين ونظام الدنيا بمن أصبح به لواء العزة بك منشورا وجعلت نفوذ الكلمة ميسورا ما كان الامر بين أهله شورى واقمت أساس المنعة والبأس على عماد الاستنصار بقيوم أمرك وديوم ملكك القائم على كل نفس ولك الشكر حتى تزلف لنا به من عنايتك غرف الاقدار على طاعة أهل حكمك وولايتك والبراءة اليك من شرة النفس الابية والعياذ بك من ذل الهوى وظلم الطبع الذي يستفز الحمية حمية الجاهلية ثم الصلاة على سيد خلقائك في الارض وامام أوليائك القائم بأمرك في الابرام والنقض محمد سراج ملوك الهدى الحاض عليك وتاج ملائك السير الى رضاك والداعي باذنك اليك وعلى آله رؤساء دولة الفتح المبين وأصحابه القائدين يا موالهم وأرواحهم عن كلمة الحق مخلصين له الدين وسلم اللهم تسليما واهدنا بهم صراطا مستقيما هذا وان الكتاب الجليل الغني بوضوح فضله عن الاجمال في مدحه والتفصيل المسمى سراج الملوك كتاب لم يغادر من آداب الاخلاق وبدائع النصائح والامثال الرقاق من مفعول ولا متروك وكيف لا وهو لواحد العصر من له في تنائف المعارف الجمع والقصر من الى ضرب امثاله اليه روحي وجوشوشي الامام العلامة محمد بن الوليد أبي بكر الفهري المالكي الطرطوشي فلقد جادت يده بأجل كتاب جادت به يد تصنيف واوقر سفرقات الحكمة تحت ظل تبيانه الوريف واجمع مؤلف ألف شمل الاتباء بعد انصداعها وأودع خزائن الافكار ودائع النصائح الرشاق أتم ايداعها اشتمل بشمال الابانة عن دقائق الحكم حيث اشتمل على رقائق مواعظ وأحاسن أخلاق من سلف من ملوك العرب والعجم فتسابقت في مضمار تنزيله المحكم فرسان الزواجر والعبر وسارقت الى رقة الفاظه رموز روادع الفطنة فكان من احدى الكبر لعمر الله لهو اجدران يكون لطموح الصدارة سراجا مشعلا ولوفود احسان السياسة ورقى درج الرآسة محلا آهلا محلى من ثم عنى بطبعه الابهى وتمثيله الارغد الاشهى من له في آي المكارم الفاتحة والخاتمة حضرة الفاضل الشيخ صالح محمد باعيسى رئيس التجار الحضارمة جزاه الله مزيد الاجر وبين له الخيط الابيض

من الخيط الاسود من الفجر وكان ابراء الطبع والتمثيل المصوب بالتهذيب الانيق والضبط والتحرير الوثيق المنفرد بالاصالة ما أزبدت أمواج بحر النيل بطبعة بولاق مصر التي حطت عن اعناق الاقلام وهام البنان كل عب مواصر وغردت عليها بلابل الافادة والانتفاع وسطعت من سماء ازديانها شموس الجهلة على صفحات الابصار والاسماع كيف لا وقد أوبت بها شمأل مراحم ولى كل نعمة رب المآثر المنشورة والمحامد الجمة عزيز الدنيا ومطمح أبصار العليا المخصوص بالهمة السامية والعزم المالى أفندينا اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على أيده الله بالصولة والمنعة دولته وبهج بجميل الذكر والكرامة طلعته وحرس اشباله وانجاله الذين هم انجز لوعده وأنجى له سيما الشبل الاسمى ومزنة نوء عدله الاهمى من به ثوب العدل صفيق سعادة المشير الافخم محمد باشا توفيق حفظه الله وماله من الخير مناه منوطة تلك الدار بنظر صاحب المساعى المشكورة والمكارم الغزار من به صادق الرأى يستغنى سعادة ناظر المطبعة والكاغدخانه حسين بك حسنى موصولة النظر بوكالة وكيله المهتدى بدلالته الى سواء سبيله من اذا أشارت المعارف فاياه تعنى حضرة محمد أفندى حسنى ملحوظة بعهدة ذى السعى الجميل والمقصد الاحمد جناب أبى العينين أفندى أحد موكولة التصحيح المستطاب والتهذيب والتنقيح الذى ملأ الوطاب الى رياسة ذى الفكر الثاقب والفهم المدرار حضرة المولى الفاضل الشيخ ابراهيم الدسوقى عبد الغفار ولما غرد طير الاكمال على غصون طبع صالح هذه الاعمال رحت مادحا مؤرخا حسن هذا الصنيع على لسان كل بصير بمقدارها مبيع قائلا

يد المجد قد بجت طرزها * فهل من سعيد حسا كرزها
فكم قد رأى المجد قد امرئ * تراه حصاف النهى برزها
وكم للسان العلا لهجة * تنادى ان استخرجوا كنزها
وما الناس الا امرؤ ان يذل * بدنيا ساقت له عزها
والقت اليه مقاليدها * وأدنت الى سعيه حوزها
وآخر يابى على نفسه * سما الضيم حتى يرى وخزها
يحمله الرأى ما لا يطيق * كما حملت الف همزها
وآخر أربى عليه هواه * وأمضى لفرصته نهزها
* أقام يشيب بالمنحنى * ويبيض الدمى بالحشا لزها
يقوت بذكر اياقوت ثغر * ممنعة احرزت حرزها
اذا مارنت عانت القلب منه * فهل تحسد القلب او غمزها
وان هى ماست فيا دوحة الحسن * بها عبث الدل أن هزها
يروعه بالضنا حصرها الشذى علته به لغزها
ويعجزه بالسلام العذول * يرى نفس من صابرت عجزها
وبات له ناظر قد أجاد * لابريز شهب الدجى فرزها
يقول لنجم السما راعنا * به عوز يجتدى عوزها

له مسكة من حشا وعزاء * لنفس بها ما غدا كزها
اذا نقد الصبر يا زيفها * واب بذل الوصل يا فوزها
اخا الولع اربع وجى مرأى من * عن الولع القلب قد نزها
وهات اجل لى من سراج الملوك * سناغرة او ضحت غزها
بكتاب اتانا بحق اليقين * فآتى النهى ما به ابتزها
يكاد سنا برق انبائه * يحب القلوب يرى ازها
* ابان لنا زبر الاولين * وابرز من طيها رمزها
فكم فيه من عبرة للبصير * ومن عظة تقتضى قزها
ومن حظة تستطير النفوس * لما قد دعى باغز بغزها
يورث علما بذات الصدور * ويعرو بلين الهدى ترزها
فاذا كان بالطبع من باب اولى * لتنشق منه النهى تأزها
* فلله در امرئ صالح * وصالحة فى السهى وزها
فجاء فجاءة طبع جميل * به للا مانى قضى نجزها
فلا ريب يجزى جزاء وفاقا * ومن جاء شاكلة يجزها
ومذ أفرغوا حلة الانتهاء * على طبعه المقتدى انزها
اشرت على الحال ارخ أضاء * سراج الملوك بطبع زها

٨٠٢ ٢٦٤ ١٢٧ ٨٣ ١٣

= ١٢٨٩ سنة

ووافق كمال طبعه المنير آواخر رمضان المحرم سنة التاريخ
المنظوم من هجرة البشير النذير صلى الله عليه وسلم وعلى
آله وصحبه ومن تبعهم على التى هى أقوم
ما حن مشتاق الى البكاء واشتاق
مهجور الى ابن ذكاء
والحمد لله رب
العالمين

٢